# ملامح المستقبل

@ketab_n
Follow Me
7.9.2012
ketab.me
Best Books

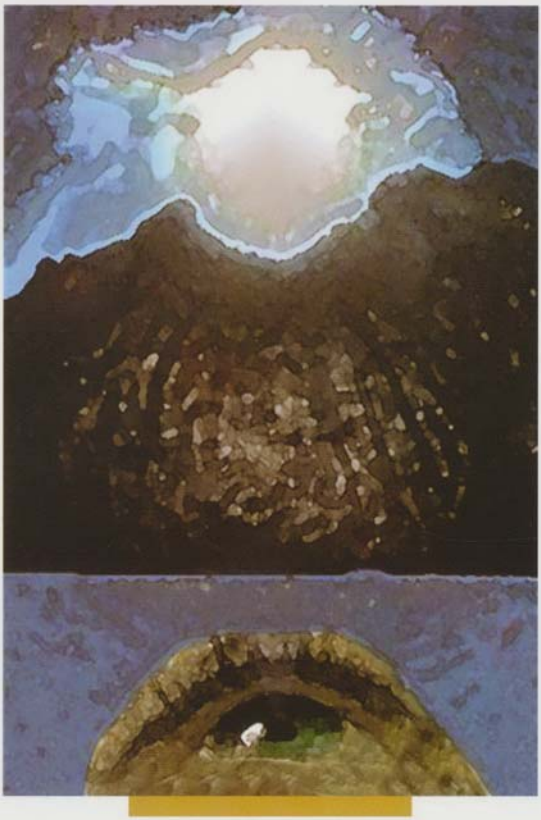

محمد بن حامد الأحمري

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

# ملامح المستقبل

محمد بن حامد الأحمري

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

Twitter: @ketab_n

# ملامح المستقبل

Twitter: @ketab_n

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

الأحمري، محمد بن حامد

ملامح المستقبل/ محمد بن حامد الأحمري.
٢٨٦ ص.
ببليوغرافية: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦.
ISBN 978-9953-533-39-1
١. دراسات المستقبل. أ. العنوان.
001

---

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للشبكة

الطبعة الثالثة عن الشبكة، بيروت، ٢٠١٠

---

**الشبكة العربية للأبحاث والنشر**

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

Twitter: @ketab_n

# الإهـــداء

إلى والديّ . . .

رحمهما الله

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# المحتويـــــات


مقدمـة ..... ١١

١ ـ رغبتنا في التنبؤ ..... ١٥

سُنّة التحول والتوسع ..... ٢٦

٢ ـ العولمة غنيمة العصر وغرمه ..... ٣١

٣ ـ روح الوعي العام ..... ٣٩

٤ ـ الحركة القومية: مكاسب الخسائر ..... ٤٣

٥ ـ نتائج التنصير ..... ٤٩

٦ ـ الإعلام ..... ٥٥

٧ ـ اللغة والمصطلح ..... ٦١

٨ ـ عالم جديد يتشكل ..... ٦٥

٩ ـ الانفتاح أم البعد عن الغرب ..... ٧١

١٠ ـ حقيقة التصادم بين الإسلام والغرب ..... ٧٥

١١ ـ الاحتلال أعلى درجات الإرهاب ..... ٨٣

١٢ ـ آثار سقوط روسيا ..... ٨٧

١٣ ـ «أفول الغرب» ..... ٩١

١٤ ـ مكان المسلمين بين المعسكرين ..... ٩٥

اصطراع الغربيين ..... ٩٨




Twitter: @ketab_n

**١٥ ـ تفجّر المشكلة الصهيونية في الغرب** ..... ١٠١
**١٦ ـ عودة الصراع الاستعماري القديم** ١٠٧
الضغط الغربي ..... ١١٠
من مشكلات المثقفين ..... ١١٢
**١٧ ـ صراع المستعمرين وتبرير الموقف** ..... ١١٥
**١٨ ـ نهاية جاذبية الغرب الفكرية** ..... ١٢١
**١٩ ـ الثقافة المقاومة** ..... ١٢٩
انتصار الثقافة الإسلامية ١٣٢
الإرهاب المقدس والإرهاب المدنس ..... ١٣٨
**٢٠ ـ تركيا وإسرائيل والنساء** ..... ١٤٣
**٢١ ـ أنموذج: تحرير تركيا من العلمانية** ..... ١٤٧
**٢٢ ـ العلمانية الحسنة والسيئة** ..... ١٥١
**٢٣ ـ تحولات المظهر والجوهر** ..... ١٥٥
التجارة ..... ١٥٨
الثروة ..... ١٦٥
**٢٤ ـ إنما العزة للكاثر** ..... ١٧١
ماذا عن المستقبل؟ ..... ١٨٣
المسلمون لا يندمجون ..... ١٨٨
**٢٥ ـ ظاهرة التضحية «بقية السيف أبقى»** ١٩١
**٢٦ ـ من كوكا كولا إلى مكة كولا** ٢٠٧
**٢٧ ـ كسب المعارك وخسارة الحرب والقيم** ..... ٢١٣
المغامرة في المكان والقيم ..... ٢١٦
**٢٨ ـ اغتراب المقاييس** ..... ٢٢١
مسألة الدولة ..... ٢٢٩



Twitter: @ketab_n

**٢٩ ـ الهواجس الدينية** ..... ٢٣١
**٣٠ ـ استهداف الأطراف** ..... ٢٣٥
الكراهية ٢٤٤
**٣١ ـ المؤسسات الدولية** ..... ٢٤٩
النفاق في التعامل مع المؤسسات ..... ٢٥٤
**٣٢ ـ التراجع المبدع** ..... ٢٥٩
**خـاتـمة** ..... ٢٦٥
«لا أمل ولا عمل» ..... ٢٦٦
الموقف من الغرب العزلة أم التواصل ..... ٢٦٩
الهيمنة أو التبعية ٢٧١
أوهام القوة والضعف ..... ٢٧٤
أوهام الضعف ٢٧٦
**المراجـع** ..... ٢٨٣



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# مقدمـــة

مفهوم المستقبل مرتبط بالتخطيط والبناء والنهضة والإصلاح والتجديد والتحرر والأمل؛ المستقبل يوسع فسحة الأمل، ويحرّض على العمل، هو الأفق الأوسع، وهو الانعتاق من ضيق اللحظة، وكآبة الحاضر، هو الخلاص من الارتهان للآني، والمزعج من المشكلات، هو الخلاص والتمرد على القيود الزمانية والمكانية وعدم الإذعان للواقع المر، والعمل الواثق المتفائل؛ «فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده».

وإذا لم يكن هناك مستقبل فلا قيمة للحظة الحاضرة، ويصبح الوجود عبثاً، ولهذا فإعطاء القيمة للمستقبل عمل مقدس، وجهت له الأديان، ونادت به الفطرة، فالعمل والتخطيط للمستقبل، لتعظيم الأرباح، وتقليل الخسائر رسالة تستحق أن يُسَخَّر لها جزء كبير من العمل والتفكير؛ وبما أن الناس يعملون دائماً باهتمام للمستقبل فإنهم يختلفون في نوع المستقبل المنشود، ومدة التخطيط له. كما أن مسافات الاستشراف من أهم مواطن التباين بين الناس، فنجد دول العالم الثالث تفكر ـ نظرياً ـ على مدى خمس سنوات قادمة، وترى في هذا عمقاً مستقبلياً بعيداً، وقد تلهّي به صحافتها ومثقفيها ومؤسساتها، بينما قد تكون الفكرة الحقيقية لها تمضية اللحظة، ثم تكتشف بعد خمس سنوات أن مشكلاتها زادت.

بينما تتحدث الدول الغربية ـ الغالبة في هذا الزمن ـ عن سيادة لمدة نصف قرن، كما يراها أمثال بريجنسكي، ويرى خصومه من المحافظين الجدد التفكير للمستقبل على مدى قرن، أو ما سمّوه «القرن الأمريكي»!! هنا نلمس فارق التفكير والهمة بين تخطيط قصير المدى، لمدة خمس سنوات، وما يناوئه ممن يتشبث بالصدارة وقيادة العالم والتخطيط لقرن قادم، فالمتمكّن من



Twitter: @ketab_n

الحاضر، وصانع القرار الآن يصمم على امتلاك قرن آتٍ، تاركاً للقادمين معالم للسيطرة على قرار قرون قادمة.

في مسيرة الأمم التي صعدت يقدح الدين شرارة التطور الأولى فتحيا الروح ثم تقوم السياسة بتنظيم الطور الثاني، ثم الاقتصاد بالطور الثالث، شيء من هذا يحدث في عالم الإسلام اليوم. وهمة للمستقبل تلوح. ثروة تفد لمناطق عديدة من العالم الإسلامي ورقي للروح، وبعض نور العقل يستبصر في الدين، وكثرة في السكان.

ولكن في الأمر مفارقة غابت عن كثيرين، ففكرة المستقبل عند الطرفين ـ على المسار الشعبي الفكري العام ـ مختلفة عن ذلك الذي نراه سطحياً وعارضاً مما سبق.. فإننا نشهد يأساً وقنوطاً شعبياً من المستقبل عند خصوم الإسلام، فالمخيلة الشعبية الغربية يستولي عليها اليأس وفقدان الأمل، كلما زاد غرورها بقوتها، والنتيجة الأظهر الآن في الغرب فكرة الحكومة طويلة المدى في التخطيط والرؤية للزمن القادم، ولكن يخنقها الواقع الشعبي الغربي اليائس وقصير الأمل، أما القرار فهو بأيدي العاملين المتفائلين بقرون غربية قادمة.

ونشاهد مقابل هذا في العالم الإسلامي ولادة هاجس جماعي فاعل ومؤثر، يحيط بالمخيلة الإسلامية المعاصرة من التفاؤل والعمل، لم يسبق له أن وجد بهذه الكفاءة والتأثير، ولا العمق والتوجه، في قلوب المسلمين، وأعني قطاعاً كبيراً منهم، لديهم فكرة ظاهرة ومؤثرة، ونظرة مستقبلية أبعد مدى، ومنهم من يعمل لها جاداً، ويزيد هؤلاء عدداً ونوعاً مع مرور الزمن، إذ يرون أن مستقبلهم سيكون رائعاً على مدى القرون القادمة، وكثيرون منهم يعملون وفق أفكار السيادة المستقبلية، ويفكرون بالاستخلاف في الأرض، وقناعة بـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قناعة حاضرة ومؤثرة في نفوسهم، تتجاوز القلة والنخبة لتكون فكرة الأغلبية المؤثرة «المستقبل للإسلام».. وإن كانت القيادات التي تملك القرار قد ترسف في اليأس، غير أن الأمة يغمرها العزم والتوسع والتفاؤل.

هذه الحالة النفسية أو الدوافع الروحية الممتزجة بطاقة فكرية واقتصادية تخرج الإنسان من عبثية اللحظة القصيرة، وتتجاوز الخطط التنموية لتكون عقائد تصنع طريقها لبلوغ مآربها الأبعد.. «ولا تحدث الهزات العظيمة إلا حين ينسجم الدافع الاقتصادي الذي يحث الجماهير انسجاماً تاماً مع


Twitter: @ketab_n

هدف مثالي. إذ تجتمع الفطرة والفكرة، ويشهد العالم موت نظام اجتماعي [سابق]»[1].

والأفكار التي تنشرها القلة ثم تقنع بها طائفة أكبر، تصبح مشاعر وثقافة عامة، سيجد خصوم هذه الأفكار أنفسهم محاطين بها بل داخلها، ومن مناصريها، وينتقلون من حال العداء معها إلى حال التبني اللاشعوري لها، ويدافعون عنها، وتنتهي قصة خلاف الحاكم والمحكوم حولها، فالحكّام تصبح مصلحتهم الحاضرة في انتصار الفكرة السائدة، لأنها أصبحت إرادة شعبية يصعب تجاهلها، ونزوع صناع القرار لمخالفتها هو نزوع ضد مصالحهم، وهذا يقلل المسافة السابقة بين الطرفين، ومن الخير للطرفين ألا يرى أحدهم نفسه منتصراً على الآخر، أو أن مكاسب الآخر هي بالضرورة خسائر له. بل التعامل الأنسب هو القبول بالسياق الصحيح الذي أصبح واقعاً، والعمل لانتصار الفكرة هو أن يسند الانتصار للحق الذي تواضع عليه الطرفان، ثم إن البعد عن زعم امتلاك الحقيقة، ذات الملامح الواحدة، لطائفة أو حزب، يكسبها قيمة واحتراماً، ويجلب لها الموالين، ويُضعف رأي المخالفين.

من واجبنا أن نتخلى عن محاكمة المستقبل وفق ماضٍ متخيل ومحدد، لأن ما قد يحدث لن يكون على صورة ذلك الماضي، وتخيّل المستقبل الجيد وفق شكل سابق هو نوع من تقييد التفكير، وفقر في مخيلة الإنسان المعاصر، سببها ضعف الفكرة لدى من يرسم الصورة فيريد أن يجعل المستقبل البعيد على نمط الماضي البعيد، ويتخلى ـ بطريقة تبعث على السخرية ـ عن تصور المستقبل بطريقة ذات علاقة باللحظة الحاضرة، والاستمرار في إنجازاتها، والبناء على الجيد منها، ويرفض الانطلاق منها، ولأن الثقافة والمعارف التي يقدّرها وتُشعره بمجده وقيمته تحد من إمكان تخيل حال مستقبلي أحسن مما سبق تصور تجربته التاريخية المجتزأة باعتساف أملاه التاريخ المدون، أو المنطوق أو المتخيل. ونؤكد أن: «غاية الفهم التنبؤ» وهو فن في الانفصال عن أسر موقف، أو رغبة، إلى رؤيته من الخارج قدر الطاقة.

(١) ألفريد وايتهيد، **مغامرات الأفكار** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦)، ص ١٢٦.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ١ ـ

# رغبتنا في التنبؤ

إن المظالم التي تواجه المسلمين تدفعهم للتنبؤ بمستقبل قادم أحسن، وهو شعور فطري صحيح، يدفع المظلوم إلى الانتصاف، والظالم إلى التعقّل.. ألا ترى السجين عندما يوصد في وجهه باب الزنزانة ينفتح له تاريخ الخروج؟ لقد تغلب المجتمع الإسلامي على معظم التحديات الكبرى التي واجهته، فكشف ظلام الغزاة، وقهرهم من الخارج، وتغلب على مظالم الداخل، وخرج من محنته أنقى تجدداً، وأقوى عدداً وأكثر توسعاً، وأغنى غنائماً. مر بنا زمن سابق خبِرنا المغول يحاصروننا من الشرق حيث لم يُبقوا شيئاً في طريقهم، والفرنج الهمج من الغرب، المغول كان لديهم دستور وثقافة «الياسق»، وقوة عسكرية ضاربة، وشجاعة شخصية فريدة، بلغت ذروتها في أسطورة جنكيزخان وقدرته الشخصية، وتجلت في ثقافة هولاكو. وقد كان مثقفاً مقارنة بغيره[١]. أما الجانب الهمجي عند الصليبيين فكان مثار عجبهم هم قبل غيرهم، حيث غزوا شعوباً متطورة جداً مقارنة بحالهم، وشرح معاصروهم تلك المفارقات والأحوال[٢]، مسألة ملامح المستقبل وما تم من الإعداد له، وما يؤسس له، هي هم كتابنا هذا.

إن قضية الإسلام والمسلمين وأفكارهم ومستقبلهم هي قضية العالم اليوم، وهي شغله الشاغل. وعمدت في هذه الدراسة إلى رصد المؤشرات المؤثرة في

---

(١) قارن بما كتبه ابن خلدون في مقابلته له، ونقاشه معه يدل على مستوى هولاكو الثقافي، وكان مستوى متقدماً إذا ما قورن بالذين يعيشون في زمن توسع المعلومات.

(٢) ورد الكثير من هذا في كتاب **الاعتبار** لأسامة بن منقذ، وكتاب: **الحروب الصليبية كما رآها العرب**، لمعلوف، وبقية الكتب المشهورة تاريخياً في هذا الميدان مثل كتب المعاصرين من المسلمين والنصارى، والكتب الحديثة مثل كتاب ستيفن رنسيمان.



Twitter: @ketab_n

حاضر ومستقبل المسلمين وعلاقاتهم بأنفسهم وبالعالم من حولهم، جاعلاً من الوصف للواقع، والرصد لما تم إنجازه وسيلة لاستشراف المستقبل، والتعرف إلى ملامحه وتوجهاته. وهناك فريق من الناس يصعب عليهم استبصار المستقبل، وبخاصة الرؤية التفاؤلية له، من هؤلاء فريق من الأذكياء، فالذكي غالباً ما يسوقه التشاؤم أكثر من التفاؤل، لأن التشاؤم عليه أدلة ووقائع أكثر عند المتوجس، ولأن الذكي الحذر يكثر من الاحتياطات، ويجمع ما يسندها من المعلومات، وعلاج الذكاء المتشائم هو الإرادة الجادة التي تساعد في التخفيف من الرؤية السوداوية للذكي، وتجعل العقبات محلاً لاختبار إقدامه.

ويتبع هؤلاء من سيطرت عليهم وعلى ذكائهم موجة الولع بالإحصاء السلبي، وهذه الفئة اتسع دورها في غير المجتمعات الإسلامية، فتنشر المعلومات المرعبة، وتفرح بها، وتؤكد رأيها عن طريقها، وتسيطر عليها سلوكية سلبية، لا ترى التغيير لما تراه قد حل بالمجتمع دائماً، وهذه المعلومات بأيد تنحاز للرقم ولا تؤمن بالقدرة على التغيير والإصلاح، ولا تعتبر أصل سلامة الفطرة عند الناس، سوف تصنع التشاؤم دائماً، لأنها لا تقرأ إلا الانحراف.

وفريق آخر يصعب عليه أيضاً التفاؤل وهو الفريق المذهبي، أو الأيديولوجي المتحزب لفكرة أو تصور مغلق، لأنه يرى العالم من خلال ربح وخسارة فريق صغير أو فصيل ينتمي إليه، ويرى في ما عدا ذلك خسارة مركبة، فمجال ربحه من أي موقف مجال صغير، مجال انتصار حزبه وفكرته المحدودة، ويضيق الدنيا على الخير، وقد يكره النصر لفكرته لو تحقق على يد غيره.

وصاحب التقوى، الذي يشغله دائماً الخطأ، وتصعب عليه الانحرافات، ويحصي التجاوزات، ويراقب المعاصي صغيرها وكبيرها، ويرى الناس دائماً من سوء إلى سوء، ويلذّ له أن يقدم سجلاً بالحوادث التي يفسد فيها الناس ويتجاوزون حدودهم، وتكثر أخطاؤهم. فالخير في عينيه دائماً قد ولى ظهره وغاب، ولم يعد في القادم من خير، ويشغل نفسه بنوع واحد من النصوص، نصوص فساد الناس والزمان، وكثرة انحرافات الناس، والتشاغل بهلاكهم.

ويمكن تجاوز هذه العلل بزرع التفاؤل والإرادة، وذلك كان الحل في مواجهة ميول بعض الأذكياء والأتقياء الأولين، وفسح مساحة الدائرة التي يفرح بها المثقف، فليست الدنيا فريقاً صغيراً، ولا مدرسة ضيقة، بل العدل والخير، أوسع من خيال من ضاقت به الدنيا ولم يرَ على الحق إلا نفسه أو من شابهه.



Twitter: @ketab_n

قدمت فكرة هذا الكتاب «مختصرة» في عدد من اللقاءات مع مفكرين وعلماء ومثقفين، وكان الجدل حولها حاداً أحياناً، ما بين موافق يراها معبّرة عن وضع إسلامي متفائل، ودراسة راصدة لعدد من جوانب فجر الإسلام ونهضة الأمة وقد بدأت تشق طريقها، وبين من يراها سابحة في خيال لا تأخذ بالاعتبار الواقع السلبي اليومي للوضع المتردي. أو من يراها نهضة جزئية عابرة، سوف تتردى في شعاب التخلف الذي يفري حشا الأمة كل يوم. وللموافقين والمخالفين أحببت تقديم هذه الفكرة الموثقة المتفائلة، وعرض أسباب ذلك، ملمحاً إلى ما قد يكون طريقاً قاصداً، ووصفاً للمزيد من وسائل تحسن الحياة وخير المستقبل، مما لم يقصد النص الحديث عنه.

في هذه الصفحات التالية عرض لجوانب قد تكون دلائل على بداية مرحلة تاريخية جديدة، شهد العالم ظواهر وشواهد بداية لها، تنشر قناعة بأن هذه المرحلة التاريخية بدأت، وأنه تم منها الكثير، وتجاوزت في بعض جوانبها قدرة الخصوم على كبتها، أو على تدميرها.. فالعالم الإسلامي شهد تغييراً اجتماعياً كبيراً، يتجه نحو تجديد الحياة الإسلامية بشتى جوانبها الروحية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أو بمعنى أوسع الحضارية. وهناك دلالات كبيرة في ميادين عديدة بعضها أمكنت الإشارة إليه؛ وليس الهدف جمع واستقصاء كافة الأدلة، فالكثير من المراقبين لسير المجتمع الإسلامي وتغيّره يُقر بأن الكثير حدث في مسيرة المجتمع الإسلامي نحو قوته وتكاتفه وسيادته واستعادة الخطوات الأولى لنموه، ومن أهم أهداف هذا الكتاب رصد التحول والتعريف بما تحقق، من جوانب النمو والقوة، والعمل على المزيد من الجوانب المفيدة التي تحقق بعضها، أو بدأت تؤثر أو وتحمل بذور الإحياء، وبهذا نتجنّب احتقارها، والتهوين من عناصر القوة التي يشهد الشرع والواقع ومواقف عقلاء الناس بأهميتها.

ومن أهداف هذا الكتاب التنبيه على أهمية جوانب سيقت لنا على أنها سلبيات وأنها عوامل تخلف عندما تظهر في المجتمع الإسلامي، وبعضها قد لا تكون كذلك، وبعضها أنتج الرد عليه، أو نقيضه، أو تصبح في هذا الوضع الجديد وُسيلة مفيدة أو محايدة، كالتقنية وجوانب من العولمة، إذ أمكنها المساهمة في بناء الجوانب الإيجابية للحياة الإسلامية الواعدة.

وعرض البحث لقضايا من مثل زيادة السكان، وسيادة اللغة العربية، وقوة الإعلام، وانتشار الوعي العام، والصلة مع الغرب والعالم، والعولمة،



Twitter: @ketab_n

والعلمانية والقومية وكسر حواجز العزلة المضرة، وأشرنا إلى أن بعض الموجات التي أرادت بنا الضرر أنتجت واقعاً إن لم يكن مفيداً فليس بالضرورة ضاراً. بل ربما ساهم في بناء موقع وموقف يخالف ما صُمم له. وشمل البحث مسائل مما تمس قضايا الثقافة الغربية وتوجهاتها وموقفها وموقعها اليوم. وبحث في سر ضعف جاذبيتها، وقلة المشاريع الفكرية الكبيرة فيها اليوم، والإشارة إلى أي نوع من المثقفين الغربيين الذين يؤثرون في فكر أيامنا والمستقبل.

عدّ كثير من الغربيين أحداث نيويورك وواشنطن فرصة سانحة لإعادة الهوية واللحمة النصرانية للدول والمجتمعات الغربية، وساعدت المجموعات اليهودية في صناعة ما أسموه الحضارة «اليهودية النصرانية»[٣]. وهذه الحاجة الآنية الغربية لإعادة الوحدة النصرانية الغربية، ساهمت ـ من دون قصد ـ في صناعة هوية إسلامية عامة، وأحيت مفهوم الجسد الواحد، في ثقافة المسلمين.

ونهدف هنا وضع إشارات لجوانب سلوكية وثقافية مؤثرة، والحث على وعي وتبني بعض الإيجابيات، وتجاوز اليأس القاتل، والخلاص من بعض الدوافع الجبرية التي تتسلل باسم التاريخ أو الثقافة، والبحث في جوانب الاستقلال الفكري والذهني في عالم الإسلام. وفي حال الاختلاف فالمعرفة بما يحدث وتجدد الرأي فيه ذوا فائدة كبيرة.

وإن من المهم أن نعلم أن الزمن الذي تضررت فيه الأمة قد يكون مستعداً للرحيل، ويلملم بقايا ما يقدر عليه من سخط وعنف يرعب فيه، ويرهب ويزمجر، مثبتاً أنه ما زال قادراً على التدمير والأذى، يقولها صراحة بلا مواربة، ولكن خصومه يرونه حقيقة خائباً كاذباً منهاراً ظالماً غشوماً بما بقي له، ونعلم أن ليلهم الطويل الذي أسدل ظلمته علينا قروناً ـ وأنار كما يرون بلادهم ـ قد قارب الانقشاع، وأن آلام هذه اللحظة التاريخية وعسرها سوف يخلفها يسر وخير وأمل كبير. وهنا ملامح مهمة لزمن قادم لاحت بعض معالمه. فغضب الغرب وخوفهم وهلعهم من الإسلام ليس بسبب حملات إرهابية فقط، ولا بسبب ملكية الثروة فقط، بل لأن المسلمين يمثلون مشروعاً وتحدياً روحياً وثقافياً وحضارياً لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام للحتمية

---

(٣) يحاول هؤلاء دائماً أن يجدوا لهم صلة نسب بكل أمة قوية، بسبب حياتهم الهامشية الطويلة، على حواشي الأمم والحضارات. أحدهم أخرج كتاباً طريفاً في عنوانه أسماه **الحضارة الإسلامية اليهودية في الأندلس!!**



Twitter: @ketab_n

الليبرالية كما لم يستسلم للجبرية الشيوعية من قبل، وعنده ثقة وتماسك وشخصية رافضة للذوبان، وعنده أمل وتعويض وفهم آخر للحياة الإنسانية.

ولهذا يكون من ينظر إلى المستقبل غالباً تلميذاً لما يراه ماثلاً أمامه، فيلزم القادم بالحاضر، أو ينقل المستقبل من عصر سحيق بعيد، ويحوّر الماضي بما يناسب الحاضر، مناقضاً أو موافقاً، فيتصور المستقبل صورة لا تبعد عما بين عينيه، أو ما سبق حدوثه. نعم إنه يصعب على أي عبقري أن يتخيل بديلاً من الموجود، أو أن يتفلسف من خارج السياق، ولذا يرى المتخاصمون من ذوي الاتجاه الإسلامي وذوي الاتجاه التغريبي أن البديل غالباً ينحصر في أنموذجين: أنموذج ماضٍ إسلامي بعيد، في صورة خيالية يصعب عليه تحديدها فضلاً عن تنفيذها، ولكن أصحاب هذا المشروع «إعادة الصورة المتخيلة للحياة الإسلامية»، والتي قد لا تنسجم «كما يتخيّلونها» مع الواقع ولا مع مقاصد الشرع ولا سنن الكون، بدأوا اليوم يرون ملامح عالم إسلامي يتشكل، ويسر المخلصين، ويتجه نحو حياة إسلامية، يتفق مع رؤية المقاصديين والفقهاء، وقد لا يروق الحرفيين الخياليين. وهو لا يستطيع مفارقة الأنموذج الغربي تماماً، ولكنه يتشكل به ومعه ويغايره في الوقت نفسه، ويقبل بالتنازل الذي لا يملك سواه.

والأنموذج الآخر أو الصورة التي لن تنجح أيضاً هي أنموذج التغريبيين، «الاندماج وتمثل كل شيء غربي»، أو كما يرى بعضهم ببساطة استنساخه كما هو أو بتعديل يسير، غير أن حقائق دينهم، وطبائع مجتمعاتهم، وسنن خالقهم في الكون، تأبى الاستنساخ الماسخ.

وبهذا ترى أن نقل الصورة المتخيّلة عمل لا ينجح، سواء هي صورة الإسلام في زمن ما، أو في صورة الغرب في زماننا، بل روح الوعي بالمنفعة، والاستقامة التي لا تناقض مقصد الشرع ولا تخالف غاية الأمة ولا هويتها، هي التي تنجح.. وطريق ذلك صعب يحتاج لمران، وتجربة عملية، وقبول ـ أحياناً ـ ببعض الشر الذي يستعصي الحصول على الخير دونه.

ذلك أن مدنيات البشر يأخذ بعضها من بعض، إن أرادت الموجات الجديدة الحياة المؤثرة، والقيادة للعالم، وسوف تجد نفسها تعاني ما يخالف رؤيتها، ولكنها تحتاجه ولا تستطيع صنع البديل بسهولة، فتجري بعض التعديلات الشكلية، أو التي تُكسبها راحة في الضمير، وإن لم يحدث فرق



Twitter: @ketab_n

كبير، ولكن هذا التغيير اليسير ولو شكلياً يريح النفس، ويؤكد بعض الهوية التي يهتم بها كثيراً من يصعد بمدنيته داخل مدنية أخرى، كما نجد ذلك في قصة البنوك الإسلامية، فهي تمارس ما ينتقده عليها باحثون وعلماء جادون، ولكنها لا تعرف البديل أو لا تدري كيف تدير أمرها بأنموذج اقتصادي غير مطبق. فعسى أن تكون هذه بداية النقلة؛ والتميز يدفعها لأن توجد السبل الأنفع.

ومن المهم ألا تتغلب علينا الحساسية الشديدة تجاه ما لا نعرف له حلاً، فقد وسع أصحاب الرسول (ﷺ) وخيار التابعين أن يدونوا جندهم في نظم الجند الرومية، بلغة غير العربية زمناً، ثم استعملوا العملات التي سكّها غيرهم، وعليها صور الأباطرة الرومان، حتى إنهم في سك عملتهم أيام الوليد بن عبد الملك وضعوا صورة الخليفة على العملة تقليداً أعمى! حتى غيروا ذلك لاحقاً(٤).

ويكاد أن يتحقق في مجالات كثيرة واقع إسلامي جديد، وشكل جديد، لملامح المجتمع الإسلامي الذي حقق كثيراً مما يريد، وتحلّى بوعي لمقاصد الشريعة، وإن أصر عليها، وعلى تنفيذها، مع مرونة التطبيق فسيكون ذلك سرَ اكتمال الكثير من النجاح المستقبلي، نحو المجتمع الإسلامي.

وتبقى الصورة المتخيلة لعالم يسوده سلام الإسلام ورحمته وعدله وتجانسه شيئاً آخر غير فلسفة تاريخ الصراع الغربي، وحروبه الثقافية، أو تناقضه، وصراعه مع الإله، ومع الأرض، ومع الأجناس الأخرى، وصراعه بين الطبقات. أو تناقض مبادئه بين ما يُبّشر به ويُعلنه وبين حقيقة ما ينفّذه، فهو مثلاً يدعو للمساواة وينشر العنصرية، ويتحدث عن الإنسانية وينفّذ الطائفية، وينوّه بالحرية ويدّعي أنه يدعو لها فيما هو يستعبد الشعوب، وينادي بالعدالة ويقيم المجازر، ويدعو للرفاهية ويشقي المسلمين، ويمتص ثروتهم ليغني خصومهم، وينتزعها منهم ويوزعها هبات لمن يقتلهم(٥).

إن المسلم اليوم يحارب ضعفه أولاً قبل أن يلتفت لغيره، ويحقق سيادته

---

(٤) هذا القول بناءً على ما ينسب لذلك العهد من المسكوكات الموجودة في كثير من المتاحف، والتي تنسب لذلك العهد.

(٥) ذكرت جريدة **النهار** اللبنانية يوم ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣ أن البنتاغون يدرس إشراك إسرائيل في عقود إعمار العراق، ونقلت الجريدة عن **يديعوت أحرنوت** قائمة بالشركات الإسرائيلية التي نوقش معها الأمر، ورأيها في المشاركة.



Twitter: @ketab_n

على سلبيته وعلى جهله وضعفه.. وهنا يجدر بنا أن نعلم أن المسلمين اليوم حققوا الكثير من التأسيس لنهج صعودهم، وأن ركبهم قد أقلع في طريق هادفة صحيحة في كثير من جوانبها. ولا نشك في وجود ضعف وهنّات ومشكلات عديدة، ولكنها تعثّر السائر الجاد، عثرات لا تسقطه، بل تجعله يحذر ويشمّر ويتوقى حبائل السوء. وبعد كتابة هذه المقدمة وجدت بين أوراقي الكثير من النصوص المستقبلية التي تشير إلى مستقبل أحسن للمسلمين، منها نص للكاتب الفرنسي الشهير توكفيل وهو من تنبأ قبل نحو أربعين سنة من صعود أمريكا وروسيا أن هاتين القوتين سوف تتقاسمان العالم، ويشير إلى أنهما سوف ترثان أوروبا، وجدته يقول: «هذه الديانة [الإسلام] معدة لكي تسود في هذه القرون وفي غيرها»(٦).

وكتب مراد هوفمان هذا النص: «من الملفت جداً أن الإسلام استطاع... أن يحقق نهضة جديدة هائلة وغير متوقعة بدءاً من سبعينيات القرن العشرين، فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من ديانة كانت تستغرق في حالة من سبات على مدى ٤٠٠ عام، على الرغم من وجود شخصيات مثل السرهندي، وشاه ولي الله، ومحمد بن عبد الوهاب.. وما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من ديانة كان معظم من يدين بها خاضعاً لاستعمار قوى أوروبية؟

لا يمكن لوم المستشرقين الغربيين الذين درسوا الإسلام مثلما يدرس علماء الأحياء جنساً سائراً إلى زوال، ومهدداً بالانقراض، لقد كان اهتمامهم بالإسلام من منطلق تاريخي فقط. وعندما أصدر ماكس هنينغ ترجمته للقرآن الكريم إلى الألمانية، كتب في العام ١٩٠١ أن «الإسلام قد استنفد دوره السياسي».

كان هذا رأي الجميع، ولم يعدّ أحد الأفغاني ومحمد عبده رواداً لربيع إسلامي جديد، ولم يتوقع أحد مدى تأثير أشخاص مثل محمد إقبال وحسن البنا أو سيد قطب أو أبو الأعلى المودودي ومحمد أسد، في الصحوة والنهضة الإسلامية في جميع أنحاء العالم».

أما اليوم وإلى درجة لا تُصدّق ليست هناك أي دولة على هذا الكوكب تخلو من مسلمين نشطين من كوريا إلى كولومبيا، ومن أيسلندا إلى

---

(٦) من نصوص مجموعة في: محمد قاسمي وشانتال داغرون، **عربي هل قلت عربي؟**، ترجمة وتحقيق فقيهي الصحراوي ([د. م.]: أفريقيا الشرق، ١٩٩٨).



Twitter: @ketab_n

نيوزيلاندا. لقد كان تعداد المسلمين لا يتجاوز سُبع البشر قبل ١٠٠ عام، أما اليوم فأصبحوا خُمس سكان العالم. وهناك الآن مساجد في مدن عديدة، منها لندن وباريس وروما وفيينا ولشبونة وزغرب ونيويورك، ولوس أنجلس، والأهم من هذا كله وبفضل العمال المهاجرين والطلاب في الجامعات الغربية، أصبح تعداد المسلمين في أوروبا والولايات المتحدة بالملايين، ويتحول الإسلام في كل مكان إلى ثاني أكبر ديانة، وتكاد لا تخلو صحيفة أو برنامج تلفزيوني اليوم من مواد عن الشؤون الإسلامية. وأصبحت الآن ـ والآن فقط ـ ثروة من الأدبيات الإسلامية التراثية متوافرة بكافة اللغات الأوروبية الرئيسة، وأصبح القرآن الكريم أكثر كتاب يُترجم وأكثر كتاب يُقرأ على وجه الأرض».

«إنه منذ بداية الألفية الثالثة لم تبق سوى رؤيتين عالميتين تتنافسان للفوز بقلوب وعقول الغربيين الدنيوية المعاصرة والإسلام. هذا هو البديل وليست هناك أي خيارات أخرى منظورة».

و«إن النصرانية في أوروبا ـ برأيي ـ غير قابلة للإصلاح.. فإنني أشعر بأن الكثير من الناس الذين تعبوا من السباق الدائم في حياتهم اليومية تواقون إلى اكتشاف المزيد عن الإسلام»[٧].

وهي حقائق مؤثرة في مستقبل المسلمين والعالم، فالتحولات الكبيرة في حياة وتفكير المسلمين، وفي العالم من حولهم، تستحق المعرفة والإفادة من عناصر القوة، والهداية والتخلص من نزعات اليأس والقنوط وضعف الثقة.

ويرى أحد المراقبين للتقدم الإسلامي أنه: «تحول الإسلام في غضون السنوات المائة الماضية إلى إصلاح نهائي وحاسم وبقدر ما يستطيع الإنسان أن [يقرر] من المتعذر إلغاؤه، فقد شهدت تلك السنوات انزياحاً هائلاً في توازن القوة من الإسلام الشعبي القاعدي إلى الإسلام النخبوي الرفيع، كما عمل التمدين والمركزة السياسية على دفع السكان.. للشكل الأكثر صحة للإسلام»[٨]. وفي مكان آخر يقول الكاتب: «وعلى نحو دوري يشن الإسلام

---

(٧) مراد هوفمان، **نظام الحكم الإسلامي في العصر الحديث** (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣)، ص ٧٩ ـ ١٠٠ (بتصرف).

(٨) أرنست جيلنر، **ما بعد الحداثة والعقل والدين**، ترجمة معين الإمام (دمشق: دار المدى، ٢٠٠١)، ص ٣٤.



Twitter: @ketab_n

النخبوي الرفيع نوعاً من الحركة التطهيرية الداخلية ويحاول إعادة فرض نفسه على المجتمع برمته»[٩].

كما أن العلمانية التي توقع الغرب أن تكتسح بقية قلاع الإسلام، وراهن الكثير من مثقفيه على أنه سيكون سراباً في وجهها، وتنهي يقينياته، فقد تراجعت العلمانية أمامه، واتجه من كانوا شيوعيين للمساجد، واستوعب الإسلام منها ما يفيده، وصمد ضدها فيما يضره، وكان الإسلام أقوى تأثيراً في الطبقة المثقفة في المجتمع، وذوي التعليم الغربي، وواجهت العلمانية الغربية في عصرنا الحاضر أربع حضارات واسعة التأثير، خسر ثلاث منها المعركة مع العلمانية، فالحضارة المسيحية عدّلت من عقائدها وقناعات أهلها، والصينية قبلت العلمانية، والحضارة الهندية اتخذت موقفاً حيادياً، أما في الحالة الإسلامية فإن الحضارة الإسلامية استوعبت الصدمة العلمانية، ولم تقدر على هدمها، وبقيت الحال مختلفة، فالإسلام قوي اليوم وربما أقوى مما كان قبل مائة عام، وهذه النتيجة لاحظها عدد كبير من المراقبين[١٠].

أصبحت قضية الإسلام هي قضية العالم، ولم يسبق لها شبيه في الاهتمام والانشغال العالمي بها في تاريخ الإسلام إلا في موجات الإسلام الأولى. ونحن هنا نتحدث عن ملامح مستقبلية ظهرت أماراتها، ومؤشراتها العامة، وعلمها عند الله، فإن سلمت توقعاتنا وملاحظاتنا فهي إرهاصات لخير عميم قادم للبشرية، وبشائر بمجتمعات العدل والرحمة والإنصاف تستحق التنويه والتوجيه، وكثير مما نسجله هنا هو حقائق ملموسة وليست على طريقة: «منى إن تكن تكن أحسن المنى.. وإلا فقد عشنا بها زمناً رحباً».

ولهذا فما الذي يجيز لمسلم أن يغمر نفسه وقومه في ظلمات اليأس والقنوط وهو يرى بشائر الفجر تلوح؟ فالقنوط شر سلاح فتك ويفتك بنا، وأصبح المسلمون يترقبون أن يقع الشر عليهم بكل طريق، ويُتَّهموا بكل مساءة، وتُنكر حقوقهم، ويميز ضدهم بالقوانين وبحسب الأشكال والأسماء، وترتكب ضدهم أبشع المذابح، إن قبولهم بخواطر اليأس من مستقبلهم، هو

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٠) جيلنر، المصدر نفسه، ص ٢١. وأشار لهذه القضية فوكوياما في حديثه عن مواقف الحضارات من قيم الغرب، وأن العالم الإسلامي بقي متمرداً وغير مستجيب لنهاية الفكر الذي سماه «نهاية التاريخ».



Twitter: @ketab_n

شَرُ موقفٍ يقبلونه، وأقسى سلاح يعمل فيهم، ومهمة خصومهم ومن يرهبهم أن يصل إلى إشعارهم بانعدام الأمل، وعبثية الغاية، فيتهاوون ويذلون. أما المآسي الكبيرة للأمم فكثيراً ما كانت «المأساة داية التاريخ».

وعلينا أن نحذّر من «خداع المواجهات» فليس من الوعي في شيء جعل العالم كله معادياً، وليس من الشرع في شيء أن نعطي للناس صورة المتوتر المقاتل الذي يخيف ولا يرحم، أو يهدد ولا يؤمّن، فقد كان الإسلام مأوى المظلومين، وأمل المضطهدين، ويجب أن يكون كذلك في غير تبعية ولا ضعف، ويقبل بالفقه المكي حيث لا يكون سواه سبيلاً.

لا يخفي أحد المراقبين من نصارى العرب تعجبه من صمود الإسلام لمدة عشرة قرون، للضربات النصرانية المستمرة بل وانتصاره في النهاية وتوسعه، يقول: «لقد بدأت الحضارة المسيحية الغربية هجومها على الإسلام في القرن الحادي عشر في إسبانيا وصقلية وشمال افريقيا، بل وفي تلك المنطقة الأكثر قرباً من قلب العالم الإسلامي، أي في فلسطين؛ ومع كل عام يمر كان العالم المسيحي الغربي يجني قوة اقتصادية وثقافية على حساب الإسلام، بل يكتسب قدرة أكثر على الصمود في المواجهة بوجه عام.

في تلك الظروف فإن ما يحيّر ليس أن الإسلام لم ينتشر أكثر ناحية الشمال، بل إن الهجمات المضادة للعالم المسيحي في القرون الثاني عشر والسادس عشر والتاسع عشر «الميلادية» لم يكن لها سوى أثر ضئيل جداً في المجال الديني. فعلى الرغم من الفترات الطويلة للاحتلال الأوروبي، لم تشهد أي من الدول الإسلامية في افريقيا أو آسيا أي تحول جوهري إلى المسيحية، أو انضمام دائم إلى العالم المسيحي، وهذا هو الدليل الأكبر على القوة المستمرة للإسلام»[١١].

إن الوسائل العسكرية المروعة التي يمتلكها خصوم الإسلام في زماننا ليست غريبة على سياقات الصراع القديم، فقد كانوا متفوقين تنظيماً وعدة، لزمن طويل، عندما كانوا متوحشين متخلفين في حروبهم الصليبية، وأقاموا المذابح للمسلمين وغاصت الخيل في الدماء في شوارع القدس، كما نقل الرواة من الجانبين، وتحدث عنهم أسامة بن منقذ بكل سخرية عن الغربيين

(١١) شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ٢٣.



Twitter: @ketab_n

وقذارتهم وجهلهم وعنفهم وخمول عقولهم، حتى شبههم بالحيوانات وأن ليس لهم فضائل إلا بأسهم الحربي[١٢]. وصمد المسلمون، في أزمنة كانوا فيها أجهل بدينهم من اليوم، وأكثر تمزقاً، وأضعف وعياً، وأقل عدداً. إنهم أمة تصطلي بنيران المحن، فتكشف لهم ولغيرهم عن خير معدن، وطالما ساعدت المحنة على أن تنقّي خير المعادن، وتكسبه الكثير من المرونة والقوة.

في العالم الإسلامي حياة وحركة غير مسبوقة منذ قرون فماذا يحدث؟ حاجتنا شديدة لأن نفهم. «ما الذي يحدث فعلاً؟» قالت ذلك مذيعة الـ «سي إن إن» لمفسر[١٣] الإسلام والمشرق العربي: إنك تقول إن سبب الأزمة في العالم الإسلامي وموقفه من الغرب هو الإهانة، وإن شعور المسلمين بالتخلف والإهانة هو سبب لما يحدث، ولكن هناك أمماً وشعوباً أخرى في افريقيا وغيرها لا تقف منا هذا الموقف على الرغم من سوء حالها؟ رد المفسر: «شيء ما يحدث هناك لا نعلمه، ولكن الشعور بالإهانة، وإسرائيل، وسياسة أمريكا بعض أسباب ذلك»[١٤].

ويأتي الرد مسبقاً من يهودي آخر على دينه، يقول: «ثمة ظاهرة تسترعي الانتباه في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي؛ ألا وهي قدرة المسلمين على النهوض من كبوتهم. ذلك أن التاريخ الذي صنعه في بداية الأمر نفر قليل من أناس منعزلين أصبح العمل المشترك لمجموعة من الشعوب انتسبت إلى الإسلام على مر الزمن وظلت مخلصة له مطلقاً، ويعلم المبشرون المسيحيون أنهم لا يقدرون على تغيير عقيدة المسلم»[١٥].

تحدثت مع صديق نبيه، عن فكرة هذا الكتاب قال: أليس العالم الإسلامي، على الرغم من كل ما يقال عن ضعفه هو في حرب مع أقوى قوة

---

(١٢) انظر مواضع عديدة من كتاب **الاعتبار** لأسامة بن منقذ.

(١٣) لقب «مفسر» هنا يقصد به أحد الذين يتولون التعريف والكلام عن العالم الإسلامي، وتعريف الغربيين به، وهو تعريف منحاز غالباً ومعاد، ويكونون غالباً من المستشرقين، والصحفيين ومن يسمونهم بالخبراء، يهوداً أو غيرهم، وفي الأغلب تتجه أغلب القنوات الغربية لتقديم المفسرين المعادين للإسلام والعرب على غيرهم، وتعتمد أفكارهم ومواقفهم ورؤاهم، فيزيدون تجهيلاً للمجتمع الغربي، ويصنعون المزيد من العداء ونشر الكراهية للمسلمين والعرب.

(١٤) محطة سي إن إن الدولية، مقابلة مع فريدمان، برنامج: «إنسايت»، ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٣م. والنص قريب مما ذكر هنا.

(١٥) كلود كاهن، **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية**، ترجمة بدر الدين القاسم (بيروت: دار الحقيقة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م)، ص ٢٧٨.



Twitter: @ketab_n

في العالم «أمريكا» ولم يهن ولم يركع؟ قلت: بلى هذا الواقع، حتى إن رئيس الاستخبارات الأمريكية السابق جيمس ويلسي قال هذا على التلفاز، وأن أمريكا تخوض هذه الحرب العالمية الرابعة ـ الحرب الباردة هي الثالثة ـ مع العرب كما ذكر ويلسي ونقلت عنه إحدى المجلات الشهيرة قوله: «العالم العربي والأنظمة العربية عدونا»[١٦]، وكان العالم الإسلامي خارج قوى العالم منذ الحرب العالمية الأولى، وبعد نحو من مائة عام عاد، ينازل الخصوم، ولم يمت، ولم يستسلم، يصارع الحاقدين عليه، عاد شاباً واعياً، كثير العدد، شديد الإخلاص، واثقاً، يستميل القلوب، ويزرع الثقة، على الرغم من كل التشويه، وغنم الكثير على الرغم من جراحه ودمائه التي تنهر على حدوده. ولكن صمود هذا الدين واستجابته كانت على قدر التحديات التي واجهته، وتغلّب المسلمون على كثير من العقبات الكبرى التي توهم الخصوم، وضعاف القوم أنه لن يجتازها.

## سُنّة التحول والتوسع

سُنة الله في الناس التحول التقدم والتأخر ـ وهو أمر يلاحظه البشر عن الكون أيضاً ـ وليس هناك ثبات إلا في مخيلة الجامدين المعرضين عن الحقائق والسنن: ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، ولم تعط الآية خيار الثبات ولا البقاء على الشيء كما هو. «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر». وهو ما لاحظه أحد كبار الفلاسفة في عصرنا، يقول: «فالتقدم والتخلف هما الانتقاءان الوحيدان اللذان يواجهان البشر، والمحافظ الخالص يكافح ضد جوهر الكون»[١٧].

علينا أن نؤمن بأن ما نحن عليه وما عليه جميع الناس هو في تحول دائم، وأعظم مخلوق هُيّئ لصناعة التحولات هو الإنسان، يصنع هذه التحولات وتتم من خلاله للخير وللشر وللصعود وللهبوط من دون أن يقدر تماماً على وعي تفصيلاتها، فعمل يسير يقوم به شخص أو أشخاص قد يُغيّر مسار التاريخ ومصائر الأمم، فالقوارب التي غادرت شواطئ اليمن الجنوبية باتجاه الشرق لم يكن ربانها يعلم أنه يصنع مستقبلاً للإسلام هناك، وأن مائتي مليون مسلم

---

(١٦) Jack Beatty, «Fatal Vision,» *Atlantic Monthly* (May 2003).

(١٧) ألفريد وايتهد، **مغامرات الأفكار** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦)، ص ٤١٩.



Twitter: @ketab_n

إندونيسي سيكونون جزءاً يسيراً مما يتم تحقيقه في رحلة الرزق الصغيرة تلك. فكولومبس لم يكن هو ولا من معه يرون سُنّة الله في التوسع، وأن جنسه ودينه سيكون لهم من غنائم الرحلة ما يزيد دخل دولة واحدة في العام عن عشرة تريليونات من الدولارات ـ في هذه الحقبة ـ هذا فقط إيرادات الولايات المتحدة الأمريكية!! وأن بقاع النصرانية اتسعت أضعاف بقاعها الأولى، وجزء من غنائم هذه الرحلة شعوب جديدة وأكثر من قارتي الأمريكتين.

والله أعطى الإنسان من وسائل التحويل لما حوله مقداراً كبيراً وقوة حسية ومعنوية أكبر من تقديره غالباً، وهو أقل تقديراً لقوته وقدرته ـ وبخاصة في زمن الخمول والضعف ونقص الثقة ـ ويرى في ظروف الانكسار رأياً يحقّر فيه نفسه، ويحقّر فيه قيمة جهده ومستقبل أمره، وعميق أثر عمله، ولكن لله في الكون سُنّة تجعل أثر الإنسان أكبر من تقديره، ونتاج عمله يتضاعف بطريقة فوق تصوره، ويحقق الله في ذلك سُنة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، فوعي الإنسان مرتبط غالباً بظرفه، فالعرب من الغساسنة والمناذرة على الرغم من قوتهم العددية والتقدمية مقارنة بالأعراب كانوا خائفين من الهيمنة الفارسية والرومية، وتقديرهم للقوة كان أكبر من حقيقتها. لذا كانوا محتاجين لمن لا يعيش تحت رعب الحكومة الفارسية، ولا يرهبها ولا يتخوّف منها، ولم يشهد في صغره مشهد رعبها أو إرهابها، أو استعراضات جيوشها. ومن يملك فكرة جديدة وهدفاً أسمى من نيل جائزة من مستعمر.

وللأسف فإن وعي حقيقة التحول، وسنن المجتمعات تأتي متأخرة عند الأشخاص، وتأتي في وقت تضعف قدرتهم على العمل، ولهذا فإن القول: «ليت الشباب يفهم وليت الشيخوخة تقدر» قول ينم عن أن الفهم وللأسف يرافق سن الضعف، وأن العمل يأتي في سن الاندفاع والتهور والجهل، وعجبت من حيدر عبد الشافي، المسؤول الفلسطيني المفاوض، «كان شيوعياً سابقاً»، وهو ينكر على نفسه طريقة قناعته بالمفاوضات، وهو ممن رسمها، وعمل رئيساً لأحد وفودها، ثم يدعو للجهاد في ليلة ٢٨ أيار/ مايو ٢٠٠٣ على شاشة محطة **العالم**، منتقداً رفيق النتشة وثقته في المفاوضات. ورفيق النتشة هو الأقرب في «حركة فتح» للخط الإسلامي. وكان يردد في النقاش الآية: ﴿**إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤]. إن تبادل المواقع وتغيّر القناعات أكبر مما يتوقع الإنسان. ورأينا بعض رموز اليمين المتطرف في الإعلام والسياسة الأمريكية من يتحول إلى الطرف الآخر



Twitter: @ketab_n

بسرعة، ومعظم ذلك يأتي من تغيّر القناعة.. ولهذا فإن كسر حواجز العمر بين العاملين للتوعية والتوجيه شرط ضروري لنهضة أي أمة صادقة.

إن مرونة الإنسان هي من أهم مصادر قوته وتغلّبه وتأثيره، كما أنها قد تقضي عليه مرونته حين لا يقف فيها عند حد، فيرقّ حتى يخترق. ألم نرَ مرونة (ﷺ) في مواقف كثيرة، حتى خاف من هذه المرونة رجال كعمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وفسّر القبول بصلح الحُديبية على أنه إعطاء للدنية في الدين. ثم فكر رسول الله (ﷺ) في إعطاء ثلث ثمار المدينة للقبائل التي تقبل العودة لبلادها وتكسر التحالف ضد المسلمين في المدينة، وكان نقاشاً مفتوحاً مع سادة المدينة حول جدوى هذه السياسة أو المرونة، ثم أخذ بقول المدنيين، وكان قد تبين أن هذا الموقف هو الأنسب لهذا الطرف لأن طبيعة مجتمع مكة الذي يعتمد المقايضة وثقافة التجارة ويحسب أمر مستقبله التجاري، يختلف عما يصلح لمجتمع الأعراب الذين سيفسرون الموقف بأنه غارة كسبوا منها، تفتح لهم شهية لا تنتهي من الغارات والغدر.

فالقوة وحدها والشعور بها دافع مهم للمواجهة، ولكنها بلا فكرة تسقط عند أول فكرة مضادة، فالذي حصل للمغول أن توافرت لهم القوة واختبروها في القبائل المجاورة وأثبتت نجاحها، فساروا على الشعوب الأخرى وأخضعوها، ولكن لم يكن لهم فكرة قادرة على البقاء فالتهمهم العالم الإسلامي وأصبحوا مسلمين وكان منهم زعماء لدول الإسلام.

هيكل الامبراطورية مهما عظم سرعان ما يتهاوى إذا لم يكن له فكرة، فالفكرة هي الروح لهذا الهيكل أو الجسد، والذي حدث للقوة الروسية في الحرب العالمية الأولى حدثٌ من المهم تأمل جوانب منه مهمة، منها أن روسيا قوة دولية ضاربة خاوية من الأفكار والعقائد والتوجهات، سرعان ما سقطت قوتها في يد أصحاب فكرة وإرادة مهما كانت هذه الفكرة منحرفة «أعني الشيوعية». وسقطت مرة أخرى بعد سبعين عاماً يوم أصبحت الشيوعية شبحاً فارغاً بلا محتوى تحت أقدام المؤمنين الأفغان، وغيرهم من طلاب الحرية. وهكذا من قبل سقطت الدولة العثمانية التي لم يبق للإسلام فيها إلا القليل من رسمه، تحت قوة فكرة القومية أو النزعة القومية الطورانية، والقومية العربية، وتحت أيدي عملاء بريطانيا. وها هي أمريكا تحارب مذهبها أو فكرتها: «الحرية» وتعوّض بروح مسيحية عليلة قد تسقط في أمراضها القديمة والجديدة، وقد يتناوشها عشاق الحرية المصادرة باسم الحرية.



Twitter: @ketab_n

وفي موضوع التوسع «بمعناه الشامل للمادة والمعرفة» نشير هنا إلى مؤلف كتاب **موجز تاريخ الزمان**، ستيفن هوكنغ، أشهر فيزيائي معاصر، قدم للناس أفكاراً في الفيزياء جميلة وجديرة بالمعرفة والدراسة، ومنها فروع لا يستوعبها بسهولة من هو من خارج تخصصه، كان يؤكد في محاضراته أموراً منها حقيقة وجود خالق للكون منفصل عنه، وغير ملتبس به، ومما يهتم به أيضاً دراسة مفهوم التوسع الكوني، وأنه حقيقة كونية ملاحظة، في الجوانب الفيزيائية «الطبيعية» وفي بقية جوانب الحياة، وهو أمر يستطيع الناس ملاحظته من دون أن تكون لهم قدرات عالم، فالتوسع في ثروة الناس، وزيادة عددهم، ومكتسباتهم وقوتهم وما تحقق لهم من خير وشر لا يقاس إلى العصور السابقة التي عرفها الإنسان.

ورؤية المسلم المنصف لنفسه وللكون من المهم أن تنقله إلى عتبات الأمل والتوسع في ما يتحقق له وما يحققه للآخرين من خير ومنافع، وأن يطلق عنان خياله ومواهبه وإمكاناته بعيداً عن اليأس، ويؤكد هذا بعمله، وسوف يجد أن سُنة التوسع حقيقة تنطلق من أصغر الأمور التي بين يديه، ثم تكبر وتؤثر لتصل إلى حقائق تفوق إدراكه. يُتعب الفيزيائيون أنفسهم في تجلية ما يرونه منها حقيقة، أو قريباً من الحقيقة، وهذه العلوم وهذه الدراسات فتوح خير في معظم الأحوال للناس، تفتح لهم أبواب أمل وعمل، واقتناع بدورهم وأهميته في الوجود ﴿**وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ**﴾ ألم يصبح الفضاء مجالاً حيوياً للإنسان لتواصله ومعرفته ومتعته؟ ألم تصبح الأرض اليوم بعد تحسّن صناعة الإنسان، وسيطرته على كثير من المواد، أسهل للسكن وللتنقل مما كانت في أي عصر؟ وستكون أوسع مستقبلاً، كما أن تطاول البنيان والتوسعة الرأسية نوع آخر من التوسع في الأرض وحمايتها واستغلال أقل قدر منها.

إنها هداية بعد سنين التيه، فالحقيقة أن العالم الإسلامي يتبين اليوم معالم دياره، ويعود إلى منازله التي أغوي عنها حيناً من الدهر، لم يكن فيها شيئاً مذكوراً. ويصرح خصومه بالحقيقة أحياناً، على الرغم من كراهيتهم لها، وكراهية أوليائهم لها، وهي أن التيارات التي أغوت العالم الإسلامي زمناً، ليست مناهج أصيلة، ولا دعوات عريقة، فالإسلام هو الذي يحرك أعماق الناس للعمل والرقي والصلاح والإخلاص، ويجد استجابة شاملة في كل جوانب الحياة.



Twitter: @ketab_n

أحد الذين راقبوا باهتمام مسيرة الإسلام في العصر الحديث يقول: «والشيء الواضح الوحيد هو أن من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة. فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل، مهما أقلمها وعدّلها أتباعها في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبّر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة. وبالرغم من أن الحركات الإسلامية قد هزمت حتى الآن.. غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة»[١٨]. ويقول: «وأقوى الحركات.. التي قامت والتي كسبت أقوى التأييد وأثارت حماسة أغلب الجماهير كانت دينية شعبية في أصولها، وفي شعاراتها، وفي الأسلوب الذي عبرت به عن غاياتها وسبيلها»[١٩]. إن الزمن القادم يوحي بصعود أقوى لدور الإسلام في مستقبل البشرية وتاريخها.

كما أن صعود التدين في أي مجتمع يحمل معه صعود قيم العدل والأخلاق، ويكون أكثر ميلاً للمساواة بين الناس، وهذه حقيقة يعترف بها حتى خصوم الدين وأعداء التدين؛ فبرتراند رسل الذي كتب «لماذا لست نصرانيا» يعترف في كتابه **الحرية والتنظيم** بأن الحريات والديمقراطية الأمريكية إنما نالت قوتها وتأثيرها في النفوس من التدين والعدل البروتستانتي، كما أن ذوي المزاج والتقوى الدينية تسودهم ظاهرة المساواة، حتى إنهم يجدون صعوبة في قبول ألفاظ المبالغة في عبارات التميز والمدح لأفرادهم أو لغيرهم، تنفيذاً لعقيدة المساواة، فالإيمان لا يجتمع مع عقيدة تقديس الأشخاص، وكما حاربت المسيحية في مرحلة ما الصور والمنحوتات «مواجهات الأيقونيين واللاأيقونيين» فإن الإسلام كان أشد حسماً في عبادة الأوثان وتقديس الصور والشخوص، التي هي من مداخل الاستبداد والوثنية على النفوس.

---

(١٨) برنارد لويس، **الغرب والشرق الأوسط**، ترجمة نبيل الطويل (بيروت: [د. ن.]، ١٩٦٥)، ص ١٧٨ ـ ١٧٩. وكان الكتاب قد أنجز عام ١٩٦٣م.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٤٨.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢ ـ

# العولمة غنيمة العصر وغرمه

يحتاج هذا الصراخ العالي المجمل ضد العولمة الذي ربما شاركنا فيه نحن ـ المسلمون ـ بقوة، لإعادة نظر والتأمل في موقفنا مرة أخرى، فعندما نجزئ العولمة إلى مكوناتها الأولى نجدها مكونة من «فكرة وآلة وسلطة» تلتقي على أعلى مدى من الاندماج وتكامل الأدوار، حيث بلغت معرفة الإنسان وقدرته على تطوير وسائله مرحلة قربت المسافة بينه وبين مخترعاته، وبينه وبين جنسه وغيره من الكائنات، وقربت العالم؛ ولهذا قبلت هذه التسمية، كما أنها ضاعفت من قدرة الآلة، وبالتالي زادت قوة الإنسان على الانتفاع والتضرر. وبما أننا في هذا البحث نرصد مظاهر الصعود الإسلامي، ونؤيد وسائل القوة التي تتسع ملامحها لديه، فإن العولمة وكما ثبت ولو على مستوى يسير قد حققت وهي تحقق اليوم للمسلمين مكاسب جليلة، في مجال تعلمهم، ونشر آرائهم وعقائدهم، وفي مجال التواصل مع إخوانهم في العالم، وفي ميدان المعرفة بالأمم الأخرى وما عندها من وسائل القوة والنفع. والعولمة قد تكون للمسلمين كما هي لغيرهم وسيلة محايدة في ذاتها، قابلة للنفع والضرر من حيث محتواها. بل قد تنحاز لهم؛ لأن «أسلحة المعلومات هي مستويات تساعد الأمم الصغيرة ضد الكبيرة، وتنحاز إلى المدافع ضد الغازي»[1]. وعلى الرغم من استفادة الدول والشركات الكبرى من ثورة الإنترنت، إلا أنها في الوقت ذاته تدفع ثمناً باهظاً، وهو المشكلات المصاحبة لهذه الثورة ومغانمها، فأصبح تسرب المعلومات، والأسرار،

---

(١) ولتر ب. رستو، **أفول السيادة**، ص ٢٦.



Twitter: @ketab_n

والاختراقات للمواقع هواجس أمنية تحشد لها قوى كثيرة للحماية والدفاع المعلوماتي. ومع ذلك فالعولمة أبعد أثراً وأوسع مدى من الإنترنت والتلفاز والبنوك والشركات، إنها طرائق حياة للبشر جديدة، ومستقبل لا زال يكشف دائماً عن جديد.

عبرنا مرة أمام مبنى في منطقة هوليود في وقت متأخر ليلاً، وإذا بالكاميرات مسلطة على سطح مبنى مجاور من دور واحد، وهناك من يحاول المشاهدة لما يحدث بصعوبة، فسألت الصديق الذي معي فأخبرني أن هذا برنامج حي يصور ويبث مباشراً، وجمهوره في هذا الوقت غالباً في آسيا التي بدأ فيها الليل أو أوائل المساء، ومع الفجر سينام هؤلاء وقد حققوا أرباحاً كبيرة من رقصهم قرب بيوتهم في كاليفورنيا، وحققت الشركات التي يعملون لها، وشركات الإعلان، ربحاً كبيراً، واستمتع الآسيويون أو خسروا فكراً ووقتاً ومالاً، من على بعد آلاف الأميال، وهناك فرصة أخرى أن تقوم أعمال جالبة للفائدة أو للمتعة من بلاد بعيدة وتجعل سكان عالم بعيد يشاركون في الربح أو الخسارة لشركة أو دولة في أقصى العالم أيضاً، ويتم العمل الترفيهي كما يسمونه، ويدفع ثمن هذه الخدمة، في اللحظة نفسها، وكأنه يتم في موقع واحد قريب.

حققت الشركات في أمريكا الجنوبية أرباحاً خيالية من خلال الأعمال الإعلامية في أمريكا الشمالية. وعندما ترتفع أجرة موظف في مطار في ألمانيا أو يريد النوم يقوم بدوره موظف آخر بأجر أرخص وهو مقيم في داره في كاليفورنيا، وذكر مؤلف كتاب **ما هي العولمة** أولريتش بك، أنه كان في أحد مطارات ألمانيا وكان الركاب يستمعون لمرشد يوجه الركاب للسير نحو بوابات سفرهم في المطار الألماني؛ بينما كان الموظف الموجه يقوم بهذا العمل من كاليفورنيا. فالسيطرة على المسافات، وتقارب الأسواق [ورد ذكر تقارب الأسواق في أحاديث أشراط الساعة] وزيادة التأثر والتأثير بين الأمم هي من غنائم أولئك الذين يقدرون على ملء هذه الوسائل بالأعمال والأفكار. والعلاقة الواسعة بالعالم ليست خسارة إلا للمفلسين من الأفكار والأخلاق والمعرفة والمغامرة، أو للمضطربين والقانطين واليائسين، وهذه العوائق جزء منها معرفي يمكن تلافيه بالتعلم، وآخر نفسي، لا بد من الصراحة مع النفس والناس في مواجهته وعلاجه. وبنشر المعرفة وزرع المزيد من الثقة، والتوجه



Twitter: @ketab_n

لمشاركة العالم الواسع يمكننا تطوير وتقوية عولمتنا لتكون منافسة ثم رائدة في تغيير وجه العالم.

ومن الجوانب المهمة في العولمة أن ندرك أن العالم ليس الغرب فقط، بل يمكن للعولمة التأثير فيه، وسوف يكون من العولمة التأثير الإسلامي في نواح أخرى من العالم. مثال ذلك في الجوانب الاقتصادية والتجارية فإن أصحاب المال في الدول الضعيفة والفقيرة يرسلون أموالهم للاستثمار أو لمجرد الإيداع في بنوك غربية، وهذه البنوك ترسل الأموال نفسها للاستثمار في البلاد المتخلفة حيث الأرباح المضاعفة، ثم تمن على أهل رؤوس الأموال بجزء يسير من عوائدهم. والآن أحسن من ذي قبل حيث يمكن للبنوك والأفراد أن يصنعوا عولمتهم المباشرة في التوجه لأسواق العالم من دون وساطة غربية. ويجب التحرر من عوائق الخوف أو الاعتقاد والتعود على أن مصدر المعرفة والعمل والتفكير يجب أن يكون غربياً!! ومتى امتلك المسلمون، أو استطاعوا أن يروا قدراتهم فسوف يتغير الكثير، وبدأ التغيير فعلاً؛ فالمعرفة والشجاعة، والقدرة على خلع ربقة عقدة النقص التي دمرت خيال الإنسان في العالم غير الغربي سوف تحمل الإنسان المسلم وغيره لصناعة محتوى آخر لعولمة سوف يحبها ويؤيدها ويرعاها. فالمشاركة الواعية في غنيمة العولمة هي الخيار المجدي للمسلمين، وسوف يرون أن هناك عولمة هي عين ما يتمنونه، وما بقوا قروناً يرقبون تحققه. فالمعرفة والمشاركة والانفتاح والثقة هي من أهم زاد المؤمن في اقتحام عالم واسع سوف يجعله أليفاً له، متفقاً مع فكره، أو منساقاً وراءه.

إن افتراضنا تصديق القائلين إننا نملك الخيار أن نكون متعولمين أو لا نكون؛ فإن الخيار الأنسب أن نُقبِل بقوة وقناعة على وسائل العولمة، ونملأها بما ينفع الناس، ونجلب منها خير ما فيها، ونصنع للعالم ما يمكنه أن يكون أسعد بحياته، وأقرب للحق، إننا نملك الكثير مما لا نعرف، أو لا نعرف قيمته عند غيرنا، أو لا نعرف كيفية استخدامه، كما في قصة النفط. فنحن وللأسف إلى الآن شعوب قد تعرف ما تريد ولكنها لا تعرف كيف تحقق ذلك. وقد تنام على ثروة لا تعرفها، وقد يصبح ويمسي الإنسان محتقراً لجهده، ولمواهبه ولقدراته، وجاهلاً بها. فالتعرف إلى العالم طريق جيدة لمعرفة أنفسنا، وطريق مهمة لإيصال قناعاتنا، ولجلب أنصار لمواقفنا، ولمعرفة نقصنا وكمالنا.



Twitter: @ketab_n

إن نزعة الهروب إلى الداخل نزعة الجهلاء والجبناء، وهي خير وسيلة لهم للدفاع عن أنفسهم، ولكن أنّى لهم من مهرب في عصر هذه العولمة، وهذه الوسائل الجبارة؟ إنها محاولات يائسة للهرب، ولن تجدي كثيراً؛ فهي من باب قولهم: «يمكنك الهروب ولكن لن يمكنك الاختفاء». إن الهروب تخلٍ وضعف واستسلام وتقوية للخصوم، وثمن هذا الهروب أكبر من ثمن المواجهة في ميدان العمل العالمي. وبدلاً من أن تغلق على رأسك المنافذ اجعل العالم يفكر بأفكارك، ويرى رأيك، وهذه طريقة سليمة لامتحان ما عندك، وسترى كم فيه من الحق وكم فيه من الباطل، وكم فيه من الدين وكم فيه من الجهل، سترى جوانب قوة عقدية وسلوكية لم تكن تدرك أهميتها، وسترى جوانب ضعف وتقصير وجهل كان أولى بك أن تتخلى عنها منذ زمن.

وسترى هذه العولمة وهي تفتح لك منافذ للقوة وللرزق وللسفر وللهجرة وللمغامرة في الآفاق أكثر مما عرفت ومما فكرت فيه. العولمة خطر على الجاهلين وفارغي الأذهان، ولكنها أيضاً طريق للمعرفة، وقد يكون فيها من وسائل الوعي والثبات الكثير. العولمة كانت خطراً على أعرابي جاهل يخرج من قريته ليضيع على شواطئ البحار وفي الفيافي، ولكنه لما اغتنى قلبه بعالمية صحيحة تعولم وغيّر العالم من حوله، فالعولمة القديمة لم تكن خطراً على مسلم ممتلئ القلب والعقل والعاطفة، وعلى ثقة بدينه ورسالته أن يخترق آفاق آسيا وافريقيا والامبراطورية الرومانية، ويموت على أسوار القسطنطينية وما وراء النهر، بل كانت وسيلته لتحقيق مراده.

قد تقول: وما علاقة الرسالة الإسلامية بالعولمة؟ أقول: إن من اهتموا بتعريف هذه الظاهرة يرون أن العولمة قامت بها الأديان أولاً قبل أن يقوم بها غيرها. العولمة أو العالمية أخرجت الأعرابي من ضيق الأرض إلى أوسع أبواب الدنيا والآخرة، ومن الجزيرة العربية إلى أرحب آفاق الدنيا، ومن الفقر إلى الثراء، ومن الجهل إلى المعرفة. في هذه العولمة المعاصرة بدأ المسلمون يحققون جوانب مهمة ذات أثر مشكور، وهم في بداية أمرهم، وخير لهم أن يساعدوا في كل شيء يفتح لهم آفاق العالم، ويسهّل لهم طرق العولمة على طريقتهم، وذلك قد يلزمهم أن يقبلوا ببعض التكيّف الذي لا يضرهم، وبعض المداراة التي تفيد ما لم تأت على أصولهم. وهناك يحققون الكثير، ويشاركون في صناعة عالم سيرون أنه عالم يقبلهم، ولا يكرههم، ويستقبلهم باهتمام وقبول لم يتوقعوه. إن هناك محاولات جادة اليوم يقوم بها



Twitter: @ketab_n

بعض من تتخيلون أنهم أنصار للعولمة ليكبحوا من جماحها، ويغلقوا الطريق على الذين يحاولون الاستفادة منها. ومنهم من أعلن موتها، ويسرّه أن يغلق الأبواب على هذا العالم ليبقى العالم الإسلامي بعيداً خارج بلاده وآفاقه. يرسل فقط من يمتص ثروته بشرط أن تغلق كل النوافذ، فهذا العالم الخارجي عنده شر، يجب أن يبتعد عنه! ليست هذه رؤية المسلم للعالم، بل العالم ميدان خير، ودواعي الخير فيه أكثر من نوازع الشر، والانفتاح عليه خير طريق لجلب المنافع للنفس وللناس. والسير في الأرض والتعلم قيم إسلامية خالدة، كلما اتجهت لها الأمة جاءت بالخير العميم، وكلما انطوت وخافت وانكمشت أكلها خصومها، واعتبروها مادة جامدة «خام» كأي نوع من ثرواتها المستخرجة من ترابها وبحارها. آن لها أن تُنهي عصر أن تكون الأمة هي «المائدة» أو كما في الحديث «القصعة»، التي يتحطم عليها الناس، لتبحث لنفسها عن موائد في الكون الفسيح. من الطريف أن نذكر أن عدداً من الغربيين يسمون النفط في المنطقة العربية «الغنيمة» أو «الجائزة» أو «أكبر غنائم التاريخ»[٢]. وتلتقي هذه التسميات في فحواها مع التسمية النبوية وتفسيره لقصة أن تكون الأمة «القصعة» التي تحتطم عليها الأمم.

إن المغامر لا يكون غالباً من غثاء الناس، ولكن النباهة والحاجة تجعله يجول في المكان من صقع لآخر، يتبع مطامحه وأفقه وحيله التجارية واسعة، أو عقيدته هي التي تخرجه لخدمتها، أو شهيته لحال أحسن، أما القابعون الخائفون الحائرون فهم خير الموائد للمغامرين، يصبحون لطموحهم وقوداً وزاداً. خير لنا أن نصنع المعرفة والمؤسسات والشركات التي تغامر في بحار العالم ـ وأصبح حتى الجو أيضاً بحراً أو ميداناً للمكاسب الروحية والمالية والعلمية ـ وأن نصدّر العمل والأفكار والمال والرجال ليكونوا طلائع الأمن لنا، ووسائل الأمل والأمر بالخير في العالم، وأن نغادر أوهام الخوف من العالم، والرعب منه، إنكم إن عملتم بجد وجدتم العولمة خير وسيلة عرفتها البشرية في العصور الأخيرة، وستحمل العولمة أفكاركم وهديكم للعالم. وسترون حاسديكم وخصومكم يحاربون العولمة، ويحاولون أن يغلقوا الأبواب

---

(٢) هذه التسميات كان أحدها عنوان الكتاب المهم الذي كتبه رئيس تحرير جريدة **نيويورك تايمز** الأسبق دانيال يرجن بعنوان **ذا برايز، الغنمية**، وأيضاً كان عنوان البحث الرئيسي لكتاب شهير لتشومسكي، وكتب نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا في سياق شعري في مذكراته عن الجزيرة العربية بأنها «الحسناء النائمة على الكنوز» وأنها مطمح الغزاة The Prize.



Twitter: @ketab_n

على رؤوسهم ويهربوا لزوايا الجهل والخوف يفتون أبناءهم بضرورة التخلص من العولمة ومن شرورها. إنها باب للخير واسع وباب لغيره أيضاً وهي بحسب دور كل فيها.

الانغلاق على أنفسنا يجعلنا مادة لنجاح عولمة غيرنا لنا، ونصبح ثروة لمن يغزونا، وخروجنا للعالم وقد تعلمنا وتدربنا تدريباً عالياً لائقاً سيجعل العالم مادة لمعرفتنا، إن الثورة المعرفية والسكانية والتجارية والإدارية في البلاد الأنغلوساكسونية جعلت العالم يوماً ما مادة خاماً لهم، بشراً وتراباً، والعالم اليوم لم يتغير كثيراً. والإنسان المسلم يمكنه أن يبدأ دورة جديدة في التاريخ الإنساني أكثر عدلاً وتقديراً وتكريماً للبشرية. دورة تواصل وتفاصل الإرث الإسلامي والغربي والشرقي بوعي وانتقاء وتقرير وبناء على أسس فكرها المستقل. والجانب المشار له هنا من العولمة هو جانبها الآلي، وجانبها الإيجابي، وهو كبير جداً. وهناك جوانب ضرر يمكن تلافي الكثير من سلبياتها، وبعضه يمكن التخفيف من ضرره، غير أن الشعور الصحيح بمسألة التدافع الواعي بين أمم الأرض بين أفكارها وأسواقها وسياستها يجعل المسلم يشارك العالم في موجات تاريخية واقتصادية وتحولات كبيرة بشجاعة ومن دون انهيار ولا هروب وعزلة عن العالم. فالعزلة اليوم في كثير من جوانبها وهم، وبعضها انطواء وقتل للنفس وللثقافة، وإضعاف للقدرات، وللدور الفاعل.

وهي أشبه بحال المريض بمرض الاكتئاب، حيث يجنح المصاب به للوحدة والحزن والشك في الناس والخوف منهم وعدم الثقة، وهذا ما أدى بالمسلمين إلى نقص المناعة المتولدة من المجالدة للأمم وللأفكار، والخروج من ضيق العزلة والشك والخوف والضعف وعدم الثقة، فهذه العزلة ليست في مصلحة المسلمين ولا العالم. وظهرت بوادر كثيرة على كسر هذه الحواجز، واقتحام عالم المشاركة والتأثير، وبهذا يحدث التغيير.

أمريكا اليوم تهرب من أنماط خطيرة من أنماط العولمة وهي جوانب مهمة ومركبات أساسية لمشروع العولمة. فحرية التجارة تهدد سلبياتها أمريكا في داخلها، ورجال الكونغرس يضغطون بقوة على الحكومة لتوقف بضائع معينة، والكونغرس نفسه يضغط على الحكومة من أجل فتح أسواق أخرى في دول العالم وإنهاء حمايتها، إنها خيارات صعبة بين فتح أسواق العالم لهم، وإغلاقه أسواقهم، بالحماية الجمركية، كما فعلوا في موضوع الحديد، وتأتي



Twitter: @ketab_n

مشكلة الدواء، ويتلوها كثير غيرها، فقد هددوا الدولة الوطنية في العالم وجعلوها تعاني مشكلة نقص السيادة، والسيادة لها جوانبها السياسية والثقافية والاقتصادية، والمبدأ الواحد الثابت يهدد تلك الدول والمجتمعات كما يهدد أمريكا نمط تجارة أو قانون واحد، وبالتالي فحديثهم عن النداء الأخير للعولمة، وعن خيبات العولمة، صرخات لها ما يبررها، بل لقد أتى النداء الأخير ضد العولمة من الشخصيات التي تبنتها ذات يوم[٣].

هناك من يختزل العولمة في رقصة أو شركة أو في حادثة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كأنموذج لما يمكن للعولمة أن تضر به العالم، وما يمكن للشركات الكبرى أن تعزز به مظالمها وامتصاصها للشعوب الفقيرة، واستغلال العمال، وإنهاء التجارات الصغيرة، وتقليص سيادة الدول والحكومات المحلية، غير أن العولمة عالم مليء بكل شيء، بالخير والشر، وبالربح والخسارة، فلنرَ بعض الجوانب الجيدة التي حققت فوائد للعالم الإسلامي، أو بعض ما يمكنها تحقيقه، مع ملاحظة أننا لا نقصد هنا اندفاعاً مع مكاسبها، غافلين عن خسائرها، ولا نرى أنه بإمكاننا أن نذهب بعيداً عنها، لأنها جلبت بعض الشرور، إنها وسيلة رائعة، بدأت قديماً جداً، ولا نعرف إلى أين ستسير هذه الموجة بالناس. فليكن لنا من فوائدها نصيب، لأننا لا نملك أن نعيش خارجها، ولن نعط الخيار غالباً، فلنصب من مغانمها، وهي كبيرة جداً، ولنسع مع غيرنا لتجنب مغارمها.

وحدث تطور كبير في عقول وسلوك المسلمين تجاه التقنيات الجديدة، فقل الخوف من التقنية ومن اقتحام جديدها، فالخوف موقف ضعف وانزواء،

---

(٣) من الكتب التي حذرت أخيراً من خطر العولمة على الدول الغنية والفقيرة كتاب: **خيبات العولمة** لـ جوزيف ستيغليتز، حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، وتولى مناصب عالية في البنك الدولي، وكان رئيس المستشارين الاقتصاديين في حكومة الرئيس كلينتون. وكان من صناع الترتيب التنفيذي للعولمة، فبجانب السلبيات الكبيرة للعولمة كما يشرحها الكاتب ترى بعض المكاسب والخسائر للجميع. وهو يؤكد السلبيات الماحقة كما يرى، أنها واقعة على الجميع، ويخوف قومه وغيرهم، أما الترويج لبعض جوانب العولمة هنا فهو لما بأيدي الناس من وسائل نرى منافعها، لأن خلاف ذلك هو بأيدي غيرهم، وليس لهم فيه رأي في عالم المسلمين، فلا يليق بنا الصراخ مع المعترضين، ونحن لا نملك رد الأمر، ونفوت المنافع لأن غيرنا يتضرر، ومادام الأثر السلبي واقع لا نرده، فليأت الخير أيضاً معه، وهي مرحلة من حياة وأفكار الناس، غنائمها كبيرة وخسائرها، وليست مطواعة أحياناً حتى لأهلها، فلنفتح الأعين على المكاسب أيضاً، وهذا أقل ما نحققه في سياق هذا الجدل.



Twitter: @ketab_n

والمشاركة موقف ثقة وقوة، واجه المسلمون في عصر ضعفهم البنادق ثم المطبعة بخوف شديد، وحرموا الطباعة عدداً من المرات، ثم أجازوها ثم حرّموها، أما اليوم فلم نسمع عقلاء منهم أو ذوي وزن يحرّمون الإنترنت، بل أغلبية المواقع العربية على الإنترنت إسلامية، أما نسبة زيارة هذه المواقع فلا مقارنة بين عدد زوار المواقع الإسلامية، وزوار المواقع غير الإسلامية. وهذا مؤشر استباق ونضج، وشعور بالقوة الذاتية، لا يستطيع الإقدام عليه الخائف الضعيف والمتردد والجاهل. فهنا جمع مؤثر لاحظ في وسيلة مخالفة أداة قوة فكرية وتنفيذية وسلوكية، فقلب هويتها بعفوية وبساطة سريعة، وساهم في صناعة فكر ومدنية من وجهة نظره، وذلك بعد معرفة الغرب لهذه الوسيلة بأقل من ثماني سنوات. هذا في الوقت الذي استغرقت فكرة تأسيس الطباعة العربية أكثر من ثلاثة قرون ونصف بين انتشارها في الغرب وبدئها في العالم العربي[٤].

(٤) حرمت الطباعة باللغة العربية بحجة قداسة اللغة، والخوف على القرآن عام ١٤٨٥م في عهد السلطان بايزيد الثاني، ثم سمح بها بالتركية بعد نحو ثلاثة قرون، ثم حرمت مرة أخرى، وكان مسموحاً بالطباعة بغير العربية، ونشأت متعثرة في حلب عام ١٧٠٢م وأغلقت، وبعد أكثر من مئة وعشرين عاماً بدأت في مصر في عهد محمد علي باشا.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٣ ـ

# روح الوعي العام

وصلنا في هذه الحقبة في العالم الإسلامي إلى مرحلة خطرة في مسيرة الأمم والحضارات، ألا وهي مسألة الوعي العام المشترك، وهذا الوعي يحدث على مستوى فئة قليلة متماسكة، دينية أو اجتماعية، ويقوم على تماسك ومكونات ثقافية وهدف مشترك. وهذا المستوى من الوعي والتماسك صنعته ظروف داخلية وخارجية عديدة، في مختلف بلاد العالم الإسلامي، منها ما كان إرادياً ذاتياً واعياً، ومنها ما كان تصرفاً خارجياً قامت به قوى وأحزاب وأفكار مضادة، وكان في أغلبه نتيجة موقف حصار وكراهية ومواجهة للمسلمين.

أنتجت حركة التمرد على الدين والحركة الشيوعية والليبرالية في العالم الإسلامي خصومها بكل شدة وعنف، وأنتجت التيارات الأكثر التزاماً ويقينية وتماسكاً على الأهداف الدينية. وساهمت الحركة الماركسية في صناعة موقف إيماني عميق مضاد لها، وصنعت موقفاً عسكرياً نضالياً ضدها، كانت أهم وآخر مشاهده المعارك في أفغانستان التي حررت العالم نهائياً من الحركة الاستعمارية الروسية، وساعدت على إفشال الفكرة الشيوعية، وساهمت في تحرير شرق أوروبا والجمهوريات الإسلامية، وصنعت موجة من التاريخ جديدة لم تزل في بداياتها من حيث ظهور آثارها. ولكنها حركة تاريخية جاهزة من حيث الكثير من وضوح محتوياتها وبعض إنجازاتها وتطلعاتها. وأنتج الاستعمار حركة وطنية جادة تسمع وتفهم ألاعيب الحركة الاستعمارية أكثر من أي عصر مضى. فالتوجهات التي كانت شيوعية أو



Twitter: @ketab_n

ليبرالية متغربة أدركت الشعوب أنها موجات استعمارية دخيلة، تخدم سادتها من خارج البلاد.

وبهذا قامت المواجهات في بلاد المسلمين على قاعدتين بارزتين هما القاعدة الدينية الأكثر تأثيراً، والقاعدة الوطنية التي صنعت وعيها سابقاً بأدوات وأفكار جزئية غربية مثل القومية والوطنية. ويساعد اليوم عامل مهم وهو الموقف الغربي الموحد ثقافياً؛ والمختلف سياسياً في صياغة الموقف الداخلي المتحد في داخل العالم الإسلامي. وهذه الرؤية المتماسكة والموقف الموحد يصنع قوة في الصف الداخلي للأمة، ويخفف من نشر التمزق وثقافة العداء والتفسخ في المجتمع. كما ينشر هذا الموقف أهمية الشعور بالثقة والوحدة.

وزاد المسلمين حرصاً وتفانياً لدينهم مواقف المتطرفين من اليهود والنصارى، فظهرت التطرفات الموتورة من الإسلام، والبذاءة في حق المسلمين أمة ورسولاً وديناً، ورؤية الإسلام باعتباره شراً على البشرية، يجب إنقاذ الناس منه، والترويج لمن قيل إنهم ارتدوا عن الإسلام، واستغلال أسمائهم كشواهد على مسلمين أنقذوا أنفسهم، ومؤتمرات ودروس كثيرة للتعامل مع المسلمين وتغيير دينهم، من سكان أمريكا وخارجها[1]. حيث وصلت إلى حد التبشير بإنهاء الإسلام. واقرأ هذا النص الذي كتبه ونقله باتريك سيل، وهو من ليس له صلة بالإسلام، حتى يتهم بالدفاع عنه، وهو يصف مشاعر المسلمين وغضبهم تجاه تصرفات الغربيين، ثم يسوق بعض شواهد التطرف الفكري في النظر للمسلمين ومستقبلهم، وهي كلمات شاردة من زعيم صهيوني ولكنها معبّرة عما يجول في عقول كثير من القيادات اليهودية والنصرانية يقول: «إن هنالك مآخذ كثيرة أخرى كالهجوم الوحشي على أفغانستان والعراق وما انتهى إليه من ضحايا بشرية وتدمير مادي، والتأييد الأعمى لإسرائيل في قمعها للفلسطينيين، وملاحقة المنظمات الإسلامية والمؤسسات الخيرية والأفراد التابعين لها على نطاق العالم بأسره،

(١) مثل مقال لوري غولدستين في **هيرالد تربيون ونيويورك تايمز** عن «رؤية الإسلام كشر» في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣م، وهذه العبارة هي تكرار لعبارة الرئيس في خطابه عن صراع الخير والشر، ومحور الشر، ونصوصه الإنجيلية المتكررة.



Twitter: @ketab_n

و«الحرب العقابية على الإرهاب» التي تشمل عدداً كبيراً من التدابير التي يعتبرها المقاتلون حرباً على الإسلام نفسه».. وصرّح وزير السياحة الإسرائيلي، بني ألون، لصحيفة **هآرتس** في مطلع هذا الشهر قائلاً: «من الواضح أن الإسلام في طريقه إلى الزوال.. فما نشاهده اليوم في العالم الإسلامي ليس انتفاضة إيمان قوية، بل انطفاء جذوة الإسلام. أما كيف سيزول فبكل بساطة، بقيام حرب مسيحية صليبية ضد الإسلام في غضون بضع سنوات، ستكون الحدث الأهم في هذه الألفية. وطبعاً سنواجه مشكلة كبرى حين لا يبقى في الساحة سوى الديانتين الكُبريين، اليهودية والمسيحية، غير أن ذلك ما زال متروكاً للمستقبل البعيد».. ثم يعقب على النقل:

«مثل هذه الآراء تستفز ولا شك مشاعر مليار من المسلمين في أنحاء العالم. ولكن حين تستلهم السياسات الأمريكية مثل هذه المشاعر البغيضة المعادية للإسلام فإنها تولّد المقاومة وتغذّيها وهذا ما نشاهده الآن».

وصُدِم الرأي العام العربي والإسلامي، بل في معظم الدول الأوروبية أيضاً، بالخداع والمراوغة اللذين مهدا للحرب على العراق. فأسلحة الدمار الشامل لم تكن سوى ذريعة جوفاء للاجتياح، شأنها شأن الادعاء الذي جرى ترويجه بوجود علاقات بين العراق و«القاعدة» الذي لم يقم عليه أي دليل. فالهدف الحقيقي للمحافظين الجدد وحلفائهم من الصهاينة المتطرفين هو إعادة تشكيل الشرق الأوسط بواسطة القوة العسكرية، أملاً في جعله موالياً لأمريكا ولإسرائيل، وذلك بخلق الظروف كي تفرض إسرائيل إرادتها على الفلسطينيين وعلى المنطقة بأسرها»[٢].

ساهمت هذه المواقف المتطرفة ضد المسلمين في معرفة النفس والعودة إلى الدين ومركبات الهوية المسلمة، وأشعلت جذوة الصراع والبحث لها عن مصادر القوة. وجعلت هذه التحديات الصريحة الجسيمة والمروعة من المسلمين أمة أحرص على نفسها من ذي قبل. وأشاعت روحاً جامعة ومتماسكة متراحمة في زمن القسوة على الأمة والحملة لإرهابها. وتعاطفت مع المسلمين الساحة العربية على اختلاف أديانها ومذاهبها، لما شاهدته من

---

(٢) **الحياة**، ١٦/ ٥/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

اندفاع وظلم جارف، على من يشاركونهم الأوطان والمصالح وربما النسب. فإذا كان الأمريكي المندفع يقتل السيخي بسبب عمامته[٣]، والقبطي بسبب سحنته ـ بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ـ فحين ضيّقوا مساحة التفاهم والعلاقة السلمية، أثاروا شعور المسلمين والمستضعفين في العالم أن يجمعوا أنفسهم والضحايا الآخرين للتصدي للقوى الهائجة المروعة الآتية من الغرب.

(٣) في مدينة هاملتون الكندية، وبسبب أشكال الهنود وعمائمهم التي توقع الكنديون أنهم مسلمون، فأحرقوا معبداً للسيخ، وفي اليوم التالي، كتب السيخ لوحة أمام المعبد تقول: «نحن لسنا مسلمين».



Twitter: @ketab_n

## ـ ٤ ـ

# الحركة القومية: مكاسب الخسائر

لم تعد الحركة القومية اليوم خطراً ماثلاً يتحدى الإسلام، وإن عادت هذه الحركة ذات يوم فلن تكون على نفس الموقف الموتور تجاهه، وهي وإن ساهمت ذات يوم في حرب الإسلام، وقتل رجال فكر إسلامي وقادة وعلماء ودعاة، ما يصعب تجاوزه في بلاد عربية وإسلامية عديدة، ومثّلت قاعدة متقدمة لفكر دخيل في أعماق الأمة، يمد جذوره إلى العنصرية الأوروبية، وبقية شبكة أفكارها الوثنية والدينية، تلك الأزمة التي كانت خانقة لا تجعلنا نتجاهل الفوائد التي جناها المسلمون من هذه الحركة التي ساهمت في خروج الاستعمار في صورته المباشرة ثم استطاع أن يوجهها ـ بوعي أو بمصالح مشتركة ـ لمحاربة الإسلام قصداً أو تبعاً. ليس في هذا السياق حديث عن تقييم الحركة القومية، ولكن مدار القول إن هذه الحركة ساهمت في صناعة بداية للتاريخ الإسلامي، وفجره الصادق الجديد، وهي لم تكن تريد ذلك. غير أن الامتزاج بين الإسلام والعروبة كان أقوى مما توقعته هذه الحركة[1].

وكانت نتائج ذلك أن صبت في مصلحة الإسلام خلافاً لما أرادته هذه الحركة. بل وقع بعض الإسلاميين في أخطاء تضر بالإسلام ولم تقع فيها الحركة القومية نفسها التي قامت على الخصومة مع الإسلام.

---

(١) وذلك ما لاحظه القوميون العرب المغاربة، حيث يجدون كلمة عربي ومسلم لا فرق بينهما، ولكن في المشرق العربي حيث الوجود النصراني الأكثر، والدور في تأسيس الفكرة القومية العربية كانت القومية المشرقية مفارقة للإسلام معظم الأحيان.



Twitter: @ketab_n

وسبب ذلك أن الحركة القومية تعتمد البلاد العربية ميداناً لعملها، واللغة العربية لغة للعمل والتواصل والإقناع وجامعة مؤثرة، فيما نجد للأسف من الإسلاميين من تهاون بمسألة اللغة العربية، نشراً والتزاماً وممارسة، وقصرت همم بعضهم جغرافياً، فأصبحوا لا يفكرون في أكثر من نوازع إقليمية وقطرية ضيقة. وهنا تتقدم عليهم القومية وباتجاه الرسالة الإسلامية. وأختصر القول هنا بمثال قديم قيل عن بني هلال وهجرتهم للمغرب والحروب التي أثاروها، فقد اختصر الشيخ ابن باديس جهدهم بقوله: «إنهم وإن خربوا لكنهم عربوا»، وكان المغرب العربي آنذاك تضعف فيه اللغة العربية وروابط الإسلام، وتقوم اللهجات العامية الميتة بديلاً من المعرفة والثقافة العربية الإسلامية. ووصف ابن باديس صحيح لموجات بني هلال، ويصدق على القومية العربية ومدها، فإنها وإن خربت كثيراً وأساءت للمسلمين من غير العرب، كما فعل بعض المتطرفين القوميين، ولكن هذه الحركة عرّبت العالم الذي يسمى «بالعربي» على الرغم من تهاوي لغته وضعفها.

وكان رجلان عربيان عاميان في منطقة متقاربة ربما شق عليهما التفاهم، ولكن اللغة العربية اليوم بتوفيق من الله، ثم بأسباب عديدة لا نحقر منها العامل القومي عادت بقوة. وتجمع هذه اللغة اليوم الناس على المواقف الدينية والسياسية، وأصبح العربي يشعر أكثر من أي وقت سبق بوحدة وتماسك على الدين القيم، ويشعر أكثر مما سبق بمكانته في مسيرة التاريخ، فلئن سقطت القومية كفلسفة لكنها أبقت أثراً حسناً بجانب السيئات التي صنعتها.

ومما يفيد الأمة أن نجعل من هذه الانكسارات والخسائر والانحرافات رصيداً تجريبياً نافعاً، ومخلصاً من سلبيات لا تتكرر، وتكون هذه الحركات بمختلف جوانبها رصيداً معرفياً وتجريبياً نافعاً لمرحلة جديدة تستوعب السلبيات ولا تكررها. فكما أن قناعتنا أن القومية دين أوروبي عنصري أراد أن يكون بديلاً من المسيحية وغيرها، وخلاصاً من مشكلات الكنيسة وسيطرتها في أوروبا، فإننا في مرحلة سقوط هذه الفلسفة لا نقف عندها متحسرين على انتشارها يوماً ولا هجّائين لها مشغولين بها، بل نبقي على مكاسب الأمة منها، كما أبقى الإسلام «ديناً» والمسلمون «ممارسة» على ميراث العرب الفكري والأخلاقي والاجتماعي الذي كان قبل الإسلام مما لا يصطدم معه، ويجلب الخير ويميزه، ويحسن وضعه في صياغته الإسلامية الجديدة. فالتكوين



Twitter: @ketab_n

القبلي والعشائري حقيقة كانت قبل الإسلام، وجعلها الرسول (ﷺ) من خير وسائل تقوية وانتشار الإسلام [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]، وأمر بإطلاق بنت حاتم الطائي لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وبسبب ثقافة الكرم والعفة والشهامة التي اشتهر بها.. ويمكن لهذا السلاح أن يعود بالتدمير والتخلف حين يساء التعامل معه. فقد ذهب كثير من قادة الفتح الإسلامي نتيجة للصراع القبلي والعشائري، عندما انحرفت الطباع، وهوت الهمم، فذهب محمد بن القاسم، وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم وزعماء كثر غيرهم ضحية لنزاع عشائري، أعاق حركة المد الإسلامي ومزق المجتمع العربي، تحت النعرات العنصرية الفاسدة. فإذا ما نظرنا إلى القومية العربية أنها وحدة كبيرة سكانية وجغرافية وثقافية تساهم في نهضة الإسلام، وتستعيد رسالتها، كأحد مكونات المرحلة الجديدة، ومن مراكز التأثير والصياغة لعالم إسلامي كبير، ليس العالم الجغرافي بل العالم الفكري الإسلامي الذي سوف يجد نفسه في كل بقاع العالم، وعلى أيدي جميع الأجناس، ويتجاوب مع العالم العربي لا بكونه وصياً على لغة ولا قومية، بل لكونه مهد الإسلام ومنطلقه، وقد يكون في أمم أخرى ـ أجناساً ولغات وجغرافيا ـ مكمن لقوة الإسلام ونفوذه وتأثيره، ويتعامل الإسلام مع العناصر والقوميات والأجناس من حيث كونه التفسير والممارسة الغلابة النهائية، وغيره يكون وحدات نحترمها ونجعلها مكونات يعاد صياغتها في جسم العالم الإسلامي الأوسع. وفي جسم التعاطف الدولي المنصف الذي لا يحارب الإسلام ولا يعادي المسلمين بسبب دينهم.

فإذا كانت القبيلة سخرت ذات يوم في نجاح هذا الدين وانتشاره، فإن بقية المؤسسات والتركيبات يمكن لها أن تكون كيانات إدارية نافعة ومنتفعة في مرحلة صياغات إسلامية أكثر مرونة وجدة، ومرونة الإسلام في بدئه، هي حاجة تتجدد له اليوم، فالمرونة والاستيعاب سر النمو والنجاح والتقدم مع بقاء القوة الناشئة الصادقة التي لا تحارب ولا تدمر أصولها، والمرونة أقوى من القسوة والجفاف والجمود وتصلب العقول والأبدان. ألم ترَ للنبات الصغير المرن يلتف على الصخور والطبقات القاسية من الأرض ليخرج للحياة وللهواء ولضوء الشمس، ويصنع الثمار والنفع والجمال في الكون. تلك هي مرونة الإسلام في بدئه، حيث لا يتكبر على الواقع ولا يتجاهله ولا يعتسف المواقف، ولكنه يتعامل معه كما هو ويعترف به، ويسخر كل مؤسساته وقوته



Twitter: @ketab_n

لدربه القاصد الجديد. وبمثل هذا الشعور نتعامل مع الحقائق الموجودة لا نتجاهلها، ولا نتبناها، بل نجعل مما نعرف أنه حق ومفيد فيه منفعة للبشرية وعنصر نجاح للمستقبل، ونسلّ منها غلّ المخالفة لما نؤمن به. فليست كل آراء الناس ومواقفهم شراً محضاً. ولا يمكننا قبولها كما هي، فلسنا مدرسة صوفية حلولية تجمع كل شيء وتراه إلهاً. ولهذا فسوف نجد من وقوف الشيوعية مع العمال المقهورين في بداية عصر الصناعة وكانوا يعملون قرابة أربع عشرة ساعة في اليوم، جانباً صحيحاً آنذاك، فساهمت في رفع بعض المظالم ربما في البلدان التي لم تعتقدها كأمريكا وأوروبا، وخففت من الشرور الطبقية الرأسمالية، ولكنها جلبت شروراً أخرى. وتبقى الشيوعية كنهج فلسفي شامل، وموقف من الله والأديان، صراعاً اجتماعياً وتدميراً للفردية، وانتكاساً للفطرة، فهي شر بلا شك[٢].

ونحن قد لا نعاني مسببات تلك الحركة، ولو وجدت أسباب ومظالم للعمال فلن يكون ذلك النهج حلاً. ولسنا نجمع هذه المتناقضات، ولكن الثقة والعقل والإيمان بصحة ديننا ونهجنا تجعلنا لا نبالي أن نقول للحق هذا حق وللباطل هذا باطل، من دون عقد للنكران، ومن دون غرور، وباحترام للمحاولات الصادقة التي فشلت، أو لجوانب صحيحة من المحاولات الكاذبة التي قدمت إلى الناس جانباً من الحق لتدس لهم غيره، وعندنا الثقة والجرأة أن نعرف من القوميات والفلسفات خيرها، وأن نبين شرها. فالقرآن لم يلغ حقيقة أن هناك منافع من المتاجرة بالخمر أو غيرها، ولكن المحصلة النهائية منها شر. وهكذا سنجد أن هذه المواقف والثقافات والفلسفات ربما لفتت الناس إلى منافع، ولكن محصلتها هي ما نعرفه، مع اليقين بأن الأفكار غير الأشياء، فهي أخطر ضراً ونفعاً. وبهذا ندرك أن الإسلام في زمنه هذا حصد بجانب المآسي الكبيرة من الأفكار المستوردة الكثير من المنافع التي بقيت في أرضه، وأن عليه أن يعرف شرورها وينفيها، ويعرف مواطن القوة فيها

---

(٢) الشيوعية غرست سموماً ناقعة وملاحظات مهمة في فكر الناس، وفي شتى ميادين العلوم الاجتماعية، وسقوطها كدولة لا يعني نهاية أثرها؛ فقد أبقت مناهج للتفكير والتفسير لحركة المجتمع والكون عميقة الأثر، وهي تجربة بشرية غنية قد يستفيد منها الناس عندما يمكنهم سل سمومها بعيداً، والإفادة من بعض جوانبها، ولأنه عكف عليها نخبة من العقول تنظيراً وتطبيقاً قرابة قرن من الزمان، ومثلها الرأسمالية أطول مدى وأكثر ممارسة، ورصيد للمسلم المعاصر والقادم يفيد منه ويتجاوب معه، ولا يستسلم لرؤيتها على أنها نهاية التجربة الإنسانية.



Twitter: @ketab_n

ويجعلها عنصر قوة وحياة أسعد. فهذه الصدمات الفكرية ما دامت لم تقض علينا فلتكن عنصر قوة لنا ولنعرف كيف نجعلها تفيد وتذوب في تركيب نافع، ينزع عنها استقلاليتها، وسمومها ويبقي نفعها. ولأن الحتميات القطعية المعاندة للطبيعة البشرية، والنزعات الحاقدة التي تجعل كل من يخالفك مهما كانت درجة خلافه «شراً» هي نزعات لا تنسجم مع سنن الله، ولا يطيقها الناس، ولا ضعفهم وسوء تقديرهم. فهم ضحايا النوازع والفرق والفلسفات والأخطاء والأشخاص، وليسوا دائماً مصممين للفلسفات والمواقف، ولا مصدراً دائماً للشر. ولما تصل مجموعة أو فرقة أو دولة لرؤية الشر فقط في غيرها، ولا تملك مرونة استيعاب الخير عند غيرها تكون قد تودع منها وتجمدت، وتكون بهذا حطاماً يابساً أو مادة خام تفيد غيرها، ولا تنتفع بنفسها مما حولها.

ومن هذه الخلاصة نجد أن الحركة القومية التي كانت مصدر شقاء لبعض الوقت، قد تكون ساهمت في خير لم تعرفه، وبناء مرحلة تاريخية تالية لها، ومختلفة عنها جيدة، وكما ساهم صفاء وجمال وقوة اللغة العربية قبل الإسلام في بناء جيل يصلح أن يفهم ويتفاعل مع القرآن في بداية عصر الوحي، فالخطب الراقية والشعر والأسواق الثقافية العربية كانت إرهاصاً لمرحلة فائقة قادمة. وما تحقق من خير في واقع أمتنا سوف يكون وقوداً لمرحلة خير مما نحن فيه. وبناء وحدة ثقافية قابلة للمساهمة في الريادة لدور قادم.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ٥ ـ

# نتائـج التنصيـر

أشار جارودي في مذكراته إلى حديث مع منصّر فرنسي في الجزائر بعد قرار التعريب، وكان هذا المنصّر الفرنسي اتخذ قراراً بأن يعلم اللغة العربية لمريديه من الجزائريين، ويسخر المنصّر من نفسه ومن الدور الذي يقوم به، ويقول الغريب إن هؤلاء الجزائريين يأتون إليّ ليتعلموا العربية، ويقول الكاهن المنصّر له: «أنت تعلم أن تعلم القراءة هنا هو قبل كل شيء فك حروف القرآن»[١]. وكان موقفاً ساخراً كما ساقه جارودي.

وقد يتعب أحدنا في البحث والتنقيب عن سر آخر مخطط يفكر فيه هذا المنصّر، وهنا لا يحق لنا مصادرة التفكير والتفسير عند من يقرأ القصة السالفة، ولكني لا أميل إلى اختلاق شيء خارج القصة إلا أنها ظاهرة حقيقية، فنجد أن طلائع الاحتكاك العربي بالغرب الصاعد كانوا من النصارى في المشرق العربي الذين علّمتهم الإرساليات النصرانية الغربية، وعكفوا على دراسة العربية وتطويرها، وترقية أسلوبها ونشرها لأهداف كان كثير منها أهدافاً تنصيرية ـ تحويلهم من مذاهبهم الشرقية إلى مذاهب المسيحية الغربية، بروتستانت وكاثوليك ـ وسياسية، ولكنها آبت بغير ما قامت له وما أسست من أجله. فإن كان أثر البستاني والشدياق وبداياتهم لغير خدمة المسلمين فقد آل مشروعهم لخدمة لغة القرآن، وأسلم أحمد

(١) روجيه جارودي، **جولتي في العصر متوحدا**، ترجمة ذوقان قرقوط (دمشق: دار الأنصار، ١٩٩٢)، ص ١٧٣.



Twitter: @ketab_n

فارس الشدياق الذي عكف دهراً من عمره يترجم الإنجيل والتوراة إلى العربية، وتدفع له الكنائس أو الحكومة البريطانية أجر عمله. فأسلم وانتفعت به اللغة العربية وصب مشروعه في النهاية في خير الأمة ولم يقع لهم ما أرادوه.

وسليم تقلا وبشارة تقلا ومؤسسو مجلات **الهلال والمصور والأهرام** من نصارى لبنان الذين كلّفتهم الإرساليات التنصيرية وغيرها بالقيام بمهام التنصير والتغيير في مجتمع المسلمين، فما الذي حدث لمشروعهم؟ ساهم في تطوير اللغة العربية والتعريب والتحديث، ونضوج الإنشاء، واستولت مدرسة محمد عبده على هذه الوسائل، وأصبحت جزءاً من نسيج اللغة العربية فترة نسيج القومية وغيرها مما شغل العرب ردحاً طويلاً، وفيها من أثر المؤسس ما فيها، وحظ حملة التنصير هذه في بلاد العرب والمسلمين وعالم التثقيف لم يزد عن حظ المغول، فقد استوعبهم المجتمع المسلم، واندمجوا في مسيرة الإسلام ودفعوا في عروقها بدم جديد[٢].

كانت هناك مشكلة كبيرة لم يقف عند بدئها وصعودها كثيرون، ألا وهي مشكلة الإنشاء العربي، إذ طال الزمن وبعُدت الشقة، وأصبح من يجيد الكتابة والترسل ندرة وقلة قليلة لا تكاد تذكر في مجتمع الثقافة العربية حتى جاءت تلك البعثات وتلك المدارس، وبدأت عهداً جديداً. صب في نهر الإسلام وثقافته، ونال العربية والإسلام منه خير كثير.

وفي الشهرين بعد سقوط بغداد في أيار/ مايو ٢٠٠٣ هاجت الكنائس في أمريكا، وتصاعد الكلام عن تنصير العراقيين، وخمسة وعشرون ألفاً في ولايات الجنوب الأمريكي يستعدون للتنصير في العراق، وجدل القساوسة وخصومتهم ولومهم لفرانكلين غراهام بسبب تصريحاته المستفزة. وينصحه أحدهم أن بإمكانه أن يعمل الخير (التنصير) من دون هذا الأسلوب المثير. ولكن هناك من كان أكثر وضوحاً مثل: آن كولتر التي قالت: «يجب أن

---

(٢) أحد الأساتذة الأفاضل أنكر علي الإشادة بآثار هؤلاء القوميين والنصارى الحسنة في نشر وحفظ اللغة العربية، ولم أتحدث عن آثارهم السلبية، وأقر له بما لهم من سيئات، غير أن السياق هنا هو سياق الحصاد الإيجابي لهذه الأعمال، مما أفادت منه الأمة، أما خلاف ذلك، فقد كتب عنه كثيرون مما لا مجال لتكراره.



Twitter: @ketab_n

نغزو بلادهم، وأن نقتل زعماءهم، وأن نجعلهم يعتنقون المسيحية»[٣].

وقامت دعاية شديدة حاقدة على الإسلام والمسلمين، صرح بها كثير من السياسيين الأمريكيين وغيرهم، تطالب بتغيير وتعديل الإسلام، وتشتمه، يقول الرئيس السابق للحزب الجمهوري في كاليفورنيا دان سميث لجريدة **سيكرمنتو**، في ٢١ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ «الإسلام دين مريض».. ثم يؤكد هذا في محاضرة في إحدى الجامعات، ويزيد «مرض الإسلام قاتل، لا بد من أن يعالج، أو لا بد من قتله»[٤]. أو «مرض الإسلام قاتل إن لم يقتل».

استقبلت شيخة كويتية في قصرها منصرتين أمريكيتين، قدمتا من الشاطئ الشرقي لأمريكا، فسألتهما الكويتية كم بقيتما في الطريق منذ غادرتما بلادكما حتى وصلتما إلى هنا؟ قالت المنصّرتان بقينا شهرين في البحر!! وكان هدف ذلك السفر الشاق البعيد تنصير أهل الخليج، وكانت الإرساليات التنصيرية تعتمد مسألة التطبيب وعلاج المرضى والمساعدات الصحية ورعاية الأيتام غطاءً للتنصير. ولكن نهاية هذه الحملة الطويلة خسرت كل شيء، ولم تنجح في تغيير دين الناس. أما الهدف الآخر الذي تحدث عنه كبار المنصّرين وهو تدمير الثقافة المحافظة في المجتمعات الإسلامية فتلك حقيقة لا نستطيع ردها، وحققوا منها الكثير، ولكن هذا المسخ مهما دام وأفسد فإنه غير عميق الجذور، ولا يزيد على كونه نزعات تفلت عارضة، يعود بعدها الناس بسرعة لحقيقة دينهم[٥].

وتعقيباً على هذه الحملة التنصيرية للعراق التي يراها أحد شخصيات الكونغرس خياراً أساسياً بين الموت أو التنصير بالقوة، يحسن بنا العودة إلى سجل التنصير في العالم العربي (المشرقي بخاصة) فقد فشل فشلاً ذريعاً،

---

(٣) «عيون وآذان،» **الحياة**، ٤/ ١١/ ٢٠٠٣.

(٤) م. ج. أكبر، **ظلال السيوف**، ص ٢٦٤.

(٥) وكانت قبيل سقوط حكومة طالبان مجموعة من المنصرات الأمريكيات في كابل وغيرها، يدْرن منازل يسمينها «مسجد عيسى» وفيها يبدين أنهن مسلمات، وينطقن بالشهادة قبل تحدثهن للأطفال وللمسلمات، ويلبسن البرقع الأفغاني، ويبدون للناس أنهن مسلمات. ومنهن من تصوم أو تتظاهر بالصوم، ويقربن الفروق بين الإسلام ودينهن، ولا نستغرب إخراج دين أمريكي جديد يسمى الإسلام، يشابه الأحمدية التي أصبح أتباعها نحو من مئتي مليون كما يدعون، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٦٤.



Twitter: @ketab_n

ويقص لنا خالد البسام في كتابه عن التنصير في الخليج، خلاصة مهمة لهذه القصة، حيث لم تصل تلك البعثات التنصيرية إلى شيء يستحق الذكر في موضوع التنصير، نقلاً عن التقارير التي كانت ترسل إلى الكنائس. وكان قد سبقه ببحث أكثر تفصيلاً عبد الملك التميمي من جامعة الكويت.

بجانب هذا إن كنا نعتبر حركة الإخراج من الدين فرعاً من التنصير، ودور الكنيسة الغربية في هذا واضح فنعم، لقد استطاعوا وأثروا تأثيراً كبيراً في صناعة فكرة التبعية وتكوين الجماعات التابعة لهم في كل مناحي الحياة وهذا حقيقة نجاح فوق التصور. وكما يقول أحدهم في نص تنصيري طويل نشرته مجلة **موذر جونز** «إننا نريد لهم ـ للمسلمين ـ أن يذوقوا جحيم الشك».

ثم كم من العرب الذين تنصروا ممن يمكن أن يقال إنه أصبح لهم أثر كبير في حياة المسلمين؟ إنهم معدومون أو ندرة. وكما قال أحد المنصّرين وهو يقيم رحلة تبشير له في الخليج: «إن هذا الدين ـ الإسلام ـ له باب واحد واتجاه واحد للدخول فيه فقط من دون خروج».

ويوم انصبت المحن على المسلمين في أمريكا ومن قبل ذلك كان من خير من يدافع عن قضايا الإسلام نصارى العرب الذين يجدون مكاناً في الإعلام الغربي عموماً، وهم أحظى بها من المسلمين. ولهذا فإن التخوين العام الذي يصدره بعض الناس ضد مجمل نصارى العرب يحتاج إلى مراجعة وأمانة قبل إصدار هذه التعميمات، فلا يستطيع شخص أن ينفي ذلك عن طائفة منهم[٦]، فمنهم من مات في سبيل قومه وأرضه، ومنهم أيضاً

---

(٦) يصف الشاعر القروي رشيد سليم الخوري «وهو نصراني» تلك الفئة من قومه بقوله:

وكيف ألوم في وطني الزمانا.. ومنا ذله لا من سوانا
ألسنا قد أهناه فهانا.. وقلنا كن فرنسيا فكانا
نقول المسلمون المسلمونا.. فنلعنهم ونحن الخائنونا
نبيع بدرهم مجد البلاد.
بربك قل متى لبنان ثارا.. ليدرك من علوج الروم ثارا
متى ابتدرت إلى السيف النصارى.. لتغسل بالدم المسفوح عارا
وتدرك مرة شرف الجهاد.

ونقده هذا دليل على وجود ضمائر حية لا تؤمن بما ينساق له فريق منهم.



Twitter: @ketab_n

مقسطون وشرفاء ومن لديهم حمية لما يرونه «أمتهم العربية» وتاريخهم وسكان أرضهم من المسلمين. كما أن هناك فوارق عقدية عند المتدينين منهم مع شركائهم في النصرانية من البروتستانت، وصراع شديد بين فرقهم، ويتوقع أن تزيد مستقبلاً، فأول ما عرف المصريون عن وجود منصّرين أمريكان في مصر كان بسبب الخلاف الذي ظهر بين الكنيستين البروتستانتية الأمريكية والقبطية.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ٦ ـ

# الإعـــلام

الذين خافوا من الإعلام وتجنّبوه ورأوه شراً ـ ربما خالصاً ـ سوف يرون فيه اليوم عكس رؤيتهم السابقة، إذ أصبح سلاحاً قوياً في معركة الإسلام المعاصر، وسيطر المسلمون وفكرهم على كثير من منافذ الثقافة الإعلامية اليوم كما لم يسبق لهم أن فعلوا، وكانت شبكة الإنترنت الأداة الجديدة وسيلة من أهم الوسائل الميسورة التكاليف والمؤثرة التي توافرت بأيدي المسلمين. وتقدمت الصفحات التي تقدم الخدمات الإعلامية الإسلامية على غيرها، بحسب معلومات الترقيم الدولية للصفحات الأكثر زيارة بعض هذه الصفحات يزورها بضعة عشر مليون متصفح يومياً، والأعداد تتضاعف بطريقة خيالية. ويدخل عدد من الناس للإسلام عن طريق صفحات التعريف وصفحات الحوار الإسلامي، فضلاً عن دور هذه الشبكة في نشر المعرفة، والوعي بقضايا المجتمعات من خلال رؤية المسلمين لذلك. وسبق المسلمون لوسائل مثل أشرطة الكاسيت التي صنعت وعياً عاماً لم تمارسه الشركات ولا المؤسسات الغربية، وكنت أحد المراقبين لذلك ورأيت الكتب المسجلة على الأشرطة تقوى صناعتها وتكبر في بلاد المسلمين قبل أن تقوم المؤسسات الغربية بإصدار طبعات صوتية للكتب. وفي عالم الإعلام العام نجد المسلمين هم صناع للكثير من أحداث العالم، وهم ضحايا سوء تفسير المواقف، ولكن الحقيقة التي حدثت اليوم أن تغيراً كبيراً جرى ويجري في عالم الإعلام بحيث أصبح المسلمون قادرين على أن يقدموا رؤيتهم لما يحدث في العالم. ولغتهم العربية تنتشر بواسطة هذا الإعلام، ويرتفع وعي وممارسة المسلمين لما يرونه. وحين تقلب المحطات الفضائية على القنوات العربية سوف ترى أن هناك وعياً



Twitter: @ketab_n

سياسياً واجتماعياً ومعرفياً تشكل، ويتشكل، وبدأ يوجه الناس لمواقف جديدة، ولحياة ذات نظرة أخرى غير التي سادت في السابق وكانت مركزيتها غربية نصرانية أو علمانية. وأصبحت الفئات التي كانت محرومة من الإعلام الرسمي تمارس حقوقها في التعريف برؤيتها، وتساهم في صناعة الوعي كما لم يسبق أن حدث منذ عشرات السنين.

إن تقدم التقنية ورخصها في زماننا سهّل هذه الأدوار، وانتشارها جعلها في أيدي أوسع دائرة من الناس. وثبت لنا أن انتشار هذه الوسائل في أيدي الدائرة الأوسع للمجتمع الإسلامي أعاد الأمور لنصابها، وأصبحت الوسائل الإعلامية أكثر قرباً من واقع الأمة بعكس ما كان في عهود سابقة. كان الإعلام حكراً على ترديد صدى الثقافة الغربية وتأكيدها والتبعية العمياء لها، وتركيز مصالح الغزاة وحشد الأدلة لتقويتها. والآن ينقشع ذلك كما لم يسبق أن حدث. بل هناك ظاهرة جديرة بالتأمل وهي أن الإعلام الغربي الذي كان يراهن على ما يسميه بالحرية الإعلامية انطوى على نفسه، ليبرر مواقفه، ويصادر الحرية الإعلامية في بلاده، ويطارد الصحفيين كما فعل مع الصحفي الأمريكي بيتر أرنت الذي كان يستطيع أيام حرب فييتنام أن يتحدث ويكتب بحرية أكثر منها اليوم في الإعلام الأمريكي. وطُرد من عمله بسبب التوجه الديكتاتوري الشديد في الحكومة والمؤسسات الإعلامية الأمريكية[1]. كما قصف الجيش الأمريكي قناة **الجزيرة** في كابول، ثم قصفها ثانية في بغداد، وقتل مراسلها طارق أيوب. ولكن القصف الأشد خطورة وخداعاً هو ما يعانيه الشعب الأمريكي من انغلاق معرفي وبُعد عن الحقيقة، كانت القنوات الأمريكية تعيد صورة الإعلام السوفياتي في عصر الديكتاتورية الشيوعية، تذكرتُ وأنا أتابع الإعلام الأمريكي الكتابات الرائعة الناقدة للحكومات الستالينية التي كتبها جورج أورويل، فالجهاز التعليمي ووزارة التاريخ التي كتب عنها ببراعة في رواية **١٩٨٤** وفي رواية **مزرعة الحيوانات**[2] كانت بالغة التصوير لما كان يمارسه الإعلام الأمريكي، وقد أشفقت على الإنسان وامتهانه لنفسه وعقله وعقول الناس.

---

(١) وقد كان من الصحفيين الذين راقبوا الحرب العراقية الأمريكية الأولى عام ١٩٩١، وكان الوضع النفسي الأمريكي يحتمل بعض الحرية آنذاك.

(٢) كلا الروايتين مترجمتان للعربية، ترجم الأولى عزيز ضياء، والثانية ترجمها نبيل الطويل، وتعتبر الرواية الثانية من أقوى النصوص القصيرة في نقد الاستبداد.



Twitter: @ketab_n

منع الجيش الأمريكي القنوات عامة من نشر صور القتلى، ومنعت وسائل الإعلام من الوصول إلى مناطق الدمار، ومنعت نشر صور المذابح، وحاولت التعمية والكذب أحياناً، حتى إن قصف سوق الشعلة في بغداد فسر تفسيراً ستالينياً (نسبة للزعيم الروسي الديكتاتور ستالين) موغلاً في تخلّفه بأن صدام أطلق الصواريخ على الشعب. ثم إن الأضرار التي تقع للجيش الأمريكي تفسر غالباً بأنها نيران صديقة. وينشر خبر استسلام القرى العراقية قبل أكثر من عشرة أيام من سقوطها. فالتحولات الإعلامية في العالم الإسلامي اليوم من المظاهر التي تستحق الإعجاب وتستحق الرعاية الشعبية والحكومية، وسيكون لها ـ إن أصر رجال القرار والمال والفكر على تنميتها ومنحها المزيد من الدعم والحرية ـ دور خطر في تطور وقوة الحكومات والشعوب، وزرع بذور الوعي والأخوّة والقوة الذهنية والسياسية والمعرفية.

ومن نِعَم العصر على المسلمين الفضائيات، فعلى الرغم مما تسيء به كثير منها، إلا أن للإسلامية منها أثرها الكبير في إشاعة الثقافة الإسلامية، وتوثيق الصلة بين المسلمين ودينهم، فلأول مرة يتمكن المسلمون من متابعة الصلوات في الحرمين، ومشاهدة صور الحجاج والمعتمرين، وصلاة الليل، وسؤال المفتين على القنوات الفضائية، وبخاصة من كان له قدرة ووعي وتأثير، فبرنامج القرضاوي لدى مسلمي الغرب ذو شأن وله أتباع، ويأتي في يوم الأحد يوم الدين والإجازة، حين تبث تلفازات أمريكا وغيرها الوعظ الكنسي، فيجد المسلمون وأولادهم فرصة لسماع من يحدثهم عن الإسلام.

ونقلت الفضائيات العربية التي تمتعت بحرية في نقل الأخبار، وصياغة التعليق، والتقرير من أرض الحدث، على لسان أهله، وعي الناس نقلة نوعية عالية، وجعلتهم يعيشون قضاياهم اليومية بفهم وتعاطف كبير، فما يحدث في أفغانستان والعراق وفلسطين لم يعُد يُصاغ من قبل مراسل الـ «سي إن إن» أو الـ «بي بي سي»، بل أهل الحدث من المسلمين والعرب يخاطبون إخوانهم من دون وسيط، ويكشفون ما يحدث، وهذا مما صنع مواقف مختلفة وجديدة، إضافة إلى برامج حوارات جريئة هدمت أسوار الممنوعات، وتطور النقاش، وشمل مختلف الفئات، ومختلف القضايا، وقدمت مقابلات مع الجميع، من مختلف طبقات ومستويات الفهم والتأثير. ولم يأت وجود تقييم نهائي لأثر هذه الفضائيات ولكن من الممكن الإشارة إلى اكتساب وارتقاء بالمعرفة السياسية والوعي الشامل لمختلف شرائح المجتمع، والقدرة على



Twitter: @ketab_n

إصدار الأحكام بناءً على المعرفة المقدمة، وهذا يساعد على تطوير ممارسة الفعل السياسي[٣]. مع بقاء كثير من المشاهدين ضحايا لسلبيات المحطات الموجهة للاستلاب.

أصبح الإعلام سلاحاً للضعفاء أيضاً، وأصبح مرعباً ضد الإرهابيين في العالم، ما يضطر قوى الإرهاب إلى قتل الذين ينشرون الحقيقة، ومحاصرتهم واعتقالهم، كما تفعل قوات الإرهاب الصهيوني مع الصحفيين والمصورين. ولهذا فليس من الموقف الصحيح أن نعتبر الإعلام دائماً عدواً، ولا مضاداً لنا، بل كما استخدم للشر والضرر بنا، سوف يكون سلاحاً لقضايا العدل والحرية والعقل وكرامة الإنسان، وكما استخدم الرسول (ﷺ) كل وسائل الإعلام المتاحة في زمانه، الخطابة والمراسلة والمناظرة والشعر والنثر وضروباً عديدة من طرق البلاغ؛ فإن من الواجب المسارعة إلى تأليف الوسائل الجديدة، وتوطينها، وتذليلها للفكرة مهما بدت بعيدة. إن العالم ووسائله يسلم عنانه لمن يفكر ويعمل؛ على أن يفيد منه، ويقبل العمل لمن يعي إمكان تذليل صعابه، أما من يفكر دائماً بالمفاصلة والخصومة والخوف من الدنيا وما فيها فسوف تبقى الأشياء والناس من حوله أشباحاً، يترقب هجومها عليه، وسيبقى ضحية ينتظر دوره.. فالقوي ـ بفكرته أو واقع حاله ـ يمتص قوة خصومه له، وأما الضعيف فيفقد رفاقه، ويغرق في صناعة مفاهيم الإقصاء والعزلة.

جهد الغرب زمناً لأن يجعل الإسلام من جنوده في حربه مع الشيوعية، وصعب فهم ذلك على بعض المسلمين فترة، أن يتخيلوا قيام روابط ومؤتمرات ومؤسسات إسلامية برغبة النصارى، وبرعاية الفاتيكان أو أمريكا أو العلمانيين الغربيين أحياناً، وقد أدت دوراً مهماً، يشكره من قام به ووعى أثره في حسم معركة هي من أهم معارك التاريخ العالمي. القوة لم تجعلهم يستوحشون من استخدام قوة مساندة لتحسم لهم المعركة في ميادين لا يفهمونها ولا تقبل بهم، فحموا أنفسهم من الشيوعية بالإسلام، وحموا مصالحهم، وواجهوا أولياء روسيا، وهدموا التوجهات القومية والشيوعية في العالم الإسلامي. ولم يبق بريجنسكي يفكر في طريقة مواجهة الشيوعيين في

---

(٣) هشام شرابي، «الفضائيات العربية وتأثيرها السياسي بعد حرب العراق،» **الحياة**، ١٨/ ٧/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

واشنطن، بل ذهب إلى جبال أفغانستان، وقابل يونس خالص وغيره، وبحث معهم الروابط الجامعة التي تفيد الطرفين، وأمدهم بالسلاح، وحاول أن يجعل الجهاد جهاداً أيضاً لمصلحة الغرب[٤]، وأمر بأن يغير الإعلام استخدام كلمة «المتمردين الأفغان» وكان هذا الوصف العربي أيضاً لهم، إلى أن يستخدموا كلمة «المجاهدين» الأفغان!!

في الأيام الأولى للحرب على العراق بلغ عدد الذين اشتركوا في قناة **الجزيرة** خمسة ملايين مشترك، وذلك بسبب الشك في المعلومات التي توافرها الوسائل الإعلامية الغربية الأمريكية والبريطانية عن الحرب، وبسبب توافر الإعلام البديل، وهذا مؤشر مهم في تحوّل الثقة والمصداقية، إذ كانت الوسائل الغربية مصدراً للثقة في معلوماتها، حتى جاءت هذه القناة لتغير الوضع، أما الصحافة المكتوبة ففي قليل من الصحف العربية مهنية عالية، تستطيع من خلالها أن تثق بالكثير من أخبارها، بخلاف ما كان سائداً منذ فترة. على الرغم من أن هذه الجرائد من مخلفات العصر العلماني العربي السابق الذي لا يمثل المجتمع العربي والإسلامي القادم. وفي الصحافة والتلفاز العربي تقدم مشهود في كثير من جوانبه إذا ما قورن بالتلفازات الأشد رسمية، فعندما تقارن المهنية والمشاركة الاجتماعية التي خفّت من فوقها أيدي الرقابة تجد البراعة والمتابعة الكبيرة. وينحدر المستوى بمقدار ما تسود الرسمية والرقابة.

ثم هناك جانب مهم وهو الغنى الفكري في هذه المواقع الإعلامية، فهو يتحسن باستمرار، فلو راقبت بعض البرامج التي يُعد لها بشكل جيد للاحظت تحسناً كبيراً في الأداء الفكري، ولرأيت رؤوس الأمة وقد فتحت لهم برامج الحوار والنقاش والعرض المستمر لمواد جادة عالية التقنية والمحتوى، وبارعة في التأثير والتوجيه، مثل البرامج السياسية والشرعية. وهذه القدرة، والبراعة ووصول قطاع كبير من الأمة لمن تعتبرهم قدواتها بهذه السهولة سوف يكون سبب بداية وعي ونهضة. ثم نقاش ملمات الأمة بوضوح وصراحة وحرية، هو من أسلم الطرق للنهضة. وكم قضينا من الزمن بعيداً عن تحقيق ما تم تحقيقه إلى اليوم، وهو حال يسر ويفرح، ويوحي بأهمية المواصلة

---

(٤) ليس هذا اختزالاً لما حدث، ولا اتهاماً للمجاهدين الذين التقت مصالحهم بغيرهم، بل هو إلقاء للضوء على جانب له علاقة بالسياق.



Twitter: @ketab_n

الجادة للإصلاح. وعدم القناعة بالقليل، ولا الوقوف عند مثال صغير واحد.

وقد يكون المناسب لمن يحرص على التأثير والإصلاح الإعلامي أن يتوجه لمنابر الإعلام العام، ويشارك في تسيير الرؤية العامة للمجتمع من خلال أعم المنابر وأكثرها تأثيراً، ولا يصح الاكتفاء بالوسائل كاملة النقاء والشروط، لأنها تعاني الأساليب الضعيفة، وأحياناً تحصر أصحاب العمل وأفكارهم في سياق ضيق. ويبتعد بهذا عن التأثير العام للأمة، وقد تبين بالخبرة أن هذه الوسائل الإعلامية أو الحزبية وذات التوجه الملتزم الضيق، ضعيفة في معلوماتها، سقيمة في أساليبها، وبعيدة عن المسيرة العامة للأمة، وتتكلف أحياناً كثيرة تزمتاً فقهياً، أو مذهبياً يجعلها تبتعد عن الحق. وتودي بمن يتابعها، وتكون هي مورد معرفته ورأيه إلى ضعف الفهم وقصور النظر، وعدم واقعية التحليل.

وهي علّة لازمت الأحزاب الشيوعية، ولازمت بعض الأحزاب الإسلامية، والفرق الصغيرة، قومياً أو عقدياً، فحجبت نفسها عن تيار المعرفة العام، ولم تصنع بديلاً معقولاً، فعندما ترى العالم برؤية شخص أو حزب أو مجلة أو جريدة فقد فقدت طريقك للمعرفة والمعلومات. ومن غريب ما يحدث اليوم أن الغرب الذي كان ساحة للمعرفة وللمعلومات المتضاربة يدخل في فخ الرؤية الواحدة للمسائل، وتسيطر عليه عصابات ملتزمة بموقف رسمي، يكذب كذباً عارياً، وتهلك وعيها وقدرتها في ظلام هذه الرؤى. فتخسر الموقف الذي تريده، ولعل هذا من تردي أو انحدار الرؤية الغربية، فالعالم الذي كان يرجع لمحطة الـ «بي بي سي»، وينصرف عن الإعلام العربي بدأ يبحث عن الحقيقة خارج نفوذ الإعلام الغربي!! الذي أصبحت مصطلحاته وثقافته تبتعد عن الأذن العربية والمسلمة.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٧ ـ

# اللغـة والمصطلـح

كنت مع شاعر نتذاكر قصائد ذات توجه إسلامي مؤثر، كقصائد شوقي وحافظ وعمر أبي ريشة، ثم تطرقنا للتناقض الذي طبع شعر بعض المحسوبين على التوجه الإسلامي آنذاك، كيف يكتب القصيدة الوعظية المؤثرة، وبجانبها خمرية، ويسرد قولاً يسف به ويخرج عن معارج القول الأول إلى قول مضاد، فقال لي لا بد من أن تنظر إليها في زمانها، إذ كان الناس بعيدين قبل عقود عن دينهم، وساد الجهل والاستهتار بينهم، وأصبح التقدم هو الذوبان في الانحلال الوافد من الغرب، أو في الموروث والمضخم في تراثنا. ولقد تمت نقلة غير معتادة في ثقافة المسلمين المعاصرين، ولغتهم وسلوكهم عن عقود مرت لربما كانت فطر الناس البسطاء والقرويين أقرب للدين، ولكن الحواضر آنذاك كانت تحت هجمة شرسة، وهم مكشوفون ثقافياً بلا طريقة للمواجهة، والأمية غالبة، والصلاة منسية، حدثني صديق من تهامة القريبة لمكة المكرمة أن قوماً من قريتهم كانوا يأتون للفقيه يطلبونه أن يعلّمهم الصلاة ليتجهزوا بها «للمخاطير»، أي «الأسفار» في لهجتهم، حتى لا يسافر ويتورط مع قوم فينكشف أنه لا يعرف الصلاة أمامهم. واليوم ممارسة الناس ووعيهم وقربهم من دينهم أكثر مما مضى، وهكذا ثقافتهم ولغتهم ومصطلحاتهم. حتى لتجد موجة أدبية اسمها «الأدب الإسلامي»، وقد تتفق مع أصحاب هذا المصطلح أو لا توافقهم، ولكن الظاهرة هي التي تستحق الملاحظة هنا.

ومن تأمل ما يتردد اليوم من شعارات في العالم الإسلامي يدرك النقلة الحضارية التي تمت، فمصطلحات مثل مصطلحات: أمة الإسلام



Twitter: @ketab_n

والمسلمين، والشريعة، والحجاب، والجهاد، والمجاهدين، والبنوك الإسلامية، والشارع الإسلامي، والإعلام الإسلامي، والأدب الإسلامي، والتسجيلات الإسلامية، وغيرها من المصطلحات التي يستخدمها المسلمون أكثر من أي وقت مضى من تاريخهم القريب. بل ويستخدمها خصوم الموقف الإسلامي ـ داخل العالم الإسلامي وخارجه ـ كما لم يحدث من ذي قبل.. وصعدت شعارات المصطلح القرآني والإسلامي في كل فئات المجتمع، بعد سني الاغتراب، بل وفي خطاب السياسة والشتيمة واللعب والعبث بالمواقف. ففي مؤتمر القمة الإسلامي في الدوحة في شباط/ فبراير ٢٠٠٣ بدأ رئيس الوفد الكويتي خطابه بالقرآن وختم به، ورد عليه مسؤول الوفد العراقي بالطريقة نفسها، حيث قال: «إن زعيم الوفد الكويتي قرأ آيتين وأنا سوف أقرأ ثلاث آيات». واستخدم الآيات لموقفه السياسي. ليس مهماً أن نقف عند شكل الحادثة وزيفها. ولكن الملاحظة تُساق من أجل التحول اللغوي المصطلحي، والحس العام بالكلمات ودور الموقف الجديد في صناعة مصطلح جديد، يناسب التوجه الذي أصبح يحكم الأذن وربما لم يصل بعد إلى القلب واليد دلالة مهمة على ما نريد بيانه. وأصبح المصطلح الإسلامي العميق في النفوس والذاكرة جزءاً من تحولات الثقافة العربية الجديدة. فبعض الشعراء الليبراليين واليساريين العرب الذين لم يكونوا يستخدمون مصطلحات الشهيد والشهادة، ويعرضون عنها لأنها ذات سمة إسلامية؛ عادوا فأشبعوا كتاباتهم بالمصطلحات الإسلامية، لأنها أصبحت الأجمل والأكثر تأثيراً وإقناعاً وقبولاً في هذا الزمن. فأحد الذين كانوا بعيدين عن لغة الإسلاميين يكتب قصيدة عن الاستشهاديين يؤكد فيها موضوع الشهادة وأنهم شهداء «يشهد الله أنهم شهداء... يشهد الله والناس والأنبياء».

أما الذين اهتموا بموضوع أن الخميني هو من نشر المصطلحات الإسلامية في الخطاب السياسي، فهم قد غفلوا أن الثقافة الإسلامية هي التي صنعته، ولم يصنعها، وكان مشروعه نتاجاً لعمل سبقه، بل هي في هذه المصطلحات، وأنه يغرف من بحر اللغة الشرعية العربية التي عاشها سياسياً، وليس الأمر خاصاً به، بل إن غيره يفيد منها، بدافع الموقف الشرعي مرة، وبدافع التميّز عن المصطلح الغربي وكل ملابساته مرة أخرى. ونعلم أيضاً أن الثقافة السُنية والتطورات في عالم السُنة كانت قوية ومنفصلة عن تيارات إيران.



Twitter: @ketab_n

وأصبحت هذه المصطلحات توجه لداخل العالم الإسلامي ولخارجه أيضاً، يدرك أثرها وجدواها عقل ولغة جديدة بدأت تتكون، وهناك من سيستغلها، أو يغويها ويحرف معناها وفائدتها. ويوم قرأ الصحاف، وزير الإعلام العراقي، بياناً من الرئيس العراقي شدد على استعمال التاريخ الهجري أولاً، قبل التاريخ الميلادي، ثم عاد فاستخدم المصطلحات العربية الراسخة في عقول المتعلمين والمطلعين على تراث المسلمين. وذكّرتهم تلك الكلمات بحشد ورصيد كبير من الثقافة وصراع التاريخ. واللغة لم تكن يوماً محايدة، فهي محصلة تجربة الناس بشرها وخيرها. وسيادة العربية ومصطلحاتها وتقويتها بذر للخلق والقوة في قلوب الناس، والتماسك والولاء بينهم.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ٨ ـ

# عالم جديد يتشكل

أبلغ قائد القوات المسلحة الأمريكية وزيره رامسفيلد بأننا قد قصفنا كل الأهداف العسكرية الموجودة في أفغانستان، ولم يبق شيء يستحق الضرب! ولكن على الرغم من ذلك الضرب القوي لم تضرب القوات الأمريكية أهدافاً تنهي وجود خصومها، ومن قبل هذا دكت روسيا أفغانستان، ثم خرجت ولم تقض على خصومها بل قضوا عليها!!

تُصبح الحضارة عندما يزيد تعمّقها في التكلفات، والأنماط والكماليات، ثقيلة على أهلها، وتزيد مطالبها، وتكون غالية جداً، وهي في الوقت نفسه تصنع إنساناً يبتعد عن الفطرة، والبساطة، ولكنه يرى في مدنيته أعلى مراحل الإنسان، ذلك الجندي الأمريكي المثقل بنحو من عشرين كيلو غراماً من السلاح والمؤونة، والأجهزة المتقدمة جداً في الاتصالات، والإغراق في متعة الجسد والعقل، يجد نفسه غير قادر على من يسمونه بإنسان «الكهوف» كما يسخر المذيع اليهودي: لاري كينغ[1] من المسلمين في أفغانستان، ولكن مصدر التفاوت هذا قد يكون مصدر «القوة». فالمتمدنون الموغلون في الاستغلال عبر تاريخ البشرية المعروف كانوا يعانون نقمة من يسمونهم «البرابرة»، فالحضارات الظالمة كالرومان والفرس سقطت تحت أرجل من يعيرونهم بوصفهم بالبدائيين أو البرابرة، يحلق المتمدن بأشيائه مغروراً بها عالياً بمهابتها.وروعتها، ولكنه يبتعد عن الإنسان، وعن روحه ودوافعه وقيمه،

(١) قال ذلك في أحد مناقشاته الليلية للحرب على طالبان، في برنامجه على سي إن إن.



Twitter: @ketab_n

فيسقط تحته ذات يوم، والأساطير التي تتردد ـ وقد لا تكون صحيحة تاريخياً ـ عن زوجة ملك فرنسا ماري أنطوانيت، لما اقتربت حشود المتظاهرين تحاصر القصر فقالت ماذا يريد هؤلاء؟ قالوا يريدون الخبز، قالت إن لم يجدوا الخبز «فليأكلوا الكعك»!!

كانت المسافة بين الناس والقصر بعيدة جداً ومرهقة لكل طرف أن يتصور خصمه، فأمكن لهؤلاء الفرنسيين حذف المسافات!! وهي كذلك في ما يتعلق بما يدور في تلك الأرض الأفغانية اليوم، فالمسافات ـ المدنية ـ بعيدة جداً، ولهذا يمكن التخلي عنها. إن التنافر المتطرف يسبب الهدم والسخرية البالغة، بالحق أو بالباطل.. «وما تعرف الأعراب في السوق مشية؛ فكيف بقصر من رخام ومرمر»، وكيف للغر القادم من نيويورك، في التاسعة عشرة من عمره، يحمل معه خرافة «هاري بوتر» لم يكمل قراءتها بعد، وأسلحة متطورة جداً، كيف له أن يفهم عقلية المجاهد الأفغاني!!

إن الذين يمكنهم التوسط بين الطرفين وتذليل الشّموس، هم المنعطفات اللينة بين المجتمعين، الطبقة المتأثرة بالغرب التي تتوسط وتترجم، وتفتح الأبواب، ومن تقوم بدور الوساطة، منها البريء ومنها غير ذلك بحسب الطرفين، ولكنها تعاني في كل العالم الإسلامي، فهي طبقة ينظر إليها بشك وبنقص الثقة.

بعض هذه الطبقة يستطيع أن يساعد على الخلاص من الأزمة بجدارة، ويحمل الإخلاص والصدق، ولكن بسبب تدينه لا يريده الغرب، فهو عندهم خائن للعلمانية والتغريب والولاء، ومنهم طبقة متغربة «عملاء وسماسرة» يحبها الغرب ولا يقبلها الشعب، أصبحت اسماً دولياً معروفاً «كرزاي».

وجزء من الصراع في العالم الإسلامي أجمع يتم حول هذه الطبقة، وتوسيع دورها، ويبدو أنها تقل وتضعف، وينحسر وجودها، وتضعف قيمتها، بسبب التعليم، وغلو الغرب في موقفه من المسلمين، وإثارته العداء للجميع وضد الجميع، حتى إن الذين يريدون القيام بدور الوسيط تنهار قيمتهم، ويقل قدرهم، وتضعف فكرتهم.

وإن يكن نمط حياة وتفكير الأفغان أكثر بعداً عن غيره، وربما حتى على القريب منهم من المسلمين، فإنهم يمثلون أنموذجاً مخيفاً، أنموذجاً شجاعاً مضحياً عقائدياً صارماً قاسياً، يتحرك في أرضه، ويحيا حياته كما يريد، ولا



Twitter: @ketab_n

يرضى بقاء المستعمرين على أرضه، وقد فشلت محاولات الغربيين قهره على الرغم من القوة الضاربة فوق أرضه اليوم.

فأفغانستان التي كان الخمر فيها سائداً قبل خمسين عاماً، وكانت أنماط التغرب المفروضة من قبل أقلية متغربة تحف بالغربيين وسفاراتهم وبقايا استعمارهم، وتتمثل عاداتهم وسلوكياتهم، وتتمنى مزيداً من التبعية لهم، تلك المجموعات ولت واندثرت وأصبحت مثار نقمة وسخرية وتهمة. وحل مكانها نمط آخر. فهل رأيت اللباس الأفغاني قبل خمسين عاماً للرسميين في كابول، وهل رأيت لباس «كرزاي» إنه معبّر مهم عن توجهات البلاد، فاليوم عندما يحكم كرزاي لا بد من أن يتظاهر باللباس الوطني الأفغاني، على الرغم من كون ما تحت اللباس غربي. وكانت شارة التقدم والتطور قبل خمسين عاماً هو أن يلبس الإنسان لباس الغربيين والمتغربين. في زيارة «كرزاي» إلى أمريكا ظهرت أزمته حتى مع اللباس، وهي ظاهرة تتجاوز المظهر للمخبر، وتعاني قلق التردد بين الوطن والمحتل، بين مظاهر الغرب وولاء له وخصومة معه.

اللحى في أفغانستان قبل أربعين عاماً كانت غائبة تماماً من وجوه القيادات، واليوم تعود لتتوسط بين لحى طالبان واللحى المحلوقة للنصارى، بين المواطنة والاغتراب، ولكن من ليس لهم علاقة مباشرة بالإدارة في كابول لا يهمهم تقصير اللحى لتتناسب مع رغبة الغزاة في كابول.

وحتى علماء الإسلام، كان التيار التغريبي أقوى من قدرتهم على المواجهة. فحين استقبل شيوخ نجد الشيخ أحمد شاكر، المحدث المصري الشهير، ووجدوه حليقاً خرجوا من الخيمة، استصعبوا أن يكون الشيخ حليقاً، وهكذا محمد أبو زهرة، وجلّة من العلماء والمفكرين، فقيادات المفكرين المسلمين من أمثال مالك بن نبي وسيد قطب لم يكونوا ملتحين ولم يشعروا ربما بحرج في هذا بحكم السياق الاجتماعي السائد، ولكن كل ذلك تغير باتجاه المعرفة والأصالة، أو ما أسماه علي شريعتي بـ «العودة إلى الذات».

نعم إنّ مظاهر العودة إلى الديانات كبيرة في العالم أجمع، ففي الحكومة الإسرائيلية أكبر عدد من الملتزمين بالمظاهر اليهودية من أي حكومات أخرى في المنطقة إلى عهد قريب. وعودة الخطاب الديني في أمريكا والعالم كله يختلف حاله. فالمظاهر التغريبية هي قوة للغرب في بلاد



Twitter: @ketab_n

المسلمين، ولكن المظاهر الإسلامية ليست غربية! فالذي كان سائداً كان اندماجاً في الغرب فكراً وسلوكاً وعدم ثقة في النفس، وتقبّلاً لدين العلمانية وتقاليدها ومظاهرها ورسومها ـ بوعي أو من دونه ـ فالغلبة لا تشرح نفسها ولا تفصل للناس عن آلياتها، حتى الغالبين أنفسهم لا يدركون تفصيل جهدهم، ولا يقدرون على استيعابه. واليوم عند نهاية الثقافة الغربية الشمولية تظهر التمايزات، ويصعب الذوبان، عقلاً وفكراً وممارسة، كما عانى كرزاي أزمة المظهر، فسوف يعاني كثيرون جداً أزمة المخبر قبل المظهر. إنه منعطف كبير في حياة البشرية، كان أسرع مما يحدث عادةً للناس، ولذلك استطعنا رصد بعض مظاهره.

إن أصعب ما تعانيه قوة قديمة تجدد صراعها مع عالم لا تفهمه ولا تستطيع التعامل معه بسهولة، وسلوكها في نمط حياة مختلف يجعل من العسير عليها فهم طرائق الآخرين، وطريقة تفكيرهم وممارسة حياتهم.

هناك جولة جديدة من الصراع فوق رؤوس عالم العرب والمسلمين، صراع إعادة صياغته فوق أرضه ونفطه وطرق الحياة والتجارة فيه، وقبل ذلك كانت مرحلة سكتت وخفت واستحيت مظاهر الاستعمار الصريح السابق، في وجه الفكر القومي والشيوعي والوطني وفي زمن صراع روسيا وأمريكا، مرحلة اقتضت إعطاء فرصة للشعوب أن تمارس شيئاً من حريتها، وشيئاً من استقلالها، وأن تسير الكيانات الصغيرة بحذر بين الخصوم الكبار، أو تتظاهر بعدم الانحياز، أو تتبع إحدى القوتين بوضوح. مرحلة كان الصراع بين القوى الكبرى أكبر وأوضح، ويجد الضعاف فيه والمتمردون مجالاً للحركة، وللتخلص من القيود. أما الآن فهناك عالم جديد، ويحتاج لسلوك جديد.

عالم لم تنته فيه السياسة كما ترى أمريكا، وكما يفكر ذوو القوة الكبيرة. عالم لم تنته فيه الصراعات القديمة بل عادت، عالم عاد فيه جشع الاحتلال والاستخفاف بالضعفاء، وقتلهم شرعة مقبولة عند الأقوياء، عالم تقتل فيه وترهب الديمقراطية ـ المزعومة ـ من يخالف فكرها، وتصعد فيه العنصرية، وحروب الأديان وحروب الأسواق، وحروب النفوذ، وحروب المغانم الكبيرة، عالم يقتل الأسرى، ولا يسأل القاتل لم قتل حتى ولو كان قد استسلم في أفغانستان وفي قلعة جانجي، يقتل ولو كان في عربات الأسر، يقتل لأنه يفكر بطريقة مخالفة لمصلحة الامبراطورية، وحتى ولو كان بعيداً في قرية على



Twitter: @ketab_n

حدود إيران والعراق، المجزرة التي أقيمت لجماعة أنصار الإسلام في كردستان وفي أول أيام الحرب الأمريكية على العراق، لأنهم يختلفون مع الموالين في كردستان، ولأنهم يرون فكراً يخالف المطلوب نشره. الرأي المخالف جريمة اليوم، ولو لم يكن مسلحاً، وليس وراءه تهديد، هذا السلوك وإرهاب الضعفاء يجعل العالم غابة موحشة، وحق على البشر فيها أن يبحثوا عن طرق للسلم وللأمن ولنظام يرعى حقوق الإنسان أن يوجد. وأن يكون قوة عالمية جادة تستحث كل قدرات البشر للخروج من «عالم الترويع والصدمة» عالم الإرهاب والإرهاب المضاد.

إن وصم الإسلام ورسوله وقرآنه بالإرهاب والرد على ما أسموه الإرهاب بالإرهاب، كفيل بأن يلبس كل خصم لباس خصمه، ويسلك كل خصم سلوك ضده، فيتطرف كل منهما في منازلة غريمه، وليبحث المسلوبون والمظلومون عن طريق آخر، ولا بد من أن تكون طريق الخير بين طرفين.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ٩ ـ
# الانفتـاح أم البعـد عـن الغـرب

على متن رحلة للطيران البريطاني في عام ١٩٩٦، كان إلى جانبي بريطاني من أصل أيرلندي، وفي أثناء الحديث ذكر لي أنه اصطحب معه جوازي سفر، الجواز البريطاني والجواز الأيرلندي، وقال إنه خائف من أن يختطف الطائرة أصوليون عرب لهم ثأر على بريطانيا، وفي هذه الحال سوف يبرز لهم الجواز الأيرلندي، حيث لا خصومة ولا حقد بين الأيرلنديين والعرب. أشياء كثيرة يمكن أن تدركها من كلامه، الخوف أحدها، والشعور بذنب البريطانيين تجاه العرب والمسلمين حقيقة أخرى. وشعور النصراني الغربي أن العالم ضاق عليه حقيقة ثالثة، وأن القوة وحدها تجعله مقبولاً، وأنه مثار قلق لغيره، كما يشعر هو أنه مجلبة للكراهية، لأنه أجبر الناس أن يكرهوه. فإذا كان الأيرلندي يشعر أنه بلا جريمة، فهو يقر بعكس ذلك لحامل الجواز الآخر.

وظلم الغربيين للمسلمين وللمستضعفين في العالم حقيقة تحز قلوب المنصفين والراحمين الغربيين المهمشين، وأشار إلى هذه الحقيقة وزير العدل الأمريكي الأسبق رمزي كلارك بأنهم ظلموا أكثر مما يعرفون ومما يتوقعون. أصبح النصراني الغربي في بلاد المسلمين يترقب أن تنتهي مهمته أو رحلته ليهرب ويختفي في بلده، يختفي من عالم يكرهه، أو يحقد عليه، أو يحسده، أو يحاربه، أو يغتاله! وبعد عودته فإن تجار السلاح وملاك الشركات عابرة القارات لن يطيب لهم أن يأمن العالم، وسوف يعملون على إخافته إلى آخر لحظة، ليبرروا استبدادهم به، وسلبه الضرائب، وترويعه ليقولوا نحن أمّناك، كما هي سياسة حزب بوش الابن الآن، التي عبّر عنها أحد الأمريكان: «إننا لا نصنع إلا أن نخاف!!» فتجارة الخوف والتخويف والترويع هي تجارة السياسي الأمريكي والبريطاني الرابحة سياسياً ومالياً.



Twitter: @ketab_n

كانت القاعدة المسلّم بها أن «مجتمعات المسلمين منغلقة، ومجتمعات الغربيين منفتحة!!» تلك كانت القاعدة القديمة، ولكنها زالت، ومن بقي يؤمن بها سيكون مثيراً للسخرية، إلا إذا كان الانفتاح عنده هو التعري والشذوذ وما أشبه. لأنه سيجد عقبات لا تُحصى إن أراد السفر للمجتمع المنفتح، وإن كان مقيماً في المجتمع الغربي، ثم كانت عنده فكرة مخالفة للسياق فإنه سيجد المجتمع الغربي مغلقاً أكثر، اليوم تغيرت الحال، فأصبح الغربي يشعر بشعور الغني المحسود، فيغلق منافذ داره ويرفع أسواره في وجه الفضوليين، ومع الزمن تحول الشعور بالحسد إلى خوف، وتحول خوف الغربي إلى هاجس رعب، وبروز للوحشية الغربية المشهورة.

الجدران العالية التي يبنيها الغربيون حول أنفسهم الآن، في غاية الطرافة والتعبير عن التحولات النفسية والعالمية، والرعب المحاصر لهم، فالمستعمرون الخارجون للعالم يفتحون العالم ويتسامحون، ويهدمون الأسوار في حال الانطلاق، ولكنهم اليوم فعلاً يخافون، ويرهبون غيرهم، ويسمحون بتأكيد سياسة الأسوار ويمتدحونها، وكانت مظهراً متخلفاً يعيرون به الروس، فكلمة «الستار الحديدي» لم ننسها بعد، كانت شتيمة للشيوعيين، ولكن الغربيين الآن يبنون هذه الأسوار والحواجز حول أنفسهم في كل مكان، وعبارة العالم الحر أصبحت «العالم المغلق أو العالم المسوّر»، وهي أسوار مكلفة ومرعبة لهم، حين يحلمون ليلاً ونهاراً أنهم يرون أن البرابرة على الأبواب كما يقولون، أو في كل مكان. وهي ليست كجدران الأغنياء، ولا كجدران العزل لليهود في الحارات القديمة في أوروبا، إنه عالم جديد، ومخيلة محاصرة غير منفتحة، مخيلة خائفة، من كل شيء، وانظر إلى أسوار السفارات الأمريكية في العالم، لقد أصبحت عبئاً على المدن، وعلى الجيران، وعلى الحكومة الأمريكية نفسها[1].

ما الذي يصنع هؤلاء لأنفسهم؟ وما هذا الرعب المهيمن؟ إنهم يحاصرون أنفسهم قبل أن يحاصرهم خصومهم ويبالغون في تخويف أنفسهم بأنفسهم!! يبدو أنها اليوم قلاع المنتصرين، أو جنة المحسودين، ولكنها قد تكون غداً مأوى الخائفين!! وما أعجب السنن؟

التاريخ لا يتكرر، ولكنه لا يرحم من لا يعتبر، حين وقف التوسع الإسلامي

---

(١) في هذا الموضوع كتب أحدهم مقالاً طريفاً عن طريقة تصميم السفارات الأمريكية، وجدرانها الزجاجية والحواجز المحيطة بها، ومنظرها الجديد: Michael J. Lewis, «Glass Walls to Bunkers: The New Look of U.S. Embassies,» *New York Times*, 27/7/2003.



Twitter: @ketab_n

وبدأ ينكمش، وساد الخوف عند المجتمعات الإسلامية من الغزاة، صنع المسلمون آنذاك أفكاراً تعزلهم، ويبالغون في البحث عن أدلتها، وبالغوا في محاولات التميز، والمفاضلة، وأغلقوا مدنهم، ورفعوا أسوارها، وقبعوا فيها يرهبون قدوم الغزاة، أو قدوم البرابرة من الغرب، أو من الشرق، وطال الترقب وتهدمت الأسوار قبل وصول الغزاة، ولما وصل الغزاة لم يكن للمدن أسوار!!

الانفتاح ثمرة للشعور بالقوة والعزة، أما العزلة فهي نتيجة للشعور بالضعف. فمن شعر بالضعف توارى، واختلق كل المعاذير التي تبرر له أن ينطوي على نفسه، وسيملك كل يوم عذراً، والعذر القادم أقوى من سابقه. والعزلة والانفتاح في حياة الأفراد والشعوب مرتبطة بالوضع الفكري والنفسي الذي يعيشه الفرد والمجتمع.

عندما صعد الغرب صعوده الأخير تلقاه المسلمون بالهروب منه وبالعزلة، وبالمفاصلة والتهرب والاستنكار، والكراهية لكل مكوناته. سواء أكانت صادراته علماً أم صناعة أم غيرها. وكان لبعض علماء الإسلام دور مهم في هذا، ولسنا في صدد تقييم الموقف السابق، غير أنهم رأوا في عملهم خير وسيلة للوقاية من شر مروع قادم.

اليوم يتسع العالم الإسلامي ويبتلع سكانه مساحتهم الأرضية، ويمتدون لغيرها، وتضيق عليهم الآفاق، ويحاصرهم الغربيون ويمنعون حركتهم، ولهذا يجب أن نسعى لأن يكون في العالم انفتاح حدودي وثقافي وسياسي واجتماعي، وحقق الغربيون كل ما يريدون من الانفتاح لهم في بلاد المسلمين وزيادة، فجوازات سفرهم مقدسة، وجوازات سفر المسلمين بلا قيمة، ترفض عند أغلب السفارات، وتسد أمام أصحابها طرق العيش وسبل العمل.

آن أن نتعامل بشيء من الاعتراف بحق الإنسان المسلم في أن يعيش في عالم لا يغلق في وجهه بكل وسيلة، وأن ينتهي الحصار المفروض على المسلمين وعلى حركتهم، يشتعل السوق بالدعاية للاستثمار الغربي، ولذهاب المال لأسواق أوروبا وأمريكا، ثم يمنعون التاجر من أن يتابع مصير تجارته! ويمنعون الباحث من أن يقرأ أو يتابع في مجال دراسته، ويمنعون المرضى من فرص العلاج.

لن يستطيع هؤلاء أن يحققوا الخير المحض لأنفسهم، ويصدروا الرعب والفقر والحرب للعالم الإسلامي، ولا أن يستثمروا العالم وهم معزولون عنه، فسوف تقوم قوى تحيا مع الناس، وتشاركهم آمالهم وآلامهم، ومشاعر التعاون والتماثل وتبني معها العلوم والسفر والتجارة، ولعل ما يحدث من



Twitter: @ketab_n

توجه السياحة لبلدان إسلامية مساهمة في هذا التغيير. فالسياحة هي ثروة ومعرفة وصداقة وتجاوب، والسائح قد يكون مستكشفاً، ورائداً لنفسه ولغيره.

تلقى العالم الإسلامي اليوم ضربات الغرب كلها، وأشدها الضربة الثقافية، وما تراه من مظاهر التخلف والعهر والفسق هي البضاعة التي بقي الغرب يجبر المسلمين على سلوكها، ويمتص ثروتهم بحقوقها الفكرية، وينشر بها هامشاً تافهاً متغرباً، يعيش على هامش الغرب، وعلى هامش العالم الإسلامي، وهو هامش ثري ثروة المنعطفات الحدودية، حيث تلتقي الأجزاء المختلفة فتفرض هشاشة وليونة وليست من الطرفين المختلفين. وهذه البيئات الرخوة مزدحمة بالمتناقضات، وتقدم ما كانوا يسمونه بخدمات البحّارة.

هذه المغاضن المؤذية بما تجمعه من أذى لا تستطيع أن تكون هي جسم الأمة، ولم تكن يوماً كذلك. غير أن الأمريكان في صراعهم مع الروس استخدموها وأنتجت أثراً كبيراً، فالخمر والنساء والموسيقى والمخدرات والفساد والفكر العبثي، وصور البنات لابسات الجينز، والمترفهات بالدخان والكوكا كولا، عملت عمل جيش في تدمير روح الشباب الشرقي. ومجلات مثل **إنكونتر** وشبيهاتها من المجلات التي سخرت لمهاجمة «الأيديولوجيا» ويقصدون الفكر والمواقف اليسارية، وكان لهذا النوع بالغ الأثر في هدم الثقة بالشيوعية.

واليوم نحن نستقبل هجوماً ثقافياً عارماً من نوع المجلات وثقافة المغاضن، ولكن الجسم الإسلامي اليوم حي، وفي أحسن مراحل حيويته منذ قرون عديدة، وستكون قدرته على نفي ثقافة المغاضن وسمومها قوية، وستكون غالباً مواطن تعارف، وتجاوب، وقد يستطيع قلب بعض الشرور لأن تكون منارات إفادة وتأثير.

بناء ثقافة التجاوب والتأثير والمشاركة له مشكلاته الكثيرة، غير أن الجسم الإسلامي يبدو اليوم أقدر على المخالطة للعالم وبتأثر، وسلبية أقل من السابق. ولأن العزلة الغربية التي يراد فرضها اليوم على الثقافة الإسلامية، بحيث تصبح ثقافة شريرة محظورة، مثلما كانت الشيوعية ثقافة الشر ذات يوم، واستخدم الإسلام لمحاربتها، ولكنه جاوز دور أن يستخدمه أحد ضد نفسه، فإنهم يريدون عزله وحصاره، وتمزيقه من داخله، فإذا عزل خاف وانكمش، كما يتمنون، وبالتالي جعله معزولاً خائفاً، وبالتالي غير موثوق، ولهذا فمخالطة العالم، وتثقيفه، وحسن عرض ما عندنا وتنويع سبله سوف يبقي الزخم، والإقناع ـ للمسلمين ـ والتأثير في غيرهم.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٠ ـ

# حقيقة التصادم بين الإسلام والغرب

تاريخ النهضة الأوروبية مرتبط بالصراع مع الإسلام، إذ أثار الصراع من التحديات ومحاولة الفهم والحلول الكثير في الأذهان الغربية التي كانت متخلفة عن المسلمين وعن ركب الحضارة العالمية آنذاك. وتلك قصة يطول الحديث عنها، ولها فروع كثيرة في الدين والرياضة والصناعة والسلوك وغيرها، وشاغلنا هنا في هذا الجانب أن المواجهة مع الغربيين لا يليق أن نفهمها دائماً في إطار الخسارة التي يخسرها الجانب الإسلامي مقابل خصومه، فعندهم ما يعطون، وعندنا حاجة لبعض ما عندهم، وعندنا الكثير مما لا نتركه إرضاء لهم، ولا نحتال عليهم ولا على أنفسنا. وعلاقة المسلم مع المخالفين علاقة مدارها العمل وليس الجانب العقدي وحده، قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾ فالأصل في علاقة المسلم بغيره أن تكون علاقة سلمية، والاستثناء هو خلاف ذلك.

وفي زماننا هذا هناك عوامل تجعل كثيراً من المسلمين يهتمون بالموقف العدائي الغربي منهم، ما جعل بعضهم يؤيد فكرة التصادم الحضاري بين الإسلام والغرب، وأنها مصيرية، ومن أسباب ذلك عوامل نفسية، كالرغبة في حشد الخصومة، وقطع الطريق على العناصر التي لم تزل تفكر في علاقة جيدة مع الغرب، متأثرة بمصالح أو مواقف أو ولاء فكري، وبالتالي فبعض من يؤكد التصادم يريد إحراج وإخراج خصومه وحججهم من الموقف، بإبداء الحقائق وحشد الحوادث والنظريات المؤكدة لموقف غربي معاد للإسلام. وفي موقف طريف آخر من الانتخابات الإسرائيلية كان كثيرون من



Twitter: @ketab_n

غير الإطارات الرسمية العربية ـ يودون أن يفوز نتنياهو على مقابله من حزب العمل شمعون بيريز في أول محاولة له للوصول لكرسي رئاسة الوزراء في إسرائيل، وكان المحبون لفكرة وصول نتنياهو يريدون تأكيد الوجه الإسرائيلي الأقبح والمعادي للصلح وللسلام بفجاجة لا يمكن أن تعرض بغير أسلوبه الكاذب المستهتر، ولهذا تمنوا أن يصل للمنصب لأنه لن يصنع شيئاً غير كشف الوجه الحقيقي للتوجه الصهيوني الاستئصالي للعرب في فلسطين. وهذه المواقف المرعبة المكشوفة تزداد رغبة العرب والمسلمين في وجودها وانكشافها، لأن الواقع الممارس أكبر بشاعة وضرراً، وبحكم طريقة الأمة المسلمة المختلفة في ممارستها اللفظية فإنها بحاجة لانكشاف مواقف خصومها. فترى المسلمين يرتاحون عندما يصرّح بوش بكلمة حرب «صليبية» ضدهم، وكأنه يعطيهم سلاحاً جديداً مهماً بأيديهم، لأن المسلمين عانوا كثيراً من اللغة الليبرالية المؤيدة للغرب في بلادهم، التي تحب أن تتنكر دائماً لكل المواقف الحقيقية الغربية التي تريد بهم شراً، سواء كانت مواقف دينية أو غيرها.

وبخاصة أن السياسي الغربي الممتهن للسياسة لا يصل لموقعه السياسي إلا بعد زمن من المهارة اللفظية التي تسمح له بالكثير من المغالطة والتخفي. فالنصراني الأوروبي والأمريكي كما يصفه شكيب أرسلان يقوم بأعمال كثيرة نوازعها دينية، ويخفي هذا الجانب، متظاهراً بغير الحقيقة الدينية[1]. وبينما المسلم يتظاهر بالدوافع الدينية وقد لا يكون كذلك. فبوش الابن مغرق في تدينه، ولا يخرج قاموس معرفته عن الإنجيل كثيراً، ويقسم العالم ويمارس السياسة كإنجيلي تائب. ومع ذلك تجد ليبراليين عرباً يحاولون إخفاء النوازع الدينية له، فيفرح المتدينون في العالم الإسلامي وكأن القبض على بوش متلبساً بالموقف الكنسي الصليبي يمكّنهم في الوقت نفسه من القبض على الليبراليين في بلادهم متلبسين بالخداع والمغالطة.

وهناك أسباب أخرى كالبحث عن الأهمية للموقف الإسلامي والعربي، وإعطاء العالم العربي والإسلامي أهمية دولية كبيرة في الصراع الأممي. وأنهم يقفون ضد هؤلاء مهما كانت قوتهم، وأن عند المسلمين من الإمكانات

---

(١) فرنسا العلمانية المتطرفة في علمانيتها مقارنةً بغيرها من دولٌ الغرب ترسل الإرساليات التبشيرية للعالم الإسلامي والوثني، إدراكاً منها للبعد السياسي والديني والاقتصادي من نتاج هذه الإرساليات، وكما تحارب بشدة التوجهات الإسلامية في أرضها فإنها تراهن على تنصير البربر.



Twitter: @ketab_n

والمواقف والأفكار ما يجعلهم قادرين على المواجهة أو التوازن، بل والتغليب لما يرونه حقاً ومصلحة عقدية أو سياسية أو وطنية.

ووجد العرب والمسلمون أنفسهم في موقف واحد مع كثيرين في العالم، كلهم يؤكد الموقف وتأييد نظرية صراع الحضارات، حتى ممن لم يكونوا يدخلون في التسليم بهذه القضايا، وأصبح الموقف في العالم العربي شبه موحد على استيعاب هذه المشاعر، فكاتب مثل أدونيس يتحدث عن: «التصادم الذي تبدو ملامحه جلية، فيما إذا عمقنا النظر، واخترقنا حجب الكياسة والديبلوماسية»، وينقل في المقالة نفسها كلاماً لوزير خارجية فرنسا السابق هوبير فيدرين عن مقالة للوزير بعنوان: «كيف ننكر تصادم الإسلام ـ الغرب؟ ويعدد فيدرين في المقالة أسباب التصادم: «الجذور العريقة التاريخية لهذا التصادم، تمسك المتطرفين بهذه الجذور واعتمادهم عليها، الحرب المحتملة على العراق، سد الأفق في وجه الفلسطينيين، وتجريدهم من أي أمل، الإرهاب الأصولي باسم الإسلام، أحادية الهيمنة الأمريكية[٢].

ولكن التصادم مع الإسلام شعار محبب للغربيين لماذا؟

لأنه يصنع وحدة داخلية مطلوبة في الغرب، تحفظ لهم تماسكهم، ولو لم يحدث من المسلمين شيء بحجم أحداث نيويورك فإن الحاجة كانت موجودة للبحث عن طريقة للتدمير والنقمة، وكتبت نصوص كثيرة في هذا السياق بعد سقوط روسيا، وهذه القاعدة منذ أيام أفلاطون ومكيافيللي راسخة في التفكير الغربي. إذ يشترط بُناة الدول الغربيون وجود عدو وجيش وإيمان لتماسك كياناتهم. وذلك حقهم في بناء فلسفتهم وفلسفة دولهم، ولكن ليس حقاً لهم أن يجعلوا منا الهدف الذي يتدرب عليه كل من أراد القتل، أو يريد أن يجرب سلاحاً جديداً، أو يبني تماسكاً حزبياً، أو شهرة أو مجداً وتاريخاً[٣].

---

(٢) **الحياة**، ٦/٣/٢٠٠٣، عن جريدة: *Le Monde*, 28/2/2003.

(٣) أشارت الوزيرة كلير شورت المستقيلة من حكومة بلير ـ أيار/ مايو ٢٠٠٣ ـ أنه مهووس بمكانه في التاريخ، وذلك تعليقاً على توريطه لبريطانيا في احتلال العراق. وغفلت عن أن صناعة الشهرة من خلال الحرب على المسلمين تقليد لكل من يريد الشهرة من زعماء بريطانيا منذ أيام رتشرد قلب الأسد، وجلادستون وتاتشر، وأخيراً فإن المنصب الرسمي للملكة في بريطانيا هو حامية النصرانية. وقد كان هذا الوصف والمنصب مثار نزاع بسبب أن شخصاً مثل ولي العهد البريطاني ممن لا يليق أن يحمل هذا اللقب الديني وحاله معروف، ويقال عنه أنه يجامل المسلمين.



Twitter: @ketab_n

ويرى بعض من يحاول الإصلاح بين جبهتي المحيط الأطلسي أن مستقبل العلاقات الأوروبية الأمريكية يتقرر في ما أسموه الشرق الأوسط، وأن هذه المنطقة التي قسمت الغرب، يمكنها أن تجمعهما أيضاً من خلال عمل يوحدهما، وهو وضع سياسة موحدة للعمل، وبهذا ينتصرون على المناوئين من الحكومات أو الشعوب التي ترفض سياستهم في المنطقة، أو تريد أن تستقل بقرارها. وبالتالي فوضع سياسة أوروبية جديدة تتعمد الحرب مع المخالفين وسياسة موحدة جديدة مثل سياسة الحرب الباردة ضد روسيا، في مواجهة من يرفض الاستعمار الغربي، ومن يحب أن يستقل أو يسود في بلاده، وهذه السياسة والمواجهة يرون أنها سوف تقوم بتوحيد الغرب، أوروبا وأمريكا، مرة أخرى وتجدد سياسة وثقافة الاستعمار وقيمه، وتتخلص من أفكار الحرية، وكراهية الاستعمار التي انتشرت في أمريكا وأوروبا وغيرها، وتعيد قيم الاحتلال للعالم كما كانت في بداية عصر الاستعمار(٤).

كما أنها ستحقق مصالح الغرب [المسيحي] في عالم العرب والمسلمين. لأن موقف التكبر الأمريكي، والتمزق الأوروبي لا يخدم طموحات الغرب. ورؤية من يرى أن يقوم «الجنس الأبيض الأنغلوساكسوني البروتستانتي» الذي يُعرف اختصاراً بـ «الواسب»، أي دول أمريكا وبريطانيا وأستراليا، وربما نيوزيلاندا بعمل منفرد عن أوروبا فكرة فاشلة. كما أنه ليست هناك أوروبا من دون وجود فرنسا وألمانيا(٥).

وتبقى عقد التاريخ الألماني والفرنسي قائمة، فشعور الألمان بالتميّز لم يغب، وشعور فرنسا بهوية مستقلة ودين «الكاثوليكية» يخالف البريطانيين والأمريكيين والألمان، شعور ماثل.

سيحاول الغرب أن يعيد قصة الوحدة المسيحية في تحالف مقدس كالذي تم ضد الدولة العثمانية، وتمكّن من تدميرها وإخراجها من أوروبا لاحقاً. غير أنه ليس في العالم الإسلامي دولة تسمح بإقامة تحالف ضدها، ولا حرب،

---

(٤) يمثل روبرت كوبر المفكر الإستراتيجي للاتحاد الأوربي تجديداً لهذه الثقافة، وقد نال كتابه: *Breaking of Nations, Order and Chaos in the Twenty First Century.* تمجيداً وعناية لبعض لفتاته المهمة، في تجديد وصناعة حياة استعمارية وفكر استعماري متجدد.

(٥) Timothy Garton, «How the West Can be One,» *New York Times*, 27/4/2003.



Twitter: @ketab_n

وتبقى الغنائم هي الميدان، وهذه تجعل الأكلة تتنافس، وربما تتمرد الضحية ويفسد المخطط الذي يُعاد طرحه مرات متكررة، لأن وحدة الصف الأمريكي الأوروبي تحتاج لعدو مثل بريجنيف يتوحد الغرب ضده.

يرى هوبير فيدرين، المشار إليه سابقاً، في كتابه عن العولمة بأنها ستكون استمراراً تاريخياً لدور الغرب في العالم العربي، وليس غافلاً في سياقاته السياسية عن التاريخ والدين. وفرنسا بدأت بالعمل في خطوات حثيثة على صناعة موقف جديد من العالم العربي والإسلامي يتمثل في توطيد لمواقفها، وترسيخ للعلاقة المباشرة مع النخبة فكرياً وسياسياً، والتعرف إلى الخريطة الإسلامية بخاصة، وفتح أبواب الحوار، وإعطاء دور لخبراء المنطقة العربية في بلادهم وتشجيع للاستشراق مجدداً. وتوطيد دور المؤسسات الفكرية والبحثية في العالم العربي. وتعزيز العلاقة مع المسلمين في فرنسا، فاعتراف الحكومة الفرنسية بالوجود الإسلامي في فرنسا كظاهرة جديدة على الحكومة وفلسفتها، والاعتراف بل ربما التشجيع على إقامة ما يشبه مجلس للمسلمين في فرنسا والمشرف عليه مدير للمركز الإسلامي. وبتنسيق مع وزير الداخلية الذي امتدح في افتتاح المجلس مسألة وجود «إسلام فرنسي وليس وجود إسلام في فرنسا»[٦].

وإن كانت فرنسا ترى في هذه الخطوات خطاً مستمراً من الديبلوماسية والنفوذ منذ أيام نابليون إلى ما بعد استقلال الجزائر، فإنه ليس بالضرورة أن تكون النتيجة واحدة. وعلى الرغم من وجود الموقف المتطرف القاهر للمسلمين من قبل السلطات الفرنسية في أدوار عديدة زمن الاستعمار المباشر للبلاد الإسلامية في شمال افريقيا، ولكنها في بعض الفترات لم تنفصل عن البحث عن طريق لعلاقة ودية مع بعض المسلمين تؤكد بقاء المصالح وتنفي الضرر. واليوم هي تبحث عن طريقة لاستيعاب الإسلام وفرنسته «صناعة إسلام فرنسي»، مع الحرص على وجود قطيعة مع الإسلام نفسه، بحيث لا يضيرها وجود ديكور إسلامي، وأعياد ومناسبات إسلامية هامشية، ومظاهر تحتج بها على أنها بُلدان منفتحة وتقبل وجود المخالفين، وتضغط بهذه المظاهر للحصول على غنائم لمن تحب من الطوائف خارج أرضها. وسوف يحتج

(٦) وسائل الإعلام يوم الأحد ٩/ ٣/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

الليبراليون في فرنسا واليمينيون بضغط المتطرفين العنصريين الفرنسيين للتوصل إلى إلغاء تدريجي لما يستطيعون من الوجود والمظاهر الإسلامية.

وهذه فرنسا «دولة الحرية العلمانية» تنشر استخباراتها العامة تقريراً يحذّر من تزايد عدد الفرنسيين الذين يعتنقون الإسلام، وقالت جريدة **لوفيغارو**: «إن في الأمر ظاهرة مقلقة ومتسعة النطاق من انتشار الإسلام بين الفرنسيين، ويحذّر من خطر جماعة التبليغ، ويذكر أن مسجداً في ضواحي باريس يسجل وحده إقبال شخصين أو ثلاثة على اعتناق الإسلام أسبوعياً. ومن المعتنقين للإسلام أشخاص متدينون ومسيحيون سابقون وغيرهم، وعدد المعتنقين للإسلام يتراوح بين ثلاثين ألف وخمسين ألف فرنسي»[٧]. «في العام الواحد»[٨]. وهناك رغبة في ربط الخوف من الإسلام بمسألة الإرهاب، وقيادات المجتمع النصراني المتظاهر بالعلمانية يكرهون إقبال أممهم على الإسلام، ومن قبل الإرهاب كانوا يضايقون المسلمين، بل هناك من يغتال قيادات الدعوة الإسلامية بسبب أو بآخر، كما في تاريخ المسلمين السود في أمريكا، واليوم وجدوا عذراً يلوحون به في وجه المسلمين، فشخص فرنسي اعتقل بتهمة الإرهاب، يجعل خمسين ألف فرنسي مهتدٍ للإسلام في عين التهمة!! إنه الاستثمار السياسي الماهر للحدث، الذي لم يغب لحظة عن الاستراتيجية النصرانية تجاه المسلمين؛ فيرون اليوم أن الإسلام يمكن أن يرفع في وجهه شبهة التطرف والإرهاب، ليمكن السيطرة عليه. ولم يزل الإرهاب سلاح الدول القوية، ولم يكن سلاح الضعفاء. فالدول الاستعمارية ترهب وتقتل، بل وتحتل، ثم تسمي المظلوم الذي يبدي شيئاً من المقاومة أو التمرد «إرهابياً»، ولو لم يفكر أبداً في الانتصار لنفسه! بل دعا لدينه مثل جماعة التبليغ في أطراف باريس!! وماذا يدل عليه هذا؟ إنه جاذبية الحق، وطبيعة الأديان، ونوع أتباعها، ويوم يشتد الظلم على المسلمين تبقى فطر حية، حتى وسط الخصوم، قادرة على الرؤية في الظلام. لقد كان صعباً وبخاصة في السنوات الأخيرة أن تجد من يمكنه تجاوز الحملة القاسية على كل ما هو إسلامي، حتى إن ما كان يعتبر قانونياً خروجاً على القانون والأدب،

---

(٧) نشرت جريدة **لوفيجارو** جزءاً من التقرير يوم ١٢ شعبان ١٤٢٤هـ، ٨/ ١٠/ ٢٠٠٣م، وتناقلت الخبر عدد من الصحف في اليوم التالي، كجريدة **الحياة**.

(٨) هذا من الخبر كما نشره برنامج «إنسايت،» السي إن إن، ١٣ شعبان ١٤٢٤هـ، ٩/ ١٠/ ٢٠٠٣ م.



Twitter: @ketab_n

وعنصرياً، أصبح مقبولاً إذا كان موضوعه نقد المسلمين والإسلام وثقافته.

كما أن وجود أكثر من خمسة عشر مليون مسلم في أوروبا، وتنامي عدد المساجد حتى إن في ألمانيا وحدها ألف وخمسمئة مسجد، وتجاوز المسلمين لعدد اليهود في أوروبا، وتجاوز عدد المسلمين لعدد الكاثوليك في العالم بدءاً من عام ٢٠٠٠ وتفجر والحالة السكانية المتفجرة في عددهم، ووجود المواجهات التي تقودها توجهات إسلامية في فلسطين «حماس» ولبنان «حزب الله» وتحكيم الشريعة في نيجيريا، قد أوهم بعض المتعصبين الدينيين بأن المسلمين يفعلون ذلك بتخطيط ورؤية، نسيها النصارى الذين كانوا يؤمنون بـ «أنه لا رؤية بلا إيمان»[٩] وذكر أنه على الرغم من فشل الحكومات الإسلامية في إيران والسودان وأفغانستان، إلا أن الدين لم يفشل.

والكاتب بيوكانن ـ المؤثر في ثقافة اليمين الأمريكي وهو كاثوليكي ـ يسخر من قادة المسيحية الذين يدورون في العالم يعتذرون من الخطايا التي فعلها الغرب، فكيف يعتنق أحد عقيدة المعتذرين عن الخطايا المسيحة خلال القرون السالفة؟ بل هو ينشر الرعب من أمة أو أمم سلبها الغرب كل شيء، ولكنها تستعد للمطالبة بعد الاعتذار، يهوّل الموقف ليوقظ قومه المعتذرين الشاعرين بالذنب، ويزعم بأن المسلمين سوف يطالبون الغرب بمظالمه وبتعويض ما سلب منهم، ثم يسلبون الغرب ما يملك. ثم يضع الكاتب وصفة لخلاص الغرب من حالته القائمة وهي «استعادة الإيمان المقاتل الذي كان للغرب في شبابه». ويدعو إلى استعادة ثقافة الاستشهاد النصراني، وثقافة عدم التسامح، والخلاص من ثقافة تساوي الأديان؛ فأجدادهم الذين فتحوا العالم كانوا يؤمنون بدين واحد صحيح فقط إنه النصرانية، وبقية الأديان إنما هي أكاذيب[١٠].

كاتب هذه النصوص السابقة هو ممن يصنّف من اليمين المعتدل في أمريكا، وكان كاتباً لخطب الرئيس، ومتحدثاً ليلياً ومحاوراً على قناة ليبرالية هي الأشهر في العالم فترة طويلة «سي إن إن»، ودخل الانتخابات الرئاسية في

---

(٩) Patrick Buchanan, *The Death of the West: How Dying Populations and Immigrant Invasions Imperil Our Country and Civilization* (New York: Thomas Dunne Books, 2001), p. 118.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢١.



Twitter: @ketab_n

أغلب الدورات الانتخابية، آخرها ضد بوش الابن مرتين، ولو حمل هذه الأفكار مسلم لكان مطارداً بحجة التطرف، أو مهجوراً في أعماق السجون بتهمة الإرهاب والدعوة له، ويبقى هذا على الرغم من تطرفه معتدلاً إذا قورن بفالول أو بات روبرتسن «مرشح مهم للرئاسة سابقاً» أو فرانكلن غراهام، أو المنظّر العسكري رالف بيتر، وبقية رواد المجتمع وزعماء التوجيه الديني والسياسي في أمريكا. هؤلاء يثيرون المواجهات، ويزرعون الأحقاد، وقد يفتحون الطريق لمسلوبي الحقوق من دون قصد، وهم دعاة المواجهة واحتلال العالم الإسلامي بكل حجة وطريقة.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١١ ـ

# الاحتـلال أعلى درجات الإرهـاب

يحلو لبعض الكتّاب الأمريكيين أن يبدأ حديثه عن الإرهاب وأخباره في زماننا بهذه القصة: يوم أمسكت سفن الحراسة بقارب صياد أو قرصان في مياه الامبراطور، وحملوه إلى مجلس السلطان، اتهمه السلطان بالقرصنة والإخلال بالأمن، قال الصياد نعم إنني أقر بجريمتي لأنني أملك قارباً واحداً، ولكن لأنك تملك آلاف السفن فإنك لست إرهابياً ولا قرصاناً خارقاً للقانون، وهي اليوم قصة اللص المتحضر!! فالذي يملك القنابل النووية وملايين الجنود متحضر، والمسلم الذي يدافع عن بقية البقية من كرامة وعرض وبلد ولو بحجر فهو إرهابي!!. فالدول القوية تجعل قوتها قانوناً، ومن يحب أن يحافظ على القانون أو يرعاه لأنه ضعيف سيجد نفسه يوماً ما خارجاً على القانون إن لم يقبل أن يكون قاربه في خدمة سيد البر والبحر، ومعيناً للإرهابي الأكبر؛ وما دام قوياً فإن الوصف الصحيح لعمله لن يستطيع قوله أحد، وسيسمونه بالسيد وبالوصف الذي يحب، وكل هذا لا يغير حقيقة فعله ولا نتائجه. وسيجد هذا السيد سبباً دائماً لقتل وإرهاق الضعيف وابتزازه. ويقول منظرو التوسع للامبراطوريات إن خير الأزمنة التي تتسع فيها الامبراطوريات تاريخياً هي أزمنة الخوف. فباسم رعاية الأمن القومي والخشية من تهديد المصالح والأشخاص تتجه الدول القوية والثرية للبحث عن مستعمرات جديدة، وترهب الدول الصغيرة لأنها لا تستطيع أن تحفظ الأمن القومي «للغرب»، ولا السلام العالمي بالشكل الصحيح كما يرون!! فتبرر القوى العظمى تدخلها بذلك، وتنهي ما لها من شكليات السيادة.

وفي العصور الحديثة تجد الامبراطوريات الديمقراطية في الداخل



Twitter: @ketab_n

والمتوحشة العنصرية في الخارج فرصة كبيرة لإرغام شعوبها على القبول بالمغامرات الخارجية والاستيلاء على المستعمرات من خلال التهديد بمخاطر كبيرة تنتظر في الخارج في زاوية ما. وكانت الحكومة الأمريكية في غاية الحاجة للخوف الذي نشرته من الإرهاب ومن صدام حسين، ومن نشر الأكاذيب المروعة عن الأسلحة الخطيرة التي يملكها فلان أو غيره أو يمكن أن يملكها. فهذا التخويف للشعب الأمريكي يسمح بإجراءات عسكرة للشعب، ونشر للرعب وإزهاق للحقوق، وتجنيد الشعب للاستيلاء على دول وحدود وموارد شعوب أخرى، وإسقاط لأي اعتراض أو مراعاة للطبيعة البشرية المعتادة.

تقول النظرية السياسية المتبعة هذه الأيام في البيت الأبيض إن الرعب هو خير الأوقات لأن تتسع مكانة الدولة واقتصادها ومساحة نفوذها السياسي. وقد تضطر الامبراطورية للكذب المكشوف واختلاق المخاطر والمخاوف على الأمن القومي لتتوسع[1]. ومن وراء التوسع تحدث القوة والازدهار. وهذه العقيدة مرتبطة أيضاً بثقافة الحروب المفيدة والجيدة، فمغامرات الحروب كانت طريقاً للخلاص من الأزمات الداخلية للامبراطورية الأمريكية. يقول تيودور روزفلت عن التوسع: «إن تاريخنا هو تاريخ التوسع.. وهذا التوسع ليس أمراً يستدعي الاعتذار عنه، ولكنه يدعو للفخار»[2].

وكما تمارس هذا السلوك أمريكا تختطف إسرائيل أراضي أوسع كلما نفذت عملية في داخلها، أو خارجها. ففي اليوم التالي لأحداث ١١ أيلول/سبتمبر من عام ٢٠٠١ سارعت القوات الصهيونية لمجزرة واسعة ضد الفلسطينيين، وفي يوم التفجير في الرياض يوم ١٢ أيار/ مايو ٢٠٠٣ سارعت في اليوم الثاني بمجزرة وعززتها في اليوم التالي له. واقتطعت من الأراضي في زمن الخوف الأمريكي واليهودي أضعاف ما سبق في الأوقات العادية.

ولكن هذه السياسة الترويعية تزرع الوجل والخوف على المدى الطويل، وتختلط بالشعور بالكراهية، وتأكيد كراهية الناس، كما قال بوش كثيراً، لماذا يكرهوننا؟ ويأتي التفسير غير معقول: لأننا ديمقراطيون!! ويخطب ويقول

---

(١) انظر كتاب: فؤاد زكريا، **من الثروة إلى القوة**، الفصل ١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٦.



Twitter: @ketab_n

بسبب هذا المجلس «الكونغرس»!! إن الخوف الذي يسيطر على الجندي الأمريكي في العراق حين يهاب ويرتعب ويطلق النار في الشارع على كل شيء يتحرك سوف يعود به في قلبه، وقد أصبح التلفاز اليوم سلاحاً مضاداً لمن أنتجه، ولا حيلة له أن يكذب عليه دائماً. فينشر الرعب بدلاً من أن يجعل من خوف أمته استعماراً وتوسعاً، سوف يجد توسعاً أكبر لدائرة الخوف والمخاطر والأثمان الباهظة.

وتنتج موجة التخويف للآخرين خوفاً وهلعاً في الداخل. وينقلب السلاح الموجه لإرهاب الخارج إلى منازعات وإرهابات متبادلة. فالثقافة التي تزرع ليست ثقافة الشجاعة، بل ثقافة الترويع والرهبة والكلل، وليست في النهاية ثقافة تحفيز وتقوية وتوسع. فمن زرع الخوف حصد المذلة والعداوة.

المطارات الأمريكية التي كان يتنقل الناس فيها بشيء من المتعة لبسها لباس الخوف، وزاد عدد رجال الأمن فيها زيادة كبيرة جداً. ويتوقع أن يصل الأمر عندهم إلى أن واحداً من كل خمسة مواطنين سيعمل في جهاز أمني!! أي تحول مخيف يشهده هذا المجتمع؟ وهل مصير هذه الامبراطوريات جبري بهذه الحدة؟ وكما حدث في روسيا سيحدث في أمريكا؟ وهل طريقة ستالين وهتلر في عسكرة المجتمع هي مصير أمريكا؟ لست أرى أمريكا قريبة من حال روسيا سابقاً، ولكن ما هذا الانهيار واستغلال كل الظروف لزرع الخوف وتوزيعه؟ والخوف المفيد جداً، فهو يفتح الشهية للتوسع، ما أسرع أن نراه يدعو للمزيد من الانكماش والعزلة.

وإذا كانت الهيمنة الغربية الحديثة كما يرى مفكروها مثل لورد كرومر[٣]، ستكون أقصر عمراً، بسبب أنها تواجه الأديان ـ تحديداً يقصدون الإسلام ـ التي لم تواجهها الامبراطورية الرومانية مديدة الزمان، إلا في نهايتها، فإن القوى الغربية الحديثة تواجه عاملاً آخر حاسماً، وهو سرعة التغيرات، بسبب سرعة الوسائل المعاصرة، فكما أنها تسمح بسرعة الصعود، وسرعة القوة، فإنها تفتح باب التسارع الشديد في الانهيار أيضاً، وكانت الامبراطوريات القديمة تأخذ زمناً طويلاً لتقفز بجيوشها إلى تكاليف خيالية، أو

(٣) شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٧٣.



Twitter: @ketab_n

بجاسوسيتها أن تحطم كرامة وحرية أرواح مواطنيها؛ فإن الأنموذج الأمريكي سريع التوجه للدمار الذاتي بسرعة أكثر من غيره.

واللجوء للجاسوسية هرباً من الخوف، يفتح باب الجحيم على المجتمع الذي تتزايد فيه الجاسوسية، وكانت دائماً الجاسوسية، وتنامي الإنفاق العسكري، وكثرة مصاريف الحكومات من أثقل التكاليف على الدول، وهي من الأسباب المهمة لسقوطها. فالتكاليف المادية للجواسيس جزء مهم من الأعباء، غير أن الخوف، وفقدان الثقة في المجتمع، وإسقاط الأخلاق وهبوط الحمية العامة، بسبب التجسس هو العمل المفسد والعبء المدمر[٤].

(٤) كانت جاسوسية روسيا، وألمانيا الشرقية، ورومانيا، وهتلر، من أسوأ ما عرفه العالم، وقد قامت ببراعة بقتل أرواح الناس، وكرامتهم وطموحهم، ثم عادت سريعاً بهدم تلك الدول، وهناك توجه كبير في الولايات المتحدة، لأن تتحكم الجاسوسية في مستقبلها الداخلي.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٢ ـ

# آثار سقوط روسيا

نشير هنا إلى بعض المكاسب الإسلامية من سقوط روسيا وآثار ذلك في الغرب، فشُكر فاليسا، زعيم حركة التضامن البولندية، للمجاهدين الأفغان ـ لأنهم هدّوا قوة روسيا في الجنوب الشرقي فضعفت قبضتها على بولندا وشرق أوروبا ـ موقف صحيح وأثر حقيقي مفيد. ولكنه أثر مفيد وممتع في المدى القريب، بزوال ثقل الشيوعية عن عاتق أوروبا وأمريكا، غير أن زوال السوفيات يعني نهاية الاتحاد المواجه له، وفقدان السبب الأكبر الذي ربط ووحد مصالح الغرب؛ إذ بدأت ملامح الآثار السلبية بعد ذلك، فإن العالم الرأسمالي النصراني الغربي الذي كان موحداً ضد روسيا «الملحدة» وجد نفسه منقسماً على نفسه، ويعد الحاضر والمستقبل بمزيد من الانقسامات، بين أوروبا وأمريكا، فأوروبا التي كانت خائفة من روسيا فتوحدت وخضعت تحت حلف الناتو أصبحت لا ترى هذا الخطر قائماً الآن. والترويع من الخطر الإسلامي واستغلاله من قبل أمريكا وبريطانيا للهيمنة على أوروبا ليس قولاً مقبولاً من قبل أغلب الأوروبيين. وفهموا منه حقيقة التلاعب بهم وبموقفهم لتوثيق السيطرة الأمريكية على أوروبا، واستخدام دول كانت هامشية في أوروبا مثل بولندا لفرض مواقف على الأوروبيين، ومحاصرة ألمانيا من الشرق بتابع أمريكي جديد. والصراع الاقتصادي بين عالم رأسمالي واحد، سوف يفتح بينهم عالماً من الخلافات العميقة التي قد لا يستطيعون إيقافها عند حد المواجهة المرنة والسياسة الناعمة. كيف وقد بدأت أوروبا تتحدث عن تسليح نفسها خارج نظام الناتو!

وأوروبا التي تحاربت على المستعمرات والقوة الداخلية والحدود حربين



Twitter: @ketab_n

عالميتين لم تزل هي نفسها، ومطامع ألمانيا في الشرق الأوروبي ليست مطامع شكلية، فهتلر الذي كتب في آخر كتابه فصلاً رآه مصيرياً عن ضرورة توسع ألمانيا شرقاً أصبح اليوم أكثر وضوحاً وتطبيقاً من زمن هتلر، والمصانع الألمانية تجتاح رومانيا وبولندا ويوغسلافيا، حيث العمالة الرخيصة، والموارد الواسعة، والخنوع الأوروبي الشرقي للألمان، يقابل ذلك حرص أمريكا على أن تصنع فتنة لألمانيا وفرنسا في شرقهما وجنوبهما، والبحث عن إيطاليا التي تخالف ألمانيا وفرنسا، وبعث القوة الإسبانية في أوروبا، وصناعة توازن جديد يعيد أوروبا في القرن التاسع عشر، ويصنع توازناً جديداً مشكل من إسبانيا وإيطاليا وبريطانيا ضد فرنسا وألمانيا. والصراع الفرنسي الألماني عميق، يغيب أمام الخوف من أمريكا أو روسيا ولكنه قابل للعودة في أي وقت. سقوط روسيا جلب أشباح أهوال وليس الاستقرار، وقد لا ينعم الغرب بسلام طويل كالذي كان أيام الحرب الباردة، وتبقى الحرب العالمية الثانية من أكثر الحروب فائدة بدروسها عميقة الأثر لإدراك ضرر الحروب. فهل تصمد ذكريات ودروس الحرب ضد نوازع الحرب! وهل تفكر أمريكا فعلاً في إغراق القارة القديمة في صراع تغرق فيه أوروبا، وتنقذ نفسها بعيداً عن المنافسين، وتنفتح لها دورة مستقبلية أخرى من التنعم والتميز! وهل يمكن إبقاء صراع وحروب أوروبا في داخلها؟ التاريخ لا يقول ذلك.

تفكر روسيا في دور كوكبي دائماً، وعلى الرغم من ضعفها ولكنها لم تسلِّم بعد بنهايتها، على الرغم من أن ميزانية روسيا لا تساوي ميزانية مدينة نيويورك، ولكن السكان والمساحة والموارد والاستقلال الثقافي والديني والتاريخ وبقايا القوة؛ يدفع بهم على الرغم من ضعفهم لممارسة دور أكبر من إمكاناتهم، وسيكون لهم بقية قدرة لإزعاج خصومهم.

وتحرير مناطق واسعة من العالم الإسلامي الذي كان مقهوراً تحت سيطرة الشيوعية أعاد للمسلمين دينهم وهويتهم وأخوّتهم وولاءهم، وأعاد تحررهم جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي للأمة بعد اختطافه بزمن طويل. على الرغم من أنهم لا يزالون بعيدين مقطوعين، لم يتعودوا بعد صياغة علاقاتهم خارج المنظومة الروسية، ولم يصدقوا بعد أن روسيا انتهت، ولو انتهت فإنهم بعد لم يستطيعوا التعامل مع أجواء اتخاذ قرارهم بأنفسهم. ولكن الأجيال التي ولدت وستنشأ في عصر الحرية النسبية سوف تفكر بطريقة مختلفة عن آبائها. وما يحدث في الشيشان قد يصنع رفضاً واسعاً جداً لجميع مخلفات روسيا



Twitter: @ketab_n

الشيوعية في الجمهوريات الإسلامية الثرية الواسعة والواعدة.

ومن عجيب الجرأة والغرور ما كتبه ذات مرة برنارد لويس في مجلة **الشؤون الخارجية** الأمريكية عن هذه الجمهوريات، حيث يرى أن أمريكا وبريطانيا سوف تجدان أن من المهم أن تقوم إسرائيل بالإشراف والاحتواء لمستقبل هذه الجمهوريات الإسلامية البعيدة الواسعة الكبيرة موارد وسكاناً. وتكون مهمة الإشراف على مستقبلها من مسؤولية الصهاينة. وظهرت بوادر كثيرة للأسف في تلك المناطق من خلال تطوير العلاقات وشراء مستثمرين صهاينة للعقارات في عدد من العواصم ومناطق السياحة والمصانع القديمة في تلك الجمهوريات، وبدء العلاقات الديبلوماسية مع يهود. وعلى الرغم من كل هذه المحاولات فستكون هذه العلاقات والتدخل مثار شر ليهود على الزمن الأبعد لأسباب دينية وشعور المواطنين في الجمهوريات الإسلامية بالاستغلال اليهودي لمواردهم. وهناك رغبة جامحة في هذه المناطق للعودة للإسلام.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ١٣ ـ

# «أفـول الغـرب»(*)

قُبيل وبعد حادثة نيويورك انهمر سيل من الدراسات التي اهتمت بالتأريخ لموت الغرب أو نهايته، منها كتاب بيوكانن الشهير **موت الغرب** الذي ربما يكون في طريقه للنشر بالعربية، وهناك مقالات ذات أهمية في هذا السياق منها مقالة «نهاية الغرب»(١)، التي نعرض لبعض أفكارها هنا، في سياق البحث، إذ يرى صاحب المقالة أن حادثة نيويورك رمت بأمريكا على الجبهات في كل مكان، لتأييد سيطرتها على العالم، وساعدتها هذه الحادثة على مواجهة ما أسموه بالإرهاب(٢)، ووضع العين على الصين. ويرى الكاتب أن الخطر على الغرب ليس الصين ولا العالم الإسلامي؛ ولكن الخطر على الغرب هو الغرب نفسه، فهناك في أوروبا اقتصاد هو الأقرب للاقتصاد الأمريكي، ثمانية تريليونات دولار، يقابلها عشرة في أمريكا. وينافسونها ويحاذونها في الميادين التي تميزت بها سابقاً، ويطورون قيماً تخالف قيمها، ويقفون من كثير من القضايا بخلاف موقفها. ويقومون على كتابة دستور واحد للاتحاد، وبناء قوة عسكرية واحدة، وهذه رغبة ثلثي دول الاتحاد. وليكون لها صوت واحد في حلبة السياسة الدولية. وزادوا الأعضاء ليشمل عام ٢٠٠٤ بولندا وهنغاريا «المجر» وتشيكيا وغيرها.

فهل ستكون المواجهة بين شاطئي الأطلسي كما كانت بين روسيا

---

(*) هذا عنوان الفصل الرابع من كتاب **صدام الحضارات**.

(١) Charles A. Kupchan, «The End of the West,» *Atlantic Monthly* (November 2003)

(٢) انظر نقاشاً حول هذه التسمية في موقع آخر من الكتاب.



Twitter: @ketab_n

وأمريكا؟ لا يعرف أحد؛ ولكن الحرب التي بدأت في ميادين التجارة والسياسة قد لا تقف عند هذه الحدود التجارية والسياسية، وبعض هذه المواجهات السياسية شهدناها أخيراً في موضوع العراق، وقد لا تتفق أوروبا مع أمريكا في قضايا وأفكار عديدة، منها موضوع الموقف الأمريكي من المسلمين، وتأييدها المطلق لإسرائيل، وموضوع الاقتصاد والبيئة، وانسحابها من اتفاقية كيوتو للبيئة، وحقوق الإنسان، وعقوبة الإعدام، والعداء للمهاجرين في أوروبا، وصعود العداء لليهود في أوروبا، ويقابل ذلك تحكم اليهود بسياسة أمريكا، ولغة النقمة اليهودية، والاتهام الأمريكي يصفها بـ «أوروبا القديمة»، أو يعيّرونها ربما بالمواقف العنصرية، والغفلة السياسية التي سببت الحروب التاريخية الكبيرة.

أمريكا تحكم العالم بالقوة وأوروبا تريد حكمه بالسياسة والقانون ـ كما يدّعون ـ ويرى الأوروبيون في سياسة أمريكا اعتماداً على القوة وتبسيطاً وأنانية ونتاجاً للمبالغة في استخدام القوة وتعيب أمريكا أوروبا بعكس ذلك، وأن الضعف والتردد بسبب وضعها الضعيف، فهي لم تستطع أن تصنع شيئاً في البلقان حتى جاءت أمريكا. ولو ملكت أوروبا القوة لما اعتمدت السياسة. ويرى الأوروبيون أن السياسة الدولية ـ سابقاً ـ استقرت بتعاون فاعل بين طرفي المحيط الأطلسي خلال ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنها قد تشهد اليوم عهداً مختلفاً.

ولا نغفل هنا أن الصراع القادم قد يكون هو نفسه الصراع الاستعماري القديم الذي كان يسيطر على أوروبا، حينما كانت تتنافس على المستعمرات وثروات العالم، وما نرى ملامحه اليوم قد لا يختلف كثيراً عن السابق.

وتتظاهر أمريكا بعدم اهتمامها بصعود أوروبا، ومن صنّاع السياسة الأمريكية من يراها وحدة تجارية رائعة؟ نعم إن الدين وكثيراً من الأسس توحد ثقافة أوروبا وأمريكا، ولكن في الغرب سابقة مهمة وهي سابقة الامبراطورية الرومانية الواحدة التي انقسمت بين القسطنطينية وروما، ثم اختلفت ديناً وسياسة، ثم تحاربت في ما بينها وانهارت، ومهّدت صراعاتها الطريق للمسلمين، ولنشر سيطرتهم على جزء كبير من ممتلكات هذه الامبراطورية.

أوروبا ليس لديها حكومة مركزية كأمريكا، ولكن الفيدرالية الأمريكية



Twitter: @ketab_n

نفسها بدأت ضعيفة، وغير متماسكة في أول عهدها الفيدرالي عام ١٧٨١، ثم اتخذت بعد ذلك نحو مئة عام لتتأكد هذه الوحدة بعد الحرب الأهلية. ولتبدأ هوية قومية وولاء للفيدرالية. أما الوحدة الأوروبية فبدأت أفكارها وبعض عملها منذ نحو خمسين سنة، ولكنها الآن قائمة بل ربما سبقت الجدول المعد لتحقيقها. واليوم يتم السفر بين فرنسا وألمانيا من دون مراقبة لجوازات السفر ولا حدود ولا جمارك ولا تغيير عملة، كالذي يحدث في التنقل بين الولايات الأمريكية.

وفي مجال الاقتصاد يهدد اليورو سيطرة الدولار على الأسواق في العالم، بدأت أوروبا بإنشاء بنكها المركزي الذي يحاول أن يكون البديل من البنوك الأمريكية، ولتتحول ثروات العالم لأوروبا، وحدث بالفعل في أزمة العراق أن حُوّلت أموال كثيرة من أمريكا لدول أوروبية. ويصعد الاقتصاد الأوروبي وينافس على حساب الاقتصاد الأمريكي أحياناً، فشركة «نوكيا» لصناعة الهواتف أوروبية وهي الأولى في العالم، وشركة «إير باص» لصناعة الطائرات تجاوزت شركة «بوينغ» الأمريكية، وشركة «ديملر بنز» اشترت شركة «كرايسلر» الأمريكية، وشركة «برتلسمان» اشترت واحدة من أهم بيوت النشر الأمريكية «راندوم هاوس».

أما لهجة الخلاف والتحدي فظهرت في أشكال عديدة ملتبسة بسياسة ومستقبل الاتحاد الأوروبي، وهدفه، فشرودر، المستشار الألماني، دعا «إلى مزيد من التكامل والتوسع الأوروبي للتخلص من الهيمنة الأمريكية». ورئيس الاتحاد الأوروبي رومان برودي يرى «أن من أهداف الاتحاد تكوين قوة عظمى في القارة الأوروبية تقف مساوية للولايات المتحدة». ورئيس وزراء السويد قال عن الاتحاد الأوروبي «إنه واحد من المؤسسات القليلة التي يستطاع تطويرها لتصنع توازناً مع سيطرة الولايات المتحدة على العالم»[٣].

وجرت تصريحات عديدة بعد هذه، تنم عن مواقف وتوجهات استقلالية سوف تكون مؤثرة في مستقبل العلاقات بين الاتحادين الأمريكي والأوروبي. فسلبية أمريكا وتعاليها تجاه الاتحاد الأوروبي زادت من قوة الاتحاد، وعدد من الأفكار المختلفة والمؤسسات المتنافسة جعلت أوروبا تصنع أفكارها المستقلة، وتتجه لتكون هي مركز العلاقات وفض النزاعات، وهناك صعود

---

(٣) من المقال المشار إليه: Kupchan, «The End of the West».



Twitter: @ketab_n

حقيقي لأوروبا فهل تعرف أمريكا ذلك؟ وهل تعترف به؟ وهل ستكون مواجهة وصراع حضارة غربية ـ غربية، والنصرانية الغربية تواجه نفسها؟ وما هي آثار هذا الصعود في المسلمين والعالم؟ فهل يكون صراع المستقبل ليس بين الغرب والآخرين بل بين الغرب نفسه، بين الاتحاد الأمريكي والاتحاد الأوروبي. وهل يجد المسلمون متنفساً مريحاً وتخف وطأة الرجل الغربية فوق بلادهم؟ فهناك دائماً صراع لم يخب بين الغربيين المستعمرين قبل أن يكون لهم هذا الاتحاد، وكان صراعاً رهيباً هل يتكرر ذلك هنا أو هناك؟ فأهم معارك الحرب العالمية الثانية بين البريطانيين والألمان كان في معركة العلمين غرب مصر، والحرب الباردة كانت بلاد العالم الإسلامي من الميادين المهمة لها، ولعل أشهر ميادين المواجهة أفغانستان.

إن العالم الإسلامي لا يبدو الآن متحدياً قوياً لأوروبا ولا لأمريكا في مجال السلاح والحروب، وبالتالي سيكون الصراع بين الأقوياء المتنافسين. وكل مؤهلات التصادم موجودة في الجانب الغربي من العالم ربما قبل سواه. وخسر الغرب خسارة كبيرة بانهيار الاتحاد السوفياتي، إذ كانت خصومة الغرب للسوفيات توحد الغربيين أنفسهم، وتجمع شملهم ضد غيرهم، أما بعد سقوط الاتحاد السوفياتي فإن ذلك قد يفتح بينهم نيران المواجهة والصراع والاختلاف. ويشتغلون بأنفسهم ولو لمدة من الزمن تمكن عالم المسلمين من الاستقرار بدلاً من القلق والرعب الدائم الموجه لعالم الإسلام.

ويقابل هذه التحولات حملات رعب مثل التي سادت أيام الحرب الصليبية، فهناك تحريض وتخويف وترويع مبالغ فيه ضد المسلمين، ولعل هذا أيضاً محاولة لجمع الغرب ضد المسلمين، وهذه الظاهرة موجودة بقوة في الأوساط الكاثوليكية والبروتستانتية، وموجودة في مجتمعات العلمانيين الغربيين، ويوقدها اليهود لأهدافهم الخاصة.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٤ ـ

# مكان المسلمين بين المعسكرين

يبقى أن هناك احتمالاً كبيراً لأن يُستخدم الإسلام والمسلمون مرة أخرى في الصراع الأمريكي الأوروبي، وسبق أن استخدمت أرضهم ودينهم ودماؤهم في معارك ليست لهم، وأقرب الاستخدامات ما أداه المسلمون ودينهم من دور مهم في هزيمة الشيوعية، مرة بوعي وحرص على إنقاذ المسلمين منها، وهذه مسألة صحيحة، ومرة تلتقي المصالح، ومرة ربما من دون وعي، وهي حقيقة كبيرة أخرى، وهي أن الغرب استخدم الإسلام كأحد الأسلحة التي ساعدت في إيقاف المد الشيوعي واليساري والقومي، وساعد الغرب على تأسيس أو دعم العديد من المنظمات والمؤسسات الإسلامية لتحارب الفكر الشيوعي ونفوذ السوفيات في العالم الإسلامي، حماية لنفسه لا للمسلمين. وما حدث أن نتيجة ذلك السريعة كانت مكاسب غربية، ولكن الإسلام استفاد كثيراً من نتيجة غير مقصودة في البدء، وهي تحرره من قسوة الشيوعية، ولكن الغرب تضرر بوجود روح التحرر العامة المنتشرة بين المسلمين، وهو تحرر لا يفرق بين المستعمرين من شيوعيين أو خصومهم، والمشاعر التي ربما ساندت وحدته وهويته، بعد سقوط الشيوعية، عرفته أيضاً أنه لم يخرج من دائرة الغبن الغربي أو الروسي بل بقي محاصراً، وعليه أن يستمر في تلمس طرائق تحرره الذاتي، وأعطته الحوادث قناعة جديدة أن التحرر يقتضي وجود فكر خاص وتميز بالإسلام، فلا يحرره الفكر الشيوعي من الرأسمالية، بل استعبدته هذه الفكرة وأهلها، ولا تحرره الرأسمالية من الشيوعية فهي تريد استعباده، فكل ميل نحو فريق أو فكر أجنبي مستغل يكون إبدالاً من داء بداء. وهذا الإدراك الواعي اليوم لا شك فتح جديد في التوجه والممارسة لم نعهدها من قرون.

إننا نعترف بحقيقة أن الغرب استخدم العالم الإسلامي مورداً للمواد الخام،



Twitter: @ketab_n

يخدم أهدافه وأفكاره، ويحارب له، ويوفر له الطاقة والمكان والسوق والخبرة والعقل واليد المطواعة، وعلى الرغم مما سبق فإن هناك لمحات وعي ويقظة، هنا وهناك. ومن وسائل تجاوز هذه التبعية الإدراك السياسي لصراع الغرب الداخلي، فقد يعوق هذا الخلاف ـ الغربي الغربي ـ عن الاستمرار في طريقة الاستغلال السابقة للعالم الإسلامي. ويحسن التعامل مع طرفي الصراع هذا أو غيره بطريقة حرة وغير جبرية ولا مفرطة في تقدير قوة دون الآخر، ولا نتوقع وحدته وتماسكه دائماً. وفي زمن الصراع المتوازي يصبح للضعفاء وزن أكبر مما يعرفون، وأكبر من وزنهم الحقيقي لكونهم مرجحين بين طرفين، ويكون لهم أثر جبار في ربح أو خسارة أحد المعسكرين، ومجرد الانضمام لمعسكر قد يكون خسارة ماحقة بلا ثمن، وتعجّب الأمريكان من تخلي السادات عن الروس والانحياز السريع المطلق لأمريكا، من دون مساومة ولا ثمن، والوثائق التي نشرت أخيراً أظهرت التعجب من تصرفه، حتى كاد الزعماء الأمريكان لا يصدقون هذه الغنيمة الكبرى أن ينحاز بلد بكل ما يملك من وزن وأثر من دون مقابل[1] ثم تكرر الأمر من غيره، حذو القذة بالقذة، من قبل الذين سبق وأن انتقدوه، وشددوا عليه.

ودائماً كانت هناك فجوات مستمرة يمكن بواسطتها التخلص من الضغط، وصناعة الموقف المستقل، والحصول على مكاسب بلا حرب للذين ليسوا قادرين على الحروب. وقامت قوى كبيرة في العالم واستقلت، واستفادت من الصراع الروسي الأمريكي، وستجد فسحة أكبر في أي صراع قادم، وليس بالضرورة شراً. لأن الكون لم يكن له من يدبره كاملاً سوى من أوجده. وكثيراً ما ينسى المحللون حقائق التاريخ والكون وتستغرقهم حوادث صغيرة في مكان ما عن تاريخ يتكون في زاوية من الأرض بعيدة، أو تغير قريب لا يشعرون بقيمته.

استراتيجيون أمريكيون كثر اليوم يحذّرون من خطر نهج توازن القوى، وعودة العالم لهذه السياسة التي عاشتها أوروبا في القرن التاسع عشر، بعد نهاية حروب نابليون، لأن نهج التوازن يقوي البلدان المتوازنة ويطمعها، ويسمح بالتنافس والصراع الملتوي، ويسمح بصعود القوى الصغيرة، ويمنع وجود قوة دولية واحدة متميزة في العالم، ويخضع لها الجميع، وهو نمط قريب مما كان في الحرب الباردة، وسيحرم أمريكا من التفرد مستقبلاً، ولكن

---

(١) نشرت بعض الوثائق حول هذا الموضوع في مجلة: **المجلة** (لندن) (ربيع الأول ـ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ)/ (أيار/ مايو ـ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣م).



Twitter: @ketab_n

قد يستطيع التنوع الحضاري والديني والاقتصاد، والذكاء، والرغبة في الحرية في صناعة وجه آخر لما نراه اليوم.

وربما عادت أمريكا قريباً مُكرهةً وبسبب تراه في مصلحتها من الاعتراف بغيرها، لحمل بعض أعباء الامبراطورية عن كاهلها. وذلك ما تحاول أن تفعله في مناطق عديدة، عندما تضرب الجزية على بعض الدول، كالذي تدفعه ألمانيا واليابان من المساهمة بالطعام وغيره للجنود الأمريكيين المقيمين على أرضها. ولكن دول العالم الثالث تلتزم بجزية أعلى من ذلك للامبراطورية.

إن السيطرة العسكرية على أمم ومواطن أخرى تستلزم وجود الضرائب، أو الجزية، مقابل الحماية، والدولة المسيطرة تبدأ بالضرائب المرهقة للمغلوبين، فإن لم تُكفِ موارد الأقاليم، فرضت المزيد من الضرائب على الشعب الامبراطوري نفسه، حتى يصبح شريكاً للمقهورين في الأقاليم البعيدة. وينتهي الأمر: بأن يعامل مركز الامبراطورية الشعوب المغلوبة مثل معاملته لمواطنيه، ويعامل مواطنيه مثل معاملته للشعوب المغلوبة، ويقود ذلك إلى مساواة الجميع في الاضطهاد[٢].

إن فرض الضرائب يجلب أزمات كثيرة للسياسيين والشعوب، ويزرع اليأس في قلوب العاملين الذين تستقطع دخولهم في الضرائب، وترتفع تكاليف العاملين، فتقل فرص العمل، ويجنح الناس للبطالة، وعدم زيادة الضرائب يوهن الجيش، ويضعف الحكومة، ويقلل من النفوذ!! فسياسة بوش الاقتصادية لخفض الضرائب عن الأغنياء تضر بالاقتصاد، ويصف ستيغليتز سياسية خفض الضرائب بأنها: «سيئة للاقتصاد، سيئة للبلاد، سيئة للعالم»[٣]، أمران أحلاهما مر، وهناك حقيقة تبدو مزعجة وهي أنه عندما تعاني حضارة من تتابع الأزمات يصبح كل علاج لها داء.

إن الشكوى من فقدان الحرية في أمريكا يتعالى، والحرية دينها، وهاجمته في كل مكان فقبل الناس، ولكن سطوتها على الحريات انقلبت لتصادر حريات شعبها بحجة الخوف، والتخويف والرغبة في الاستبداد بمصائر المغلوبين،

---

(٢) إيمانويل تود، **ما بعد الإمبراطورية**، ترجمة محمد زكريا إسماعيل (بيروت: الساقي، ٢٠٠٣)، ص ١٠١.

(٣) ستيغلتز، **زئير التسعينات جذور الانهيار**، والكاتب سبق له أن عمل مستشاراً اقتصادياً لمدة ولاية الرئيس كلينتون الأولى، وحصل على جائزة نوبل في الاقتصاد، وهو مؤلف كتاب: **خيبات العولمة**.



Twitter: @ketab_n

وإغلاق النقاش حول مصيرهم سبب هذا فقدان ثقة واشتراك الشعوب في الاضطهاد. وهذا الجانب الأيديولوجي بالغ الأهمية في تقييم الدول ومكانة أفكارها، فمجموعة الليبراليين الأمريكيين يفقدون مواقعهم ودينهم «الحرية» وهوليود معبدهم يواجه الحكومة، ويواجه مصيراً صعباً لو بقي توجه الثقافة بهذه الطريقة الاستبدادية، لتعاني أمريكا من فقدان ما يسميه استراتيجيوها بـ «القوة المرنة أو الناعمة» وهي القوة الثقافية التي يرى المروّجون لها أنها لا تقل أثراً عن القوة العسكرية! فالكتب والأفلام، والصور والدعاية قوة تنخر قلوب المعارضين، وتجرف شباب العالم نحو أمريكا، والتفريط فيها كما بدأ يلوح منذر لمصير القوة الأمريكية. والمجلات والإذاعات الموجهة للعرب ولغيرهم سوف لن تعوض عندما تسقط العقيدة في منبعها[٤].

## اصطراع الغربيين

هناك في المجتمع الغربي مشكلات عديدة تكبر مع الزمن ويلمع خطرها، ويتحدثون عنها بوضوح، فالحديث عنها جزء مهم من علاجها، ويخفيها أو يخفف من ظهورها وتحققها الصراحة في معرفتها، والغنى، وبقية قوة الدولة والديمقراطية ومحاولات العلاج الجادة. من هذه المعالجات لمشكلة العنصرية والتمزق ما تراه من إدخال السود والأقليات في واجهة حكومة ليس فيها نافذون من السود، فوزير خارجية أسود «باول» وفي حكومة كلنتون وزيرة خارجية امرأة يهودية ألبرايت، وعدد أكثر من السود، وكانت حكومته أكثر الحكومات التي راعت الأقليات، فقد عيّن وزيرتين من أصل عربي، ووزراءَ سوداً. وفي الحرب الأخيرة ضد العراق تم تكليف جنرال أسود ليلقي التلخيص الإخباري اليومي عن الحرب من قاعدة السيلية في قطر، وكان هذا الدور قد أسند لجنرال أبيض في بداية الحرب، ونفاق الأقليات والملونين في أمريكا فن وممارسة طريفة ليس هذا مجال الحديث عنه. وهو أيضاً شعور بالتشكيل الجديد لأمريكا، قوة الملونين، ومشكلة وجودهم على هامش المجتمع، فإظهار وجودهم مهم، وأيضاً الخوف منهم ومن تمردهم، وشعورهم بالسخط، ومراعاة للجمعيات الضاغطة سياسياً من مثل اليهود والنساء والأقليات والشاذين بخاصة الذين لهم أقوى جماعة ضغط في الفترة الأخيرة. كما أن الجمعيات الضاغطة القديمة

---

(٤) تقوم الخارجية الأمريكية الآن بإصدار مجلة **هاي** بالعربية وسبقتها محطة «سوا»؟ الإذاعية محاولة جذب قلوب الشباب العربي، ثم أنشأت محطة تلفاز «الحرة» الفضائية.



Twitter: @ketab_n

كرابطة بائعي الأسلحة، وشركات الدخان، وشركات الدواء، وشركات النفط، تعيث فساداً لا يستطيع مواجهته حاكم أمريكي أياً كان، وهذه الشركات تبيع وتشتري رجال الكونغرس، السياسيين والمؤسسات والجامعات ومراكز الأبحاث. وأصبح لا يطمئن طبيب ولا دارس ولا مواطن إلى المواقف والنتائج التي تصدرها الجامعات والمؤسسات البحثية. وبدأت صعوبات تعترض من يدقق في سلامة الأبحاث الاستراتيجية والغذائية والعسكرية، لأن وراءها جماعات ذات قوة مالية جبارة تسخر لنفسها السياسة والعسكر والطب والقانون والمشرع في الكونغرس. فمنظمة يهودية للضغط مثل «أيباك» التي في حسابها ستة مليارات دولار يصعب مخالفة رأيها في شيء داخل الكونغرس، ويصعب دخول من لا ترضاه لحلبة القرار. ولا يملك الرئيس مخالفتها في قراراتها.

ويصعب معرفة تشعبات هذه التفاصيل أو الاستطراد فيها هنا. وأشير إلى الرشاوى الكبيرة التي تقدمها شركات التبغ لرجال السياسة في أوروبا لمنع الدعايات المضادة للتدخين، والشركات التي تبث دعايات كاذبة عن أرباح غير صحيحة لبعض الشركات. وما تبذله شركات توفير الطعام على البحوث الدعائية الأكاديمية التي تفسد الجو الأكاديمي، وتوظف الباحثين لكتابة بحوث كاذبة، كالزعم بأن هذه القهوة أو الشاي أو المنتج الغذائي ـ الذي تنتجه الشركة صاحبة المنحة والدعم للباحث ـ له حسنات وفوائد صحية كبيرة، لتتمكن الشركة المنتجة من الزيادة من بيعه في السوق. وما يسبب هذا من فساد وانهيار للثقة.

وفي أمريكا اليوم حالة من الاستياء الشديد بين الولايات الفقيرة والغنية، فما الذي يجعل ولاية مثل كاليفورنيا فيها سادس اقتصاد في العالم تتحمل مشكلة الفقراء في مثل ولاية غرب فرجينيا، أو جنوب كارولاينا، وما الذي يجعل شمال ولاية نيويورك يتحمل جنوبها ويتحمل فقراء «مدينة نيويورك وما جاورها؟» وما الذي يجعل الولايات التي ستكون أغلبية سكانها إسبانية كاثوليكية تتحمل عنصرية الأنغلوساكسون، وهل الصراعات بين السود والإسبان ستقف في كاليفورنيا وغيرها أم أنها واعدة بالمزيد؟ ولايات سلة الخبز الوسطى مثل كنساس هل ستبحث عن طريق للانفراد كما يعد صاحب كتاب **الأمم التسع في أمريكا الشمالية**[٥]. والذي يحدد مفاصل الحدود الجغرافية القادمة

---

(٥) كتبه جول جاريو، انظر: Joel Garreau, *The Nine Nations of North America* (New York: Avon Books, 1981).



Twitter: @ketab_n

للتمزق، كما يراها. وهو كتاب يمتّع من يعمل وفق تفكير تنبؤي، يناسب تفكيراً رغبوياً في العالم العربي وعند خصوم أمريكا. ولكنه ليس بذي فائدة كبيرة على الرغم من شهرته يوم خرج منذ نحو عشرين عاماً.

وأبعد قليلاً فالصراع مع أمريكا الجنوبية يأكل الأخضر واليابس بين الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية والحروب لم تنقطع أبداً، بين أولياء الولايات المتحدة وخصومها، تدعم أصدقاءها بالسلاح والطائرات وتقيم الحروب باسم المخدرات ومطاردة الثوار الذين تتهم بعضهم بالشيوعية، وقد يكون بعضهم كذلك ولكن الشيوعية واجهة لخلاف عميق بين مقهورين مستعمرين ترسل لهم أمريكا حاكماً في كل مرة، من أمثال بينوشيه يدمر الحرية وآمال الاستقلال. وفي كولومبيا حرب تشارك فيها القوات الأمريكية منذ عقود. حتى أصبحت هذه الحرب أنموذجاً للاتباع؛ ولهذا قررت روسيا وحلفاؤها خوض المواجهة مع الإسلاميين في وسط آسيا بناء على الأنموذج نفسه، وتفسير الصراع ليكون مقبولاً دولياً، فقد قرروا في مؤتمر لدول وسط آسيا الاستفادة من الحجة الأمريكية في وصم المعارضة بتجارة المخدرات، حتى وإن كانوا أشداء في حرب المخدرات مثل طالبان آنذاك. وقد اتخذ القرار في فترة وجيزة قبل حادثة ١١ أيلول/ سبتمبر.

لقد صوتت كل دول أمريكا الجنوبية الديمقراطية ضد الانقلاب الأمريكي على هوغو تشافيز في فينزويلا، واستنكرت الانقلاب الفاشل الذي حدث، لأنه ضد الديمقراطية، ولكن ربما لأنه انقلاب أمريكي الصنعة. وجزء من المواجهات بين الأمريكتين. ويقرر كيسنجر في مقالة قديمة له[٦] بأن أمريكا الجنوبية سوف تكون هي من المناطق الواعدة بصراع مرير، وأن أمريكا سوف تنسحب من العالم البعيد مثل شرق آسيا وأوروبا لتعاني من هذه المشكلة على حدودها الجنوبية. وأمريكا تتنازعها محاولات للحل، منها الاستيعاب للجنوب، عبر الهجرة والتجارة، ومنها المواجهة والعزلة. وكل من هذه الحلول يحمل سمومه الغلابة. فاستيعاب الجنوب قد يلد عكس ذلك، والعزلة موت وفقر، ودعوة للغزاة أن يصلوا من دون مشقة بعد أن يكونوا قد احتلوا طرق التجارة.

---

(٦) ذكر في المقال الذي نشرته مجلة **نيوزويك** (*Newsweek*) بعد إخراج صدام من الكويت عام ١٩٩١م أن أمريكا سوف تخرج من شرق آسيا أولاً، ثم من أوروبا، وآخر المناطق البعيدة التي سوف تخرج منها هي «الشرق الأوسط»، لتشتغل بأزمات أمريكا الجنوبية. وقد تم بعض من هذه الخطوات في هذه المسيرة.

Twitter: @ketab_n

## ـ ١٥ ـ

# تفجّر المشكلة الصهيونية في الغرب

بطريقة لم يسبق لها مثيل تفجرت في أمريكا مشكلة النفوذ الصهيوني اليهودي في الإدارة الأمريكية، وهذا حدث جديد في التفكير الأمريكي والتعامل، فالعادة أن يُهمَس بهذه الأمور، وكان قد نوقش الأمر من قبل بشكل خافت وعلى استحياء ما حدث في حملة انتخابات «آل غور» الذي عيّن ليبرمان اليهودي المتدين نائباً له في حملة الرئاسة عام ٢٠٠٠، الذي كان قد أشير إلى أنه يجد حرجاً في العمل يوم السبت في الحكومة، لكونه يوماً يسبت فيه اليهود، ولكنه أكد أن بلده لو احتاج خدمة ملحة لعمل في يوم السبت فلن يسبت فيه على طريقة اليهود، وبهذا لعله وجد من يعطيه فتوى تبيح له العمل يوم السبت، وهو بخلاف شامير الذي لم يسمح له تشدده متابعة مؤتمر مدريد بالعمل بقية يوم الجمعة، وترك العرب والنصارى في مدريد من دون محاور. ولما وضح هذا السبب لاحقاً للمؤتمرين قالوا: «ونحن عندنا أيضاً يوم الجمعة ولكنا لم نلتزم بالفراغ للصلاة فيه».

وفي مقر الحزب الديمقراطي وجدت كتابات حذّرت من وجود زعيم يهودي في أمريكا يسابق على نيابة الرئاسة. ولكن الجماعة اليهودية المتعصبة التي احتكرت المناصب القيادية واحتكرت مراكز التأثير في الحكومة وخارجها فاجأها نشر ملفات التسجيلات السرية للرئيس نيكسون التي اشتكى فيها للقسيس المخضرم بيلي غراهام[1]، من أن اليهود يسيطرون على ٩٥ في

(١) أهم شخصية دينية بروتستانتية في أمريكا منذ قرابة الأربعين عاماً، وهو واعظ مؤثر وكاتب، وله علاقات متشعبة كثيرة التماسك مع الشخصيات التي تدخل البيت الأبيض، وبخاصة =



Twitter: @ketab_n

المئة من الإعلام الأمريكي، فأكد بيلي ذلك، وزاد في التحذير منهم. واضطر بيلي غراهام لأن يعتذر لليهود علناً بعد كشف هذه الأشرطة بأكثر من ثلاثين عاماً[٢].

ولم يكتف الصهاينة بأن كانت لهم هذه المؤسسات النافذة، إذ كانوا وراء التخويف من الوجود الإسلامي، ووراء حملة تحويل الأنظار من الدور الصهيوني وإرهاب دولتهم في فلسطين ولبنان وسوريا، والذي سبب أحداث نيويورك الرهيبة، وراحوا يحولون الأنظار لدول وجماعات إسلامية ويجعلون الإسلام سبباً في ما حدث، أو بعض مفاهيم الإسلام. واستطاعو من دون ريب وبحركة بالغة الذكاء أن يصرفوا الأنظار، واستخدموا الكنائس والمحافظين وبعض السود مثل القس النائب «آلن كيز» في التهويش والتحريش بالمسلمين في كل مكان ونشر الرعب من دولهم وأفكارهم ونفطهم. وقام مثل المهرجين وذوي الأقلام المسمومة في جريدة **نيويورك تايمز** بالتشنيع والترهيب من الوجود الإسلامي هجرة وعملاً وتكاثراً ونفوذاً وتحولاً من المسيحية للإسلام. وأصبح بعض من يسلم من الشعب الأمريكي موقع متابعة وترهيب، واستخدمت عوامل عديدة لهذا.

وفي المجتمع الأكاديمي قام صراع حاد بين المستشرقين الصهاينة من جانب والمستشرقين الأمريكيين من اليسار والمستقلين، واحتدم صراع بين كول من جامعة ميتشيغن وكريمر مستشرق يهودي متعصب، ومجند في الجيش الإسرائيلي، حيث يسخر المستشرق اليهودي من المستشرقين الأمريكان الذين تهاونوا بالإسلام ولم يحذروا من وجود المسلمين، ولم ينبهوا المجتمع الأمريكي لمخاطر الوجود الإسلامي في أمريكا، ونشر ذلك في كتاب خاص عنونه بما يوحي بأن الأكاديميين الأمريكان خانوا وطنهم عندما لم يحذروا من

---

= الجمهوريين. وقد أصبح ابنه يحاول أن يأخذ مكانه ولكنه كان فجّاً في حديثه وتعليقاته عن الإسلام والمسلمين وهو يفتقد حس النفاق السلطوي، الذي يميز والده، فلعل كثيراً من اليهود لم يكونوا يتوقعون أن زعيم البروتستانت يسر لهم قدراً كبيراً من البغض والحقد بسبب نفوذهم الإعلامي، حتى انكشفت الأشرطة.

(٢) اعتذر ونشرت جريدة **لوس أنجلس** اعتذاره بتاريخ: ٢ آذار/ مارس ٢٠٠٢م وكان قد ذكر في الأشرطة المسجلة سخطه من هيمنة اليهود على الإعلام وتسييرهم للبلاد، وذكر ضرورة كسر هذه الهيمنة. ويمكن مراجعة المقال على هذا الرابط: <http://www.latimes.com/la-000015776mar02.story>.

Twitter: @ketab_n

المجتمع والثقافة الإسلامية. ورد عليه كول بأن من يعمل في الجيش الإسرائيلي ليس من حقه أن ينبه لهذا، فهو صاحب موقف وولاء سابق. ثم عاث يهود آخرون بالعقل الأمريكي من أمثال دانيال بايبز الذي أصبح مستثمراً كنتنياهو من وراء نشر الرعب من الوجود الإسلامي. ويستخدم الغطاء الأكاديمي لممارسة دوره. ثم جاء تعيين إليوت أبرامز الذي أدين في عهد حكومة ريغان في البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي ليكون ثالثة الأثافي، ثم أثارت مشكلة الحرب على العراق المحافظين الكاثوليك وغيرهم على الاستغلال اليهودي لأمريكا وتسخيرها لمصالح اليهود ليقول باتريك بيوكانن «مرشح سابق للرئاسة ومفكر وكاتب مؤثر» قوله في مقالة مهمة قاربت خمسة آلاف كلمة عنونها بـ «حرب من؟» وناقش الأمر بوضوح لا سابقة له في عهد قريب، وتحدث بصراحة عن وجود عصابة يهودية في الحكومة والبيت الأبيض والدفاع تستغل أمريكا لحروب اليهود وقضاياهم. يقول في مقالته الشهيرة: «لم نرَ أمريكا معزولة في حياتنا من أصدقائها القدماء كما هي الحال الآن، والأسوأ من ذلك أن الرئيس بوش اقتيد إلى مصيدة نصبت له من قبل هؤلاء المحافظين الجدد يمكن أن تكلفه مكتبه، وتسبب لأمريكا خسارة سنوات من الأمن قدمت لنا عبر تضحيات جيلين خلال الحرب الباردة.. هم يتهموننا بعدائنا للسامية، أي إننا نكره اليهود لإخلاصهم وميراثهم وتراثهم، هذا ليس صحيحاً، بل إن الحقيقة هي أن هؤلاء يوجهون التهم التي تضمر الرابط العاطفي لأمة ليست أمتنا تجعلهم يعتبرون مصالح دولتهم ثانوية، والعمل على الفرضية القائلة: ما هو من مصلحة إسرائيل سيكون من مصلحة أمريكا». ويشير للمرحلة التي سبقت أحداث نيويورك بزمن وأنهم «المحافظون الجدد» وهم النصارى المتصهينون، «قد أخذوا يفكرون في اتخاذ هذا العمل الوحشي لإثارة الغضب الأمريكي من أجل الخروج للحرب لتدمير أعدائهم المحتقرين وهم العرب والدول الإسلامية التي عارضت اتفاق وانسجام الولايات المتحدة مع إسرائيل.. خطة الحرب كانت جاهزة قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وعندما كان يبحث عن اتجاه جديد للحرب بعد أن هزم طالبان وضعوا وصيتهم الجاهزة مسبقاً أمامه واستسلم بوش لها... وأخبر بيل بينت شبكة «سي إن إن» أن على الكونغرس أن يعلن الحرب على الإسلام المسلّح، وذكر لبنان وليبيا وسوريا والعراق وإيران، ولم يذكر أفغانستان... وفي ١٥ أيلول/ سبتمبر قال وولفويتز إن الحرب على أفغانستان ليست أكيدة، أما العراق فهو ذو نظام

Twitter: @ketab_n

هش يمكن هزيمته بسهولة وهو مقدور عليه.. لقد تم تحذير بوش وأن عليه أن يستخدم هجوم ١١ أيلول/سبتمبر لإطلاق سلسلة من الحروب على الأنظمة العربية التي لم تهاجمنا، ولكن كلها أعداء لإسرائيل... لمصلحة من هذه الحروب التي لا نهاية لها في منطقة لا تملك شيئاً ضرورياً لأمريكا باستثناء النفط الذي لا بد من أن يبيعنا إياه العرب؟ من سيستفيد من صراع الحضارات بين الغرب والإسلام؟ الإجابة: أمة واحدة، قائد واحد، حزب واحد، إسرائيل وشارون وحزب الليكود. في الحقيقة إن لدى شارون صدىً في كل مكان من قبل مؤيديه في أمريكا. ففي شباط/فبراير ٢٠٠٣ أخبر شارون وفداً من الكونغرس بأنه بعد تدمير نظام صدام فمن الأهمية بمكان تجريد إيران وسوريا وليبيا من الأسلحة... مصلحتنا كبيرة في تشكيل الشرق الأوسط بعد الحرب على العراق. هذا ما قاله شاؤول موفاز، وزير الدفاع الإسرائيلي، لمؤتمر المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى [أن سوف يحدث] بعد أن تدخل الولايات المتحدة بغداد»[٣].

وفي فرنسا تحدثت الصحف الفرنسية عن رئيس منظمة أطباء بلا حدود، الذي صنع مجده من مساعدة المضطهدين في الحروب الاستعمارية من فييتنام إلى افريقيا، ولكنه هذه المرة أيد الحرب ضد العراق، وكان تعليق الصحافة الفرنسية هل لأنه يهودي؟ وتواجه الصهيونية في فرنسا تحدياً كبيراً من قبل طبقات واعية بدورها في المشكلات الدولية، ولم تزل فرنسا مضطربة في علاقاتها مع الصهيونية، ومع اليهود، داخلها وخارجها، وهناك تاريخ طويل متشابك له جذوره في الكاثوليكية وفي الثورة الفرنسية. وصعود عدد المسلمين في فرنسا واندماجهم أو محاولة دمجهم في هموم فرنسا سيكون له تأثيره في العلاقات القادمة مع العالم الإسلامي. وسوف تعاني فرنسا من رغبتها في إخراج الإسلام منها، أو تضعيفه، وبين طموحاتها في علاقة مع المستعمرات وشبه المستعمرات في شمال افريقيا وفي افريقيا المسلمة. إنها تأمل في سل روح الوعي والمقاومة والتحفز في العالم الإسلامي وتجنيب فرنسا الحرب الدينية «كما أسماها دو فيلبان حرب الثقافات»[٤].

---

(٣) انظر: Patrick J. Buchanan, «Whose War?,» *American Conservative* (24 March 2003).

(٤) **الحياة**، ٣/ ٤/ ٢٠٠٣م. في هذه المحاضرة التي قدمها وزير الخارجية الفرنسي أكد أهمية عدم التصادم والحرب الثقافية.



Twitter: @ketab_n

وفي بريطانيا ظهر هذا الأمر للعلن وعبّر عنه البرلماني المخضرم «داليل» واشتكى من نفوذ اليهود على رئيس الحكومة البريطانية، وذكر أن جاك سترو أحد أجداده يهودي، ووزير الشؤون الإيرلندية السابق وعدد بعض الشخصيات المرتبطة بإسرائيل، بمن في ذلك لورد «ليفي» موفد رئيس الوزراء «بلير» إلى المنطقة العربية. وقد ثارت في وجه اليهود في بريطانيا مشكلة موقف أساتذة الجامعات البريطانيين الذين رأوا في موقف إسرائيل وقتلها ومطاردتها للفلسطينيين موقفاً غير إنساني، ويحسن بالجامعات البريطانية أن تقلل من ارتباطها وتعاونها بالجامعات اليهودية؛ لهذا السبب كشيء من العقوبة لها. والجدير أن اليهود ناشطون في الجو الأكاديمي البريطاني ويصطادون خصومهم من البريطانيين الذين ينتقدون المواقف اليهودية(٥).

ونشرت جريدة **نيويورك تايمز** ملفاً استعادت فيه قصة اليهودي المخادع ريتشارد بيرل، رئيس مجلس الدفاع، الذي استقال بسبب تضارب مصلحته الشخصية مع منصبه، ولكنه بقي عضواً مؤثراً في مجلس الدفاع. وأثارت تصرفاته الكثير من خصومه، ودلّت على سوء استخدام المعلومات السرية، حيث يفتح شركات لبناء وتصميم وتسويق المكتشفات الخاصة بالدفاع، ومن الجدير بالذكر أنه أيضاً عمل مستشاراً للجيش التركي(٦). ومن قبل ذلك كان المسؤول عن تهجير يهود الفلاشا، وعن مشروع تهجير يهود روسيا لإسرائيل، وإلزام الحكومة الأمريكية بدفع نفقات ذلك(٧).

وتحالف التطرف الديني البروتستانتي مع عصابة يهودية اختطفت السياسة الأمريكية ولم تعد تستطيع الاختفاء، ولا تحبه، هو الذي جر رجلاً محنكاً وشهيراً مثل بريجينسكي ليتحدث عن: «صنع قرارات استراتيجية بعيدة المدى ضمن دائرة ضيقة من المطلعين على بواطن الأمور يخفون دوافعهم الحقيقية عن الشعب.. وأنتجت في الخفاء حركة سياسية مفاجئة، ذات مضامين دولية كبرى، تبرر للعامة بخطاب دراماتيكي جداً، وديماغوجي أحياناً، فضلاً عن

---

(٥) جريدة **صن داي تلجراف** (*Sunday Telegraph*) يوم الأحد عن: **القدس العربي**، ٥/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٦) نشرت التقرير جريدة **لوس أنجلس تايمز** (*Los Angeles Times*) وترجمته **الشرق الأوسط**، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٧) ناقش هذا الدور بالتفصيل كتاب **القوة اليهودية في أمريكا**.



Twitter: @ketab_n

أدلة مشكوك فيها»[٨]. ثم يتحدث عن: «هذا الظهور المفاجئ واللحظي تقريباً لمذهب الحرب الاستباقية الاستراتيجية الجديد». وأنه لا يساعد على صياغة ديمقراطية للسياسة الخارجية[٩].

لقد تنبه أخيراً عقلاء من شتى توجهات المجتمع الأمريكي للخطر الذي تسوقهم إليه ما أسمته وسائل إعلام عدة: رجل الظلام «بيرل» وعصابته، ولكنها لا تربط ذلك بما تحدثه امبراطورية مردوخ الإعلامية من رهاب عام، وتسخير لأمريكا وغيرها لهذه العصابة. ولكن سيأتي ذلك اليوم الذي يكتشفون فيه هذا.

---

(٨) زبيغنيو بريجنسكي، **الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم**، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤)، ص ٢٢٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

Twitter: @ketab_n

## ـ ١٦ ـ

# عودة الصراع الاستعماري القديم

نقلت وكالة رويتر خبراً عن اجتماع سفراء لحلف الأطلسي في بروكسل بدعوة من واشنطن، للبحث في المخاوف الأمريكية الناجمة عن طموحات الاتحاد الأوروبي المتعلقة بإقامة قوة دفاعية مستقلة عن الحلف، وتخشى واشنطن من أن تمزق الطموحات الدفاعية الأوروبية الحلف القائم منذ ٥٤ عاماً، الذي يضم ١٩ دولة، وكان الخلاف قد أثير في نيسان/أبريل الماضي، بعدما اتفقت أربع دول أوروبية عارضت الحرب على العراق على إقامة مقر للتخطيط العسكري لعمليات إدارة الأزمات، وانتقد السفير الأمريكي بيرنز المبادرة التي قدمتها بلجيكا وفرنسا وألمانيا ولوكسمبورغ، واصفاً إياها بأنها «أخطر تهديد لمستقبل حلف شمال الأطلسي». وتحدث ديبلوماسيون عن موقف متشدد من جانب بيرنز أثناء الاجتماع الذي أصر فيه على أن مكانة الأطلسي كضامن لأمن أوروبا تقضي بإعلامه واستشارته في ما يتعلق بخطط الدفاع الأوروبية، وكشف الديبلوماسيون أن «الولايات المتحدة في موقف هجومي وتشكو من الافتقار للشفافية وقلة الحوار، وتطلب أيضاحاً لما يجري»، وسبق أن أفاد تقرير صحافي «الأسبوع الماضي» أن القلق تزايد في واشنطن بعد اجتماع زعماء فرنسا وألمانيا وبريطانيا في برلين والذي خففت فيه لندن من معارضتها للطموحات الدفاعية الأوروبية[1].

وقبل هذه الأخبار خرجت كتب تتحدث عن الافتراق الأوروبي الأمريكي

---

(١) أوردت الخبر جريدة **الحياة** عن وكالة رويترز، ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٣.

Twitter: @ketab_n

القادم، مثل كتابات روبرت كاغان[٢] وما سنعرض له من نصوص أخرى هنا، يساعد على معرفة بعض ما قد يكون مصير هذين المجتمعين القريب، فالهوة تزيد والخلافات لم تعد كالسابق، والأوروبيون يشعرون بأنهم أقرب أن يكونوا أمة واحدة ـ ولو في هذه الحقبة فقط ـ فهل يقبلون بأمريكا التي كانت مصدر استقرار لهم يوماً ما أن تمارس استبدادها وإهانتها لهم، هناك أسباب عديدة لما يستقبله الطرفان وما يمكن وقوعه.

هناك من يفسر الخلاف الأمريكي الفرنسي والأمريكي الألماني من الحرب مع العراق الآن في عام ١٤٢٤هـ أو ٢٠٠٣ بأنه موقف مبدئي من شرور الحرب، وأن جماعات السلام من واجبها البحث عنه، ومنهم من يفسر هذا بموقف قانوني سياسي بأن العراق استوفت وفي طريقها لاستيفاء ما يلزم التفتيش عن السلاح أن يقوم به، ومنهم من يفسر ذلك بأن الموقف الأوروبي من صراع الحضارات يقتضي تهدئة الأمور، وعدم استثارة الإسلام بأكثر مما استثير. وأن أوروبا مجاورة للعالم الإسلامي وسوف تصطلي بنتائج ما تقوم به أوروبا وأمريكا في حال تأييد الحرب وما ستأتي به. وهناك من يفسر الموقف تفسيراً اقتصادياً، أي إن أوروبا الموحدة والقوة الجديدة لا تريد هيمنة أمريكية على سوق ومنبع الطاقة النفطية القادمة، ولا الاستبداد به، وعانى الفرنسيون من مطاردة شركاتهم النفطية في الخليج وإيران، وعانوا من مطاردة أمريكية لهم ولحصولهم على عقود استثمار ومشاريع كثيرة في الخليج، وكانت الأطراف المعنية في الخليج تبين لهم أن هناك ضغوطاً تحد من حصول الفرنسيين على هذه المكاسب. «أزمة العراق مجرد عنوان»[٣].

ويكتب واحد من المعلقين الأمريكيين عما أسماه بـ «حربنا مع فرنسا الخبيثة»، فيقول: «حان الوقت بالنسبة إلى الأمريكيين لأن يتعايشوا لا مع حقيقة كون فرنسا هي حليفتنا المزعجة، أو منافستنا الغيور، بل مع حقيقة كونها أصبحت عدوتنا». وهذا تأكيد الخلاف الأوروبي الأمريكي الحاضر والقادم، ويستمر الكاتب في المقالة نفسها ليقول: «تريد فرنسا للولايات المتحدة أن تغرق في المشاكل داخل العراق، على أمل أن يؤدي ذلك إلى إضعافها، ما يعيد الطريق أمام فرنسا لكي تحتل موقعها المشروع كمكافئ

---

(٢) ترجم أحد أعماله مؤخراً بعنوان: **الفردوس والقوة**.

(٣) مقال لـ: حمد الكواري منشور في: جريدة **الحياة**، ٨/ ٣/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

للولايات المتحدة، إذا لم تكن متفوقة عليها في مجال صياغة شؤون العالم»[٤]. ثم ينهي المقالة كعادته بالترهيب من المسلمين، ويستغل عددهم في فرنسا ليرعبها بهم.

فالعلاقة الأوروبية الأمريكية تتقرر في الشرق الأوسط[٥]، ومصير أوروبا يتقرر في افريقيا، وخارج أرضها، من خلال الصراع على الموارد، كانت افريقيا موارد لأمريكا تستورد منه الطاقة البشرية، وقود الزراعة والصناعة «العبيد»، واليوم النفط، فيصل أمريكا يومياً نحو مليون برميل نفط من غرب افريقيا، ونيجيريا وحدها يزيد إنتاجها على مليوني برميل يومياً. ويستنكر كتّاب أوروبيون سياسة أن تقوم أمريكا بطبخ «الدور السياسي والعسكري»، وأوروبا بغسل الصحون: «بعض المساعدات والمواقف التي يسمونها إنسانية وثقافية» ويرفضون تفرد أمريكا بالطبخ، ويطالبون بالمزيد من الطبخ لأوروبا والمزيد من التنظيف لأمريكا.

كما أن فرنسا عانت مطاردة أمريكا لنفوذها في المغرب العربي، وفي الجزائر، وأخرجتها من مناطق مهمة لها في عدد من مناطق النفوذ السابقة، وفي شرق افريقيا وغربها، تعاني المناطق التي كانت فرنسا نافذة فيها، فقد وصل الأمر إلى أن أقامت أمريكا قواعدها العسكرية في المعسكرات نفسها التي كانت فرنسية، مثل قاعدة جيبوتي. وهددت شركاتها بالمقاطعة، كالمضايقة التي تعرّضت لها شركة توتال النفطية، بسبب عقودها في مناطق لا تحب أمريكا أن تكون فيها فرنسا، مثل إيران.

وبالتالي فليست مسألة العراق مسألة السلاح، وليست فقط مسألة مناصرة إسرائيل وتفريغ المناطق من حولها من السلاح والقوة، ولا فقط جعلها البلد المهيمن في المنطقة، وليس هناك رغبة لأي دولة كبيرة في أن تصنع في منطقة لنفوذها أي قوة مزعجة، مهما تكن هذه القوة، قد ترفع بلداً لينافس آخر، أو يزعج جواره أو يبدي توازناً تستطيع القوة العظمى وجوده. ولكنها لا تصنع لنفسها ما يمكن أن يضرّها. وستكون عبارات الصداقة والموالاة غالباً شعارات وقتية، تموت عند أعتاب المغانم النفطية أو غيرها.

---

(٤) توماس فريدمان، «حربنا مع فرنسا الخبيثة،» ترجمته جريدة **الشرق الأوسط**، ١٩/٩/ ٢٠٠٣.

(٥) Timothy Garton, «How the West Can be One,» *New York Times*, 27/4/2003.



Twitter: @ketab_n

وفي أوروبا صراع قديم، ومشكلات تتجدد، وسوف تهتم أمريكا بإحياء هذه المشكلات، فبين الألمان والفرنسيين، وبين الفرنسيين والبريطانيين، وبينهم وبين الأسبان، وهناك كاثوليك وبروتستانت، وكنيسة أرثوذكسية شرقاً عنهم في شرق أوروبا، وستحاول ألمانيا في المستقبل أن تستعيد سمعتها وصيتها ومجدها، تستعيده من الضعفاء المجاورين الذين يحصلون على أكثر مما يستحقون مقارنة بها، فهي تنفق عليهم وتؤمنهم، وعملتها ربما سادت عملاتهم، ومع ذلك تقبع ألمانيا مقهورة منذ نحو ستين عاماً! واليوم أمريكا تطارد ألمانيا في أوروبا الشرقية، وتحارب مناطق نفوذها ووجودها. وتحارب اليورو هناك، وتتسع وتنقل جنودها في شرق أوروبا التي تأمل بأن تكون مستعمرات جديدة ومراكز للضغط على ما تدعوه أمريكا بأوروبا القديمة، حتى بولندا ـ التي لا تزيد في كثير من ظروفها على أن تكون مرة مستعمرة ومرة معبراً يدكّه الخصمان ألمانيا وروسيا في الطريق ـ تحاول أمريكا إيقاظها ورميها في طريق الألمان، وإرسالها وراء الأفق ليكون لها جيش يستعمر قطعة من العراق، كيداً بالخصمين ألمانيا وروسيا، واستلحاقاً لهذه الكيانات الصغيرة، ومؤشراً لتثبيط أوروبا الاقتصادية الجديدة، بأوروبا القديمة المتنازعة.

## الضغط الغربي

يصف المراقب لأحوال المنطقة الكاتب البريطاني باتريك سيل حال المسلمين مع الغرب بقوله: «ولا شك في أن مشاعر الثورة ضد الصلافة والهمجية الغربية كانت تختمر في النفوس منذ زمن طويل، وربما منذ أن أقدمت بريطانيا وفرنسا بتقسيم بلاد العرب الآسيوية بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تشجيع الحركة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين، غير أن أفعال إدارة بوش وحكومة شارون خلال السنوات الثلاث أو الأربع الماضية ألقت بالزيت على النار»[٦]. ويرى الكاتب في المقالة نفسها أن ما تسميه أمريكا قصة إرهاب بأن جذوره الجديدة «إنما نعثر عليها في السياسات الأمريكية»، فقد أوجد الضغط الغربي الحاقد على المسلمين حيناً، والغبي حيناً آخر، حالة من الوعي بالخطر، وما يدعو له من الاتحاد بين الضحايا، والشعور بالاستهداف من قبل مؤسسات غربية ودول تضر وتجاهر وتدمر وتؤيد

(٦) باتريك سيل، «السياسة الأمريكية بحاجة إلى مراجعة جذرية،» **الحياة**، ٢٧/ ٨/ ٢٠٠٤.



Twitter: @ketab_n

مشاريع التدمير للأمة وثرواتها، فطائرات الأباتشي والإف ١٦، تقتل الأطفال والنساء النائمين في بيوتهم، سلاح يعرف ضحاياه أنه من هبات أمريكا للصهاينة، ومذابح وإرهاب لا يواجهها حتى الاستنكار المنافق. في شهر شباط/ فبراير ٢٠٠٣ قتل اليهود سبعين فلسطينياً منهم أطفال ونساء وشيوخ فلم يلمهم أحد، وقتل الفلسطينيون عدداً من المجندين اليهود يقل عن عُشر الفلسطينيين فاستنكر الرئيس الأمريكي بأشد كلمات الاستنكار الممكنة قتل اليهود؟ وهذا يصنع شكاً حتى في وجود أدنى درجات النفاق السياسي والخلق الإنساني، فالإنسان المسلم لا قيمة له والغربي النصراني وأولياؤه هم فقط «الناس»، وهذا يدعو الإنسان المسلم لأن يعيد الاعتبار لنفسه، ويلزم الآخرين بذلك. وفي أفغانستان قتلت الطائرات الأمريكية عدداً من الأفغان وكانوا في عرس، ثم رفضت أمريكا الاعتذار وأعطت كل عائلة مئتين أو ثلاثمئة دولار فدية للفرد منهم، وهي تحاصر في الوقت نفسه القذافي وتطالبه بما لا يقل عن عشرة ملايين دولار لكل فرد من الذين ماتوا في حادثة تفجير الطائرة الأمريكية فوق قرية لوكربي. [عشرة ملايين دولار فدية الغربي وثلاثمئة دولار للمسلم] ولكن بقية المسلمين المقتولين عمداً في العراق وغيرها لا يطمحون لفدية الأفغاني.

وقتلوا العراقيين في ضاحية من ضواحي مدينة القائم في صيف ٢٠٠٤ ولم يكن لهم من غطاء للفضيحة إلا الزعم بأنهم كانوا يعدون لعمل إرهابي، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك فقد قتل النساء والأطفال، بل كانت أدوات الموسيقى في العرس من بين ما حملته الصور الأولى. وفي التحقيق والصور المنقولة لحظة القصف كلها دلت على مظاهر العرس، ما جعل المتحدثين آنذاك يتحدثون عن الهلع الأمريكي من كل تجمع للعراقيين!! غير أن شناعة الكذب في زعم أن حفلة العرس إنما هي «تجمع إرهابي» مؤشر على الإصرار على الكذب، وهذا كان طابع سياسة المتطرفين النصارى والصهاينة التي اجتاحت مواقف وثقافة السياسة الغربية مؤخراً. وفوق أن هذه المواقف تصنع كراهية وعدم ثقة، فإن إصرارهم على ما أسماه باتريك سيل وهو منهم بـ «الصلافة والهمجية» يصنع أسساً لعدم الثقة، ورخص الهدف، وهوان أخلاقيات المحارب التي تكبر من شأنها ثقافة الأمم ومروءة الرجال. ثم كم ستكون فدية العراقي في القائم مئتي دولار أم هو إرهابي بلا قيمة، ولن تكون فديته عشرة ملايين دولار مثل فدية الأمريكي؟!



Twitter: @ketab_n

هذه المواقف المتطرفة في عنصريتها وامتهانها للمسلمين صنعت وتصنع موقفاً ووعياً مضاداً لم يكن الغرب بحاجة لممارساته وإشهاره، لولا الاستهانة الكبيرة بالعربي أو المسلم الذي يعيش خارج دوائر العنصر الغربي ديناً وشكلاً، والحقد الكبير والانتقام الذي كشفت عنه الأيام.

والظلم لا يفسد حياة المظلومين فقط، بل هو خلق مدمر للظالم، فلئن كان موزع الصدقات على الفقراء والمعوزين يصاب بمرض خلقي محطم لمشاعر نبيلة في نفسه، فإنه أيضاً يسيء أخلاق الآخرين وأخلاقه بمشاعر تترسخ مع الزمن وتصنع له أمراضاً وعللاً ونقصاً يضر به، حيث يصبح الناس في عينيه تلك المكونات التي يريدها فيهم، أو لا يريدها، وينزع عنهم الإنسانية في عينه، وينتج مقياسه الخاص بذلك. فالظالم بالتالي يصنع داء في بلده لقومه تعالياً وغروراً، مستقياً ذلك من عنصرية عميقة في الثقافة الغربية تعتمد اللون أو الدين أو المذهب أو الجغرافيا مقياساً للبشرية. وينشر بذلك سموماً قوية قاتلة ومفتتة لقدراته قبل خصومه.

## من مشكلات المثقفين

يجد المثقفون أنفسهم في كثير من حوادث التاريخ آخر من يلم بها وبتوجهاتها، وما تحمله من بشائر خير أو من نذر المستقبل، وذلك يعود لكونهم يرتاحون لما تأسس من قواعد ذهنية ومدرسية في رؤوسهم، وما ورثوه من ثقافة، وما عرفوا من تقسيمات حزبية، وسياسية ومذهبية، وما يحرصون على تثبيته في رؤوسهم من قواعد سنن حضارية منقولة من مرحلة الشهود الحضاري السابق، وثقافة بعيدة، ومن هنا يأتي دور المعرفة في صناعة الجهل، ودور الثقافة في صناعة الغفلة.

وتصبح ثقافتهم مع التقادم ـ جيل أو أكثر ـ مقدسة، والخروج عنها ابتداع، فتجد قلة الفهم لمسيرة الحاضر الذي يحدث بين أعينهم، وضعف التدبر لموجات العصر القادم، ولهذا فقد تجد الفهم أو النباهة للمتغيرات أحياناً خارجهم، أو بين من هم أقل حظاً من المتصدرين.

إن من عدة المثقف الفطنة، أن يستطيع قراءة أثر المعرفة السابقة، في إعراضه عن معرفة جديدة، ودور ثقافته السابقة في تأكيد غفلته عن المتغيرات. ولهذا فمرونة عقل المثقف وتجدد همته ومواهبه نعمة يجدها


Twitter: @ketab_n

الندرة بين الواعين. وهؤلاء هم الذين يلمزون بوعي أولئك الذين لا يرون المكاسب الكبيرة التي حققتها الجماعات أو الأمم. أما جمهور الناس فهم مشغولون غالباً عن وضع مقياس شامل، ولكن عندهم القدرة على قياس زمني يمتد ليشمل تاريخ أعمارهم. وتاريخ أعمار المسلمين المعاصرين يؤيد فكرتنا في تحسن الحال على مستوى الأمة، وهو أكثر إيجابية إذا مددنا النظر في أجيال غبرت.

ووجود هذه الفئة ـ الغافلة ـ لا يلغي وجود ندرة تصنع مستقبل الثقافة، وتصنع التحولات، وعندها من التيقظ الشيء الكثير، وقد توافر عدد من هؤلاء عند المسلمين وفي رجال الفكر العالمي رجال كانوا يراقبون الفكرة أو يصنعونها ويراقبون أثرها بوعي وملاحظة دقيقة، ويشيرون للتحولات القادمة وكأنهم يرون أثرها الذي تحقق بعد فترات قصيرة جداً.

ويرى المثقفون في تقدم وتجدد الفكر في زمانهم انحرافاً عن الطريق التي ساروها، أو ارتجاعاً للماضي الذي رأوا بعضه وكرهوه في السابق. إن إدراك موجة المستقبل يصعب علينا فهمها بحكم تجاربنا السقيمة وأعمالنا العقيمة، فلا نتصور فوق ما مر بنا شيئاً، ولا نتصور من دون دونه دوناً. ويوم نكتب نظرية ونخط خطة ونبدأ في تنفيذها يكون الزمن قد جاوزها، أو احتاجت لتعديل، أو احتاج الناس لغيرها. والمثقف كثيراً ما يكره التغيرات كالناس عموماً، ويحب أن يرى الجوانب السلبية في التحولات التي لا يريدها، فمثلاً موقف المتأثرين بالعلمنة وموجة التغريب، ومدارس الفكر الملتزمة الغربية في عالمنا الإسلامي، تجد كثيراً منهم صادقين في وطنيتهم، وحميتهم لقومهم، ولكن هذه الوطنية والحمية محكومة بقيود مستوردة جامدة، قومية ويسارية، لا تتزحزح بسهولة، فهو يرى الخير في أمته قادماً، ولكن هذا الخير ليس من أو ليس منسجماً مع نظرية القومية العربية ولا البعثية، ولا الاشتراكية ولا الماركسية، فيضطر أن يرى في كل بارقة خير وتطور وتحسن في مستقبل أمته شراً، أو انهياراً، أو تراجعاً، ليحافظ على انسجامه المذهبي «الأيديولوجي»؛ ذلك أن التقدم عنده محسوم في زمن النظرية التي تشبع بها. وهذه العلة الكامنة لا ينجو الإسلاميون منها، فمن رأى منهم العالم بعين حزب صغير، أو مدرسة ضيقة الأفق عديمة أو قليلة التجربة قصيرة المدى، فلن يرى في المبشرات خيراً، لأنه لم يصنعها، وربما لم يشارك في صناعتها، وتتم على طريقة لم يتوقعها. وأنتجها وضع أو حزب



Twitter: @ketab_n

لم يعرفه، فتصدمه أو تصدم ما وضعه عقيدة صلبة قد لا تكون في الحقيقة كذلك.

ولهذا فإن الاستسلام المذهبي أو ما يسمى بـ «الأيديولوجي» يوهن سعة الخيال، وابتكار الحلول وانطلاق العمل. ويقابل هذا الاستسلام المعرفة الصحيحة بالدين وسعة أفقه ومرونته، وفهم مقاصده العليا التي تحرص على الإنسان وتحقيق مصالحه وليس تحقيق مصالح المذاهب، والآراء القاصرة والصغيرة. وللأسف فإن فريقاً من الأمة يصرفون جهوداً هائلة لخدمة الكثير من الشكليات والقضايا التي ليس لها أولوية في هذه المرحلة، ويقيمون معارك جانبية غير ذات معنى. وتتوارث خصومات المثقفين والعلماء في عصور سالفة، وتزعم أن معارك السابقين هي معاركها، فتهرب من الواقع الذي يتعب المتتبع لمعرفته وتهرب لواقع وميراث قديم لأنه معروف ومحسوم سابقاً ومصنف منهجياً. ولهذا تجد إغراقاً في معرفة المذاهب التاريخية في القرن الثاني والثالث الهجري، يقابل ذلك جهل مريع بما يحدث في عصرنا، وركون للحلول القديمة للمشكلات القديمة وخوف مما يعاصرنا، ولهذا يبعث بعض المثقفين مشكلات قديمة ليست لأنها موجودة ولكن لأن علماء كباراً تحدثوا وكتبوا عنها. وحسموها في رأيه. أما ما يضر ويؤثر وينفع في عصره فهو عنه في شغل شاغل.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٧ ـ

# صراع المستعمرين وتبرير الموقف

أشعل الموقف الشعبي الذي حدث في بريطانيا تجاه الحرب الأمريكية البريطانية على العراق أزمات كثيرة داخل المنظومة الغربية، ليس فقط في جوانب المواقف العسكرية والسياسية والاستعمارية، ولكن في المواقف من ثقافة الاستعمار. ويصف هذا النقل للنص التالي المنقول عن صحف بريطانية وأمريكية جانباً من الإشكالية الأخلاقية والقانونية والسياسية التي يعانيها الموقف الاستعماري الغربي.

ننقل بعض كلام روبن كوك، وزير الخارجية ثم رئيس البرلمان البريطاني السابق[١]، ومقتطفات من كتاب استقالة جون برادي كيسلنغ من السلك الديبلوماسي الأميركي الذي رفعه إلى وزير الخارجية كولن باول احتجاجاً على الحرب. واخترت من كلام مسؤولَيْن بريطاني وأمريكي، لأنهما من الطرف الآخر، ولا يمكن أن يتهما بما نتهم به نحن من انحياز إلى طرفنا لأننا منه.

نختار من أقوال روبن كوك في خطاب استقالته، وفي مقالة له ومقابلة صحافية قوله: الحقيقة أن بريطانيا تخوض حرباً من دون موافقة الهيئات الدولية التي نؤدي فيها دوراً رئيساً، مثل حلف ناتو والاتحاد الأوروبي وطبعاً مجلس الأمن... لماذا الاستعجال في تفكيك قدرة عسكرية ساعدنا نحن على بنائها في ٢٠ عاماً؟ لماذا نلجأ إلى الحرب الآن؟ يقال: إن صدام حسين

(١) في حكومة العمال التي أعقبت حكومة ميجر ورأسها طوني بلير.



Twitter: @ketab_n

كان عنده ١٢ عاماً لنزع السلاح ولكن القرار ٢٤٢ مضى عليه ٣٠ عاماً، وإسرائيل لم تنسحب من الأراضي المحتلة... إن شركاءنا في واشنطن يهمهم تغيير النظام أكثر من نزع الأسلحة، ولذلك فكل دليل من المفتشين على تقدم في عملهم يقابل في واشنطن بالانزعاج بدلاً من الارتياح لأنه يعرقل خطط الحرب.

ستكون معجزة ألّا يصاب المدنيون العراقيون في الأيام المقبلة بما يسمى «أضرار عرضية». عندما كنت وزيراً للخارجية منعت استخدام هذه العبارة. إذا كان مدنيون سيقتلون فيجب أن نعترف بالقتل، (وزير الدفاع) دونالد رامسفيلد قال إن القصف سيحدث «صدمة وذهولاً»، وصُدمت عندما رأيت صورة القصف على التلفزيون... حذّرت الوزارة من أن «الصدمة والذهول» تعني «دموية» (ترجمت كلمة (AWE) الإنكليزية بمعنى «ترويع»، إلا أن الأقرب إلى معناها الانبهار، بمعنى الإعجاب المقرون بالاحترام، وحتى الخوف).

وزارة الخارجية الأمريكية ضعيفة جداً. تحالف رايس ـ تشيني ـ رامسفيلد هو المحرك وراء الإدارة الأمريكية، ولا يترك لباول فرصة للحركة... عندما تحدث بوش عن «محور الشر»، أو عن العراق وإيران وكوريا الشمالية، كان مخطئاً، والذين كتبوا الخطاب لا يعرفون الحقائق...

أكتفي بما سبق من كلام كوك، وأكمل بمقتطفات من كتاب استقالة كيسلنغ، وهو ديبلوماسي أمريكي محترف عمل في تل أبيب والدار البيضاء ويريفان، قبل أن ينقل إلى أثينا. قال كيسلنغ للوزير: أتقدم «إليكم» بكتاب استقالتي من الديبلوماسية الأمريكية، ومن عملي مستشاراً سياسياً في أثينا. وأنا أفعل هذا بقلب مثقل، فالعمل الديبلوماسي كان حلماً لي تحقق وجعلني أفهم لغات أجنبية وحضارات، وأناقش ديبلوماسيين وسياسيين ومفكرين لأقنعهم بتوافق المصالح الأمريكية مع مصالحهم... وكان من المحتم بعد ٢٠ عاماً من العمل أن أصبح أكثر خبرة وشكوكاً في الأهداف الأنانية الضعيفة للبيروقراطية التي ترسم سياستنا. وكنت حتى هذه الإدارة أعتقد أن الدفاع عن سياسات رئيسي هو دفاع عن مصالح الشعب الأمريكي والعالم، غير أنني لم أعد أعتقد هذا الآن.



Twitter: @ketab_n

إن السياسات التي نتبعها الآن لا تخالف القيم الأمريكية وحسب، بل أيضاً المصالح الأمريكية، وحربنا على العراق تبدد الشرعية الدولية التي هي أهم سلاح في الهجوم والدفاع منذ أيام وودرو ولسون... إن التضحية بالمصالح الدولية من أجل السياسة المحلية ولأسباب بيروقراطية أنانية ليست جديدة أو وقفاً على أمريكا، غير أن مستوى التشويه المتعمد لمعلومات الاستخبارات وتوجيه الرأي العام لم يحدث مثله منذ حرب فييتنام. لقد استطعنا بعد إرهاب ١١ أيلول/سبتمبر أن نبني تحالفاً دولياً لمكافحة الإرهاب. ولكن بدلاً من الإفادة من نجاحاتنا وتعزيزها اخترنا أن نجعل الإرهاب وسيلة من وسائل السياسة المحلية، وأربكنا الجمهور، ووصلنا بين قضايا بعيدة والإرهاب والعراق، والنتيجة أننا أضعفنا ضمانات حماية المواطنين من اليد الثقيلة للحكومة، وبددنا أموالاً عامة ناضبة للإنفاق على العسكر...

يجب أن نسأل أنفسنا لماذا فشلنا في إقناع بقية العالم بأن الحرب على العراق ضرورية. لقد جعلنا حلفاءنا يدركون أننا نقدم مصالحنا الأنانية والارتزاقية على المبادئ. ومثل أفغانستان لا يطمئن عندما نتحدث عن إعادة بناء الشرق الأوسط. هل فعلاً أصبحنا في مثل عمى روسيا في الشيشان أو إسرائيل في الأراضي المحتلة، ولا نفهم أن القوة العسكرية الطاغية ليست الرد على الإرهاب؟

السيد الوزير، أنا أحترم كثيراً أخلاقك وقدرتك، وقد حافظت على صدقيتنا الدولية بشكل لا نستحقه، وأنقذت شيئاً إيجابياً من وسط تجاوزات الإدارة وأعمالها الأنانية. وأنا أستقيل لأنني عجزت عن التوفيق بين ضميري وقدرتي على تمثيل الإدارة الحالية، إلا أنني أظل واثقاً من أن الأسلوب الديمقراطي سيصلح نفسه في النهاية»[٢].

بعد قراءة هذا الأنموذج يحسن بنا معرفة ومراعاة حقيقة مهمة كثيراً ما تغيب عنا في غمرة التصنيف الأيديولوجي للناس وللمواقف وللدول، وقلت أيديولوجي لأنني لا أعتقد أنه موقف شرعي، فالذين يسرهم دائماً أن يجعلوا جميع المخالفين في صندوق واحد سياسي أو ثقافي أو ديني يصعب عليهم

(٢) جهاد الخازن في: جريدة **الحياة**، ٢٧/٣/٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

رؤية الحق ومعرفة المصلحة الشرعية في تصرفاتهم. فالموقف الشرعي موقف «مصلحي»[٣]، أي: «عملي»، والموقف الأيديولوجي موقف جامد. فالذين يرفضون سياسة التحالفات لا ينطلقون من قوة الموقف الشرعي، بمقدار ما ينطلقون من تعصب أيديولوجي أعجبهم مرة في زرع الصفاء لموقفهم الجدلي الكلامي أو غير العملي، وربما لمواجهة من يجايلهم ويخاصمهم، ويبتز برأيه جمعاً من المعجبين. وهذا الموقف ينطلق من الصراع الذي نشر بين طائفة قليلة حول الموقف الشرعي من التحالفات وموقف الرسول (ﷺ) من التحالف مع خزاعة القبيلة التي لم تكن مسلمة، ليواجه بهذا الحلف قوة وتحالف قريش، كما واجه أهمية توحيد الموقف السياسي في المدينة المنورة عند الهجرة حتى مع يهودها[٤].

وفي حال وجود الخلاف الشرعي في مسألة خزاعة، فإن الرسول (ﷺ) عاد من الطائف لبلده مكة بعد منعه من دخولها في جوار المطعم بن عدي، وكان على دين قومه، لم يكن مسلماً، ولكنه كان يناصر المضطهدين، وبقيت قصة نخوته ومروءته حاضرة في وعي الرسول (ﷺ) إلى يوم بدر، ليتمنى أن المطعم كان موجوداً فيكافئه على معروفه السابق المسدى له (ﷺ)، فيقول: «لو كان المطعم حياً لوهبت له هؤلاء النتنى». وفي عصرنا هذا شهدنا وجود شخصيات كثيرة وقفت مع المضطهدين من مسلمين وغير مسلمين، وماتت في سبيل قضايا عادلة، وشهد العالم الجرافات الإسرائيلية تسير فوق جسد شابة أمريكية (راشيل كوري) تؤمن بحق الفلسطينيين في أرضهم، ماتت تدافع عن بيوتهم ومزارعهم، وشهدنا من قبل رجالاً من أمثال فرانز فانون، بموقفه وفكره وشجاعته في الثورة الجزائرية. ثم مانديلا في موقفه من بوش الابن. وقد عاينت بنفسي حوادث لا تحصى في أمريكا من قبل ملحدين ونصارى ويهود مهتمين بالدفاع عن المظلومين المسلمين، وكانت تسبقنا للاحتجاج والمظاهرات عجوز أمريكية «غير مسلمة من أصول أيرلندية» يدفعها الناس على عربة، ولا يتحرك من جسدها إلا أقله، وتتحدث للإعلام، وتكتب يومياً في موقعها على الإنترنت، في فترة شدة الظلم الذي

---

(٣) حيث كانت المصلحة كان شرع الله كما قال ابن قيم.

(٤) هناك من يرى أنه كان في خزاعة إسلام كثير، ولهذا تم تحالف المسلمين معها، وقد يكون، غير أن هذه التحالفات قد تمليها الظروف النازلة، وتقدرها قيادة المجتمع.



Twitter: @ketab_n

وقع على المسلمين، وتؤلّب على الظالمين، وفي شدة البرد وانهمار الثلج، لا تتأخر عن مناصرة، وتجد من مسألة العدل ورفع الظلم عن المسلمين عملها المقدس.

واليوم تواجه الأمة هذا الموقف الذي تحتاج فيه لوحدة صادقة في ما بينها، ولصناعة تحالفات جديدة مع من هم أقل عداوة، أو لهم مصالح معنا، من غربيين وشرقيين ربما لا يكونون على وفاق ديني ولكن هناك وفاقاً سياسياً ومصلحياً معهم. وهكذا في دراسة الموقف الغربي عموماً، سنرى أن هناك حاجة لمعرفة الفقه لا لمعرفة «المذهب». والتحرك من خلال الموقف الشرعي وليس القيود التي تميل لها النفس التطهرية المذهبية، وتتمنع على الموقف العملي «الشرعي». كما أنها تفكر في الموقف المذهبي، أو الموقف الدعوي، وتتجاهل الفرق بين مقتضى الفتوى، ومقتضى التقوى، وتنسى أن هناك فرقاً بين ثقافة الدعوة، وواقعية ممارسة الدولة لهذه الثقافة، أو من كانوا في خطوات نهائية نحوها.

وتبقى مؤسسة العلماء في موقع المراقب ومن له صلاحية وقدرة الإصلاح، تعدل الميزان وترعى المجتمع والدولة من الوقوع بين طرفي مروق «الخوارج» وفسوق «الزنادقة». وكلاهما شر، ونوزاعهما موجودة في المجتمعات، وكلما ظهر طرف فهو غالبا رد على مخالفه، فكل طرف يجلب نقيضه.

وهذا لا ينفي وجود فائدة من الموقف الأيديولوجي، ففيه بناء وصفاء وتماسك، وهذه حقائق في تركيبته كمثل حقيقة الجمود، وانسداد الأفق والتعصب الأعمى الذي يفوت أحياناً من الخير أكثر مما يجلب منه. ويشرع للقسوة، بلا وعي، ويزين ثقافة الاغتراب الفكري المستمر المُفاصِل للحياة العملية، وهو سلوك سلبي أو اعتذاري مريح، تمارسه بعض التصورات التي تضيق بالأفق الفقهي، من دون وعي بأن ضيق العطن هو موقف خصومها ومن شابههم من الطوائف الانعزالية عن نهر الحياة العامة، وعن جماهير المسلمين، وتقدير مصالحها.

وإدراك التفاصيل في موقف من يختلف معنا يفيدنا كثيراً، ويفتح لنا أبواباً من العدل والصدق، ورؤية الفروق بين الخصوم، وإمكان الإفادة من



Twitter: @ketab_n

تضاد المصالح، لأن طبيعة المجتمع البشري كذلك، والاتحاد في الموقف العقدي من أمة أو مجموعة، لا يعني الاتحاد العملي، والاتحاد العملي ضد المسلمين لا يعني استمرار الموقف الفكري موحداً ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾. وهذا الاندفاع والاضطراب الغربي والهجوم الكاسح على القيم المحترمة بين البشر سبب إسقاطاً كبيراً لمبادئ أخلاقية، وسياسات كانت مهمة، وأفقدت من خالفها المكانة المعنوية الخلقية التي تكسب الدول المكانة والاحترام والنفوذ المعنوي في النفوس، أو تساهم في الحفاظ على مبرر أخلاقي ولو وهمياً.



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٨ ـ

# نهاية جاذبية الغرب الفكرية

كتب أحد المراقبين للثقافة تقريراً عن لقاء على أعلى المستويات في فكر النظريات في أمريكا وبخاصة النظريات الأدبية، حضر اللقاء نقاد وكتّاب مشهورون، وعنون مقالته بـ «آخر نظرية تقول النظرية لا تهم» وأن عصر النظريات الكبيرة التي اجتاحت أقسام العلوم الإنسانية في القرن العشرين، من أمثال نظرية التحليل النفسي، والماركسية، والبنيوية عصر قد ولى[١]، وهذه النزعة التي تقرر نهاية النظريات ونهاية التاريخ، ونهاية الأفكار، والاستسلام الجبري للمستقبل هي ملامح مهمة في حياة عصر مختلف عن عصر التطلع والكتابة والتفاؤل، وهي نذير ركود فكري كبير، يتبعه ركود في بقية جوانب الحياة.

وليست القدرة النقدية للثقافة الغربية قادرة على إيقاف تيار الانهيار الذي تعانيه، فهي بمقدار ما تستطيع أن تؤجل سرعة السقوط فإن العصر السريع في كل شيء يعطي أيضاً مؤشراته السريعة في الانهيار. فعصر السرعة لا يرتبط فقط بسرعة الإنتاج والنماء، وسرعة الوصول للمستهلك للصورة وللكلام وللطعام وللزينة، ولكنه سريع أيضاً في الجوانب السلبية والإيجابية كلها، وما كان عمراً لمدنية قديمة قد لا يكون عمراً مديداً يوازي ذلك الذي قضته حضارة أخرى وهي تحتضر.

هناك حاجة ملحة لملء الفراغ الفكري في الغرب، وهذه أزمة لم تعد

---

(١) Emily Eakin, «The Latest Theory is that Theory Doesn't Matter,» *New York Times*, 19/4/ 2003.



Twitter: @ketab_n

مجالاً للسجال الكبير، إذ لم تعد هناك الجاذبية الفكرية التي كنا نشهدها قديماً للفكر الغربي، فأين الفلاسفة والأدباء الذين طالما بحث عنهم المسلمون وتلقفوا كتاباتهم وآراءهم ونشروها، لم يعد إلا الظاهرة الحرفية المتوارثة، حرفة الرواية، وحرفة الصحافة، وحرفة مدرسي الفلسفة، وصناع الاستراتيجية التنفيذية، صناعة «اهتبال اللحظة»[٢] أو اغتنام الفرصة الهاربة، من أمثال كيسنجر وبريجنسكي، وتاتشر وأمثال هؤلاء. ليس في أدوارهم أكثر من حرفة الصحافة عند **لوموند ونيويورك تايمز وسي إن إن وبي بي سي**. حقيقة التفوّق الحرفي موجودة، ولكنها مهنة شائخة، وبدأ يملؤها الغرباء. ومهنة الرواية الإنكليزية بدأت الهند وغيرها من بقايا المستعمرات تتدفق في تيار أدبها، ولكن مع غياب الفكرة الغربية، وبقاء البراعة الشكلية. وفي فرنسا كتّاب الرواية الشهيرون عرب من المشرق والمغرب العربيين. ويبرر أحد الغربيين هذه الظاهرة أنها بسبب غياب وموت القضايا والآلام التي تصنع كاتباً، أو توقد خيالاً. فلم تعد عند الغربيين معاناة تصنع أدباً أو تبدع فكرة.

ولكن الجاذبية التي تكون روح الحضارات ومهاوي قلوب الأمم ضعفت وتراجعت قوتها اليوم. وغابت الرموز الثقافية التي تجذب احترام المثقفين وعشاق الكتاب والمجلة والبرنامج الثقافي، التي كانت تصنع للدول الغربية والمجتمعات النصرانية بريقاً ثقافياً خلاباً. ضعفت الحركة الفكرية الفرنسية التي اعتادت أن تقدس المفكرين وتشهرهم، وضعفت الثقافة الإنكليزية والفلسفة والأدب. وجاء مغامرون في الثقافة الإنكليزية من الهند والمستعمرات القديمة، يحملون عُقَداً وأمراضاً وأحقاداً على المسلمين، فتنتصر لهم السياسة المتحيزة ضد المسلمين، من أمثال نيبول الذي سخط على الشعوب التي أسلمت ودخلت دين الله فكتب يهجو ويسخر فاستحق بهذا جائزة نوبل للآداب. وفي بريطانيا بضعة من البارزين رجال ونساء أكثرهم وفدوا من مستعمرات سابقة، ويحملون هموماً مختلفة إلى المجتمع البريطاني والثقافة الإنكليزية التي جفت وقل إبداعها.

يجب أن نحذر من قطيعة مع الغرب مبالغ فيها، نخسر فيها ويخسرون ـ كما سيأتي بيان ذلك ـ ولكن تحرر العقل المسلم من هذه المرجعية الغربية

---

(٢) **اغتنم اللحظة**، عنوان كتاب شهير للرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون. وقد كتب فيه فصلاً عن العالم الإسلامي، وهو جدير بالقراءة.



Twitter: @ketab_n

لثقافته وعقله سوف يزيد من ثقته بنفسه وشعوره بكرامته ورجوعه لذاته وتراثه، وقد يتعصب ضد الأجنبي مدة من الزمن، ولكن هذا التعصب هو بحث عن الذات، وصياغة لها، وموقف تعتاد الشعوب أن تقوم به في بداية مرحلة ونهاية أخرى، وانفصال مؤلم ولكنه مؤثر وقد يكون بنّاء أحياناً. احتاج العرب المسلمون عقدياً وسلوكياً في بدء مسيرة الإسلام إلى قطيعة مع الماضي قطيعة واعية ومستمرة، عليها أدلة أو نصوص واضحة حيناً، وأحياناً قطيعة عارضة أملتها مصلحة موقتة، وفي أحيان أخر تفرضها طبيعة المرحلة.

وهكذا تمثّل معاصرونا من الغربيين والشرقيين، ودرسوا حضارات أخرى، ثم تبرأوا منها لاحقاً، أو تميزوا أولاً ثم قبلوا لاحقاً. وطبيعة المرحلة كثيراً ما تحدد الموقف من المخالف. والحضارة العربية مثال مهم في هذا، وموقف الغرب منها، إذ كانت هي الحضارة التي قام عليها الغرب، وتمثّل منها وأخذ وأنكر الكثير بحثاً عن ذاته. وتجاهل واستخف بالحضارة الإسلامية إمعاناً في التميز، وبعد عصر الثقة جاء عصر الاستشراق، ومع انهيار التوهّج الفكري خفتت أهمية الفلسفة والعلوم العقلية والروحية، وانتهى معها الاستشراق المعرفي، ليقوم الاستشراق السياسي والتجسسي الاستعماري، لصالح المؤسسة السياسية الحكومية والمؤسسات التجسسية. وترك الاستشراق ليس قراراً ولكنه حالة نفسية عامة ليست كل دوافعها احتقار الفكر الشرقي، بل هناك غرور ويأس، وضعف في القدرة على التتبع والتعلم بلغات غير غربية.

ومن هنا قلت جاذبية الفكر الغربي بيننا، وهي تكاد تلفظ أنفاسها، وزال الإعجاب السابق، وأصبحنا نقرأ فقط أعمالهم الاستراتيجية ومحاولاتهم الكيدية والإخضاعية لا أكثر. كما أن انتشار الكتب والمقالات العدائية للإسلام والمسلمين أخيراً مثّل حائلاً ثقافياً جديداً. وكثير منها كتب إرهاب ومقالات رعب، تبرر كل إرهاب ضد المسلمين، ولو كان كاتبوها مسلمين لصنفوا إرهابيين وطاردتهم الحكومات، وشردتهم وعاقبتهم، بكل تهم الإرهاب ونشره والحث عليه، واتهموا بالعنصرية والنازية والخيانة، ولكن كون تلك الكتابات أمريكية ونصرانية ويهودية عموماً فإن إرهابها وأفكارها مقدسة واستراتيجية ومحترمة، بل وفوق ذلك مربحة جداً، وقد تابعت واقتنيت بعض هذه الكتابات الإرهابية المرعبة التي تصوغ الرأي الغربي، وتنتشر بطريقة سرطانية في أمريكا بخاصة، ويحصد كتّابها الأرباح المالية الكبيرة والمناصب، فضلاً عن الفوز بالرأي العام وصياغة القرار العسكري والسياسي ومواقف الدول ضد



Twitter: @ketab_n

الإسلام والمسلمين وضد الأجناس العربية ومن غلب عليها الإسلام أو انتشر في أوساطها. وسوق الاتهامات وعدم الثقة، والتشكيك في الجالية المسلمة الأمريكية والأوروبية.

فالكتّاب الغربيون اليوم هم صحفيون ومخططون استراتيجيون، قليلو الفكر النظري، متقدمون في التنفيذ العملي لمصالح دولهم، ومنهم طائفة مرتزقة، تعيش على هدايا وهبات عربية وجوائز ودعايات سخيفة وعلاقات مريبة. وهم بعيدون عن الاهتمام بصياغة النظريات العامة وصناعة المشاريع الفلسفية الكبرى، على خلاف ما كان الحال سابقاً؛ لعدم القدرة وعدم التحدي، والخيبة في المحاولات الفكرية الكبيرة، لأن هذه المحاولات الرائدة تنتج من تحديات كبيرة وظروف صعبة، والركود المخيم والرخاء النسبي يزرع هذا الركون للمعتاد. وهذا من أسباب برود الكتابة، وضعفها، وقلة الأفكار.

وقد أصبح ينتشر في الثقافة الغربية اليوم أكثر مما سبق، فكر الحزن والسياسة الاحترافية وموت الثقافة الأدبية. كما يذكر أحد مؤرخي ومراقبي الفكر الأمريكي[٣]، وهي ملامح الشيخوخة والحنين لماض يذهب بعيداً.

وأصبحت الثقافة الغربية تهاجم الثقافة التي أرسلتها لنا يوماً ما «كالقومية والوطنية الضيقة»، فحرب أمريكا على الشيوعية شهيرة ومعروفة، وحربهم على القومية في صربيا، وعلى قادتها ودعاتها، ثم مواجهتهم لأفكار حزب البعث وهو من الأفكار القومية التي كانت مجرد ترجمة للفكر القومي الغربي، وهي فلسفة غربية. وهذا التهديد الغربي لهذه الشعوب وقهرها وتشريدها لأنهم تبنوا أو نفذوا فكرة غربية انتهت لتكريس مصالح شخصية أو وطنية ضدهم، فجعلوا الفكرة أو الأيديولوجيا سبة وإن كانت غربية الأصل، وهذا الموقف العنصري الذي يحارب أي مبدأ أو قيمة يمكنها أن تسود في مجتمع غيره، فتعطيه شيئاً من الاعتبار أو الاستقلال، فكيف نتوقع أن يقف الغربيون من أفكار وممارسات الإسلام عندما تصبح ذات أثر وقيمة في مجتمعات المسلمين. إنهم يفقدون توازنهم، ويتطرفون[٤]. وهم عندما يطاردون

---

(٣) انظر: Louis Menand, «Undisciplined,» *Wilson Quarterly* (Autumn 2001).

(٤) يذكر أمين معلوف في كتابه الشهير **الحروب الصليبية كما رآها العرب** وقد كتب بالفرنسية وترجم لعدد كبير من اللغات منها العربية والإنكليزية مشاهد يصعب تصورها، لولا أنها وقعت فعلاً وتناقلها المؤرخون.



Twitter: @ketab_n

أفكارهم ويبعدونها عن مجتمعاتنا فإنهم سيفتحون الطريق لأفكار غير أفكارهم.

ومن ظواهر كذب الغرب وخداعه موقفه الفكري والسياسي، فهو يتحدث عن ظاهرة العنصرية والتمييز العنصري، وينازله في دول ويعتبره غير أخلاقي، حتى إذا جاءت المسألة للعنصرية الصهيونية سكت عنها ثم ألغى قرار العالم ضدها، ومنع مقاطعتها وهي تهدم أسس التفكير الغربي، وتحارب شعار العدالة على أرضهم. ومع كون إسرائيل قاعدة عسكرية استعمارية أمريكية في العالم العربي فإنها تجيز لهم كل عمل غير أخلاقي، وتأذن لهم بكل سلوك قذر تتعفف اليد الأمريكية ـ ظاهراً ـ عن ممارسته، ثم تطلق اليد الصهيونية المسموح لها بممارسة القذارات التي يترفع عنها المستعمر وعن ممارستها، مثل: العقيدة العنصرية، والاغتيالات والوحشية، والسرقة المباشرة للأرض والدور والممتلكات الشخصية حتى البسيطة منها، يقوم بها جيش الدولة الصهيونية وجنودها، فسرقة ونهب جيش الحكومة الإسرائيلية للبيوت العربية تحت القوة والسلاح ممارسة عادية يومية للجيش الإسرائيلي، ويدفع سلاحه وجزء كبير من مرتباته من أمريكا التي ترفع شعارات الحرية والعدالة والمساواة.

ويبدو أننا نتعلق بالسماع أكثر من قدرتنا على رؤية الحقيقة التي تفقأ العين؛ فوزير الخارجية الأمريكي «باول» إلى عهد قريب كان مجرداً من حقوقه الإنسانية، بسبب لونه، وليس له حق التصويت في بلاده، حتى حينما كان في فييتنام يبذل دمه فداء أمريكا. والجيش الأمريكي الأسود في الحرب الثانية لم يكن له حق الكرامة الإنسانية كما هي حق للبيض في أمريكا، وعلى الجبهة وهو يبذل روحه لم يكن له حق مشاركة الأبيض في وحدته العسكرية فضلاً عن أن يشاركه الخيمة أو الطعام[٥]. وفي أمريكا لا يسمح له بالجلوس إلا في مقاعد محددة في الحافلة أو «الباص»، ولا يدخل مطاعم البيض، ولا حماماتهم، وهو يموت بمئات الآلاف فداء بلد يستعبده، وكثير من السود الذين نادوا بالحرية لجنسهم قتلوا؛ ذكر مؤلف كتاب **الحقيقة القذرة** هذه الحقائق؛ فخلال عدد من العقود الأخيرة يكاد جميع الأمريكيين الأفارقة من قادة الاحتجاجات الذين حققوا أي نجاح أو شهرة على مستوى محلي أو

(٥) الإمبراطوريات الغربية ـ منذ الرومان والبريطانيين والأمريكان اليوم ـ عبر التاريخ استعبدت الشعوب، وجندت العبيد أياً كانت ألوانهم لحروبها، والجيش الأمريكي في العراق أنموذج، وكثير ممن يموتون تحت راية الأمم المتحدة، ليسوا في حال أحسن.



Twitter: @ketab_n

قومي قد انتهوا في السجون أو جُرّموا، أو اختفوا، أو في المنفى، أو قتلوا بقوة قانونية. ومعظم القتل حدث ولم يظهر في الإعلام. وقليل ـ إن حدث ـ أن يكون الضباط أدينوا بسبب فعلهم، لأن المحاكم تقضي برأي المحلفين، وأغلبهم من أوساط الأمريكان البيض[٦].

وعندما وصلت للقول السابق تذكرت قول أحد المسلمين الأمريكيين البيض وهو من أنصار قضايا السود العادلة، قال لي يوم اعتقل الزعيم المسلم جميل الأمين بتهمة قتل شرطيين في أتلانتا جورجيا، ليس بعيداً أن الحادثة لا أصل لها، وأنه يراد قتله بطريقة قانونية، أو يقضي حياته في السجن، لأنه قبل أن يكون من زعماء ودعاة الإسلام في جورجيا، كان من قادة جماعة «الفهود السود» أثناء حركة السود للمطالبة بحقوقهم الإنسانية. وكان القس مارتن لوثر ـ الذي قتل أيضاً ـ وكان معه مالكوم إكس الذي أسلم وحسن إسلامه من زعماء حركة تحرير السود، وقتل في أوج تأثيره. وأشار إلى أن بعض المجموعات البيضاء قد تعهّدت بوضع نهاية بالقتل أو شبهه لجميع زعماء السود الذين طالبوا بحقوق الإنسان في أمريكا.

وكانت أمريكا آنذاك ولم تزل ترفع شعار الحرية والديمقراطية. وعلى الرغم من اقتدار شخص مثله وبراعته إلا أن مجيئه هو [كولن باول] وكونداليزا رايس السوداء مجرد دعاية لجلب أصوات السود والليبراليين والأقليات نحو الجمهوريين، ولكون كونداليزا تمثل الضغط اليهودي بين السود وفاء لأستاذها اليهودي التشيكي «كوريل» والد مادلن أُلبرايت، وزيرة الخارجية السابقة. كما أن كونداليزا رايس شريكة في شركات النفط الجمهورية.

وكان السكان الأستراليون الأصليون يعاملون إلى ما بعد عام ١٩٦٧ كوحوش منفرة، يلتزم الكثير من البيض بالقضاء عليها، وكان البيض يسممون الآبار التي يشرب منها السكان الأصليون ليموتوا، تماماً كما فعل بعض البيض مع الهنود الحمر عندما كانوا يعطونهم ملابس موبوءة بالجدري لتقضي عليهم[٧].

---

(٦) Michael Parenti, *Dirty Truths* (San Fransisco: City Lights Books, 1996), p. 35.

(٧) يناقش مؤرخو هذه المسألة من الأمريكان قصة هذه الأساليب، وقد خرج أكثر من كتاب يناقش هذه القضية إلى عام ٢٠٠٢.



Twitter: @ketab_n

وتاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، كانت تُصرّ على بقاء النظام العنصري في جنوب افريقيا كما هو نظاما غير بشري ولا إنساني. واقرأ رأي وموقف نيلسون مانديلا عن هذا الأمر في كتابه **سير طويل نحو الحرية**[٨]. وسقوط هذه الأقنعة في كل فترة كفيل بأن يجعل المسلم يثق بأهمية وحاجة البشرية لقيم ليست عنصرية. ولنعلم أن الكثير من الشرور التي عاناها الإنسان في رؤيته السلوكية والخلقية في العصور الحديثة كانت بسبب أفكار غربية عنصرية مدمرة مهينة للإنسان وجنسه، وكنت كغيري من الناس أقرأ وأجلّ هؤلاء الذين يقدرون على صنع النظريات الكبيرة، حتى علمت عن قرب ودراسة، ومعرفة ليست قصيرة بمدى الشر الذي جلبته للبشرية هذه النظريات في بلاد الغربيين أولاً قبل أن تحمل الشر لغيرهم. وهم اليوم سلكوا طريقاً طويلة للتخلّص من الكثير من هذه الشرور، ولكنهم يحرسون هذه الشرور ويحمونها ويؤيدونها ويروّجون لها في البلدان التي يرونها مستعمرات فكرية، فالحركة النازية سفحوا من أجل الخلاص منها دم ثلاثين مليوناً، لينهوها من العالم، ولكنهم يرعونها ويقدّسونها وينفقون عليها كل شيء في فلسطين اليوم، ويدفعون مالاً ودماً لبقائها، لأنها تخدم مصالحهم. ويتهاودون مع النازية الهندوسية الصاعدة أيضاً، ويلمحون لمزيد من التحالف معها ضد المسلمين، وسيقدّسونها ويروّجون لها ما دام يمكنها أن تدمر الباكستان، وتقضي على أي يقظة إسلامية، وهناك أفكار كثيرة بأقلام صحفيين يهود يروجون لدخول الهند لمجلس الأمن، لأنهم يؤملون من الهند أنها قادرة أكثر من غيرها على قمع الإسلام، ويتحايلون على هذه الفكرة بالتواء خبيث وهو كونها تشمل جالية مسلمة كبيرة!!

وكانت حرية النقد شعاراً يرفعه الغرب، وفجأة أصبحت حرية التعبير قيمة تطارد في الغرب، وفي أمريكا تحديداً، ويتحدث اليساريون الأمريكان بمرارة عما يواجهونه في بلادهم من تضييق، إذ أصبحت حرية الرأي تقل ويضعف وجودها، وتهيمن الجاسوسية على الشعب، ومكتب التحقيقات الفيدرالي الـ «إف بي آي» يحقق مع الطلاب العرب والمسلمين ويستطلع رأيهم في الغرب وفي أمريكا تحديداً، ومعرفة من ينتقد ممن لا يرى ذلك،

---

(٨) تحدث منديلا عن تاتشر التي تمثل قيماً استعمارية وموقفاً من الملونين والشعوب غير البيض وغير المسيحية، وقد ظهرت هذه المواقف من المسلمين في كتابها الأخير الذي نشرته بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١.

Twitter: @ketab_n

ويضطر الطلاب العرب أن يثبتوا أنهم يحبون الغرب، ويذكرون قصصاً تثبت ذلك. وهذه النزعة في قتل حريات الناس هي أسوأ المسارات التي تدخل فيها الدول، وهي المرض الذي ساهم في سقوط روسيا وغيرها من قبل، وتحدث الهزائم الكبرى على أيدي المستبدين، ويزرع المستبدون بطريقتهم هذه بذور نهايتهم ويعطون الشرعية لمن يتمرد عليهم، فقد كان استبداد الحجاج البداية الحقيقية لصناعة التمرد على بني أمية، وزراعة فكر المعارضة، وحركتها المنظمة وبخاصة بعد خسارة ابن الأشعث والفقهاء الذين كانوا معه. فقد أصبحت فكرة الخلاص الجازم مصيرية عند هؤلاء وآتت بعض نتاجها بعد زمن طويل.

ثم إن هذا التوجه هدم لأساس أخلاقي قامت عليه الكثير من قوة مجتمعهم، وبغروبها يقل احترام هذه المجتمعات. ثم إن نقد الحكومات الغربية قد يصبح بدءاً من الآن تهمة وتسمى جريمة التحريض ضد الغرب، وهي تهمة لا حدود لها، فكل نقد أو موقف سيصبح تحريضاً، وهذه غاية امتهان حقوق الإنسان وحرمانه من الحرية. فأن تقول رأيك بلا سلاح متى كان هذا في شرائع العالم جريمة!! إن انتكاس القيم وانهيار ما هو خلق ـ كان يقدّره المحرومون منه ـ ألغى ما كان للمجتمع الغربي من مكانة في قيم الحرية، وقصر هذه الحرية على من يحمل الجنسية الغربية لدولة من دولهم مفهوم عنصري أسوأ، حين تكون قيمة الإنسان، وحرية الرأي بحسب الجنسية!!



Twitter: @ketab_n

## ـ ١٩ ـ

# الثقافـة المقاومـة

لخّص شارل عيساوي سياقاً طويلاً من المواجهات الثقافية بين الإسلام والغرب النصراني، اشتمل على مواقف تستحق المعرفة يقول: «تحولت العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي إلى الارتكاز على أسس جديدة، ألا وهي العلاقة بين المسيطر والخاضع، هولندا في جزر الهند الشرقية، روسيا في أذربيجان وآسيا الوسطى، وفرنسا في شمال وغرب افريقيا، وبريطانيا في الهند والشرق الأوسط وافريقيا، وأسبانيا في المغرب، وإيطاليا في إرتيريا والصومال وليبيا، وقد سيطر كل هؤلاء على عدد ضخم من السكان المسلمين. وقد كانت الحركات الإسلامية دائماً القوة الرئيسة [المقاومة] للتوسع الاستعماري في الجزائر والقوقاز والسودان وبرقة. وشعر الكثيرون أن أكثر أسباب المقاومة التي قامت بها تركيا وإيران وأفغانستان كانت بسبب الإسلام، وكان من الصعب أن نتوقع من الأوروبيين أن ينظروا بعين العطف إلى ثقافة وديانة سببتا لهم كل هذه المتاعب. وقد أدرك الأكثر حصافة من الأوروبيين أمثال اللورد كرومر أن الإمبريالية الأوروبية الحديثة كان مقدراً لها أن تكون أسرع زوالاً من الحضارة الرومانية، وذلك بالأساس لأن الحضارة الأوروبية كان عليها أن تواجه قوى دينية وقومية نادراً ما واجهها الرومان. غير أن قلة من الناس هم الذين استشرفوا المستقبل، وسرعان ما نظر معظمهم إلى الإسلام باعتباره العقبة الكؤود في وجه النظام والعدل والتنمية الاقتصادية والتنوير الذي اعتقدوا أنهم قد أتوا بها. وقد لخص السير وليام ميور هذه المشاعر حين كتب: «إن سيف محمد والقرآن هما العدو اللدود للحضارة والحرية والحقيقة التي يكاد العالم أن يشهدها». لقد ثبت أن العالم الإسلامي



Twitter: @ketab_n

أو على الأقل الجزء منه الذي يقع في شمال افريقيا والشرق الأوسط هو منطقة لا يسهل استيعابها، إضافة إلى أنه ليس بالغ النفع، وقد كانت الخسارة البشرية لأوروبا [البريطانيون في أفغانستان، الفرنسيون في الجزائر، والفرنسيون والأسبان في المغرب، والإيطاليون في ليبيا وغيرهم] كبيرة إلى درجة لا يمكن مقارنتها بالخسارة التي منيت بها أوروبا في مستعمراتها الأخرى مثل الهند وإندونيسيا وافريقيا الوسطى. وباستثناء سنوات الثراء النفطي ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣ . . . هذه الحقيقة التي مقتها الأوروبيون لم تكن لتؤدي أبداً إلى زيادة التعاطف الأوروبي مع الإسلام»[١].

ثم يضيف الكاتب عوامل مهمة أخرى في ترسيخ العداء وهي موقف أوروبا وأمريكا من إنشاء إسرائيل، ثم الحسد من سيطرة العرب والإيرانيين على ثروة النفط، وما كان يعتبر اعتماداً عربياً على الغرب أصبح اعتماداً غربياً على العرب، والثروة التي حققها النفط أثارت الغيرة والكراهية أكثر للعرب، وما يرونه من أسعار عالية للنفط ألهبت الموقف، وأصبحوا يرون في العربي «مقرض الأموال ـ المرابي» وأغنياء العالم الجدد. ثم زادت الصعوبة بأن شهدت المنطقة ظاهرة الإحياء الإسلامي[٢]، واستعادة الثقة بالنفس والدين والقيم، وهذه زادت الغربيين مرارة أن أحداً لم يعد يهتم بقولهم ولا يصدقهم، ولا يرى لهم المكانة الثقافية ولا مبرر التبعية. فعادوا اليوم كما فعل آباؤهم من قبل قطعاناً قاتلة ومهيمنة، تحدوها بصراحة كبيرة النقمة والتعصب الديني، يصرخ بهم الجنرال الأمريكي وليم بوكين: «إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون»[٣]. ومن ورائه المتعصب المتشدد «المولود دينياً من جديد» بوش الابن يدعو لحملة صليبية، ويستقبل المسلمين ويأبى الاعتذار عن دوافعه الدينية والاستعمارية، ويرفض إدانة الجنرال المتعصب الذي ألقى كثيراً من خطبه التحريضية في الكنائس.

لم نستغرب هذه الثقافة والدوافع؟ هل لأنهم يقولون كثيراً غيرها، ويتنبهون لما يثيرنا فيزعمون خلافه؟ في ليلة دكّوا بغداد عام ١٩٩١، خرجت الصحف بعدها لتتحدث أن رأس الكنيسة الأمريكية بيل غراهام بات عند بوش

---

(١) شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣) جهاد الخازن في: **الحياة**، ٢/ ١١/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

الأب في البيت الأبيض يبارك الحملة ويصلي للرئيس وللجنود. يعتدون بمبررات دينية واستعمارية، ويجمعون أنصارهم باسم الدين، ويطالبون المسلمين بالتخلص من الإسلام، ثم يسمون تعصبهم المقيت وانغلاق أفهامهم وتحجرهم انفتاحاً وحرية وتنويراً، وتستخف سلطتهم بكل المواثيق حتى التي رسموها هم، مثل مواجهة العنصرية والاحتلال، فيقرون النازية الصهيونية التي أدانوها هم، ويؤيدونها بكل ما يملكون، وتتكبر هذه القوى على المسلمين، وتقر سفح دمائهم، وتعتذر لكل من يقيم لهم المذابح، ما فتح موجة من العداء والمواجهة لم تكن لخير الشرقيين ولا الغربيين ولن تكون على المدى الطويل.

توضيحاً للحق فإن الكنيسة الكاثوليكية والبابا لا يشاركون البروتستانت في المواقف الحادة ضد العالم الإسلامي وبخاصة في إعلان الحروب على المسلمين، ولكن ما فائدة كلام البابا إذا كانت إيطاليا ـ قاعدته ـ وإسبانيا الكاثوليكية مع الحرب على المسلمين أو نسبة عالية في هذه المجتمعات!!

وماذا يمكن أن يثق به الناس من ثقافتهم التي تصب سماً عدائياً كل يوم للإسلام والمسلمين، وتتوعدهم بتغيير دينهم، ولا تعتذر عن جرائم الكنيسة، ولا الإنسان المتسلط، ولا ترى في جرائمه إلا تنويراً، وحرية وإنسانية، أي ثقافة إنسانية وحرية وكرامة لمن يرسل طائرات الأباتشي الأمريكية والـ «إف ١٦» تغتال الأطفال في مهاجعهم ومخيماتهم الفقيرة ليلاً، وتغتالهم في الشوارع نهاراً، وتعطي لإسرائيل الطائرات الأحدث، وخمسة مليارات دولار سنوياً وتساعدهم في بناء الطائرات من دون طيار، وفي الوقت نفسه ترتفع أسعار الحمير وتندر في فلسطين لأنها أصبحت وسيلة المواصلات الوحيدة الممكنة، بعد قطع الطرق وتجريفها، واستحالة الاستفادة من السيارات بسبب إغلاق الطرق[٤].

كنت أحد الذين يشاهدون مظاهر الابتهاج والفرحة عندما كان التلفاز الأمريكي ينقل صوراً للعراقيات وهن يحملن المياه على رؤوسهن من النهر، بعد تدمير أمريكا للكهرباء وشبكة المياه في بغداد عام ١٩٩١، ويقول وقتها المعلق في **السي إن إن**: «لقد أعدناهم لعصر ما قبل الصناعة»، وهذه هي نفسها رسالة التحضير والتنوير والتقدم: «التبعية والاستسلام أو الموت

(٤) عبد الله عيسى، «إقبال شديد على شراء الحمير،» **القدس العربي**، ٢/ ١١/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

والدمار». ولهذا انهار الخداع الثقافي الكاذب واتضحت أهداف التنوير والتطوير والتحديث، فأقرب منطقة مسلمة لكيان غربي هي فلسطين التي اتخذت أمريكا منها قاعدتها إسرائيل، ونرى الحياة كيف تدور كل يوم منذ أكثر من خمسين عاماً، حيث يعيدونهم لعصر ما قبل الصناعة، وتصبح وسائل النقل هي نفسها وسائل ما قبل الصناعة. هذه الحقائق المشهودة، تجعل المسلمين يبحثون عن موقف عملي صادق، وثقافة غير كاذبة ولا مخادعة.

## انتصار الثقافة الإسلامية

حضرت مؤتمراً ضم قيادات من اليساريين العرب، وفي نهاية المؤتمر كنت من لجنة صياغة البيان الأخير، وترأس اللجنة أحد أبرز شيوخ اليساريين العرب، وقد كُلِّفتُ من هذه اللجنة وماذا ستكتب في بيانها تعبيراً عن موقفها في حوارها ونقاشها مع غير المسلمين. فإذا بهذا الرئيس يملي على الكاتب: «نحن العرب والمسلمون». فاستفزت الكلمات بعض أعضاء اللجنة من بقايا الشيوعيين الذين لم يلحقوا بالتغيرات، ولم يفهموا أن الزمن قد تغير، وأن العالم الإسلامي والغربي أصبح له وجه جديد. فحاصوا حيصة ثم قال لهم قولوا كيف نصف أنفسنا؟ ومن نحن في هذا الحوار؟ وهذا الانتصار على مستوى اللفظ ولغة الخطاب التي تحولت لتكون إسلامية حتى على ألسنة من جنّدوا أنفسهم لحرب الإسلام وتوجهاته زمناً طويلاً.

لم يستطع الفكر الغربي بفرعيه الشيوعي والنصراني ـ الليبرالي أن يغير من المسلمين، فقد بقيت هذه الأفكار شاذة، ومنبوذة على هامش المجتمع، وحاول بعض الذين أصبحوا شيوعيين أن يحرفوا المسيرة وأن يؤسسوا للماركسية في الثقافة الإسلامية وبارت جهودهم وخابت شر خيبة.

كان من بوادر الإحياء الإسلامي في القرون الأخيرة نهضة المدرسة الحنبلية الإحيائية، عند ابن عبد الوهاب وآل الآلوسي، وقامت المدرسة الحديثية عند الصنعاني والشوكاني وتلاهما القاسمي. وقامت المدرسة العقلانية بقيادة الأفغاني ثم عبده. وحاول تلميذهما رشيد رضا الجمع بين هذه المدرسة والتوجه السلفي. ثم قاد البنا حركة إحيائية شمولية حاول أن يتخلص من قيود الالتزام بمدرسة أو توجه، وقد لامه الطرفان ولكنه نجح في الحشد والتوجيه. ويعتبر كتاب سيد سابق في فقه السنة مثالاً لتوجه هذه المدرسة في السهولة والتأثير، مع الاحترام للأصول المرعية.



Twitter: @ketab_n

وظهرت مظاهر هذه النهضة الفكرية الإسلامية الكبيرة في انتشار الفكرة الإسلامية والكتاب الإسلامي، وكان للكتب التراثية ونشرها أثر سحري في العقول والقلوب، وبلغ ما نشرته إحدى الدور في أواسط العشرية الأولى من هذا القرن الهجري أو «الثمانينيات» الميلادية من كتاب واحد هو زاد المعاد ما زاد على ستمئة ألف نسخة!! ونشطت دور نشر كبيرة مثل بولاق والحلبي والرسالة والمكتب الإسلامي ودار الغرب الإسلامي والفكر وغيرها. وكانت صناعة الأشرطة من أهم المصادر المؤثرة في العقول في العالم الإسلامي. وبدأت صناعة الفيديو والإنترنت والكتيبات تمثل عملاً تجارياً مربحاً، وأثراً ثقافياً مشهوداً. ولن تكون بريئة من الأخطاء، وضعف النوعية، ولكنها مثلت ما يسمى اليوم ثقافة ومعرفة وعلوماً.

وكان في نشر وتداول الكتاب الإسلامي عودة للذات وثقة بالنفس تواجه تلك الكتب المترجمة الغثة، التي يكتبها اليساريون.

يقابل ذلك طلاوة وجمال في كثير من كتب الإسلاميين المعاصرين وعلى رأسهم المدرسة الأدبية عند آل شاكر «أحمد ومحمود»، وآل قطب والندوي والطنطاوي والغزالي[٥]، والقرضاوي، والفكرية عند المودودي ومالك بن نبي. والعلمية السلفية عند مدرسة ابن باز والألباني وبكر أبو زيد أو الحديث والفقه عند الكوثري وأبي زهرة والغماريين المغاربة، ومدرسة الهند الحديثية الكبيرة، ومجموعة مؤثرة وحافزة من أمثال سعيد حوى، وفي مصر أنور الجندي. ثم أثر كتّاب وخطباء وزعماء من مثل الزنداني والغنوشي والحوالي والعودة والريسوني وعبد الرحمن عبد الخالق والترابي، والشعراوي وعبد الحميد كشك «الخطيب» ومحمد جلال كشك الكاتب والصواف. ثم كان التيار الأكثر قرباً بالثقافة الغربية وتحديداً البيئة الأمريكية من أمثال مدرسة أسلمة المعرفة في معهد الفكر الإسلامي في واشنطن. الفاروقي وعبد الحميد أبو سليمان وطه جابر العلواني.

وقامت مدرسة التحقيق لإخراج الكثير من الكتب التراثية المهمة، شارك فيها عبد السلام هارون، وأسرة شاكر والفقي وأحمد صقر وعدد من الليبراليين حققوا كتباً ذات قيمة وجودة في التحقيق. وعاد هذا النتاج البارع القديم

---

(٥) تميز بالتوجه نحو الإحياء القرآني الغزالي والشعراوي، وبالتوجه الحديثي ـ الاهتمام بالسنة ـ الألباني وابن باز.



Twitter: @ketab_n

الجديد لأيدي المسلمين على أحسن ما يمكن أن يتوافر. والعودة للتراث ودرسه والانطلاق منه مقارناً بما وصل له غيرنا في هذا الزمن خطوة مهمة على طريق بناء الموقف الفكري والحضاري الذاتي.

وقامت مدرسة الاقتصاد الإسلامي التي ساهم علماء كثيرون في إبراز جهدها وترتيب مشروعها. منهم عيسى عبده ثم تلاميذه الذين ملأوا الآفاق، وقامت أقسام علمية في الجامعات تدرس الاقتصاد الإسلامي. وظهرت محاولات عديدة في أسلمة العلوم مثل علم النفس وعلم فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

ومهما تكن مساهمات هذه المدارس ضعيفة أو غير كافية، لكنها قليلة المثال عند أمم أخرى ممن وقعوا تحت سلطة الثقافة الغربية بشقيها النصرانيين الليبرالي والشيوعي. وذات دلالة كبيرة على الرفض للاغتراب الفكري. وأشاعت هذه المواقف ثقة وتمرداً على القهر الثقافي وعلى الذوبان والتبعية.

ومهما يحدث في المستقبل القريب من محاولات تغريب وهدم للثقافة الإسلامية فلن تكون أكثر جدوى مما سبق؛ ذلك أن الثقافة الغربية في أوج قوتها ومنعتها ورغبة المسلمين فيها لم تستطع أن تمثل حلاً ولا جاذبية، أما الآن فقد تمرد عليها نقلتها، ولم تحقق إلا نصراً هامشياً، سرعان ما انقلب الأمر وعاد أصحابه للدعوة والدعاية للعمل والفكر الإسلامي. وقد كان من أبرز هؤلاء الذين تمردوا وكتبوا بقوة وتأثير ممن ألحدوا أو قاربوا ذلك عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود. وقد عاد الأول فكتب في آخر أيامه كتاباً يدافع فيه عن القرآن، أما الثاني فقد حدث انقلاب كبير في فكره وكتاباته بدأت بتجديد الفكر العربي ثم تلاها الكثير، وكان أروع مواقفه موقفه من الجمعية الفلسفية المصرية التي دعاها في آخر حياته للعودة للإسلام. وكأنه يقيم حصار التيه في الثقافة الغربية، والتبرؤ منها.

وما حدث أو يحدث الآن من انكسار في تيار الثقافة الإيراني على يدي عبد الكريم سروش وبعض أتباعه فهم نتاج لتفاعل كبير ولصدمات داخلية سوف يكون نتاجها بين تطرف المتشددين من الملالي وتطرف هذه المدرسة. وسيبقى كتّاب «أدباء» من أمثال شريعتي ومطهري، ومجتهدون من أمثال باقر الصدر هم الأكثر تأثيراً بين الشيعة، بعد الإفلاس الشديد لليسار وأتباع التيارات التغريبية.



Twitter: @ketab_n

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن بعض الكتابات المغرّبة في فلسفة المقاصد الشرعية قد يصلون بها لنمط عبثي خارج على الالتزام الشرعي، فطرف المقاصدية شيء من الليبرالية بل العلمانية، والإيغال في أمور المقاصد يورد موارد المدارس العبثية التي قامت في بلاد المسلمين وبلاد الغرب في فترات متفاوتة من الزمن. وهو ما يقف قريباً منه بعض كتّاب الشيعة المعاصرين.

أما في الواقع الأدبي فقد ظهر بين العرب والمسلمين منتجون لآداب رائعة إذا ما قيست بزمن الوهن والجهل السابق، فإنها تمثل ثروة أدبية هائلة في الرواية والتاريخ والشعر، مثل: كتب العقاد وتراجمه، وقد كانت **عبقرية عمر** ولما تزل مثالاً للأدب «التاريخي» المؤثر والهادف. وتراجم وروايات الباشا وباكثير والكيلاني وغيرهم كثير. وهكذا في ميادين مهمة، قد يكون أهمها التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي. فقد كتبت كتب لها أهميتها الكبيرة في سيرة الرسول (ﷺ)، ذات جمال في اللغة والفكرة، مثل كتاب المباركفوري، وكتاب البوطي وكتاب الغزالي، وأعيدت طباعة وتحقيق الكثير من أهم كتب السلف. وقامت دراسات من خير ما كتب في التاريخ الأموي والعباسي والأندلسي. بحيث ظهرت أمام هذه الجهود أعمال المستشرقين تافهة قليلة النفع، إذا ما قورنت بما تم إنجازه في التاريخ الإسلامي. وشعراء المسلمين في العصر الحاضر من أنجب الشعراء، ويعدون في طبقة كبار شعراء العربية في عصور سابقة.

وليس الأمر على ما نتمناه في هذا الجانب، غير أن البدايات تكون هكذا، وتكون مختلطة بالتخبط والضلال والأخطاء، ولكن لا يتعثر إلا الماشي، ويسوق كثيرون ملاحظات عديدة ربما على بعض من ذكرت هنا، وليس الهدف التحقيق في الصواب من الخلل بشكل تفصيلي، بل فهم الظاهرة ومسار الأمور واتجاه المؤشر. فمن تحدث عن ترقي العلوم في عهد المأمون لا يلزم أن يؤكد القول بخلق القرآن ويناقش موقفه من الاعتزال، بل نقيِّم الزمن بمجمله، والبحث المذهبي التفصيلي ليس مدار السياق. فالانتصار المشار له هنا هو انتصار من حيث التغلب على الثقافة المضادة، ومن حيث الانتصار على الجهل والأمية التي كانت تفري المجتمع الإسلامي إلى سنوات قريبة.

وقد لا تكون ظهرت علامات كبيرة لنستطيع التأريخ الحاسم لهذه الإنجازات الفكرية والفقهية، ولكن هذا زمن قد يغلب عليه الفعل التاريخي الإصلاحي، والنهوض به، وقد لا يكون زمن التأريخ التقييمي له. فمن



Twitter: @ketab_n

يكونون في غمرة التأسيس تقل قدرتهم على رؤيته من بعيد، ولا التحقق من ملامحه، لأنهم جزء من مرحلة، ولأنهم مندمجون فيها، سواء كانوا في صف التأييد أم المعاداة.

واليوم هناك عمل أمريكي محموم لتغيير الثقافة الإسلامية، لأنها ثقافة إرهابية، حيث يرى المهتمون بالأمر أنه يجب أن تنشر الثقافة الإسلامية من داخلها، وتجعل محل شك أهلها، ويبعث النقاش في أصولها، بدءاً من صحة القرآن، وانتهاء بالاجتهادات المعاصرة، ولم يأبه ستيفن كوهين في مخاطبة القرضاوي بأنه مروج للإرهاب!! فإذا كان القرضاوي الذي يتهمه بعض الإسلاميين بأنه كثير اللين والمجاملة للغربيين يحكم عليه بهذا فإن هذا الموقف الغربي متطرف في توجهه نحو الإسلام، وسيواجه عقبات أكبر. وسيعرف العالم كله مدى النفاق الوقح في من يطارد شخصاً معتدلاً مثل القرضاوي، وينافح وينفذ كلاماً مثل الذين ينادون بذبح فريق من المسلمين وتنصير الباقين!! هؤلاء لا يعتبرون في عرف كتّاب ومثقفي اليهود في أمريكا متطرفين ولا إرهابيين، لأن الإرهابي هو من يختلف مع الغربي المستبد، أو يكره استعماره، واستبداده بقرار وثروات المسلمين، أما من يقتل المسلمين أو يدعو لذلك فله الحرية في ذلك، وهو مواطن صالح، وهو تقدمي، وتحرري، ومن محور الخير!!

سوف يقول أي متابع لموضوع الإرهاب إن هذا السيناتور الأمريكي العنصري، أو الكاتب والعسكري القديم، أو الصحفي المروج للإرهاب ضد المسلمين، لا بد أنه في زنزانة بجوار عمر عبد الرحمن وبجانبه الكاتب رالف بيترز مؤلف كتاب **ما وراء الإرهاب**.

إن الأمر لن يكون على هذه الطريقة فالنصوص التي تدعو لقتل وترهيب المسلمين «نصوص متقدمة وحضارية ومهذبة» وتربح تنفيذاً لأفكارها، مالاً وشهرة، أمّا نصوص المسلمين ولو كانت في غاية العقلانية والأدب والموضوعية حتى بمعيارهم فكتّابها إرهابيون، هل عدتم الآن لتلك الصفحات الواقعية التي نقلها سيد قطب في فصول «المسلمون متعصبون» من كتابه **دراسات إسلامية**؟؟ لقد اكتشف المثقفون الأمريكان أخيراً سيد قطب[٦]، وبدأ

---

(٦) نشرت مجلة **نيويورك تايمز** في ـ ٢٣ آذار/ مارس ٢٠٠٣ ـ ملفاً عنه بعنوان «فيلسوف الإرهاب الإسلامي في أكثر من ٧٥٠٠ كلمة».



Twitter: @ketab_n

النقاش حوله وحول أعماله، ولكن نصوصه قد تفيد الجانبين في تعريف الإرهاب وأهله!!

يبدو أننا لم نعرف بعد أن من يقتلنا يجب أن نسميه محررنا، ومن يسرقنا هو من يطورنا، ومن يحرف ديننا أو ينصّرنا هو من يهدينا، ومن يستبد بنا هو من ينظمنا، ومن يعصه منا فهو إرهابي متخلف، ومن يوافق الغزاة المستبيحين متطور تقدمي، تمهد له الصفات اللامعة، والإعلام والمناصب العالية. عاد الوعي لأمة تخلصت من التدمير الغربي للإسلام، الذي يحارب باسم الشيخ الغبي، ويقدم خصوم الدين باسم الأفندي الذكي، أو العميل الولي، تلك سنة قديمة ومستمرة منذ نابليون، ولكن اليوم بدأت الضحايا بوعي أشمل، وبدأت تعرف الكلمات الكاذبة والمنافقة. وقد يكون العراق بداية مرحلة وعي أخرى.

في الأسبوع الأول بعد إسقاط حكومة طالبان، أظهرت إحدى المحطات الأمريكية خبراً يتحدث عن المكاسب الكبيرة للشعب الأفغاني، وعودة التعليم وبخاصة تعليم الفتيات، فماذا كانت تدرس المدرسة إنها كانت تدرس حروف الهجاء، أ ب ج ك ش... إلخ، وكانت تقول: «ألف» من كلمة الله، و«ج» من كلمة جهاد، ثم تعقب: المجاهدون أخرجوا الروس من أفغانستان. «ك» من كلمة كفار و«ش» من كلمة شيوعيين وهم الذين قتلوا الأفغان وأخرجهم المجاهدون. وكان الدرس الأول مكاناً للتندر في أمريكا ونشر أستاذ في جامعة إنديانا بحثاً حول هذه المسألة. فقد رأوا في ذلك خسارة كبيرة، والذي حدث في ما بعد أن أرسلت مناهج بديلة مع بدء العام الدراسي. وبعد نحو من عام ذكر أحد المراسلين أنه في فندق ماريوت في وسط العاصمة الأفغانية كان زوار الفندق يجدون على طاولة في مدخل الفندق أوراق دعايات للبغايا في كابول بجانب دعاية سيارات الإيجار!!

وهذه هي الثقافة الإباحية القسرية التي لم تفرضها أمريكا على أرضها، فإنها تعمل بكل جهد لتدمير المجتمع الإسلامي عن طريق إفساد النساء، ورفع شعارات الحرية. وهنا أنقل لك هذا المقطع الطريف عن التطور كما يراه كاتب في **نيوزويك** في مقالة: «الجنس والمدينة الدولة» (في مسرح صغير بوسط المدينة يتبادل رجلان القبلات بطريقة عاطفية، وينظر زوار المتحف إلى صور عارية مستفزة...) «ليست هناك بالضبط ثورة من أجل الإباحية تدور الآن، ولكن سنغافورا خففت أخيراً من قيودها على الجنس في الفن..



Twitter: @ketab_n

وتخفيف إجراءات الرقابة على ما يمكن قراءته ومشاهدته وسماعه مثل.. مشاهد تلفزيونية جريئة.. كما تم تقديم عروض على المسرح كانت ممنوعة في الماضي.. تدور أحداثها حول تعاطي المخدرات وعصابات الاغتصاب، تقول مديرة المسرح الإباحي «التسوق وممارسة الجنس» إنها أيام مثيرة بالنسبة إلى الفنانين في سنغافورا، إن التمثيل لم يعد مرادفاً للدعارة.. وما زال أمام سنغافورا مشوار طويل لتصبح معقلاً لحرية الفن»[٧].

هذه الثقافة فشلت في بلادهم، واجهتها فطر الناس، وواجهتها الكنيسة والعقلاء، وقسرهم للعالم الإسلامي على هذه الأنماط من التدمير الداخلي والخارجي غالباً لا يستطيع الصمود إلا بالقوة، والقوة الغازية وإن أوهنت ضحاياها فترة فهي لا بد من أن تهن وتضعف، وستثير قوة مضادة. وتحيي ثقافة الرفض للاحتلال وللإرهاب الثقافي.

## الإرهاب المقدس والإرهاب المدنس

هناك فكر إرهابي واحد، لا يوجد بحسب رؤيتهم إلا في العالم الإسلامي، أو صادر عن العالم الإسلامي، وبدأوا يخجلون ويخففون من إطلاق التسمية على الأعمال المشابهة التي يقوم بها غير المسلمين. وإن استخدم الطرق نفسها وأسوأ منها. وكانوا يسمون الإرهاب بأنه الأعمال التي تواجه الاستعمار، فأصبح فقط الأعمال التي تواجه الغربيين بأيدي المسلمين، ولم يزل المصطلح ملتبساً.

لفت الانتباه صدور أفكار من كتّاب غربيين شهيرين، وصدور كتب لا تحمل إلا الرعب والإرهاب، وطرق الترويع غير القانونية، وأفكار لو قيلت للناس لظنوا أنها لا تصدر إلا عن تنظيمات من التي يعيرون المسلمين بها. ولكنهم لو قيل لهم هذه كتبكم، وهذه ثقافتكم وهذه كتابة وتفكير قادتكم لما قبلوا بأهمية إبعاد هذا الفكر، وإبعاد أهله عن منابر التأثير. لأن الذين أصدروه هم يهود أو نصارى؛ ولهذا فإرهابهم أو أفكارهم الإرهابية لا يعترضها ولا ينتقدها أحد![٨]. إن «الإرهاب» الذي لا يرمى به إلا المسلمون ستنتهي

---

(٧) Sonia Jessop, «Sex and the City-State: Singaporés Art Scene is Becoming more Permissive,» *Newsweek* (10 March 2003), p. 60.

(٨) قارن بكتاب: Ralph Peters, *Beyond Terrorism* (Mechanicsburg, PA: Stack-Pole Books, 2002).



Twitter: @ketab_n

صلاحية هذه التسمية، كما انتهت خرافة «التعصب الإسلامي»، ذلك أن الغربيين أشد تعصباً لدينهم ولقيمهم - والتي بعضها جرائم ومجازر في حق الملونين - وأشد إرهاباً في وجه من يخالف ثقافتهم.

في اجتماع مجلسي الكونغرس «النواب والشيوخ» الأمريكيين، مساء، ١٧ جمادى الأولى، ١٤٢٤، الموافق ١٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٣. خطب فيهم بلير، رئيس وزراء بريطانيا، وأكد أن على الغرب ألا يعتذر عن قيمه، وكانت إشارة لتورطه مع حكومة بوش في الكذب بدعوى امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل، وعدم الاعتذار عن الإمبريالية والاستعمار واستعباد الشعوب الملونة، وقبل ذلك بأيام رفض بوش أن يعتذر للأفارقة عن جرائم استعبادهم وموتهم في سفن النخاسين أو قتلهم.

وهم يشرعون للإرهاب الوقائي، وهو فكرة في غاية الخطورة، فدماء الناس مباحة، وحدود الدول منتهكة، بسبب توقع أو شك أو توهم إمكان وجود إرهاب!! وهم يمارسون الإرهاب الفكري فيطاردون أي طفلة مسلمة ويحرمونها التعليم لأنها لبست غطاء الرأس، ولو كانت راهبة، أو يهودية أو يهودي يغطي رأسه لما أنكروا عليه. وهم يحاربون أشكال الالتزام الإسلامي. ويريدون في فرنسا إعادة قوانين قديمة كانت علمانية متشددة لمواجهة الإسلام[٩].

إن الزعماء الغربيين الذين يزورون مواقع يهودية، أو يشاركون في جنائز ومناسبات دينية يهودية يلزمهم اليهود بلبس غطاء الرأس اليهودي في مناسبات دينية ومواقع كثيرة، ولكن هؤلاء الزعماء لا يمكن أن يقوموا بالترويج للباس أو شعار إسلامي، بل انزعج بيكر، وزير الخارجية السابق لأمريكا، من مهاتير محمد، الرئيس الماليزي، لأنه لبس لباساً وطنياً ماليزياً في حفل عشاء في اليابان في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. لأن الموقف السياسي والثقافي من المسلمين كبير، والحواجز أعلى من قدرتهم على كسرها. والبعد كبير عن عالم المسلمين، فوصم الإسلام بالسوء أمر محبب لتلك الشعوب، يضرب جذوره في مواقفهم الدينية وممارسات وحملات الكنيسة. ولذلك جذوره في التعصب النصراني لدى هؤلاء، وهم غالباً ذوو مهاد ديني ثقافي، وبيئة تناصب

---

(٩) أشار وزير الداخلية الفرنسي يوم ٢٤ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ الموافق ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣م بالنقد لمن يلبسون لباساً دينياً في المؤسسات الحكومية، معرضاً بالمسلمين وتوعد بالحفاظ على الهوية العلمانية للدولة والمؤسسات الفرنسية.



Twitter: @ketab_n

المسلمين العداء ابتداء فيقل منهم الشجاع في فكرته، والذي لا يقدر دور الناخبين في مواقفهم ضد الإسلام، وليس بعيداً هذا عن موقف الكنيسة وبخاصة أن هناك حكاماً غربيين في زماننا أكثر تديناً من بعض رؤساء الكنائس، قارن بلير برئيس الكنيسة البريطانية، أو بوش ببعض زعماء الكنيسة المتسامحين مع المسلمين، أو ببعض فرق اليهود الأكثر محافظة وتشدداً ممن لا يؤمنون بجواز إقامة دويلة للصهيونية. ومن زعماء النصرانية من يحقق طريقة رياء مسرفة في عدوانيتها تجاه المسلمين، حيث يقول للمسلمين كلاماً للاستهلاك الإعلامي، ويرسل قوى الأمن للحصار والمراقبة والتهديد والإزعاج لبيوت المسلمين، ويعتقل المسلمين ويجرّمهم بلا جرم، ويسلط عليهم أعتى الصهاينة في بلده، نقداً وتجريحاً ثم يمنح بعض الصهاينة من ممارسي الإرهاب الفكري المتطرف ضد المسلمين وظيفة قيادية مثل الصهيوني الشهير دانيال بايبز الذي رشّحه بوش لأعلى المناصب في معهد «للسلام» في بلده ليقوموا بدور الإرهاب الفكري ثم يتبعه الإرهاب العملي ربما في ما بعد. وقد نال هذا الترشيح نقداً من عدد من المؤسسات حتى جريدة **واشنطن بوست** التي تملكها أسرة يهودية[١٠]. إذ رأت في قرار الرئيس وتعيينه لصهيوني حاقد على الإسلام والمسلمين إيقاداً لصدام الثقافات ـ وهذا مع صهيوني آخر سبق أن عمل في الجيش الإسرائيلي أقاما موقعاً على الإنترنت يراقب الأجواء الجامعية، ويراقب الأساتذة الأمريكان في الجامعات والطلاب الذين يتعاطفون مع الإسلام وقضاياه، بطريقة مكارثية وعدوان على الحرية الفكرية في أقدس ميادينها الغربية كما يرون ـ وبهذا القرار الرئاسي أصبح اليهود أقل تديناً وحقداً على المسلمين من هذه المؤسسات والزعماء ذوي الدوافع الدينية الحاقدة، والرياء المفضوح.

ورفض الجيش الأمريكي الاعتراف بعدد القتلى في حرب العراق الأخيرة، ورفض أن يستحق منه العراقيون العرب المسلمون حتى إحصاء عدد القتلى، فضلاً عن أن يكلف نفسه دفن جثثهم. يقول واحد من أوثق الصحفيين العرب وأكثرهم اطلاعاً: إن الحرب على العراق «أدت إلى مقتل حوالي عشرة آلاف جندي عراقي، ومثلهم من المدنيين، ولا يزال المدنيون يقتلون حتى اليوم، وأصبح ثلاثة أرباع مواطني أغنى بلد عربي يعتمدون على المساعدات

---

(١٠) «Fueling a Culture Clash,» «editorial», *Washington Post*, 19/4/2003.



Twitter: @ketab_n

الغذائية، ولا يجدون ماءً صالحاً للشرب، إلا عن طريق منظمات الغوث الدولية. وبلغت نفقات الحرب نفسها نحو ٦٠ ملياراً ولن ينجو من أذى الحرب الجيل القادم، فواحد من كل أربعة أطفال عراقيين يعاني من سوء التغذية ومن المرض»[١١].

وترجمت جريدة **الخليج** عدداً من المقالات التي تحدثت عن قتلى الحرب، ومن هذه الجرائد جريدة **الواشنطن بوست** الأمريكية التي نقلت عن العاملين في إحدى المقابر أن آلاف الجثث كانت تدفن يومياً من الفجر إلى الغسق في ضواحي البصرة، وتنقل المقالة عن عسكري أمريكي أنهم قتلوا ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألف جندي عراقي، وتخلص المقالة إلى القول إن قتلى العراقيين مدنيين وعسكريين عشرات الألوف[١٢].

(١١) جهاد الخازن في: **الحياة**، ١٥/ ٥/ ٢٠٠٣.

(١٢) جيري ايسكس، «واشنطن تخفي عدد القتلى العراقيين،» **الخليج**، ٦/ ٥/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٠ ـ

# تركيا وإسرائيل والنساء

«آسيا الصغرى استولى عليها الإسلام» بيزنطا القديمة، ومرابع الكنيسة الشرقية رآها الغربيون منذ ذلك اليوم وإلى اليوم عار النصارى، وحدثاً جللاً لا يُطاق، تحدث عنه الفيلسوف هيغل بألم كبير: «يعيش الأتراك الآن حيث كان اليونانيون يعيشون يوماً ما». وصاغه كلود كاهن في عصرنا بسياق معبّر وصريح: «إن غزو الأتراك لآسيا الصغرى وتحويلها إلى دولة تركيا الحديثة قد بدا دائماً للأوروبيين باعتباره أمراً يمثل بلا شك شيئاً غير مفهوم، وغير مقبول، بل ومهيناً إلى حد كبير»[١].

يرى المستشرق الصهيوني المتعصب برنارد لويس مستقبل منطقة المشرق الإسلامي بأنه يمكن أن يتم تغييرها بعوامل التغيير الثلاثة يقول: «هناك ثلاثة عوامل يمكن أن تساعد في تحويل الشرق الأوسط، وهي تركيا وإسرائيل والنساء، وفي السابق نأت تركيا بنفسها عن المنطقة، ووقعت إسرائيل في عزلة، وتعرضت النساء للقمع»[٢]. وهنا نشير إلى موضوع النساء، فقد تأخر الاهتمام بالمرأة المسلمة ردحاً من الزمن، ولكنها اليوم في مناطق عديدة من العالم الإسلامي تستيقظ وتتعرف إلى مهمتها ودورها في العالم، فالعدد المقبل منهن على حفظ القرآن الكريم في الجمعيات النسائية والمساجد وجمعيات تحفيظ القرآن يتفوق على كل المراحل التاريخية المعروفة في تاريخ المسلمين، ففي

---

(١) نقل النصين السابقين ـ عن هيجل وكاهن ـ شارل عيساوي في: **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٧٢.

(٢) برنارد لويس، **تنبؤات مستقبل الشرق الأوسط** (بيروت: رياض الريس للكتب، ٢٠٠٠)، ص ١١١.



Twitter: @ketab_n

الحواضر الإسلامية الكبيرة يقمن بأنشطة واسعة ومؤثرة، ويؤسسن جمعيات، ومدارس وبرامج متنوعة، ويحضرن الدروس المتقدمة جداً ويؤلفن الكتب العميقة، وبعض المحاضرات الخاصة بهن يحضرها الآلاف المؤلفة. ويقمن بالإشراف على صفحات الإنترنت الإسلامية، ويشرفن على دعوة النساء ومتابعة من أسلم منهن في الآفاق وبلدان العالم البعيدة، من إيطاليا إلى المكسيك والبرازيل. فالتعليم الذي انتشر أنقذ المرأة المسلمة من كثير من التبعية، والسلبية، وجعلها تشعر بأنه يجب أن تخرج من عبودية التبعية للمرأة النصرانية، وعبوديتها لبيوت الأزياء، وتجار الجنس ومروجي الأصباغ. ولعلها تعي هذه الفكرة الخبيثة التي يؤسس وينظر لها واحد من غلاة الصهاينة حيث يرى في المرأة غنيمة يمكن أن تهدم بها بيوت المسلمين، وتهدم بها الثقافة الإسلامية، وتحارب بها الأمة من داخلها. وهو وإن وجد حقاً أتباعاً لنبوءته، فقد تهيأ قبل ذلك من يحرصن على أن يكنَّ مثالاً قويماً ومصلحات للأمة. ويخرجن من أن يكنَّ أداة تدمير لأمتهن إلى بانيات يجددن سيرة خديجة وعائشة وفاطمة.

وإسرائيل لا تعدو أن تكون واحدة أخرى من نبوءات أدعياء النبوة اليهود الكذَبة على مر التاريخ، فنبوءة استخدام النساء المسلمات سوف تبور وتخسر، عندما يحصلن على الكثير من التعليم والتوعية، والعدل والمشاركة والإنصاف، وتبيّن أنهن يقلعن عن العبودية لمظاهر الغرب وسلوكه، وإنك لتعجب من التزام المسلمات في الغرب بدينهن، مقارنة ببعض من يتبعن طموحات لويس في بلاد المسلمين؛ ويحرصن على تحقيق أكبر الأرباح لشركات قومه. ولاحظ علي شريعتي في **العودة إلى الذات** أن الأميات والقرويات في إيران أكثر تكلفاً وتقليداً للغرب من المتعلمات في المدن، وبالتالي أكثر إرهاقاً لدخل الأسر، وإرسالاً لدخل عائلاتهن إلى بيوت الزينة النصرانية مثل «كريستيان ديور»!! لاحظ كلمة مسيحي في التسمية. و«القديس لوران» في سان لوران، وغيرها كثير من التسميات لبيوت الزينة والبضائع تحمل أوزارها الثقافية. ولا يلمحها المعجبون باللفظ الغربي الذي قد يكون دينياً أو معيباً، غير أن كونه غريباً وغير مفهوم فإنه يقبل وينتشر!![٣].

وقد جعل اهتمام الغربيين بالأسماء الدينية والمقدسة عندهم أسماء

---

(٣) إحدى الشركات الأمريكية تملك سلسلة مطاعم للدجاج وتسميها «دجاج الكنيسة» فتحت فروعاً في العالم العربي وعدلت نصف الاسم وأبقت كل الدلالات الأخرى، وقد تكون الشركة تملكها كنيسة أو مجرد اسم.



Twitter: @ketab_n

لشركاتهم ومنتوجاتهم فإن الشرقيين من اليابانيين والصينيين أظهروا حميتهم في تسمية منتجاتهم بهذه الطريقة من خلال استعمال أسماء وثنية قديمة غربية مثل «كريسدا» أو شرقية مثل: «مازدا»، هذه التفصيلات على الرغم من صغرها ولكنها معبّرة عن ثقافات ولغات وراءها لا تعرف الحياد، إلا في رأس من لا رأس له.

ووجود إسرائيل تنبؤ ليهودي كاذب آخر، هو تيودور هرتزل الذي سرق الفكرة من سابقيه، وسرق التركيبة الفلسفية القومية من قوميات أوروبا المشهودة آنذاك، في عصر ازدهارها. ويعكف كثيرون من الصهاينة اليوم يشككون في نتيجة هذه الأكذوبة، ويصرح بعضهم في مقالات شهيرة، ليس من خصوم الفكرة مثل تشومسكي، بل من الأولياء من مثل إبراهام بورغ، فقد حملت لهم وعود الصهيونية القتل والخوف والذل، ولم يزد جهدهم عن أن أسسوا بأموال أمريكا وألمانيا وغيرها قاعدة عسكرية أمريكية في نحور المسلمين، يسقيها اليهود بدمائهم، ثم يتركهم الصليبيون يوماً يواجهون نتائج إرهابهم. ويسل المسلمون هذه الشوكة العنصرية عاجلاً آو آجلاً من نحورهم، ويبقون من لا يدين بالإرهاب. وكما يرى بورغ فهي لا تقدم أمناً ولا حرية ولا ديمقراطية ولا إنسانية، بل تؤسس للعنصرية والفساد والقتل، ويستخدمها أعداء المسلمين لتنفيذ أعمال قذرة يترفعون عن القيام بها في بلاد المسلمين.

وتعالت أصوات يهود ممن سبق ذكرهم وغيرهم، حيث لا يرون إسرائيل إلا أكذوبة يهودي آخر، أقل ذكاء وحصافة من ماركس المتنبئ الكاذب الذي عاصره، وثبت متأخراً للعالم فشل فكرته التي وعدت الناس بجنة يهودية على الأرض، آلت لما عرفناه من تاريخ الشيوعية المرعب.

وها هي تركيا المسلمة والنساء المسلمات يمزقن نبوءة «لويس» المتنبئ المخادع الجديد، فعادت تركيا تتجه بهدوء نحو الإسلام، وعادت بحضور يحترمه حتى الخصوم الحائرون في ما يحدث، وإن كانت عودة مراوغة، ولكنها تبدو واعية. بقي أن نعلم أن أحلام هؤلاء اليهود تصنع داخل مؤسسات تنفيذية، تقهر الناس عليها، وتلزمهم بتنفيذها، وتبدأ المقاومة الجادة بين المشاريع النصرانية أو اليهودية المتعسفة، وبين ضحاياها، ولكن هؤلاء الضحايا ينتصرون، على الرغم من قوة وتعسف الملزمين بأوهام الخرافة المسلحة.

وها هم صرحاء في احتقار البشر، واحتقار الدول والأجناس، فالأتراك



Twitter: @ketab_n

والنساء المسلمات كما يرى لويس «أشياء» أو «وسائط» تتم من خلالها الغلبة على المسلمين وقهر طموحاتهم. وهو ينصف من دون وعي منه أن إسرائيل في النهاية ما هي إلا واحدة من أدوات القهر، ووسائل الضغط، وليست أمة وبلداً محترماً، وهو كغيره من اليهود الذين سعدوا في الغرب بالمكانة والتأثير، يترفع أن يكون جزءاً من «إسرائيل» هذه الوسيلة الأوروبية الأمريكية للاحتلال والقمع. وهي لا تزيد على كونها: «مخفراً امبراطورياً أمامياً قادراً على الاستجابة للحاجات المتغيرة للامبراطورية الرأسمالية الكونية»[٤].

وتتزايد أهمية هذا المخفر في قلب بلاد العرب والمسلمين، فمطلوب منه الهيمنة على مصير الدين والثقافة والقومية والنفط، فيغتر ويعد بما هو فوق طاقته، وتتفكك آماله، وتزيد مخاوف الخفراء، ويتلبد مستقبلهم بالسواد، مهما أرسل لهم المركز من المال، أو حافظ على اليهود منبوذين خارجه، وزين لهم البعد عنه، آملاً بنقاء عنصري وديني، ومكفراً عن خطاياه أيام هتلر وما سبق من قرون مسيحية. هذه الدولة اليهودية صدّقها بعض اليهود، واستثمرها رأسماليون أذكياء، يحاولون اليوم أن يجعلوها ديناً لشعوبهم، يبقي الخفير على شفا البئر.

أما المرأة المسلمة فتعالى دورها وأخذت تتخلص من ربقة اليهود، ورهانهم بأن يستخدموها. وإسرائيل الركن الثالث في خطته بدأت تفقد كل مبرر للوجود، وأهم ذلك المبادئ مثل الديمقراطية والسمعة، والطمأنينة والأمل في المستقبل!! وستكون عبئاً كبيراً للامبراطورية الأمريكية كما هي الآن وأسوأ مستقبلاً. ثم سيتلو سقوط تنبؤات لويس سقوط نبوءة زميليه السياسيين: «كيسنجر وولفوويتز».

ونلمح في هذا الجانب نهاية الأدوار الفكرية حتى في مشاريع اليهود الغربيين، فالذين يفكرون لهم ويخططون مجموعة من المحتالين، والقناصة، والمتلبسين الملتصقين بأمم وأفكار أخرى، ولم يعد لديهم كمجمل حال التفكير الغربي ما يقدمونه في سياق الأفكار والمشاريع الكبيرة، إلا حيل الثعالب ومراوغاتها.

---

(٤) بيرش بيربروجلو، **اضطراب في الشرق الأوسط، الاضطراب والحرب وعدم الاستقرار السياسي**، ترجمة فخري لبيب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢)، ص ١٣٥.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢١ ـ

# أنموذج: تحرير تركيا من العلمانية

أصبح غيرنا من مثقفي وشعوب أخرى يراقبون تسمم الجسم المسلم، عقلاً وثقافة وخلقاً بمستوردات فكرية وسلوكية سامة، أضرت بالمجتمع الغربي منذ قرون وبدأ يتخلّص منها، أو يستعيد غيرها وإن كانت هذه المظاهر التي نسميها في مجتمعنا سماً ثقافياً معطلاً للطاقة، وهو ربما نفع غيرنا في مجتمعات أخرى، فمثلاً العلمانية ربما تكون أنقذت الإنسان الأوروبي ـ على الرغم من شرها ـ مما هو شر منها وهو النصرانية الاستغلالية التي أرهقت المجتمع النصراني لزمن طويل، وعطلت قواه، واستعبدته وقسمت ثروته وسياسته بين الكنيسة والملوك الإقطاعيين. فكانت العلمانية سلاحاً شاملاً للحرية من الكنيسة وشرور استغلالها. عندما تقاسمت المجتمع قوتان فاسدتان باسم الدين هما القياصرة ورجال الدين الفاسدون. فكانت العلمانية سلاحاً عاماً اجتماعياً بأيدي المثقفين والتجار للخلاص من ربقة التدين الزائف. ولكن العلمانية خارج مناطقها كانت سلاحاً استغلالياً استعلائياً على الشعوب الأخرى. وفي النص التالي يتحدث الكاتب بصراحة أن العلمانية كانت وسيلة لاستعمار تركيا، وأنها قد لا تجد نفسها إلا بعد التحرر من العلمانية. فالعلمانية التركية من أسوأ نماذج العلمانية التي وقعت في العالم الإسلامي وربما غيره، ولم تزل تدمر المجتمع التركي على الرغم من حركة المقاومة الثقافية الجادة لها اليوم.

تحدث هانتنغتون عن ست دول يمكنها أن تكون من الدول المحتملة للريادة والقيادة للعالم الإسلامي وهي: إندونيسيا ومصر وإيران والباكستان



Twitter: @ketab_n

والسعودية وتركيا[1]، وحدد العوائق لهذه الدول من أن تمارس الدور القيادي للعالم الإسلامي، وملاحظاته عن تركيا من أحسن النماذج التي درسها وقدم رأيه فيها، يقول: «وأخيراً تركيا لديها التاريخ والسكان والمستوى المتوسط من النمو الاقتصادي والتماسك القومي والتقاليد والقدرة العسكرية لتكون الدولة الأساسية للإسلام. وفي تحديد كمال أتاتورك لتركيا أن تكون بوضوح مجتمعاً علمانياً، على الرغم من ذلك فقد منع الجمهورية التركية من إنجاح الامبراطورية العثمانية في ذلك الدور (دور الدولة الأساسية للإسلام). فتركيا لم تستطع أن تكون حتى عضواً مؤسساً في منظمة المؤتمر الإسلامي بسبب التزامها بالعلمانية في دستورها. وما دامت تركيا مستمرة في تحديد نفسها كدولة علمانية فإن زعامة الإسلام ستنكر عليها.

وماذا مع ذلك لو عادت تركيا بإعادة تحديد «تعريف» نفسها؟ عند نقطة ما، فإن تركيا ستستطيع أن تكون جاهزة أن تتخلى عن الدور المحبط والمهين كمتوسل يستجدي العضوية في الغرب[2]، وأن تعيد بناء دورها التاريخي الرفيع والأكثر تأثيراً بكثير كزعيمة إسلامية ومناوئة للغرب. الأصولية بدأت تأخذ بالنهوض في تركيا؛ وتحت [حكم] تورغوت أوزال قامت تركيا بجهود مشكورة لتجديد هويتها، وعلاقاتها مع العالم العربي؛ وعوّلت على الروابط العرقية واللغوية لؤدي دوراً متواضعاً في آسيا الوسطى؛ وقدمت التشجيع والدعم لمسلمي البوسنة، ومن بين الدول الإسلامية فإن تركيا متفردة في امتلاكها لصلات تاريخية واسعة مع المسلمين في البلقان والشرق الأوسط وشمال افريقيا وآسيا الوسطى.

ومن الواضح أن تركيا في الواقع تستطيع أن تقوم بدور «جنوب افريقيا»: أن تتخلى عن العلمانية كشيء غريب كما تخلت جنوب افريقيا عن سياسة الميز [التمييز] العنصري، وعن طريق ذلك غيرت نفسها من دولة تائهة عن حضارتها إلى دولة رائدة لتلك الحضارة. وآخذين بالاعتبار

---

(١) صامويل هانتنغتون، **صدام الحضارات**، ترجمة مالك بو شهيوة ومحمود خلف (مصراته، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢) يصلح هذا القول على معنيين العضوية في الوحدة الأوروبية وأيضاً العضوية في المعسكر الغربي عموماً.



Twitter: @ketab_n

خبرتها للخبيث وللطيب للغرب في المسيحية والميز العنصري، فإن جنوب افريقيا مؤهلة على نحو خاص لزعامة افريقيا. تركيا يمكن أن تكون بشكل متساو مؤهلة لزعامة الإسلام. ولكن لتعمل ذلك عليها أن تنبذ تراث أتاتورك بشكل أكثر ضراوة من رفض روسيا لتراث لينين، وهي أيضاً تحتاج إلى قائد من صنف أتاتورك وواحد من أولئك الذين يجمعون بين المشروعية الدينية والسياسية لإعادة بناء تركيا من دولة ممزقة إلى دولة أساسية»[٣].

وهذا النص السابق بمقدار ما هو سرد حقيقي للواقع، يريد منه إمكانية ذلك ولفت الانتباه له، أو تجنب وقوعه، فهو يكشف عرضية هذه الحادثة في تركيا، وأن العلمانية ليست خياراً إنسانياً وحيداً كما يصور ذلك من يختزل المسيرة العلمانية في العالم الإسلامي والغربي. والعلمانية المتطرفة يجري عليها اليوم تغيير أو تعديل كبير. وهذه مرحلة مؤذنة بأن يفتح المثقفون المسلمون أو مثقفو بلاد المسلمين آذانهم للتغييرات الكبيرة من حولهم، وأن يتخلصوا من أوهام الحتميات العلمانية الغربية، والأفكار التي أفقدتهم أنفسهم وحرمتهم من متعة التجول الحر في ثقافتهم وثقافة غيرهم. والتشكك الغربي الكبير ليس الفكري فقط ولكن الاستراتيجي في صلاحية عقائدهم واستراتيجيتهم، وملاحظة خروج الشعوب الإسلامية من مأزق الفكر الغربي دافع مهم للبحث في مجالات الإنقاذ الإسلامية الأصيلة. وكان موقفاً نادراً أن نجد من استراتيجي غربي أن يصرح بالدور الذي دمرت به العلمانية موقع تركيا السياسي، وأوهنت استقلالها، وأضعفت شجاعة المبادرة في رجالها، للتخلص من مخاطر تركيا المسلمة وترسيخ العبودية والتبعية الشكلية باسم العلمانية.

وتنبأ كاتب ليبرالي أمريكي[٤]، قبل عشرة أعوام من وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم في تركيا، أن ينتج في تركيا توجه يجمع بين الإسلام والديمقراطية الغربية، في مجتمع يخفف من تطرف العلمانية، وتنازل

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٤) بنيامين باربر، مؤلف كتاب **الجهاد يواجه عالم ماك** يريد بالعنوان: بذل الجهد في مواجهة عالم الشركات التي تمثلها فطيرة ماك، من مطعم مكدونلدز. وهو ليس مسلماً ولا يريد بكلمة جهاد في كتابه إلا التعبير عن المواجهة الجادة.



Twitter: @ketab_n

من قبل الإسلاميين. وهذا الحدث في وصول حزب العدالة والتنمية ما هو إلا شاهد في سياق الفكرة الأساسية في هذا البحث على بدء تاريخ العالم الإسلامي، بحركات علمانية تصالحية مع الإسلام، وأسلمة للمجتمعات، وتألّف للنشاز التغربي، واستعادة للكرامة والذات التي ضاعت وراء وهم فكر غربي وعلمانية لم تقدم إلا الضياع لقيمة الدولة التركية، ولم تعطهم شيئاً بديلاً.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٢ ـ

# العلمانيـة الحسنـة والسيئـة

كنت أقضي وقتاً في مكتبات تبيع الكتب وتوفر بجانبها مكاناً للجلوس ومقهى، ويسمح المكان للحديث بين القراء، وقليلاً ما كنت أتحدث مع الجالسين ولكن مرور الوقت وتكرار الوجوه ألزم بالكلام، فوجدت من بين هؤلاء المثقفين مجموعة كبيرة يحسدها القارئ على سعة اطلاعها، وسعة أفقها، غير أني لمست في كثير منهم، أن داء الشك وعدم اليقين نخر قلوبهم، وجعلها فارغة خواء، ولاحظت أن ضعف الثقة في الحياة والناس، والقلق والخوف من المستقبل ظاهرة منتشرة بين هؤلاء. ولعل القلق العلماني وفقدان اليقين كان من أسباب الاندفاع الجنوني للبحث عن حلول، والاندفاع للعمل، وهو ما بيّن لي مقدار الضعف الذي تتسم به هذه الشخصيات، وهي سمة لكل شخصية شاكة قلقة. كما أنها بجانب الضعف عنيدة في ما لا تفهم، تؤمن بدينها الجديد. وشديدة الاحتقار للمواضعات الاجتماعية، وعندما تقول إنها لا تقدس موقفاً معيناً ولا شخصاً فهي غالباً كذلك، ولكنها تحاول صناعة آلهتها الخاصة بها بديلاً، وتتطرف في تأييد مقدسيها الجدد.

العلمانية هذه الظاهرة والممارسة حقيقة مرت بها بعض الشعوب، بدرجات مختلفة، فعلمانية فرنسا مختلفة عن العلمانية في بريطانيا أو أمريكا، وأثرها كان إيجابياً في مجمله على المجتمع النصراني الذي كان مدمراً بفساد الكنيسة والقياصرة، فسار في نهج عملي متخلصاً من قيود غير معقولة.

العلمانية في أوجها روح من الشك وعدم الثقة، والأنانية البالغة، فأما أثر الشك فهو ظاهر في المجتمعات التي لا تؤمن برب، وهي لا تؤمن أيضاً



Twitter: @ketab_n

بزعمائها، ولا تؤمن بأفكارها، ويأكل الشك قلوب الناس فيها. ومهّدت للعلمانية حركة طويلة التأثير نشرت الشك في أصول النصرانية، وطرحت على الدوائر الثقافية مسألة صحة الكتب المقدسة، ما نزع عنها مسألة القداسة، ففقدت قيمة التضحية من أجلها، وعرّتها عن الأهمية في وجود دور لها في صياغة الحياة، وهناك محاولات جادة لنقل التجربة للعالم الإسلامي بعضها جديدة، ولكنها لا تبدو مقبولة، ولا هي في سياق معقول.

أما عن الأثر الإيجابي الذي يفيد منه المسلمون فإن العلمانية فتحت باباً جيداً للمسلمين في المجتمعات الغربية، فأوجدت تسامحاً سمح لهم بالوجود، جعل طائفة من الغربيين تشعر بالحرية الفكرية وأمكنها أن تقبل الإسلام، وحين كانت امرأة يهودية تأتي بابنها يومياً لصلاة الفجر في مسجد في إحدى مدن كولورادو، كان شيئاً يصعب على المسلمين فهمه، ولكن هذه الممارسة جزء من الفلسفة العلمانية، التي غلبت على البلاد وعلى تفكير الناس، وحرية الاختيار، وتراجع دور البيت والكنيس والكنيسة صحيح إلى حد ما. وسهل الوضع العلماني على المسلمين الاستفادة من وسائل وترتيبات اجتماعية وإدارية عديدة. وبهذا نعلم أن العلمانية لها أكثر من وجه وأكثر من أثر.

وقد تؤثر عقليتها بطريقة مفيدة أو مضرة في أي مجتمع، وبعض المسلمين اليوم متأثرون بها، بلا وعي، ويستعينون بها في تفسير أفكارهم، وتقديمها للناس، فهي قابعة هناك في الموقع الذهني تؤثر، وتبحث عن جذور دينية لدورها، وقد وجدت بعض التوجهات العقلانية والسلفية منطقة مشتركة، يؤيد بعضها بعضاً في الهجوم على ثقافة الدروشة و«العرفان»[1].

فإن تكن مضرة في مكان فقد لا تكون كذلك في كل مكان، فالعلمانية الغربية في الغرب مفيدة لتلك المجتمعات وللمسلمين فيها، والتدين المسيحي مضر بالمسلمين في الغرب وخارجه، ويعيد قصة محاكم التفتيش الإسبانية، والتطهير الديني الصربي، وما القسوة على المسلمين اليوم في الغرب إلا من نتائج صعود التطرف الديني المسيحي. وإذا تصاعدت قوته فسوف يقسم

---

(١) وهذا ما يساعد في تفسير الموقف المؤيد الذي يصرح به بعض المناوئين للحركة السلفية من قبل بعض المجددين من مدارس أخرى.



Twitter: @ketab_n

مجتمعاته دينياً، ويعيد حروب الكاثوليك والبروتستانت، وحروب الكنيسة والعلم، ويعيد قصة التحالفات القيصرية الكنسية ضد الشعوب.

وفي الثقافة الغربية نمت تيارات إنسانية مؤثرة، طالبت بحقوق الإنسان، ورفع ـ ولو جزئياً ـ الضغط عن الكثير من المظلومين، وبخاصة في الدول التي لا يرتاح الغرب لموقفها السياسي، فوجد المسلمون فسحة من الأمر ومتنفساً صغيراً خفف عليهم الجور. مع أن مسألة حقوق الإنسان كانت وستبقى وسيلة ضغط غربية، لصناعة المواقف، وابتزاز الدول، وفرض العملاء، بل قد تستحل بحجتها البلاد والثروات. وتغزو أي بلد بمثل هذه الحجج، أو بحجة مضايقة النصارى، أو مضايقة أي فئة عميلة، مع أنها تسكت بل تشجع وتقوم بنفسها، أو عبر وكلاء محليين بأبشع انتهاكات حقوق الإنسان.

فقيام الـ **سي آي أيه** زمن كيسنجر بتنفيذ خطة قتل رئيس تشيلي المنتخب، سيلفادور الليندي، وإنهاء الديمقراطية في البلاد، وتنصيب عسكري مكانه «بينوشيه» يخدم مصالح أمريكا، وقتل جيش «بينوشيه» ثلاثة آلاف ومئتين من التشيليين، وطارد الآلاف الآخرين وسجنهم، وعرضهم لعمليات وحشية. ولما تصاعد النقد لموقف الحكومة الأمريكية من حقوق الإنسان في تشيلي وتحت رعايتها للعسكري الذي نصبته، أرسل الرئيس فورد، وزير خارجيته كيسنجر، لسانتياغو، عاصمة تشيلي، وألقى خطبة عصماء أمام وسائل الإعلام، ندد فيها بسلوك الحاكم العسكري بينوشيه، وبمسألة حقوق الإنسان في تشيلي، ولما سأل بينوشيه سيده عن سبب تلك الخطبة وما ورد فيها، قال له كيسنجر: لا تهتم بهذا فإنه ليس موجهاً لكم بل للعالم في الخارج، وهو فقط كلام للإعلام!!

وبسبب نقد أعضاء في الكونغرس لصمت أمريكا على انتهاك حقوق الإنسان في تشيلي، طالبوا بخفض المساعدات المقدمة لها، وقد بقي أوغستو بينوشيه حاكماً لتشيلي لمدة سبعة عشر عاماً، وحرمها من الاستقلال والديمقراطية بقرار أمريكي مباشر[٢].

---

(٢) ألف في هذا الموضوع كتب منها **محاكمة كيسنجر**، وهو معرّب، وكتاب **ملف بينوشيه** لبيتر كورنبلو. انظر: **الحياة**، ١٤/ ٧/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

وهنا من المهم أن ندرك بعض جوانب موقف الحكومة الأمريكية، والحكومات الغربية الأخرى، من مسألتي الديمقراطية وحقوق الإنسان، فهما أداتان للهيمنة كالبنك الدولي والأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات التي تقوم بدور بقاء العالم الإسلامي والثالث مخضعاً، ونائماً ومستغلاً. ويبقى أن هناك هوامش وفوائد جانبية لهذه الفلسفات والمواقف لا يغيب أثرها الحسن.

كما أن تصاعد موجات المظاهرات في الدول الغربية ضد جور سياسات ومواقف دولهم، دليل على إمكان تخلص الناس في الغرب والشرق من هذه الموجة الاستعمارية الظالمة، وسوف تصنع هذه الدعوات والمظاهرات آذاناً صاغية للعدل، وسوف تساعد على وجود أفكار جديدة وموجات مناصرة للمستضعفين. ومن السنن أن العداء السافر بين طرفين يصنع التجانس والتفاعل والأخذ المتبادل بين الخصوم، وأن هذه المجتمعات البشرية كلما اشتد عداء بعضها لبعض اشتد مقابل ذلك تأثر بعضها ببعض. فأفكار الحرية والعدل وحقوق الإنسان تصنع جذورها في كل مكان، وتقلب السحر على الساحر.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٣ ـ

# تحولات المظهر والجوهر

زار وزير خليجي جامعة القاهرة بعد تخرجه منها بثلاثين عاماً، ليرى تلك الكلية التي بعدت عن العين طويلاً، ولم تبعد عن الذاكرة، فلفت انتباهه فيها أن الطالبات في الكلية قد تحجبن، حتى قال لنفسه: أليس هناك من قبطيات لا يتحجبن!! وقال: كانت معنا طالبة واحدة فقط في الكلية تضع غطاء على شعرها. إنه لتغير كبير ذلك الذي حدث في المجتمع المسلم.

وقد يقول أحدهم هذه مظاهر وشكليات لا تدل على تغير ولا على مستقبل أحسن، فهؤلاء الذين يلتزمون شعائر الإسلام من الرجال والنساء مقصرون في كثير من جوانب عملهم، فالتزامهم الفعلي ضعيف بدينهم، وكما يرى مالك بن نبي؛ فهم يعانون أمراض الشرق المتخلف وعاداته وثقافته الميتة، كما يعانون ثقافة الغرب الوافدة المميتة.

نعم هناك خطر التمسك بالمظهر، وضعف الروح والإرادة الدافعة نحو الخير، غير أننا قبل عشرات السنين كنا نعاني ضعف الروح وضعف المظهر، ونعاني هزيمة ماحقة شاملة، في جوانب الفكر والسلوك، واليوم نستعيد جوانب مهمة في عالم الروح وعالم الخلق والمظهر والهوية، وهناك أسئلة يومية وتتجه نتائجها للتنفيذ، أسئلة عما هو لنا، ومن ديننا، ومن خلقنا، وعما هو منْ خارج ذلك، والنتيجة تقريب للحق وإبعاد للزائف.

في الرواية المشهورة لضاغجي **السنوات الرهيبة**[1] يقص كاتب الرواية

(١) ترجمها: محمد حرب عبد الحميد، وصدرت عن دار المنارة، جدة.



Twitter: @ketab_n

التاريخية التي عاشها، قصته وهو ينظر إلى الشيوعيين من نافذة قاعة الدراسة وقد ربطوا منارة المسجد من أعلاها، وشاحنة كبيرة تجر منارة المسجد، وتميل المنارة ثم تميل ثم تهوي أمام عينيه ويكاد يهوي معها قلبه! بعد عشرات السنين عادت منارات المساجد في روسيا، وعاد الأذان، وعادت الأرواح وهفت القلوب للمساجد وعمرتها مرة أخرى، وفي تلك الجمهوريات توثب للحق كبير، بعد غربة الروح القاتلة، وسنين الشيوعية الرهيبة، كما وصفها الكاتب.

في البوسنة خسر المسلمون كثيراً بلا شك، خسروا الأرواح والبلاد، وحوصر الإسلام في البلقان، وهو في انحسار من تلك القارة منذ الحلف الذي أسموه بـ «الحلف المقدس» بين ثلاث من ممالك أوروبا، ضد العثمانيين المسلمين، غير أن هذه المنطقة تشهد عودة للدين كبيرة، ووعياً نجد أنموذجه في المثقف العميق جداً الذي ندر مثاله في مثقفي المسلمين في العصر الحديث، علي عزت بيغوفيتش، وقد جمع بين المعرفة والعمل والسياسة والأدب والنقد والدين والوعي. وكان مثالاً لقومه شباباً وشيباً، وعز من الناس من يكمل، وتكوين مثله في ظروف بلده العصيبة. وكتابه **الإسلام بين الشرق والغرب** يطاول فيه أعمال كبار الكتاب. وكان المسلمون في البوسنة قد نسي بعضهم دينه وأنه من أصل مسلم فدلته منارة المسجد في القرية أو الحي أنه مسلم، وأن أسرته وجيرانه من المسلمين! استعادوا هذه الهوية على هول المذابح، يقتلون لأنهم مسلمون على الرغم من نسيانهم لدينهم. في تلك الأيام أذكر أن جالية كبيرة من المسلمين البوسنيين استعادت الاهتمام بالإسلام في أمريكا، وعادت للمساجد، واتصلت بإخوانها من شتى الأقطار، وانتبهوا للمساجد، وبحثوا عن القرآن، وبرز منهم قياديون وسياسيون في الأمم المتحدة وغيرها، ممن ولدوا في أمريكا ونسوا دهراً الكثير فأعادتهم المحنة لأمتهم!

لقد كانت المظاهر والأسماء والمنائر علامات اهتدى بها من بَعُدت به الطريق عن أمته ودينه، فمنارة المسجد، وتاريخ الأجداد، ومعنى الاسم، كان لها أثر كبير في شعوب تشردت، ونسيت واغتربت، وأضاعت الكثير، ولكن بعض هذه المظاهر والشعارات ـ التي قد يهوّن منها بعض الناس بلا وعي بقيمتها ـ كان لها أثر حاسم في مصير عشرات الألوف. إن صراع طفلة مسلمة ربما لم تصل سن البلوغ مع السلطات الفرنسية، ومع حكومتها وادعائها للحرية، وإصرار هذه الطفلة على حجابها لشيء جديد في حياة المسلمين وحياة الغرب وعلاقاته بنا! وتعالت عزة الطفلة المسلمة، وشموخها بلباسها،



Twitter: @ketab_n

وثقتها بزيها وهويتها، في وجه كل التقاليد المتغربة، وفي وجه النفاق والتعري وما تراه تخلفاً خلقياً، كان الغربيون يضعون قاعدة في التدرج نحو الإنسانية تقول إنه كلما عرج الإنسان في مدارجها لبس أكثر، فمالهم ينقلبون على قواعدهم ويخلعون إنسانيتهم، ويحاربون من يترقى فيها كما كانوا يرون!!

إني لا أنسى موقفاً طريفاً في معهد اللغة الإنكليزية في أمريكا، وكان في الكتاب الذي ندرسه نص يتحدث عن سلبيات الخمر، ومشكلة حوادث السيارات في أمريكا، التي تتم بسبب الخمر، وقد جاء دور الطلاب للحديث والتعبير عن الموقف، فتكلم طالب عربي يؤكد صحة المكتوب في الكتاب، ثم تلاه عربي آخر فأكد الموضوع، وكان هذا هو المطلوب، الفكرة وتأكيدها بأساليب وكلمات تظهر قدرة الطالب على الكلام، وما الذي حدث؟ تنبهت العجوز الأمريكية المدرسة إلى أن الطلاب مسلمون، وقد تكون فكرتهم منطلقة من دافع ديني، فأنكرت السياق كله، وتنازلت عما كانت تقوله منذ يومين، وصرخت في وجوه المسلمين: «إنكم تتحدثون بدوافع دينية»، وليس بحسب رؤية المؤلف، وليس صحيحاً قولكم، فالخمر مفيدة لصحتها والطبيب ينصحها بذلك!! سكتنا تحت طائل ثورة الحماقة، وظهور التحيز، وتركنا حق نقد الخمر للصينيين، ولمؤلف الكتاب، وللمدرسة قبل أن تثور عاصفتها وحقدها الديني وتنطلق من دينها أو تقاليدها ضد ما لمحت فيه إسلاماً وإن اتفق معها ـ سابقاً ـ ومع العقل والعلم والواقع والمؤلف!!

وعلينا أن نكبر ونقدر شجاعة النساء المسلمات على لباس زيهن الإسلامي في بلاد النصارى؛ فهي شجاعة وقوة دين، وعزة لها ثمنها من التمييز والمضايقة والطرد من العمل أحياناً. تغطية الرأس لم تكن مشكلة قبل ظهور موقف المسلمات، وانتشار لباسهن، وكذا الموقف من الخمر، ومن الخنزير، ولكن الغرب أصبح يؤذي المسلمين عمداً بسبب هذه الأشياء انتقاماً لما يراه هويته، وتقاليده ودينه، ويرى في المسلمين أمة بدأت تفرض قيمها عليه، وتقاليدها ولغاتها، ويبحثون عن مبررات للموقف بعد نفوذه.

وحتى الطائرات اليوم أصبحت تجمع المعلومات عمّن يطلب طعاماً إسلامياً على متنها، بطلب من الحكومة الأمريكية لتميز ضدهم وترصدهم حتى في الجو وعند الهبوط للمطارات، وليس كل ذلك بسبب الأمن، غير أن إهانة المسلمين يطورها كثير من المتطرفين النصارى لتكون عقيدة غربية نصرانية آملين أن يحدوا من تمسك المسلمين بقيمهم وأن تنتصر قيم النصارى الغربيين.



Twitter: @ketab_n

ومشكلة قصر الرئاسة الفرنسي مع ضرورة تغيير نظام الطعام فيه، وإلغاء وجود الخمر على مائدة الضيف الإيراني حدث شكلي مهم، يقول للنصارى هناك غيركم، ولهم دين وطرائق وخلق يجب أن تعترفوا بها. وفرنسا بلد حرية الفكر تخاف من بعض الكتب الإسلامية وتحرم تداولها، مع أنها لا تعد من كتب التطرف مثل كتب سيد قطب والقرضاوي!

وفي عالم الإسلام اليوم؛ هناك توازن فكري وروحي ونظري وعملي، روحي ومظهري، هناك وعي مادي يجتاح العالم الإسلامي، فهو لا يغرق في تصوفه، ولا يغرق في ماديته، وقد لوحظ هذا التوازن الكبير في بلدان وأقاليم شتى ـ وإن يكن الأنموذج للمسلم الذي يعيش في الغرب مهماً فإن المسلم في الشرق ليس حاله سيئاً في هذا بل هناك ممارسات وبوادر كبيرة تعمر القلوب والسلوك. وتوحي بالتوازن والثقة والقوة. فقد بدأت المساجد تمتلئ، والثقافة الإسلامية تتعمق، ومظاهر التعرف إلى قيم الأمة واستشعارها هويتها تلح على مثقفيها وعامتها. والتباين والانفصال عن المستعمرين يزيد وضوحاً مهماً حاولوا إبقاءه. فتشديد إجراءات الهجرة، ورفع راية الاختلاف مع الإسلام ليس كله سلبياً، بل جعل الكثيرين من المسلمين يبحثون عن الإسلام. إن عودة للإسلام كبيرة تجتاح العالم أجمع، وعودة للشعارات وللمظهر وللمخبر لتنبئ ببشائر خير للأمة.

## التجارة

منذ أكثر من عشر سنوات نظرت مرة في ورقة دعائية لشركة إنكليزية كبيرة، فوجدت أن الشركة الإنكليزية مملوكة لشركة عربية في مدينة جدة، وفي نحو تلك الفترة قرأت عن امتلاك بعض المسلمين لشركات نفطية أوروبية كبيرة. وهذه بادرة جديدة في حياة المسلمين والعرب بخاصة الذين كانت تجارتهم في أشد ظلمة العصور الوسطى تصل شمال أوروبا التي كانوا يتهمون سكانها بجمود عقولهم بسبب البرد!

فهناك تحول هائل نحو التجارة في العالم الإسلامي، لأن هذه الروح الكامنة قسراً وخوفاً وجهلاً ورهبة من المغامرة، وجدت متنفساً بسبب التنافس الأشد بين الصانعين، وبسبب عدد السكان والموقع، ورواج التجارة والغنى في العالم، وتكدس ثروات المسلمين، وبسبب السفر والهجرة، وتحسن وسائل النقل. وقد كانت التجارة ولما يزل بعضها محتكراً من قبل الدول



Twitter: @ketab_n

الغالبة، وكانت التجارة الحرة حكراً عملياً على الغربيين، وحريتها تقف عملياً عند حدود وقيم المستعمرين، وبواسطتها أذلوا الشعوب، وكسروا الحواجز، وعليها قامت رأسماليتهم، غير أن هذه الحمّى التجارية أصابت الكثير من المسلمين، وهي ليست شراً خالصاً، كما يحب الكثيرون أن يصفوها، فالتجارة كانت محفزاً نفسياً كبيراً لاختراق الآفاق، ومعرفة الشعوب البعيدة، وتعليمها والتعلّم منها، وتتحول مراكز النفوذ، بحسب الأسواق، فمركز التجارة هو مركز القوة[٢]. وتقوم اليوم مدن جالبة للقوة وللمال وللثقة، في بلاد إسلامية عديدة، بعضها يلوح موقتاً وعارضاً، وقد لا يكون كذلك بعد زمن، فالتجارة تتلوها المعرفة، وتتلوها المصلحة الأعم وربما الفكرة، والعلاقة، وقد كانت مكة مركز قوة تجارية قبل الإسلام، ونال أهلها نفوذاً واحتراماً لأسباب منها أنها إلى جانب القبلة هي المركز الاقتصادي، وقامت بجانبه السوق الثقافية عكاظ. ومن أسباب اختيارها مركزيتها بين المسافات في الشمال والجنوب، وإيلاف قريش لرحلتيها التجاريتين، وجاذبيتها للمجاورين، واستقرار أعراف تحمي الحقوق، وقبيلة مركزية، يدبرها ملأ ـ على الرغم من شركه ـ فقد كان يرعى قيم التجارة، ويسعى لإقرار حقوق الإنسان، الغريب والمقيم ـ كما في قصة حلف الفضول ـ ويسعى لشيء من التماسك والمساواة، ويحكم مكة رجال متكافئون، من دون وجود لمستبد.

وهذه البيئة التجارية المنفتحة على الأسواق والقيم والجوار كانت تسمح للرأي بالوجود وأن يناقش، وللقول أن يسمع، وإن كان من قبل الرسول (ﷺ) الذي يرونه في بدء الدعوة «صابئاً» في عرفهم، فقد كان الرسول (ﷺ) يسمع منهم، ثم يسمعهم، في نقاش صريح «أو قد فرغت يا أبا الوليد»، ثم يقرأ عليه القرآن. ويستمع الكافر القرشي للرأي المخالف، ويتأثر، ويحاول إقناع الملأ برؤية مخالفة لقولهم، وهذه الثقافة كثيراً ما ترعاها ثقافة التجارة أكثر من غيرها.

ثقافة الحوار هذه موجودة داخل المجتمع الغربي، ويمارسها على أرضه،

---

(٢) من الأسباب التي ساهمت في ضعف ثم سقوط روسيا موقف الشيوعية من رأس المال والتجارة، وتفسير الثروة وتوفير المال على أنه ضرب من الاستغلال للفقراء والعمال، ففقدت عنصر قوة إنسانية مهمة، حاولت تعويضه بالحديد والنار فلم تستطع، وذهب المال حيث يجد احترامه بل قداسته، فسيطرت نيويورك على جاذبية المال والغنى، وتحقق لها ـ ولو مؤقتاً ـ جاذبية قوة أخرى، بجانب قوة التدمير، وقوى أخرى.



Twitter: @ketab_n

ويحاربها في خارج أرضه، لأسباب مصلحية وتاريخية وعنصرية، هي من طبيعة الثقافة الغربية في المستعمرات التي صاغت شخصيتين للمواطن الغربي، الصالح في أرضه، والمدمر المعتدي الناهب لغيرها[٣]؛ وكنت أتحدث مرة مع عربي نشأ في أمريكا لأحدّثه عن فرصة المتاجرة في منطقة الخليج، فقال: «إنه يفكر جدياً أن يقوم بما يقوم به البريطانيون والأمريكيون هناك من الذهاب «لاهتبال» مبلغ ثم يعود ليتاجر به في أمريكا»، فقد بيّن بوضوح، بناء على الثقافة التي عاشها ويعرفها والانطباع السائد: أن عمل الغربي المناسب في خارج بلادهم النهب السريع، ثم في حال العودة للوطن يسيطر على عمله ثقافة التجارة، وهي ثقافة المنافسة، والمجايلة المنظمة، وسرد وجوه الإقناع، وهي ثقافة لازمة لبيئة السوق، غالب الأسواق. وهي تختلف تماماً عن تلك الفترة التي يهتبلها مسؤول[٤]، أو مغامر غربي في بلاد الشرق، يدبّر فيها عقوداً خيالية كاذبة، يحققها في فترة خيالية، ثم يعود بعدها محتقراً ومستغلاً مدمراً للذين نهب ثروتهم.

وشخصية العربي المسلم عبر العصور تظهر فيها ملامح التاجر، والمقاتل المعمّر، وهي صورة العصور الوسطى وما بعدها، ففي زمن فولتير كانت الصورة كما يقول: «يبدو أن محمداً لم يكوّن شعبه إلا ليصلي ويعمّر ويقاتل»[٥]. إن هناك بوادر مهمة لأسواق وتجارة عامرة في بعض المدن الإسلامية، نأمل أن يجنبها الله التدمير الغربي ومزالق الإفساد، فقد بلغ الطلب على الذهب في أسواق منطقة الخليج أكثر من عشرة في المئة من نسبة الطلب في العالم، ومتوسط طلب الفرد في العالم غرام من الذهب ولكنه في دول الخليج زاد على ١٥ غراماً سنوياً. وهناك تحسن عام في ثروة البلاد الإسلامية عموماً على الرغم من تفاوتها. وقد يساعد في بقاء تجارتها ولو موقتاً

---

(٣) يرى الغربي دائماً أن النظام والإنسانية فقط في داخل بلاده، وفي خارجها يعيش بوجه وخلق وقانون وحشي، فهو يحترم المعارضة في بلده والمظاهرات، ولكن عندما يتظاهر العراقيون ضده يوم ١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ قتلهم الأمريكيون في الشارع بكل بساطة وبرودة مهما كانوا مدنيين يتظلمون بلا سلاح، كما نشرت ذلك البي بي سي البريطانية، في نشرة أخبارها ذلك اليوم، قالت حينها أن القتلى حوالى خمسة عشر، والجرحى أكثر من مئة، **والنيويورك تايمز** قالت أن القتلى على الأقل عشرة.

(٤) مثال ذلك تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا، ثم تشيني الذي كان وزيراً للدفاع في حكومة بوش الأب، ثم تاجر بترول، قبل عودته نائباً أو زعيماً أولاً في حكومة بوش الابن.

(٥) **القاموس الفلسفي**، نقلاً عن: محمد قاسمي وشانتال داغرون، **عربي هل قلت عربي؟**، ترجمة وتحقيق فقيهي الصحراوي ([د. م.]: أفريقيا الشرق، ١٩٩٨)، ص ١١٧.



Twitter: @ketab_n

وجود نصيب كبير لغربيين في تجارة العالم الإسلامي، وفي شركاتها. والمال بيد العاقل الأبي ذي الهدف والرؤية يصنع الخير الكثير لمجتمعه. قال (ﷺ) لعمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[٦]. كما أن التجارة بمقدار ما تسبب التنافس فإنها قد تنشئ أيضاً ثقافة السلم، وجو الاستقرار، والتنافس المنظم، وتاريخ تجارة المسلمين يشهد بخلاف طبيعة التجارة الغربية الرأسمالية، القائمة على القتل والنهب والاستغلال، ولعل ذلك يكون بديلاً من تجارة الغرب المبنية على التنافس في الرعب والاحتلال للشعوب. وما حدث في العراق كان جانباً مهماً فيه السيطرة على تجارة النفط. في حكومة نفطية، ونحو ثلثي داعميها المتبرعين الكبار تجار نفط في أمريكا.

ولا ننسى أن إثارة القلق الدائم في المستعمرات، بما يضمن عدم وجود استقرار ولا غنى ولا راحة ولا تعليم ولا قيام لحياة المدنية الهادئة كان ولما يزل سياسة ثابتة للدول المستغلة، فكما يهمها وصول النفط رخيصاً، وكل الموارد الأخرى بأثمان زهيدة فإنها تستفيد من حال القلق والهزات في المجتمعات المقهورة أيضاً. وهناك جدل قديم جديد، هل استقرار المستعمرات والشعوب المقهورة في صالح الدول المستغلة لها أم لا؟ لأن شيئاً من الاستقرار ونشاط السوق يفيد الدول الغربية وشركاتها، ولكن لو دام الاستقرار والرفاهية وتقدمت هذه المجتمعات فسوف تسبب تدهوراً في الدول الغالبة، وتنحيها عن مواطن النفوذ وتتحول بعض الصناعات لمناطق الاستقرار، وكما يرى جيمس روبن إن الغنى والحرية خطرة في بلاد العالم الإسلامي، وقد تحدث عدد من السياسيين الأمريكان عن سوء نتائج سياسة الاستقرار التي تبنّوها في فترة ما في العالم العربي والإسلامي، واقتنعوا بضرورة التدخل وصناعة الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار في المجتمعات الإسلامية. ويرون أن تكاليف هذه السياسة أجدى على المدى الطويل. ولما تزل التجارة العامة وتجارة السلاح في تنافس مستمر في بلدان العالم بحسب وضع المجتمع والتهديدات الموجهة له.

دعاني صديق للغداء في «مطعم فقيه» في وسط الحي التجاري في قلب مدينة شيكاغو، ولاحظت ازدحام المطعم، وإقبال الزبائن عليه، وكانت المرة الأولى التي أسمع وأرى هذه السلسلة الجديدة من المطاعم. وهذا مغنم مهم من مغانم العولمة التجارية.

---

(٦) ورد بهذا النص في مسند الإمام أحمد.



Twitter: @ketab_n

وهذا الباب يساعد المسلمين على تحسين خدماتهم لأنفسهم، ويجعلها منافسة للسلع في أسواق العالم، واستعادة الثقة التجارية، ومراكز الأسواق المهمة، وما صعود مدينة دبي ونجاحها إلا مؤشر قد يفتح أبواباً كبيرة للنجاح. ومنطقة جبل علي الحرة، وانتشار صناعتها في العالم، وتهافت الشركات من كل آفاق الأرض عليها، وقد أصبحت سوقاً تجلب منها روسيا ومناطق من افريقيا حاجياتها الإلكترونية. وفي هذه المدينة أكبر سوق في العالم تعرض الذهب المصاغ، وقد تجد أحدث الإلكترونيات قبل عرضها في أسواق بعض الدول المصنعة.

والتجارة تفتح آفاقاً أخرى، من علاقات التأثير الثقافي والمعلوماتي الضار، ولا نغفل هنا مخاطر التجارة غير المحمية ـ من أهلها ـ وانفتاح شهية أقوياء مجاورين ـ كالهند وشركاتها الكبرى في البلاد ـ وبعداء للسيطرة على مواقع القوة والثروة. ولكنه في محصل القول قوة للأمة إن استطاعت توطين هذه الثروة، وجعلها قوة ذاتية، لمنافع هي بطبيعتها أممية بعيدة التأثير في أصقاع العالم، وبناء نسيج من قوة تنمو لحماية المكاسب التجارية، ولو كانت هذه القوة تبدأ بأقل مهارات التقنين والمفاوضة وصياغة هوية كالتعريب والأسلمة لقواعد هذه القوة الصغيرة الناشئة. وتجاهل بعض المسلمات التي تربط هذه المغانم بمصير الأمة سوف يجعل هذه القوة عارضة ومتنقلة سريعة الهروب بسهولة ولأدنى سبب. ولغة التجارة ودينها مرتبطة دائماً بالقوة وتحولاتها وبصراع الأمم ومعتقدات القائمين على هذه المؤسسات. فشركة مثل شركة البيتزا «الفطائر» دومينوز باعها صاحبها بخمسة مليارات دولار، ثم وهب المال للكنيسة التي ينتمي لها، وقال إنني أهب المال للكنيسة وأموت فقيراً. وبهذا عادت محصلة من البيتزا «الفطائر الإيطالية» الذي طعمها الزبائن ذات يوم في أي فرع للشركة لمصلحة الكنيسة والتنصير. ولهذا فليس نافلة أن نتحدث عن علاقة التجارة الناجحة بالمجتمع الذي تعيش فيه، والدين واللغة والدولة التي ترعى هذه التجارة.

* * *

من مخاطر القطيعة مع الغرب خسارة التجارة، ووجود بدائل للممرات العربية، وهذه الخسارة نتجت من طريق تدهور الأمن في المسالك التجارية بين الغرب والشرق، وبسبب العقلية العسكرية للأتراك، وتمكن عقلية قطاع



Twitter: @ketab_n

الطرق، وتردي مستوى الثقافة والصناعة والتجارة في قائمة اهتماماتهم. كما أن وجود تفسيرات عديدة للالتفاف الغربي حول رأس الرجاء الصالح، لا يلغي السبب المشهور وهو البحث عن طرق للتجارة بديلة من طرق العالم الإسلامي في المشرق العربي التي تردت، وتقطعت وأصبحت لا تستحق المغامرة بسلوكها. فوجود ممرات تجارية آمنة، ومخدومة بطريقة متميزة، لها عائداتها المفيدة للمجتمع الإسلامي، ومعقولة للمستخدمين، وبعيدة عن الابتزاز والسطو سوف يحيي هذه المناطق، مع وجود عوامل الحياة والقوة تنمو في داخل المجتمع، تكسب قوتها لممراتها، فالتجارة تجلب الثروة والاستقرار، وتطور السلع، وتكسب التاجر بعيد الغور قوة لشخصه ولأمته.

لقد كان محزناً أن نجد سفير طرابلس الغرب في لندن «عبد الرحمن» يفاوض جيفرسون، الرئيس الأمريكي لاحقاً، وجون آدمز، أهم كتّاب الدستور الأمريكي، على مبلغ مئة وستين ألف دولار، وهذا المبلغ مع بقية الجزية التي تفرضها مدينة الجزائر ومدينتان أخريان، تساوي مليون دولار، وهذا المبلغ يساوي سدس ميزانية حكومة الولايات المتحدة في ذلك العام ١٧٨٦، وهذا كان من أهم الأسباب التي دعت أمريكا لبناء وإرسال أسطولها الحربي لمدن شمال افريقيا، ودخل اسم شواطئ طرابلس في النشيد الوطني الأمريكي، أو نشيد البحرية. وكانت بريطانيا تدفع لهذه المدن الحربية مبلغ ٢٨٠ ألف دولار، جزية أو ضريبة تجارة ومرور في البحر، سنوياً قبل عام ١٧٧٦[٧]، هذه العقلية قصيرة المدى، لم تكن تلاحظ أن مغالاتها في الضرائب وتطرفها يدمرها، ولم تكن تفهم أنها أمام دول تتكون، وقوى صاعدة، وأن المبالغة في الغنيمة الخيالية العاجلة تقطع عليها طريق المستقبل. هذا فضلاً عن أن تلاحظ فرق التحسن في أسلحة عدوها، في كل معركة عن سابقتها.

كانت شجاعة الشمال الافريقي خيالية، ويصف جيفرسون مراكب وشجاعة الجزائريين وجيرانهم بأن مراكبهم غاصة بالرجال، ثلثهم أتراك والباقي مغاربة باسلون يستميتون في القتال، وهم يركزون آمالهم الوحيدة في مجانبة السفن الأخرى والصعود إلى ظهرها وكالأسود يدهمون فرائسهم

---

(٧) جلين تكر، **معارك طرابلس بين الأسطول الليبي والأسطول الأمريكي في القرن التاسع عشر**، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة (لندن: داروف المحدودة، ١٩٨٣)، ص ٩٦ ـ ٩٧.



Twitter: @ketab_n

منفردين، لا كالذئاب التي تهاجم على شكل قطعان وجماعات. ثم يلاحظ جيفرسون: «أنه لا يعرف عنهم البتة أنهم عملوا مجتمعين ولو لمرة واحدة»[٨].

لقد كانت مراقبة هذا الاندفاع الفردي والشجاعة التي تصل حداً مخيفاً، وسيلة للبحث والتفكير لدى الخصوم عن طريقة لمواجهتها، فالشجاعة المنفلتة والتمزق والمطالب غير الواقعية، دلتهم على ضعف عقول هذه المجموعات من المدن الساحلية، وكانت النتائج شديدة الأذى. فاحتلت السفن الأمريكية الشواطئ الإسلامية في البحر المتوسط. وطورت أسلحتها، وهدمت كيانات المسلمين.

يصعب علينا ولا يليق بنا أن نقول «لو» لزمن مضى، ولكن أمام أعيننا اليوم إمكان العمل الجماعي الواعي، والإفادة من درس آبائنا، بل من تجاربنا الحاضرة، لتحقيق أعلى الربح للمجتمع المسلم، والمحافظة على أعلى العائدات بأقل التكاليف المستقبلية.

جربت دول الخليج في أحد الأعوام أن تشتري بعض الأدوية مجتمعة، فوفرت هذه العقود ربع التكاليف، وهي مليارات من الدولارات، هذا فقط توفر من مجرد التنسيق في شراء بعض الأدوية، فكيف لو تناول التنسيق والوحدة أشياء كثيرة، ولو كانت مشتريات.

ولا يغربن عن أذهاننا الدواعي التجارية للغرب في العالم الإسلامي، فإسرائيل جزء من دعم الغرب لها كونها تمثل أملاً أن تكون باباً تجارياً غربياً في المنطقة، ومركزاً للتسويق، والتجارة ومنفذاً على العالم العربي، وممراً للبضائع، نحن على درب الأمم ومصطلح الحضارات، ورغبتهم الشديدة في تحقيق دورها التجاري، قد يفتح للعالم العربي والإسلامي لابتلاعها في جوفه الواسع، وما محاولاتها في فرض الهوية اليهودية للدولة، وربما بناء الحواجز إلا محاولات يائسة فاشلة، تلغي وجودها، وتلغي فائدتها للغرب، وتضع نفسها على مفترق طرق كلها مزعج لمستقبلها ومنه لدورها.

هناك السهول التي تسهل الاتصال البري في العالم الإسلامي، فدرب الحرير، ثم سكة الحديد الجديدة التي تجدد هذه الطريق بين أهم أجزائها من

---

(٨) المصدر نفسه، ص ٩١.



Twitter: @ketab_n

شرق الصين إلى غرب إيران، وقناة السويس، وسكة حديد الشرق من غرب وشمال أوروبا إلى بغداد ومصر والحجاز بعضها لما يزل قائماً وأكثرها يعمل. قناة السويس وباب المندب، ومضيق هرمز، وجبل طارق، والبوسفور، وممر خيبر، السواحل التجارية الرئيسة في القارتين الافريقية والآسيوية منافذ للمسلمين، ومعابر مهمة في شرق آسيا ووسطها وغربها وجنوبها، وشواطئ افريقيا إسلامية من أغلب جهاتها، والبحر المتوسط الذي لم تتراجع أهميته، تملك أهم منافذه، وأطول سواحله قوى إسلامية.

مرت فترات تاريخية كانت هذه الطرق بالغة الأهمية لجميع الدول، وتتراجع أهمية ذلك أحياناً، ولكن تبقى حقائق الجغرافيا فوق قدرة الناس أن يتخلصوا من آثارها. وتواصل المسلمين من خلال السفر والمتاجرة والتعرف والعبادة فاق أي فترة تاريخية سابقة، إن شهود مواسم العمرة، وتحسن عائدات وخدمات الحجاج والزوار لمؤشرات مهمة على تحول كبير في اتجاه العالم الإسلامي وتغير اهتماماته، وتنامي قدراته، وتصنع هذه المواسم المزيد من التفاهم والأخوة، ومشاعر الوحدة.

كانت سواحل الخليج العربي تعيش من تجارة اللؤلؤ، ولما طورت اليابان اللؤلؤ الصناعي، تدهورت أسواق وحياة الناس، ولكن في الفترة نفسها تقريباً بدأت اكتشافات حقول النفط على الشواطئ نفسها، وعرفت المنطقة من الثروة ما لم يخطر ببال أحد في عصر تجارتها السابقة، فالله لم يحرم العباد والبلاد من الثروات، مهما بدت لأهلها قاحلة، إنما العقل والتدريب هما اللذان يعانيان الفقر الذهني والجهل، وليس بالضرورة الأرض، ولا الزمان، كما لا تضيق الأرض فإن العقول تضيق، والهمم تموت، أما في حال فتح الانتباه للبدائل وموجات الخير فإنها لا تكف تهطل بطرق مختلفة، ويبقى أن قدرة المسلمين على الانتفاع بمواردهم أقل مما يتيسر لهم منها.

## الثروة

أرنولد توينبي من أهم مراقبي ودارسي القرن الماضي (الرابع عشر الهجري ـ العشرين الميلادي) ومد بأثره على السياسة والتاريخ وفلسفة التاريخ، ورأى في النفط وقناة السويس بوادر حياة جديدة للعالم العربي والإسلامي، من تنبؤات المؤرخ توينبي أن يستعيد العالم العربي والإسلامي وزنه التاريخي، ويرى ذلك بسبب النفط، وكان من أسباب قوته في الماضي



Twitter: @ketab_n

أنه كان أهم مصدر للطعام والقمح في العالم، واليوم النفط، ثم أيضاً الموقع الجغرافي واستعادة قناة السويس لطريق التجارة الدولية[٩].

إنها ملاحظة ذكية، شاركه فيها غير واحد من المراقبين، ولكن هذه الرغبة صاحبتها حرب ضارية، على الموارد والممرات، وبنهم وجشع غير مسبوق في تاريخ البشرية المعروف، وسموا البلاد والموارد بكل تبجح «الغنيمة»[١٠]. ولم تتغير سياسة الامبراطوريات الكبرى عبر التاريخ في التعامل مع غيرها، من الضعفاء الأثرياء، إذ يصبحون مع ثرواتهم غنائم، ما لم يبدأوا حياتهم الخاصة على طريقتهم، ويسلكوا طريقاً عملية، وغير مستفز للخلاص من كونهم غنيمة.

فهذه القوى الغربية لم تغير من طرائق تعاملها مع غيرها، على الرغم من مرور القرون عليها، وهي تتجه للاستيلاء على الأرض ومعابر التجارة، وتستولي على السياسة، بحيث يتحرك المغلوبون وفق رغبتها، ثم تستولي على الثروة. ويستعمل القاهرون هؤلاء المصطلحات القديمة نفسها من دون تغيير، فعندما يرون الغنيمة، والفرصة السانحة يرفعون شعار «المظالم الداخلية» وفساد الحاكم، وإرهابه لشعبه، في ذلك البلد، والتي صنعوها هم أو أيدوها، يوم كان الظالم يسمع ويرغب، ثم يتظاهرون بقصة «تحرير الشعب» واستعادة حقوقه، ونصر الفئة المظلومة، قصة لم تتغير وخطاب مكرر منذ أيام الاحتلال النابليوني إلى يومنا، فكلما أرادوا قتلنا وتدمير حياتنا وسرقة ممتلكاتنا رفعوا شعار تحقيق مصالحنا!! وأنهم يحررون الشعب المغلوب، ويرعون حقوقه وحريته ودينه. والدوافع في العصر الحديث غالباً كانت اقتصادية ثم دينية. إذ إن العالم الإسلامي يسبح على ثروات كبيرة في ثراه، وممرات بحرية وبرية مهمة جداً للاقتصاد العالمي. والنفط، إن استمر نمو الشرق «الصين والهند وما حف بهما» وتحسن اقتصاد افريقيا وغيرها من دول العالم، فسيكون هناك ثروات من عوائد النفط خيالية الأرقام، وتصنع قوة وعزة لأهل هذا المورد

---

(٩) محمد فؤاد شبل، «فلسفة التاريخ عند توينبي،» **المجلة**، العدد ٥٨ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١).

(١٠) هكذا سمّى النفط رئيس تحرير جريدة **نيويورك تايمز** الأسبق، واستخدم التعبير وبطريقة واسعة ومثيرة تشومسكي: «غنيمة التاريخ». ثم تتابعت عدد من الكتب تطرق على المفاهيم نفسها، وعلى خطر الغنيمة، وضرورة تجريد أهلها منها. والتي اعتبرها نيكسون خطأ الإله «تعالى الله عما يزعمون» «The Prize».



Twitter: @ketab_n

المالي الكبير؛ إن أحسنوا إدارة مواردهم. كما أن الدول الغربية التي يظهر فيها الثراء، والغنى، قد لا يمكنها الاستمرار كما هي اليوم بسبب أن الكثير من ثروتهم ليس عائداً من عمل وإنتاج حقيقي، بل هو ثمرة تجارة مالية رقمية في المال وليس في المنتجات ولا العمل، واستغلال لواردات من شعوب أخرى، بسبب القلق في تلك الدول، ونقص الثقة في بلدان المسلمين وربما غيرها، فعندما يعم الاستقرار سوف تستعيد هذه البلدان الإسلامية ثرواتها، ويزيد أمنها وإنتاجها، وتسخر إمكاناتها لما تؤمن به. بينما يكون الاستثمار الرقمي الغربي مهدداً كما هدد في عام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ بالانهيارات الكبرى. وقد لا يكون حقيقياً، فمنه جزء كبير من عائدات الربا، والإيداعات من أموال الشعوب المضطهدة والفقيرة. ويشهد الاقتصاد الغربي والشرقي مصاعب عديدة منها مشكلة زيادة تكاليف العمالة الغربية، فالصناعة هاربة للجنوب، والأموال يخفيها أهلها بفنون عديدة من فنون الإخفاء كالشركات البعيدة عن سيف الضرائب القاطع، في الدول المتقدمة.

كما أن صراع الدولار واليورو الحالي والقادم سوف يفرض حرباً اقتصادية، وثقافة سياسية واقتصادية جديدة وتحولاً مالياً لم يعهد من قبل، وقد أنذر بها كيسنجر منذ عام ١٩٩٧[١١]. وستسبب تغيراً في العملات والشعوب المهيمنة، ولو حدث أن غيرت بقية دول الأوبك العملة التي تبادل بها النفط من الدولار إلى اليورو لكانت كارثة كبيرة للدولار، ولهوت أسواق كانت مدار الاقتصاد العالمي سابقاً. وسوف تهدد هذه المشكلات القوة العسكرية التي تحمي الاقتصاد الأمريكي الحالي إلى حد بعيد. ولأن الإسلام وغيره من خصوم الغرب ليست خلافاتهم جذرية مع سياسة الأسواق إلى حد بعيد، ولسوف يجرون هم أو غيرهم تعديلات مرحلية، ليناسبهم النظام ويناسبوه.

ولأن النمط الربوي للاقتصاد وأسلوب الشركات الحديثة والعابرة للقارات قد تمكن أكثر من أي نمط آخر، وتسابق العالم نحوه، لأنه ليس في المنظور الاقتصادي للعالم من بديل، والاقتصاد الإسلامي كما ينادى به اليوم

---

(١١) انظر مقالته: «شكل العالم سنة ٢٠٠٠م،» **نيوزويك**، ٢٧/١/١٩٩٧. علماً بأن ضعف عملة البلد الذي يعتمد كثيراً على التصدير، يكون الضعف مفيداً في منافسة بضاعته لغيرها في الأسواق الخارجية، ولكن هذا على مدى لا يطول. انظر لتوضيح هذه الحال مقال لـ: موسى نعيم، رئيس تحرير مجلة **فورن بوليسي** الأمريكية، الطبعة العربية، عدد شهري (تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس ٢٠٠٣)، ص ١٠٠.



Twitter: @ketab_n

تذوق النمط الرأسمالي كله، وانسجم معه وفق تعديلات يسيرة[١٢]، وذلك لأسباب منها أن حرية العمل والتجارة هي نمط إسلامي صميم، وحرية المال وحركته ليست اختراعاً غربياً، وبنية المجتمع التجاري عميقة في حياة وميراث المسلمين، وهي بنية المجتمع المكي الإسلامي الأول، وتوارث المسلمون أنماطاً تجارية عديدة، وقامت دولة الإسلام على الدخل من عائدات اقتصاد منفتح غير مملوك للدولة كما كان النمط الإقطاعي والملوكي الغربي، الذي جاءت الشيوعية رداً قاسياً على بقاياه «في الرأسمالية» منذ أكثر من قرن. والسبب الآخر للانسجام مع نظم الرأسمالية ارتباط الثروة في العالم الإسلامي الغني بالنفط ذي النمطية الإنتاجية الأمريكية تحديداً «فقامت شركات لاستثمار هذه العائدات غربية النمط» وفاضت طريقتها كأنموذج على كل المجتمعات التي وجدت فيها، تقليداً لها، أو شعوراً بالفشل لمن يخالف صورتها.

وفي غير دول النفط تأثرت تلك المجتمعات بالنفوذ الغربي المواجه للشيوعية كما في شرق آسيا الإسلامية وفي الدول العربية التي ارتبطت بالغرب في ما بعد، والتي لم تحصد من ارتباطها بالشيوعية شيئاً ذا قيمة. وسبب مهم آخر أنه لم يتم في عالم المسلمين بناء أنموذج اقتصادي إسلامي واضح ومتميز، ما جعل البحث عنه أصعب، والتعديل والتماشي مع الأنموذج الغربي مقبولاً. ثم لسبب مهم وهو أن التجارة كانت دائماً من أهم مرابط العلاقات بين الشعوب، والتاجر يبدأ العلاقة ثم يتلوه السياسي ثم الديني. والاستثناء في هذه القاعدة هي المجتمعات التي تعيش لحظة انطلاق عقدي وفورة إيمانية بدين أو عقيدة موقدة للحماسة والعمل، ولكن هذه تفتر دائماً وتتراجع بتراجع مراكز الوقود التحريضي، ويضعفها اليأس مرة، والغرور أخرى، والتقليد والجمود. وتعود التجارة للظهور ثم السياسة ثم الدين. وتصلح شركة الهند الشرقية أنموذجاً، فقد تحولت للسياسة والتأثير ثم أنشأت جيشها، ثم حمتها القوة البريطانية، وكانت العملية الدينية موجودة في أثناء ذلك على مستوى السياسة في تغيير هوية القوى المؤثرة، مثل إبعاد المسلمين من التأثير في الهند وعزلهم، واللعب بالقضايا الدينية سياسياً، ثم إن الإرساليات لم تغب وصعدت المسيحية في الهند.

---

(١٢) أرجو ألا يفهم من هذا القول التأييد للممارسات المختلطة ـ ربوية وإسلامية ـ التي أغرقت السوق الاقتصادية، ولكن السياق هنا هو وصف لما حدث، ولما يبدو أنه سيتم في المراحل القادمة.



Twitter: @ketab_n

إن ثروة العالم الإسلامي وأسواقه الكبيرة، ونظمه البنكية الإسلامية التي بدأ العالم يعترف بها بقوة، ويعترف بتحدي هذه النظم الجديدة البنكية، وفتح فروع للتعاملات الإسلامية في بنك مثل «سيتي بنك» وفي سوق داو جونز في وول ستريت في نيويورك، لهو مؤشر ذو دلالة مهما تكن نتائج الاعتراف والقبول بموضة إسلامية مالية جديدة ونظام مختلف بعض الشيء وإن كان دخل البنية الاقتصادية الغربية على استحياء، وتبنى الكثير من فلسفة الاقتصاد الغربي، ولكنه يقول ليس هو تماماً الاقتصاد الغربي، وعنده فروق يصرح بها، وإن لم يكن منافساً مالياً جديداً، ولكن الثروة التي بأيدي المسلمين تجعل هؤلاء يتساقطون ويعدلون بعض قوانينهم لابتلاع الثروة الإسلامية في اقتصادهم وبنوكهم. قد تكون الدوافع الغربية دوافع استيعاب وامتصاص لهذه الثروات الوافدة بشعار ديني لا يضر وجوده ما دامت وفدت فوائده، غير أن من يراقب حركة التجارة التاريخية بين الأمم يلاحظ أن هذا الاعتراف التجاري ـ وهو غالبا يسبق غيره ـ سوف تكون له أهميته في تحولات النظم التجارية الدولية، وتحول الأسواق تبعاً لذلك، والثروة والقوة متلازمتان. والعاصمة التجارية في العالم كثيراً ما تكون هي عاصمة السلطة أو تتحول لها السلطة. والقبول بالطريقة الإسلامية دولياً وهذا ما يجب أن يحمل على محمل الجد من قبل المسلمين أولاً، في تقديم نظمهم وضبطها، ونشر الثقة التجارية، فوجود الثقة يعني النجاح والازدهار الاقتصادي. وحيث تضعف الثقة يسود الفقر والفساد. ولعل في المثال المعروف من أن ماليزيا تعتبر أعلى دولة في العالم من حيث الأمانة والثقة في التعامل التجاري، فإن كينيا تعتبر أقل دولة في العالم من حيث الثقة، ولهذا تحقق الكثير من الازدهار الاقتصادي في ماليزيا الفقيرة من حيث مواردها، وكان الكساد والفقر في كينيا على الرغم من غنى مواردها. وعلى الرغم من الرغبة الغربية الكبيرة أن تكون كينيا التي يحكمها نصارى ذات حال أحسن، وقد ذهب لها الكثير من الاستثمارات البريطانية وغيرها بلا جدوى تتناسب مع المحاولات.

المصعود في مراقي القوة الاقتصادية والتقنية في عالم اليوم أصبح أكثر إمكاناً من ذي قبل، وأصبح عمر التحول التقني والاقتصادي يقاس بالعقود القليلة وليس بالقرون، حتى نجد أن هناك من يرى أن عشرين سنة تكاد تكون كافية لدولة ولشعب صاحب قدرة على اتخاذ القرار أن يصعد للقوة والتأثير، وبخاصة من الشعوب التي لم ترهقها عقد المدنية الحالية في الغرب. بعض



Twitter: @ketab_n

الدول الغربية يصعب عليها أن تسابق الدول الناشئة والمجتمعات الفقيرة عندما تقرر النمو. ذلك أن غلاء العمالة الباهظ وارتفاع تكاليف العمل والصحة والتأمين والضرائب يحد من نشاط وإمكانية هذه المجتمعات على المرونة التي في بلدان أدنى حالاً. فخمسون دولاراً يومياً، لا تستطيع أسرة أن تعيش بها في مجتمع صناعي غربي. ولكن أسراً صينية عاملة ومؤثرة تعيش على ثلاثة دولارات يومياً وتنتج بضاعة منافسة. وعندما فطن الداهية الصيني «داو كيساو بينغ» وفريقه لمساوئ الشيوعية انتهجوا درباً جديدة وبطريقة لم تهز ولم تدمر المجتمع الصيني ـ كما حدث لاحقاً لروسيا على يد الزعيم الروسي غورباتشوف ـ ونظموا مجتمعاً صناعياً جديداً في منطقة قريبة من هونغ كونغ «شانزين» وبدأوا فيها نمطاً أقرب للمجتمع الرأسمالي والصناعي المنفتح، وقام هناك مجتمع صناعي متفوق حيث بلغ عدد الشركات الأجنبية المستثمرة في المنطقة تلك ٤٢٠ ألف شركة، تدير استثمارات بحجم ٤٥٠ مليار «بليون» دولار، ويتوقع أن تنسحب لها أكثر من نصف الأعمال الإلكترونية في العالم التي يقدر دخلها بـ ٣٠٠ مليار دولار، وحققت هذه المنطقة نمواً يزيد على نسبة ٢٩ في المئة[١٣]، أي إنه يتضاعف اقتصادها في مدة أقل من ثلاث سنوات[١٤].

إن هذه التحولات الاقتصادية شاهدة على التحول العالمي في الاقتصاد، ما يمكّن ذوي القرار الجاد والعزيمة من تغيير مجتمعاتهم بسرعة، وتحسين حالتها الاقتصادية للأحسن، أو الإهمال الذي يجر العكس. كما أنه يخرق تلك العقائد التي قيل إنها «مسلّمات» التي دأبت على إحباط الناس بأن النمو الاقتصادي والتقني يحتاج لقرون. إن من أهم أعمدة الثروة القدرة على اتخاذ وتنفيذ القرارات الصحيحة الصعبة والتعليم الجاد، والانفتاح على المعارف، والتعود على المهارة والإتقان في مجتمع مهتد غني بثقته وسكانه.

---

(١٣) سمير صبح، «التكنولوجيا الصينية تغزو العالم،» **الوسط** (٢٦ أيار/ مايو ٢٠٠٣).

(١٤) هناك كثيرون يشككون في إمكان صعود الصين كقوة دولية رائدة قبل أقل من قرن من الزمان، بسبب الفقر السائد.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٤ ـ

# إنما العزة للكاثر

ظاهرة النمو السكاني في العالم الإسلامي سوف تكون لها آثارها الكبيرة في مستقبل العالم، قال أحد دارسي الحضارات: «إذا كثر النسل في أمة، تعسر عليها البقاء هادئة، واندفعت إلى شن الغارات على جاراتها، ممن وقفت حركة النسل فيهن»[١]. إن عدد السكان عامل حاسم في صعود قوة الشعوب وانهيارها، وكان من مظاهر وأسباب الانهيار للدولة العثمانية قلة السكان، إذ يرى بعض دارسي المجتمعات أن المجتمع العثماني أو «الدولة العثمانية» فشلت في حصول ثورة سكانية موازية لتلك الثورة السكانية التي عاصرتها في شعوب أوروبا المناوئة لها، واضطروا أن يعتمدوا على المساعدين النصارى، ثم بتزايد الحروب مع النصارى قل واردهم من النصارى أيضاً، وللأسف فقد كان الإجهاض، والانتشار الواسع للأمراض الجنسية، من عوامل جمود الجنس التركي وقلة عدده. إضافة إلى ضعف الريف العثماني، مع الاستنزاف الحربي على الحدود، سبب كل ذلك قلة في السكان. كما أن عدم فتح أرضهم للمهاجرين الجدد، وعدم السماح باستقرار المهاجرين، قلل فرصة زيادة السكان، بينما كانت المجر ـ الخصم المجاور ـ ترحب بالمهاجرين وتفسح لهم أرضها[٢].

---

(١) جوستاف لوبون، **جوامع الكلم**، ترجمة أحمد زغلول (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م). ص ٤٥.

(٢) براين تيرنر، **علم الاجتماع والإسلام، دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر**، ترجمة أبو بكر باقادر (بيروت: دار القلم، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م)، ص ١٨٧. وانظر عن مسألة نهاية الحضارة، بسبب قلة السكان والأمراض ما حدث للهنود الحمر في القارة الأمريكية، وانهيار حضارتهم الواسعة =



Twitter: @ketab_n

ساق أحدهم مقارنة طريفة بين ألمانيا الصاعدة في عام ١٩٠٠ وألمانيا في عام ٢٠٠٠؛ فألمانيا في بداية القرن كان أكثر من نصف سكانها من الفقراء ودون الخامسة والعشرين، وفي نهاية القرن كان أكثر من نصف سكانها من الأغنياء، وفوق الخمسين، «وجوهر التغيير كان في المزاج القومي: من هوية نشطة ومثيرة للمشاعر إلى وجود مريح قعيد، وأصبح امتلاك بيت في الريف المجاور أكثر إرضاء من الاستيلاء على أراضي دولة أخرى»[٣]. «لذا فقد تحتاج الدول الغنية إلى جنود مدربين من العالم الثالث يمتد ولاؤهم إلى موعد حصولهم على الراتب التالي»[٤].

لدى المجتمع الغربي ميل شديد في هذه العقود الأخيرة للتخلص من النسل الجديد، ولذلك أسباب يكاد يعذره عليها من عرف حاله، فهناك سيادة لفكرة التمتع الفردي الأناني الذي لا يشقى فيه الفرد بسبب طفل أو زوجة، ولا تعكر عليه صرخة طفل نومه، ولا يضايق معيشته مصاريف غيره، وما دام يوفر الجنس بلا زواج، فلم النكد بالزواج كما يراه، حتى شاع قولهم: «إذا كنت ستجد الحليب فما الداعي لامتلاك البقرة!»[٥].

فلماذا يفسد حياته ويومه مع امرأة تكرر عليه كل يوم مبدأ المساواة، وتقرأ مجلات وكتباً مطولة للمجموعات النسوية مكتوبة ضد الرجال، وتؤلب عليهم الزوجات، وتحرضهن وتروّعهن من الأزواج الجبارين والنكدين والمكلفين لكل كدر الحياة. ثم تضع الكتاب أو المجلة جانباً فترى الفيلم المثير لزوجة تغامر وتهرب من زوجها أو أسرتها مع أجنبي، فتتخيل العالم فيلماً متحركاً، وترى في عالم الصور الذي يجول أمامها حقيقة واقعة، فتهرب هي لتتشرد وتغامر وتنتهي بلا زوج ولا حبيب ولا عمل ولا أمل، وواحد في الألف يجد فرصة، والباقون يسفكون العمر على شواطئ الخيال

---

= وسقوطهم تحت الغزاة بسبب قلتهم، وتلك القلة التي حدثت لهم لم تزل ميدان تفسيرات مختلفة بين دارسي حضاراتهم، انظر مقالاً بعنوان: «١٤٩١،» ترجمه شادي بطاح، عن مجلة: *Atlantic Monthly* (March 2002),

نشر في مجلة: **الثقافة العالمية**، العدد ١١٩ (تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس ٢٠٠٣).

(٣) زبيغنيو بريجنسكي، **الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم**، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤)، ص ١٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(٥) هذه التسمية شائعة ومتداولة في اللغة الإنكليزية، حتى إن جريدة بريطانية وضعتها على الصفحة الأولى ساخرةً من إمرأة شهيرة.



Twitter: @ketab_n

الذي لا يجيء، ولا يجدون حياة كريمة بسيطة!! أحدهم كان جريئاً، فقال: «أين تجدون هذه الأسرة السعيدة وأنتم تقيمون المعارك بين الرجال والنساء، وبين الأزواج». فثقافة الصراع بين جنس الرجال والنساء، والمبالغة في التحيز، إنما هي وصفات لتدمير الأسر القائمة، ومنع الكثيرين من العمل على إنشاء ما يصورونه بـ «الرابطة النكدة»!! التي كلها مواجهات في البيت، تمثل الزوجة جبهة النساء، ويمثل الرجل جبهة الرجال. فقلة الأطفال في البلاد الغربية وضع طبيعي وأثر لتقدم الحياة إلى مرحلة التعقيد، وكراهة الالتزام، والهروب من المسؤولية، وزيادة الضرائب الشنيعة، وارتفاع الأجور، والأنانية المفرطة، وسوء الأفكار، فالزوج في البلاد الغربية يعود مرهقاً، ليجد الزوجة قادمة من عملها مرهقة، والأطفال جاءوا من المدرسة أو الروضة، فتقسم بقية ساعات اليوم بينهما بالتكاليف كم بقيت مع الأطفال من زمن وكم بقي، ونهاية الأسبوع يصبح الأطفال أيضاً عبئاً متجدداً.

قد لا تكون مسيرة الغرب قطعية كما يبدو من السابق، لأن في الدولة المنفتحة فرصة التشخيص والعلاج الذاتي، والصراحة في نقاش الأزمات التي تترقب أو تحيط بهذه الشعوب، فتأذن بالهجرة، وتحاول تخفيف الضرائب عن الأسر، وتدفع مرتبات لكل مولود، وتعمل بكل طريق على زيادة النسل. فنجد إستونيا تدفع مرتباً عاماً كاملاً مع الإعفاء عن العمل لمن تنجب مولوداً، وفي أستراليا قدم أحد النواب عرضاً للبرلمان تحصل فيه الأسرة على ألفي دولار سنوياً عن كل طفل، ثم نادى في مواطنيه أن: «اذهبوا الليلة وقوموا بواجبكم الوطني». ويصرخ بات بيوكانن في النساء الأمريكيات: «يجب على الأمريكيات أن ينجبن من الأطفال أكثر إن كن يتمنين الإبقاء على الثقافة والحضارة الأمريكية.. أمريكا لا تحتاج مزيداً من العمال ـ يعني المهاجرين ـ أمريكا تحتاج المزيد من الأطفال»[٦]. ولكن هل ستحل الهجرة اليوم المفتوحة في عدد من الدول الغربية المشكلة، أمريكا وألمانيا وإيطاليا أدركت هذه العقبات، وتبنت أساليب لقبول المهاجرين وتعليمهم ودمجهم في المجتمع. وعلى الرغم من هذا لا يبدو أن الأمور تشير إلى حل على المدى الطويل، لأن العقبات الموجودة، وكيفية الحياة، سوف يعيشها الجيل القادم، وتتكرر أزمته بلا حل.

---

(٦) Patrick Buchanan, *The Death of the West: How Dying Populations and Immigrant Invasions Imperil Our Country and Civilization* (New York: Thomas Dunne Books, 2001), pp. 232-233.



Twitter: @ketab_n

الأفكار والهجرة والحروب سر تكاثر الشعوب، وزيادتها وانتشارها في الآفاق أو اندثارها. فالإسبان الذين كانوا يسكنون مناطق صغيرة في شمال الأندلس حميت عندهم القضية الدينية ونصر الكنيسة، وأثرت فيهم موجات التدين والحروب الصليبية في المشرق، والشوق لنصرة المسيحية في كل مكان، والمغامرة والتجارة وبداية العلوم البحرية، والفلكية وصراع المفاهيم في الكنيسة، وتحدي الحياة الإسلامية التي بلغ بها الحال أن تضرب فتدبر، ويهرب رجالها لمعاقل في الداخل، معاقل أكلها الفقر والجمود والجهل والأمية، وخمول الحياة الإسلامية، سمح هذا كله بجانب عوامل أوروبية وكنسية أخرى للأسبان أن يخرجوا في الآفاق، يجتاحون بلاداً فرغت من الروح، وضعفت فيها الحمية، وترهلت فيها الأبدان، وخنعت العقول تحت ثقافة الجبرية، وتطبيق حكم الخنوع والسلبية والتواكل مثل: «نأكل القوت وننتظر الموت»، أو عزلة موتى الهمم المنطوين على أهداف صغيرة تافهة «نفسي نفسي» ولا يعلم من يروج لهذه الثقافة أنه يميت نفسه حياً وميتاً، ويجتهد في تدمير مستقبل أمته. والعقلية الانعزالية عقلية سخيفة، تفكر ضد التوجه الانفتاحي المجتاح الكامن في طبيعة الإنسان، فهي إن غلبت على شخص، تحوله ليكون ضحية للمنفتح المبادر المغامر. ويصعب أن نجد بينهما وسطاً.

ووقعت الأمة تحت سلاطين الاستبداد، والخنوع والخوف من كل شيء، فكانت رحلة الغزاة الإسبان ثم البرتغاليين في بلاد المسلمين الأندلس فاجعة مدمرة، ثم اجتاحوا شمال افريقيا، ثم واصلوا الهجرة للعالم الجديد الواسع الذي امتلأ فجأة بالإسبان، ونصّروا البلاد وقتلوا المخالفين ومحوا الديانات والحضارات الأمريكية الوسطى والجنوبية وأجزاء من أمريكا الشمالية. لمع فجر إسبانيا وتوسّعت قواها، وهبت الكاثوليكية وقليل جداً من العلم والسلاح والسكان. فانكمش عالم المسلمين، وحوصرت تجارته، وقتل سكانه، وخافوا وهربوا لإخوانهم الذين أذاقوهم مر العذاب وربما قابلوهم أحياناً بمذابح كالتي فروا منها.

تُنهي الأمية والخوف وجود الأمم، إن لم تفعل بنسلهم فإنها تفعل ذلك بأفكارهم وأخلاقهم، وبهذا تنتهي الأمم، ونهاية حضارة ليست نهاية الجنس، بل نهاية ثقافتها. فأولاد الهنود الحمر في كل مكان، وأولاد حضارات المايا والأزتك موجودون في أمريكا الجنوبية، ولكنهم اليوم نصارى إسبان!! مثلهم مثل أبناء المسلمين الذين هاجروا لأمريكا الجنوبية اسمه عبد الله وناصر



Twitter: @ketab_n

وسعد ومحمد الذي يحولونه تلطفاً مع الجو الكاثوليكي ليكون «أمادو» وقد تنصّر، وتنافس في الإكوادور على الرئاسة زعيمان كلاهما من أصل مسلم وقد تنصرا.

زيادة السكان ظاهرة مهمة في حياة الشعوب والأمم، فحيث يزيد السكان وتضيق بهم الآفاق يجدون دروباً للتوسع والانتشار، يقتحمون أرضاً جديدة وآفاقاً أوسع، ويسلكون طرقاً للعيش مختلفة، والمهاجر إما أن يكون ذا ثقافة قوية غالبة مفسرة لما حوله أو يكون ضعيف اليقين وخالياً من الثقافة القوية والدين العميق، والمهاجرون الذي غزوا بلاداً وثنية أو شبه وثنية غلبت دياناتهم على الشعوب الأخرى. فسرعان ما اقتحمت النصرانية أوروبا الوثنية ونصّرتها. وهكذا القبائل الوثنية التي كانت في أغلب مناطق افريقيا ـ عدا الشمال ـ استجابت لنداء الإسلام، وللنصرانية، وجاءت لهذه الأديان على أيدي المغامرين والمهاجرين والدعاة.

وكان الانفجار السكاني في الجزر البريطانية التي رافقتها نزعات دينية تطهرية كبيرة من أهم أسباب الهجرة وتكوين الدول والمستعمرات خارج بريطانيا. فالزخم السكاني هو الذي صنع المستعمرات الكبيرة في التاريخ مثل أمريكا وأستراليا وبقية المستعمرات ومن جعل الهند والصين قوة ضاربة. مقارنة مع شعوب تذوي وتموت. وفي إسبانيا التي عرفت عصوراً من الازدهار والتكاثر السكاني رافقه تعصب ديني، وسخط على المسلمين وعلى الوثنيين في العالم، ورافقه هوس تجاري وشعور كبير بأساطير القوة والنفوذ والسيطرة على العالم. وجلب الإسبان الذهب من أصقاع أمريكا الجنوبية الواسعة، وانتشروا بسفنهم ومسيحيتهم وشبابهم، وأصاب الهلع شعوباً راكدة ميتة جاهلة في تلك القارة، حتى إن مغامراً واحداً إسبانياً معه مرافقان يقيم دولة في الشواطئ الغربية للقارة الأمريكية الجنوبية.

إن زيادة عدد السكان المسلمين وتدريبهم تدريباً عالياً وتعليمهم، وزرع الثقة والدين والكفاءة، وتوفير كل وسائل القوة العلمية والخلقية والروحية لهم، سوف تجعل منهم قوة منقذة صالحة، تنشر الأمن والسلام والمعرفة في العالم. والخوف غير المبرر من تزايد المسلمين وتعلّمهم ومعرفتهم وتجارتهم هو السبب في وجود ظاهرة الحصار الأوروبي على الإسلام، وجعل الحدود الدولية سجوناً ضد المسلمين وبخاصة شواطئ أوروبا، وإغلاق منافذ الحياة في وجوه المسلمين بكل طريق. وسوف يستخدم المتعصبون النصارى قضايا



Twitter: @ketab_n

مثل تهم الإرهاب، والأمن والتغيير السكاني والديني واللغوي في طريق تعويق الحياة الإسلامية، والنفوذ الثقافي والتجاري للمسلمين. وسوف يتعصبون ويقتلون ويدمرون، ومقاومة هذه الموجات العمياء بمزيد من المعرفة والرحمة والنبوغ وحسن الإدارة للمواقف، والعمق الإيماني سوف تخفف من الشرور على الجانبين وتُدخِل الطرفين في تفاهم بناء لا يقصي المسلمين من المشاركة في غنائم وهبات الله للناس في كونه، وعلى المسلمين تجنب إثارة هؤلاء الحمقى الأقوياء.

ويؤكد تي إس إيليوت أهمية الدين في نمو الأمم، وإعطائه الأهمية والمعنى لحياتها، يقول: «إن قوماً بلا دين سيجدون في النهاية أنهم لا يملكون شيئاً يحيون من أجله»[٧]. فالدين يحيي الروح، ويصنع الهدف، ويوقظ الهمة، ويكثر النسل، والأسرة المتدينة غالباً أسرة كبيرة، عند المسلمين وعند اليهود وعند النصارى، فقد كان معدل الأطفال لليهود المهاجرين المتعصبين في نيويورك يزيد على عشرة أطفال، في منطقة نيو اسكوير في نيويورك ـ ويُعد بعضهم العلمنة في الأسر اليهودية سبباً لانقراض وجودهم في مناطق من نيويورك ـ وهكذا عند الأسر المتدينة في روسيا مقارنة بالأسر الشيوعية، والأسر الأكثر التزاماً بالمسيحية في ولاية تكساس أكثر في معدل سكانها من غير المتدينة، فحيث تنتصر أو تزدهر العلمانية تتراجع الأسرة ويموت السكان[٨]. ومن شواهد ذلك الفرق بين الأحياء المحافظة في إسرائيل والأحياء المتدينة، وبين معدل الأسرة العلمانية في كاليفورنيا والأسرة المتدينة فيها أو في غيرها. والإيمان يصنع القوة والتماسك وبقاء المدنية والتجانس السكاني والثقافي، ونذكر قول غربي آخر: «عندما يذهب الإيمان تسقط الأشياء متناثرة، ولا يستطيع المركز التماسك ـ أو الإمساك بها»[٩].

يطالب زعماء العالم الغربي بزيادة عدد سكانهم، وتكثير مواليدهم، والاستثمار في تعليمهم، ويرون ذلك من أسرار تقدم دولهم قديماً، وسر قوتها وانتشارها: فتحت عنوان: «استثمروا في التنمية البشرية» كتب الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون «لقد فهمت النمور الآسيوية أن أهم عنصر للتقدم هو

---

(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.



Twitter: @ketab_n

العنصر البشري، وقد ساعدت وفرة العنصر البشري في الولايات المتحدة على تقدمها، بالإضافة إلى طبيعة الشعب الأمريكي ومستوى التعليم فيه»[١٠].

من المحزن وقوع بعض مثقفي المسلمين ودارسي الاقتصاد ضحية لنظرية «مالتوس»، التي تناقش محدودية الموارد وتزايد السكان، ثم يضعونها في أشكال رياضية وأرقام تروّع المسلمين من أن زيادة عددهم سوف تنضب موارد الأرض، ويموت أولادهم جوعاً، ولا يتنبه هؤلاء إلى أن الغربيين يقنعوننا برأي مالتوس، ويحاربون هم تطبيق رؤيته، فهم الأكثر استهلاكاً للموارد، وهم الأكثر بحثاً عن زيادة السكان. ثم إن النظرية خاطئة في كثير من جوانبها. وقد تبين الآن أن الكثرة والعلم سبب في تزايد الموارد ومضاعفة الإنتاج النباتي والصناعي.

وينسى بعض مثقفينا وهم مستهلكون استهجان الغرب للزيادة السكانية عندنا، فيسلمون لهم ويؤمنون بنظرية مالتوس وبالخطاب الإعلامي الموجه لنا، وينسون حرص الغربيين على زيادة سكانهم، وحرصهم على نقص السكان عندنا، ويلبسون الأمر لباس التنمية، وإنما يسعى الغرب لجانب مهم من جوانب القوة. والعالم عندما يقدر قوة بلد ما فإنه يلاحظ عدد السكان، فالصين والهند لهما مستقبل بسبب السكان وليس الأرض. وأستراليا أرض بلا سكان وكذا كندا.

أما ربط التخلف بزيادة السكان فهو خداع صريح، ولو كان صحيحاً لما كانت الهجرة المتزايدة همَّ أمريكا، إذ تشهد ملاعب الكرة في كاليفورنيا ونيويورك الآلاف وهم يقدمون الولاء ويحصلون على الجنسية كل شهر! وفي المدن الأصغر قاعات واسعة مليئة بالمتجنسين الجدد، وتفتح دول أوروبية بلادها للهجرة النوعية «للعقول» التي تنسجم معها وتخدم مستقبلها، وتخاف كثيراً من هجرة المسلمين الذين يبقون على علاقاتهم بدينهم وأممهم، وتحب المهاجر المنقطع لها. وهناك سباق سكاني بين أوروبا وأمريكا، وبين أمريكا وخصومها المتوقع ظهورهم في آسيا.

والذين يتدبرون مسيرة الأمم، ويفسرون صعودها وقوتها يربطون ذلك

---

(١٠) ريتشارد نيكسون، **الفرصة السانحة: قراءة في الفكر السياسي الأمريكي**، ترجمة أحمد صدقي مراد (القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٢). والاستثمار هنا يعني التدريب والتعليم والصحة والتغذية، ولكنه أكد أيضاً على العامل العددي.



Twitter: @ketab_n

بعدد السكان؛ فالقوة توجد حيث يوجد من تتوافر له عناصر الحياة الروحية والعلمية والعقلية، ويجد من يحارب ومن يتاجر ومن يصنع ومن يهاجر ومن يغزو، ومن يقود ومن يعلم ومن يتعلم ومن يعظ.

ولم يكن للحضارات أن تقوى وتسود العالم وهي تعاني قلة السكان، أو ضعف نوعهم، فالقوة عدد وعدة «روحية ومادية»، ولو كانت جزيرة العرب تعاني قلة السكان، وضعف الرجال لما قام الميلاد الأول للقوة الإسلامية، ولما وجد الحق مُبلِّغاً. فقد كان المسلمون قادرين على ملء البلاد بالرجال والنساء، وعلى ملء القلوب بالإيمان والأمل، وعلى خطف الأبصار والعقول بالإعجاب بالعدد والإنجاز، فأسلمت الشعوب وتعرّبت.

أما الذين يطالبون بتقليل عدد السكان في العالم الإسلامي، فالطلب يأتي من دول ومنظمات غربية صريحة في انتمائها للمصالح الغربية، والذين يقومون بالعمل في البلاد العربية هم مؤسسات مزروعة لتحقيق مصالح الغربيين في العالم الإسلامي، وتتلقى كثير منها دعماً سنوياً من مؤسسات ودول غربية، ومهمتها أن تطالب المسلمين بتقليل عدد السكان، ففي مؤتمر القاهرة للسكان كان همُّ الأمم المتحدة تقليل السكان، بأي طريقة، وبخاصة في العالم الإسلامي!!

وكانت المنظمات التي تعمل على تقليل عدد السكان، وتوزيع أدوات منع الحمل، وجعلها رخيصة وميسورة للمسلمين، والدعوة لاستبدال الزواج والأسرة بنشر اللواط وحماية اللوطية، والدعوة لعلاقات جنسية من دون ذرية، والتكريه في قيم الأسرة، وعيب من لديه ذرية كبيرة.

علماً بأن أمن وقوة وتنمية ومستقبل الشعوب الإسلامية يعتمد إلى حد كبير على وفرة السكان، وتعدد قدراتهم، وتطور إمكاناتهم، وتعليمهم ـ ولا علاقة لكثرة العدد بالإخفاق التخطيطي، فهناك دول صغيرة جداً وفاشلة جداً، وهناك عكس ذلك، بل العدد الكبير هو الذي يساعد على النماء والتكامل، ويوفر القوة على تحقيق القوة والحماية والتأثير. وهو المقياس الذي يقيس به العالم مستقبله. ومهما يكن النوع جيداً، والعدد قليلاً، فلن تكون لهم قدرة على مواجهة الأمم الشرهة، الكثيرة العدد المتعددة الخبرات.

ويفسر بعض المؤرخين سرعة سيطرة الأوروبيين على الأمريكيين الأصليين بسبب أنه أصابت الهنود أوبئة هائلة التأثير، مثل الطاعون والجدري، ما جعل



Twitter: @ketab_n

المدن والقرى خالية من سكانها، ومفتوحة أمام الغزاة، وأبقت أولئك الذين كانت لهم حضارات ومدن مجموعات فقيرة مريضة لا تستطيع حتى دفن موتاها، ولم يغن عنهم إن كانت لهم حضارات ومدن كبيرة مثل عاصمة الأزتك التي كان سكانها أكثر من سكان باريس في عام ١٥١٩ التي كانت ـ آنذاك ـ أكبر مدن أوروبا، وقد فوجئ الأوروبيون بمدينة ذات بنايات منحوتة، وأسواق مزدهرة وحدائق، مما لم يكن معروفاً في أوروبا[١١]. ولكن الأمراض المعدية دمرتها، وهلك سكانها، وضعفوا فاجتاحهم الإسبان والأوروبيون الذين خرجوا ظافرين من حروب كثيرة، منتعشين بأعداد هائلة من السكان. ويسجل التاريخ ظاهرة متكررة أن الغزاة المنتصرين يزيد سكانهم بعد الحروب المظفرة.

أما زمن ضعف المسلمين الذي نراه ينقشع ـ إن شاء الله ـ فقد قتلت الأمراض والجوائح الناس مثل الطواعين والمجاعات، فتاريخ زمن انحطاط المسلمين كان مليئاً بهذه المصائب إلى عهد قريب، إذ كان الطاعون يفتك بمدن كبيرة مثل دمشق والقاهرة والجزائر وبغداد، فطاعون عام ١٨٣٠ في بغداد قتل ثلاثة أرباع السكان في المدينة نفسها فقط[١٢]، وكان الطاعون يفتك بمدن شمال افريقيا بشكل دوري، وقد ينزل ببلد ويستمر قرابة ست سنوات، كطاعون مدينة الجزائر بين عامي ١٧٩٤ و١٨٠٠[١٣]، وطاعون مدينة تونس عام ١٧٠٥ قيل إنه أهلك ثلث سكان البلد، وقيل أقل من ذلك[١٤]. وكان مشهوراً في بلدان عربية وإسلامية كثيرة ظاهرة انقطاع الأسر، ونهاية سكان بعض القرى بسبب الأمراض المعدية والمجاعات.

وعندما حدث الانفجار السكاني الأوروبي واجه بلاد المسلمين، وكانت غارقة في الأمراض والجهل وقلة السكان، وضعف التماسك، فكانت هدفاً سهلاً ورخيصاً له. وقولهم أحياناً: إن هناك بلاداً شاسعة من دون سكان لم يكن القول خالياً تماماً من الصحة، فكانوا قلة، ثم إن العدد الكسول الأمي

---

(١١) انظر مقال بعنوان: «١٤٩١،» ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٢) انظر: حنا بطاطو، «حول التنوع في الشعب العراقي،» في: **الشرق الأوسط الحديث** (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦)، ج ٣، ص ٢١٢.

(١٣) عن الطواعين التي كانت تصيب الجزائر كتب كثيرون من الجزائريين والغربيين، وأبو رأس الناصر الجزائري أحد علماء الجزائر المشهورين ألف كتاباً سمّاه: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**.

(١٤) لوسات فلانزي، **المغرب العربي قبل احتلال الجزائر** (١٧٩٠ ـ ١٨٣٠)، نقله إلى العربية حمادي الساحلي (تونس: سراس للنشر، ١٩٩٤)، ص ٢٨ ـ ٢٩.



Twitter: @ketab_n

المريض يكاد أحياناً ألا يكون شيئاً، أو هو لا يزيد على كونه طاقة خامدة تترقب من يأتي ويفيد منها، ولهذا رأينا الغربيين يستوردون الناس والنفط، ولا تزيد قيمتهم على كونهم مصدر «طاقة» أو يسمونها طاقة العمل. ألا تستغربون هذه الجزيرة البريطانية تستعمر العالم؟ وهولندا الجزيرة الصغيرة تستعمر إندونيسيا؟ وبلجيكا تستعمر في وسط افريقيا!! التعليم والعدد، أو الرجال والغايات، أو الناس والأفكار، سر مهم لحركة التاريخ.

«تعداد السكان عدة المخطط ودارس المستقبل». وأحصى الرسول (ﷺ) سكان المدينة وكل نفس مسلمة، في أول سنوات الصعود السكاني للمدينة وللمجتمع الإسلامي، ولمستقبل كونها مبعث حياة جديدة وعصر جديد في تاريخ العالم. وحث (ﷺ) على كثرة السكان المسلمين، وامتن الله على المسلمين بنعمة الكثرة فقال: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[١٥]. فجمع لهم نعمة الكثرة، والأمن والمنعة والرزق، وقال: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾[١٦]. فامتن عليهم بتبدل الحال السيئة حال القلة إلى خير الصلاح والكثرة، وتلك قوة ومثوبة، وأشار لحال المفسدين بما يدل على أن انحسار عددهم آنذاك كان عقوبة على فسادهم، وخصومتهم للصلاح. وحث (ﷺ) على الزواج، وأشار إلى أهمية النسل في مكاثرة الأمم، ولعل في قوله (ﷺ): «إنكم اليوم على دين وإني مكاثر بكم الأمم فلا تمشوا بعدي القهقرى»[١٧] ما يوحي بترابط الدين بزيادة العدد ومكاثرة الأمم.

فالناس وكثرتهم غالباً قوة، وعندما نقيس القوى العالمية اليوم فإننا نعطي أهمية كبرى للسكان ومساحة الأرض، والمعرفة، وتحسن الأوضاع الاقتصادية والصحية والاجتماعية، والكثرة مع الفساد وعدم الفكرة، أو انحرافها لا ينتفع بها الناس: ﴿**ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ . إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١٨]. ويقدر بعض

---

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٢٦.

(١٦) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ٨٦.

(١٧) في **المسند** عن جابر.

(١٨) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآيتان ١٨ ـ ١٩.



Twitter: @ketab_n

الدارسين عدد العرب قبل مئتي عام بنحو عشرين مليوناً، وبعد هذا يزيد العدد اليوم على مئتين وستين مليوناً[١٩]، من العرب، وهذه الزيادة تكاد أن تعم العالم الإسلامي كما يلاحظ في النصوص التالية، والتي لها أهميتها في مستقبل العالم الإسلامي.

«في عام ١٤٩٠ كان الغرب يحكم القارة الأوروبية التي تعادل مليوناً ونصف المليون ميل مربع. من مجموع مساحة اليابسة البالغ ٥٢ مليوناً ونصف المليون ميل مربع، وفي أوج السيطرة الغربية عام ١٩٢٠ كان الغرب يحكم ٢٥ مليوناً ونصف المليون ميل مربع، أي ما يقرب من نصف مساحة الأرض، مع عام ١٩٩٣[٢٠] انكمشت هذه المساحة إلى النصف تقريباً، أي ١٢ مليون وسبعمئة ألف ميل مربع، وعاد الغرب إلى حجم أوروبا الأصلي وإلى المساحات التي سكنها الغربيون في الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلاندا، وعلى عكس ذلك فإقليم المجتمعات الإسلامية المستقلة ارتفع من مليون وثمانمئة ألف ميل عام ١٩٢٠ إلى ما يزيد على أحد عشر مليون ميل مربع. وحدثت تغيرات مشابهة في السيطرة على التفوق في عدد السكان، ففي عام ١٩٠٠ شكل الغرب ما يقرب كثيراً من ٣٠ في المئة من سكان العالم، وسيطرت الحكومات الأوروبية على نحو ٤٥ في المئة من سكان العالم، ثم ٤٨ في المئة من سكان العالم عام ١٩٢٠، وفي عام ١٩٩٣ كان الغرب لا يسيطر على مستعمرات فيما عدا منطقة هونغ كونغ، أي ليس هناك حتى ١ في المئة من سوى الغربيين يخضع لهم. ووصل الغربيون إلى ما يقارب ١٣ في المئة من سكان العالم، ويتوقع أن يصلوا إلى ١١ في المئة عام ٢٠٠٠. ثم في عام ١٩٩٣ جاء الغرب في المنزلة الرابعة بعد الحضارات الصينية والإسلامية والهندية»[٢١].

وهنا تلخيص آخر من بحث ناقش هذا الموضوع:

(في ١٩٦٠ كان عدد الغربيين ـ أوروبيون وأمريكان وأستراليون وكنديون ـ

---

(١٩) سعيد محيو، «ثلاث مدارس وأزمة واحدة،» **الخليج**، ٥/٧/٢٠٠٣.

(٢٠) استمرار استخدام تاريخ سنة ١٩٩٣ لأنه قبيل نشر المقالة الأولى له، ثم أعد كتابه بعد ذلك بثلاث سنوات.

(٢١) صامويل هانتنغتون، **صدام الحضارات**، ترجمة مالك أبو شهيوة ومحمود خلف (مصراته، ليبيا: الدار الجماهيرية، ١٩٩٩)، ص ١٧١ ـ ١٧٢.



Twitter: @ketab_n

٧٥٠ مليوناً، وهو ما يعادل ربع الثلاثة بلايين (مليارات) من سكان العالم [ذلك] اليوم، وبعد أربعين سنة أطل عام ألفين وقد تضاعف عدد سكان العالم وبلغ ٦ مليارات إنسان، ولكن أعداد الغربيين في المدة التي تضاعف فيها سكان العالم قد بدأت في الهبوط: وكان القرن الجديد يطل على شعب واحد فقط من بين شعوب أوروربا السبعة والأربعين وهو يحافظ على معدل مواليده هو شعب ألبانيا المسلم!

ويجادل أحد الباحثين في صحة التوقعات التي تبنى على دراسات اليوم، ويرى أن ما يتحدث عنه الناس من انفجار سكاني عالمي في بعض البلدان قد يتحول إلى مجرد فقاعة وهمية لا خوف منها ولا خطر مستقبلي على الغرب من آثارها، ذلك أن الدول التي سجلت أعلى معدلات السكان تتراجع وبسرعة وبخاصة في العالم الإسلامي.

المعدل الذي يجعل معدل رقم السكان ثابتاً هو ٢,١ في المئة ولكن معدل دولة مثل إيطاليا عام ٢٠٠٠ كان ١,٢ في المئة، وألبانيا التي كان معدل زيادة السكان فيها أكثر من خمسة أطفال للمرأة عام ١٩٧٠ أصبح يزيد قليلاً على طفلين في عام ١٩٩٩، وهذا مؤشر يريد منه الكاتب التأكيد على أن زيادة عدد المواليد مرتبط بالوضع الاجتماعي، حيث إن القرى والفلاحين يزيد عدد أطفالهم على غيرهم. وكلما تمدّن الناس وتعقّدت حياتهم قل نسلهم، وأن مصير المسلمين هو مصير غيرهم. ففي مصر قل معدل نسبة الإنجاب للمرأة المصرية من خمسة ونصف تقريباً في عام ١٩٧٠ إلى نحو ثلاثة ونصف في عام ١٩٩٩، وفي الأردن كان معدل الإنجاب للمرأة الأردنية ثمانية أطفال في عام ١٩٦٠، ونزل هذا المعدل ليكون ثلاثة ونصف اليوم، وفي تونس وإيران العدد يقارب طفلين للمرأة، ويرد هذا على الذين يتحدثون عن أسطورة الإنجاب عند المسلمين، أما في إسرائيل فقد كان معدل الولادة عام ١٩٥٠ أربعة أطفال، واليوم ٢,٧ للمرأة الواحدة. وفي كوريا كان المعدل وقت الحرب الكورية في الخمسينيات الميلادية ستة أطفال واليوم ١,١٧، أي أقل من المعدل في أوروبا الغربية[٢٢]. ثم إذا لاحظنا زيادة الهجرة للغرب فإن هذا رأي مضاد يستحق التأمل.

---

(٢٢) Donald McNeil, Jr., «Demographic 'Bomb' May Only Go 'Pop!',» *New York Times*, 29/8/ 2004.



Twitter: @ketab_n

## ماذا عن المستقبل؟

على الرغم من أن استقراء المستقبل يتم من خلال منظار الحاضر الذي قد تطرأ عليه عوامل وتحولات طارئة وغير محتسبة في الاستقراء، إلا أن الوضع القائم إن استمر فإن المتوقع بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٥٠ أن ينمو عدد سكان العالم بزيادة تبلغ ما بين ٣ مليارات إلى أكثر من ٩ مليارات إنسان، ولكن نسبة الزيادة المتوقعة هذه البالغة ٥٠ في المئة ستحدث بكاملها في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، وستكون سلالة ١٠٠ مليون نسمة من الأوروبيين قد تلاشت من الأرض!

في عام ١٩٦٠ كان أسلاف أوروبا يشكلون ربع سكان العالم، وفي عام ٢٠٠٠ كانوا يمثلون سدس سكان العالم، وفي عام ٢٠٥٠ سوف يشكلون عُشر سكان العالم فقط!

إنها إحصائيات العرق المتلاشي.

أصدر قسم السكان الرسمي في الأمم المتحدة في ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠٠١ كتاباً بعنوان **توقعات سكان العالم**، وهو خلاصة المراجعات والدراسات السكانية التي قامت بها المنظمة في عام ٢٠٠٠، وورد في الدراسة أن مجمل عدد سكان أوروبا (من آيسلاندا إلى روسيا) في عام ٢٠٠٠ بلغ ٧٢٨ مليون إنسان، ولكنه بحسب معدلات المواليد سينهار إلى ٦٠٠ مليون إنسان بحلول عام ٢٠٥٠.

تحدد شكل كل من فرنسا وأوروبا بشكل حاسم خلال الحقبة ما بين القرن التاسع أو العاشر، وعام ١٤٥٠. وهذه القرون هي مفتاح التاريخ الفرنسي.

لم يكن بوسع أوروبا أن تكون وحدة إلا لأنها قد مثّلت الملكوت المسيحي. لكن الملكوت المسيحي، ومعه أوروبا ما كان يمكن لهما تأكيد هويتهما إلا ضد آخر ما. فالإسمنت الأقوى الذي يربط أي جماعة أياً كان نوعها هو المعارضة لطرف ثالث، وهكذا فقد لعب الإسلام بطريقته دوراً في نشوء أوروبا، ومن هنا أهمية الحملات الصليبية[٢٣].

(٢٣) عدد كبير من المؤرخين والمفكرين الغربيين يرون في الحملات الصليبية فائدة كبرى في تاريخهم، منها وحدة النصارى ضد المسلمين، وتفاهم الأوروبيين فيما بينهم لمواجهة العدو، وكثرة النسل، والاطلاع على أفكار الحرية الدينية عند المسلمين، «حركة إعادة التكوين المسيحي التي سميت الإصلاح الديني. تحسن أدوات الأسلحة واختراع الجديد منها، والهجرة غرباً واقتحام البحار والقارات الجديدة عليهم».



Twitter: @ketab_n

ويعد «الواقع الديمغرافي» العامل المحتل للصدارة. ويلاحظ أن فرنسا خلال فترة الصعود هذه «على الرغم من كل التقلبات المسجلة، لم تعان فرنسا قط مرة أخرى من تقهقر كارثي كتقهقر ١٣٥٠ ـ ١٤٥٠. ولم تحدث ضربة قاتلة قط، ولم تنفتح هوة تبتلع ثلث أو نصف السكان الفرنسيين، وحتى تحدث اليوم كارثة كهذه، لا بد للمرء من أن يتصوّر ـ مثلما يتصور ذلك عدد قليل من الناس ـ كارثة نووية تتاخم حدود فناء العالم».

ألمانيا أنموذجاً: هذا هو المستقبل الذي يصعب على شعب ألمانيا الآن تأمله. فبحلول عام ٢٠٥٠: سوف يختفي ثلاثة وعشرون مليون ألماني من سكان ألمانيا الاثنين والثمانين مليون نسمة، سيصبحون تسعة وخمسين مليوناً، وسيهبط عدد الأطفال الألمان ممن هم دون الخامسة عشرة إلى ٧,٣ ملايين. سيكون ثلث سكان ألمانيا فوق الخامسة والستين، وسيفوق عدد المسنين هذا عدد الأطفال الألمان بنسبة تزيد على مسنين اثنين مقابل كل طفل[٢٤].

يرى بعض الكتاب أنه بدخول تركيا الوحدة الأوروبية سوف تصبح نسبة المسلمين إلى سكان أوروبا شخص مسلم من كل عشرة من السكان، ويتحدث أحد أساتذة أوكسفورد عن الوجود المتزايد للمسلمين في أوروبا، وعن المسلمين المغاربة في إسبانيا، والجزائريين في فرنسا، والأتراك في ألمانيا، والباكستانيين في بريطانيا، ويقول: «إنني فقط اشتريت جريدتي من بائع مسلم، وملابسي من مغسلة لمسلم، وأحضرت علاجي من صيدلي مسلم، كل هذا في شمال أوكسفورد»[٢٥]. ويحث أوروبا أن تتعلم صهر المسلمين في مجتمعاتها، فالمسلم في أمريكا يصف نفسه بأنه مسلم أمريكي، بخلاف المسلم الأوروبي لا يصف نفسه بذلك. ويطالب باندماج المسلمين في المجتمع الأوروبي شديد العلمانية[٢٦].

---

(٢٤) نقلاً عن مقال غير منشور للأستاذ تركي الزميلي، وبعض المعلومات ترجمها عن باتريك بيوكانن في كتابه موت الغرب (*The Death of the West*).

(٢٥) Timothy Garton, «How the West Can be One,» *New York Times*, 27/4/2003.

(٢٦) المصدر نفسه، ويلاحظ صحة قول الكاتب في اندماج المسلمين وبخاصة الهجرات السابقة في أمريكا، حيث ذابت فعلاً في المجتمع الأمريكي، وهناك حساسية أوروبية تجاه المسلمين وطبقية راسخة في مجتمعات أوروبا منعت انسجام المسلمين في المجتمع، وفي أمريكا ساعد العرب لونهم القريب من البيض والإيطاليين أن ينجو من الاستعباد، ويندمجوا وبخاصة أنهم هاجروا للشمال والشرق الأكثر تحرراً. وهناك أبحاث عدة ناقشت نهاية المسلمين والعرب في مجتمعات أمريكا ممن هاجروا في القرن التاسع عشر وبداية العشرين ووسطه منها كتاب **قبل اللهب**.



Twitter: @ketab_n

وقد جاوز عدد السكان المسلمين في فرنسا خمسة ملايين ليكونوا نحواً من عشرة في المئة من السكان. والمسلمون في ألمانيا يزيدون على أربعة ملايين، وعدد المسلمين في كندا تجاوز عدد اليهود، كما نشرت صحيفتان كنديتان[٢٧]، إن المسلمين زادوا في بعض مناطق كندا خلال عشر سنوات عن مئة وأربعين في المئة، ليكونوا أكثر من ٢ في المئة من مجمل سكان البلاد، ليكون عدد من قال عن نفسه إنه مسلم: ٦٤٠٥٧٩، وبهذا زاد عددهم على عدد اليهود في كندا في إحصاءات ٢٠٠١ عن السابق قبل عشر سنوات، إذ يمثل اليهود ١ في المئة من السكان ونقص عددهم بمقدار ١ في المئة من عددهم السابق عام ١٩٩١.

وبسبب تزايد السكان المسلمين هجرة، أوجدت قوانين الهجرة المتعسفة في أوروبا وأمريكا المصممة ضد قيام تجمعات إسلامية في المهاجر، أو حفاظ هؤلاء المهاجرين على دينهم ولغتهم، فالمسلمون هناك أعداد هائلة، مهاجرة ومولودة، وقد تهاجر من أجل أن تتمسك بدينها، وبالثقافة الإسلامية، وهم حريصون على عدم نضوب أو اختفاء ثقافتهم. ويطرح في الغرب بشدة قصة المهاجر المسلم الذي لا يريد الذوبان في الغرب، بل يحافظ على إسلامه وقيمه ولغته، بل بعض المسلمين يهاجر فعلاً للغرب بهدف الحفاظ على دينه، وحرية ممارسته. وتوفر له العولمة إمكان الصلة بالبرامج الإسلامية والعربية والمجلات والثقافة التي ينشدها بلغته في أي مكان في العالم، فما عليه إلا أن يفتح جهاز الكومبيوتر ليعلم أولاده أي قراءة للقرآن يحفظون، وأي فقيه له يسمعون، وأي لغة يتعلمونها أو يقوونها. ولهذا صدرت قوانين التعسف لمواجهة المهاجر بجسده الذي لا يذيب ثقافته، مثل أهمية الإلزام بمعرفة اللغة الوطنية، وهي قوانين موجهة غالباً ضد اللغة العربية التي تحمل ثقافة الإسلام. ويستندون إلى ظاهرة نقد الغرب لنفسه، ومراجعة قوانينه، وهي ظاهرة مهمة في محافظته على نصرانيته، وتجديد قوته، فهناك رصد دائم لسلبيات الهجرة «كما يرونها»، ومحاولة لتجنبها، ولكن بعضها يقف أمامه الغرب عاجزاً، ولا يعرف تماماً الحل المناسب، فلو سمح بالهجرة الواسعة لبلاده، لوجد بعد فترة تغيراً كبيراً في هويته، على الرغم من أن بريطانيا أصبحت تلزم المهاجرين بالإنكليزية ومعرفة أساسية فيها

---

(٢٧) *Montreal Gazette* and *Toronto Globe and Mail*, 14/5/2003.



Twitter: @ketab_n

لمن يتجنس، وأمريكا تشترط للحصول على الجنسية تجاوز امتحان يسألون الشخص فيه عن معرفته بالتاريخ الأمريكي وباللغة الإنكليزية، ومكتب الهجرة الإيطالي في تونس يشترط على العمال المهاجرين لإيطاليا المعرفة بالإيطالية، والتأكد من أن المهاجر المسلم لديه إمكانية الاندماج في المجتمع الإيطالي وبالتالي ذريته، لأن الإيطاليين أقل شعوب أوروبا إنجاباً. فهم يريدون أولاده، واندماجهم في المجتمع، وكما قال أحد الأمريكان لمهاجر من المسلمين وقد حاجه المسلم بأنه هاجر وعمل في أمريكا وبقي متمسكاً بدينه، فقال له الأمريكي: «نحن لا يهمنا أن تتأمرك أنت بل استقدمناك من أجل أننا نريد أولادك». موجات الهجرة تأثيرها مصيري في ثقافة الأمم، ولكن الأخطر من الهجرة «الهوية»، فلو هاجر لكندا أو أستراليا عشرون مليوناً ممن يقبلون الذوبان لما حدث شيء، ولكن لو هاجر خمسة ملايين يحافظون على هويتهم لسبب هذا أزمة دولية كبيرة للعالم النصراني.

سجل التاريخ المكتوب ظاهرة موجات الهجرة العربية المتدفقة من الجزيرة العربية إلى التخوم المجاورة في الشام والعراق[٢٨]، وأول المعروف منها موجة هجرة سبقت ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ثمانية قرون، وهذه الموجة استطاع الآشوريون صدها إلى حد كبير، ثم جاءت موجة أخرى بعدها بنحو ستمئة عام، أي في القرن الثاني قبل الميلاد، واستطاع العرب إثرها إقامة ممالك لهم في الشام والعراق، كان من بقايا هذه الموجات ممالك الغساسنة والمناذرة، والقبائل التي استولت على مناطق شاسعة في غرب العراق وشرق الشام وجنوبه. ثم الموجة الكبرى التي تلت وفاة الرسول (ﷺ)، وهي هجرة كبرى، كانت وقود الفتوح، وعربت البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى الأندلس. ثم الموجة التي سميت بالهجرة الهلالية، وغمرت افريقيا من الصومال والسودان والصعيد وامتدت على شواطئ الساحل المتوسطي وعبر الصحاري والجبال إلى شواطئ المحيط الأطلسي، والتخوم الجنوبية للصحراء وصولاً لمناطق السودان الغربي وما يسمى اليوم شمال نيجيريا ومالي وتشاد، وامتدت الهجرات اليمنية والعمانية على سواحل المحيط الهندي وشرق افريقيا في الصومال وكينيا وتنزانيا، وزنجبار، وصولاً إلى جزر

(٢٨) أرنولد توينبي، **تاريخ البشرية**، ترجمة نقولا زيادة (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، ص ٤٥٢.



Twitter: @ketab_n

إندونيسيا. وقريباً من الفترة الهلالية جاءت موجات وسط الجزيرة العربية لتنتشر مرة أخرى في الأرياف للمناطق التي جاءتها موجة الهجرة الثالثة.

ومن يراقب التحولات السكانية الكبيرة التي تشهدها اليوم المنطقة العربية عموماً والجزيرة بخاصة، يلاحظ إرهاصات انفجار سكاني لا تكاد تستوعبه المنطقة، وهو يوحي في حال توافر الثروة والفكرة، أن يصنع منطقة قوة كبيرة في الداخل، وفي حال ضعف الثروة وفقر الفكرة فقد يصنع النمو السكاني موجة تكتسح مرة أخرى مناطق ربما أبعد. والهجرة القادمة في حال تمتع مهاجروها بعقيدة وثقة ودين ومهارات فسوف تكون لها آثارها الإيجابية لمصلحة العالم وتقدمه، وفي حال انهيار تعليمها وفقرها فقد تحول إلى مصدر طاقة بشرية لحضارات أخرى، تفيد منها الأمم الأخرى كما أفادوا من أجساد الأفارقة والهنود في المستعمرات البريطانية في أمريكا وغيرها، أو تكون موجات وحشية سوف تستقبل بالرفض والمحاصرة والتجافي إن استطاع مقاوموها محاصرتها كما فعل الآشوريون ذات يوم، وكما يحاول الأوروبيون اليوم مع مجتمع شمال افريقيا، فهو يضرب على المجتمع العربي في شمال افريقيا حصاراً حديدياً مشدداً، ويسمح ببعض التنفس والقبول ببعض الهجرة التي لا تغير هوية النصرانية لأوروبا، ولا تعود بقوة ولا فائدة للعرب في شمال افريقيا.

وقديماً صنعت قبائل بني هلال المهاجرة الأمية أثراً خطيراً، فعلى الرغم من أنها «خرّبت ولكنها عرّبت»، كما يقول ابن باديس، وأعادت أثراً للتعريب في الشمال الافريقي لا ينسى، فغمرت المناطق من صعيد مصر إلى المحيط الأطلسي بزحف هجرة دام حوالى مئة عام، وبأجيال من الشباب المغامر، المتمرس على الفروسية، المتمكن في لغته، المغرور بقيمه وشرفه وعروبته، ما تراه باق أثره في أساطير بني هلال التي يرددها فرسان برقة، «بأسماء كالقرني والشهراني والعسيري والمرزوقي والجهني» وأشياخ الصعيد، وجنوب وأرياف تونس، وجبال الأطلس، إلى واحات المغرب وصحاري موريتانيا. وبعد قرون مديدة كان أولاد هؤلاء البدو هم من حمل راية الفكر والثقافة في مصر[٢٩]، ومن قاوم التغريب والتنصير، ونشر آداب العرب، وقاوم الغزاة، وعمر المختار ورجاله مثال لا ينسى.

---

(٢٩) نشر أستاذ الاجتماع أحمد عبد العليم خضر بحثاً طريفاً عن دور أهل الصعيد في الثقافة العربية والإسلامية في العصر الحديث.



Twitter: @ketab_n

كان ذلك في الماضي البعيد، ويبدو أنه ستكون هناك موجة قادمة جديدة تتجه خارجة من الجزيرة العربية ومن اليمن ومن مصر والشام ومن شمال افريقيا نحو أوروبا أو نحو آسيا، ومن إيران ومن باكستان ومن غيرها أمور غير مستبعدة، تتجه لبلاد جديدة تعرّبها، أو تؤسلم ثقافتها وسكانها وتنشر آثاراً جديدة. وستكون قيمة وخطورة هذه الموجات البشرية من الهجرات في ثقافة هؤلاء المهاجرين، فإن كانت لهم أفكار يرعونها، وعقائد يؤمنون بها، وأخلاق يلتزمون بها فسوف تكون موجة خطيرة في سياق التاريخ القادم، ما لم تعقها الحروب أو الأمراض، إذ لا يبدو الحصار المضروب على المسلمين قادراً على إيقاف تدفقهم في الآفاق. وعلى الرغم من تدفقهم فقد قل اندماجهم.

## المسلمون لا يندمجون

في تصفحي الأول لكتاب **نهاية التاريخ** لمحت موقف الكاتب من المسلمين، فقد اشتكى أنهم يستعصون على الحضارة الغربية، وأنهم يرون أن لهم حضارتهم وموقفهم الذي يخالفها، ومن قبله تحدث توينبي عن موقف الحضارة الإسلامية، وأنها من الحضارات الباقية، أو التي سيكون لها دور، ثم مؤرخ آخر مهم وهو كاتب دورات التاريخ الأمريكي، تشالسينجر، أشار إلى مشكلة الذوبان في المجتمع الأمريكي، مشيراً إلى أقليات تستعصي على الاندماج، ومرت بضع سنين بعد هذا ليتحدث هانتنغتون مطولاً عن المسلمين الذين ينمو عددهم ويزيد تعليمهم ولا يندمجون، وأن دينهم سيصادم العالم أو «حضارتهم» وقد كان يروغ حول وصف «صراع الديانات» ومواجهاتها القادمة، كما كانت تلوح بين عينيه، ليسمي ذلك بـ «صدام الحضارات»، فالغرب صنع منذ زمن طويل عبارات يلف نفسه داخلها هارباً من تاريخه المرير مع نفسه ومع الناس. كتابه يحذر من الحرب الدينية، ولكنه في الوقت نفسه يفلسف لها[٣٠].

---

(٣٠) في عدد مجلة **المستقبل العربي** (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣)، أجريت مقابلة مع المفكر التونسي هشام جعيط، رمى فيها كتاب هانتنغتون **صراع الحضارات** بالتفاهة، وأن مصدر الاهتمام به كونه كتاباً أمريكياً، وعند العرب إعجاب بكل ما هو أمريكي، وقد يكون هناك شيء من هذه المبالغة في أهمية الكتاب، غير أن قراءة الكتاب والموارد المعلوماتية وسياقها في الكتاب يجعل من يقرأه يقف على قراءة أخرى للنص من زاوية غير الزاوية التي أرادها المؤلف، ثم إن رصد التوجهات وتعريفها مع أنها لم تعد مستقبلية بل واقعية في بعض الأحيان أعطت أيضاً شيئاً من الأهمية للنص. والأهم من ذلك وضع نص بيد القوم وقت الحاجة له، لقد كانت الثورة الأمريكية بأمس الحاجة لنصوص «توماس بين» للمساعدة في التحرر الفكري من الاستعمار البريطاني، وهنا وافق النص =



Twitter: @ketab_n

ثم قرأت تعليقاً طريفاً لأشهر مؤرخي فرنسا في العصور الحديثة، وهو فرديناند بروديل يقول: «وأهم من كل هذا فقد ارتبط حدوث ذلك باستمرار عدم قابلية المورسكيين[٣١] للاندماج، فلم تكن الأعمال التي اقترفتها إسبانيا مرتبطة بالكراهية الجنسية... بل بالعداء الديني والثقافي، وكان الطرد الناتج من هذه الكراهية بمثابة اعتراف بالعجز، أو بمثابة دليل على أن المورسكيين بعد قرن أو قرنين بل وثلاثة قرون، كان هو المورو القديم.. لقد رفض قبول الحضارة الغربية، وكانت تلك جريمته الأساسية»[٣٢]. وتلاحظ أن بروديل قبل هانتنغتون وكل من يتحدث من الغربيين يضعون كلمة مسيحية بدلاً من الحضارة الغربية، والنصارى واليهود المحافظون في أمريكا بدأوا هذه الأيام أكثر إظهاراً للتعريف حين بدأوا يخطبون باسم «الحضارة أو القيم النصرانية اليهودية». وهذا التصريح يزيد المسلمين وعياً وبعداً. ويزيدهم مفارقة للاندماج. وهنا نرى بروديل يعترف بأن الحضارة عنده تعني النصرانية.

وهذا حصل أيضاً للبوسنيين، فليس للجنس واللون واللغة علاقة بما حدث، إنه الإسلام فقط، إما أن يتنصروا أو يموتوا، إما أن يتنصروا أو يغادروا أوروبا، وهل أمريكا ستسير على خطى أوروبا القديمة في العصور الوسطى والمعاصرة؟ لأن المسلمين لم يندمجوا؟ هكذا تظهر كثير من النصوص العديدة بأقلام المسلمين وغيرهم.

وهناك حرص على نشر الرعب من المسلمين، كما اهتم الكاتب الأمريكي الأسود موسلي بهذه المسألة، إذ يجري تهييج داخل المجتمع الأمريكي ضد المسلمين، يقول هذا التهييج هناك مليار ونصف من البشر

---

= حاجة أمريكا لمبرر شن الحروب على الأديان الأخرى، وهذا أعطى أهمية داخل أمريكا لوجود هذا النص وأن يهتم به الأكاديميون والإعلاميون، ومن الظلم المقارنة بين حذق النصين وحال الطرفين، غير أن المقصود السياق، وتلك كانت مقالات توجيه وتوعيه وإقناع وتهييج، وهذا الكتاب رغم كبره وعلله فقد كانت الحاجة له أهم منه.

(٣١) المورسكيون أو المورو، هي التسمية الأوروبية للعرب والمسلمين في الأندلس والمغرب، وفي بعض التعريفات بقايا العرب في الأندلس، وسمي به أيضاً المهاجرون من الأندلس، في شمال إفريقيا وفي مناطق كثيرة من العالم التي هاجروا إليها، وارتبط الاسم بالتجارة وحركة التجار العرب في جنوب أوروبا وفي غرب إفريقيا.

(٣٢) من كتابه **البحر المتوسط**، نقل النص أندرو هيس، في كتابه الذي ترجمه للعربية أحمد عبد الرحيم مصطفى، بعنوان: **افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي** (الكويت: ذات السلاسل ١٩٨٦)، ص ١٩٧.



Twitter: @ketab_n

يريدون قتل الأمريكان، فإذا قيل لهم إنهم بعيدون قالوا ولكنهم أرسلوا مليوناً يندسون في المجتمع الأمريكي وهم جاهزون لأن يكونوا قنابل تتفجر في أي مكان، وفي أي وقت!!

وتجري محنة حقيقة لا يحق التغاضي عنها للمسلمين هناك، نرجو ألا يحدث لهم كالذي حدث لإخوانهم قديماً في أمريكا الجنوبية في القرن العاشر الهجري والحادي عشر، الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. ولكن ما روّج له من وجود تنظيم القاعدة في أمريكا الجنوبية قصة إرهاب للمواطنين المسلمين في أمريكا الجنوبية قد تفتعل ضدهم الأكاذيب لترويعهم. ومحاصرتهم، ولأن لهم نشاطاً تجارياً كبيراً يراد له التدمير. ولهم نفوذ سياسي يراد به الإنهاء.

إن هذه الأكاذيب المستمرة في المجتمع الأمريكي وخارجه، يراد بها تجهيز وتهيئة العامة لحرب طويلة مع المسلمين، ومصادرة لحريات الشعوب الغربية، وإعطاء هذه الحريات للشركات وكبار الملاك، غير أنها تفعل فعل السحر في صناعة مجتمع الرعب وعدم الثقة، وليست هذه السياسة التي يرونها ضرورية إلا عامل هدم في القلوب والعقول والمستقبل، وقد أصبح الخوف صناعة تتاجر بها الأحزاب في الغرب، وقد لا تكون ثقافة الرعب دائماً في مصلحتهم. إنها مشكلة شعوب تتكاثر بسرعة وقد ترعب، أو يخيل لهم أنها ترعب، ولا تندمج، ثم بزغت أخيراً بينها ثقافة التضحية، أو كما يقول أحد الكتّاب إن موقف أمريكا في الاحتجاج على رغبتها في الغزو بقصة الإرهاب لم تزد على أن أثارت عند المسلمين ثقافة الجهاد والاستشهاد، ثم هي تنتقي مجتمعات إسلامية صلبة في هذه القضايا مثل أفغانستان والعراق!!



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٥ ـ

# ظاهرة التضحية «بقية السيف أبقى»

نقلت مجلة **نيوزويك** حديثاً لشابة مسلمة في بريطانيا مع صحفية سألتها عن مشاعرها وهي ترى القتل والحرب في العراق وغيره، فقالت: «لقد رأيت مسلمين يتعرضون للقتل منذ ولدت. أشعر إنني أعيش عصر الحروب الصليبية»[١]. وهذا الشعور الذي يعم العالم الإسلامي ويتغذى على قرون من الاستعمار، ومن المجازر ومن السلب ومن الإهانات الغربية بشتى صورها، أوجد جيلاً يبحث عن الانتقام، ويشعر بالغبن وبضرورة المواجهة لهذه الدول الغربية التي تقتل وترسل فرق الإرهاب الصهيونية، وترحب بالقتلة، ففي البيت الأبيض، أكثر الشخصيات زيارة له، وأكثرهم حفاوة فيه هو شارون، قابل بوش في ثلاث سنوات تقريباً سبع مرات والثامنة في «العقبة»، وليس هناك من سبب ظاهر في تفسير العرب لهذا الود والعلاقات الحميمة في العلاقة إلا أن شارون هو الأقسى، وهو الأكثر عنفاً، وإرهاباً للعرب والمسلمين، وهو الأقدر على التخلص من كل قيود دولية، والاستهانة بكل عرف بشري، وامتهان كل معاهدات صلح توقف شهيته للقتل وسرقة الأرض وزيادة الاغتيالات وهدم المنازل وجرف وتخريب المزارع. وهو من حملة عقيدة الإبادة البدنية للمسلمين، مثل زعماء الصرب، وهي إرث يجله شارون في عقدة النقص التي تختبئ في نفسه تجاه النازية، فهو يجل دور هتلر في تنقية بلاده من اليهود، وهو يريد كزعماء صهاينة كثيرين تخلية فلسطين من العرب.

وعقيدة قتل المسلمين التي يؤيده فيها كثير من متطرفي ونصارى أمريكا

---

(١) Carla Power [et al.], «The War at Home,» *Newsweek* (31 March 2003), p. 62.

Twitter: @ketab_n

وأوروبا، كفيلة بأن تنقل ثقافة القتل للطرف المغلوب، وتدربه على حماية نفسه وفعل ما فعل الغزاة. وهو يحمل خزينة ثقافية مديدة من الصمود للإرهاب الصهيوني والصليبي، ثقافة حاشدة لمقاومة الإرهاب عبر قرون مديدة، إن أساطيرهم وأكاذيبهم وغلوهم وغرورهم وطمعهم، تحشدهم دائماً باتجاه المشرق، ليموتوا على بوابات المسلمين، ومن الغريب أن هؤلاء لم ينسوا طرفة عين أن المسلمين أخذوا هذه البلاد من الرومان والمسيحيين، وتكتب عنها جرائدهم ومجلاتهم إلى اليوم بعد خمسة عشر قرناً، وتتحدث مجلاتهم عن إيمان الرئيس الأمريكي بذلك، وأنه ممن يعيد النصرانية لمهدها، والاحتفال بسقوط بغداد لم يخل من مشاعر كنسية عميقة، ومحاولة لكبتها كبيرة.

ولكن بعد سقوط بغداد، وقبل أن تكف دموع الباكين بثلاثة أشهر شهدت غرناطة عودة مسجدها، وحفل افتتاحه، يقوم به الضعفاء بلا عساكر ولا قوة ولا طائرات ولا صواريخ كروز ولا إبادة لمن يشتبه بأنه يعارض، إن القلوب تفتح، أما العنف فيدمر ويقتل ويرهب وينشر الشر والخوف والفوضى في الآفاق، ثم ينسحب وسيعود يطوي حسرة الخزي والخسارة.

وبما أن الإدارة الأمريكية المحافظة الدينية «المرتهنة للنفوذ الصهيوني المتطرف» تتفق معه على التوجه الديني الرابط بينهما، وتسيطر على هذه الإدارة خيالات القتل للمخالفين لها، والتمرد على الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية، وتخشى من الأمم المتحدة، لأنها تسلب القرار منهم، على الرغم من أنهم يمولونها، وتكفل مصالحهم، إذ تجعل لأعمالهم شرعية ذات سمة دولية[٢] ـ حتى لما يكذبون على العالم أجمع كما في قصة أسلحة العراق[٣] ـ فإنها توغل في تحقيق القتل لمن يعارض أو يخالف الطموحات النصرانية، وكنت أناقش أحد كبار المثقفين الأمريكيين النصارى فقال عفوياً في النقاش: إن شارون زعيم كالزعماء «التوراتيين» الذين يكثر ذكر أمجادهم في العهد القديم والجديد.

إن العبث بالخيال التاريخي والربط بين السياسة الأمريكية والتهيئة لعالم

---

(٢) التي يراها بعض السذج من البيض المتعصبين «منظمة ماسونية يهودية» ضد أمريكا المسيحية!!.

(٣) وبعد انكشاف الكذب يقدمون ضحايا تافهة مثل كامبل كاتب ومستشار بلير. كما نشرت ذلك وسائل الإعلام يوم ٢٦ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ـ الموافق ٢٦ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣م.



Twitter: @ketab_n

جديد مسيحي في الشرق، تلعب بعقول رئيس إنجيلي كالرئيس بوش، ويستخدمها محترفون للعبث بالشعب والدين الأمريكي من صهاينة كبيرل، وولفوويتز، وكيسنجر وإبرامز، وغيرهم. وصهاينة مسيحيون من أمثال أعمدة الكنيسة واليمين المتطرف تشيني ونيوت غينغرش وبيلي غراهام وابنه فرانكلين[٤] وغيرهم.

وتكتب المجلة السابقة تحت عنوان: «حملة صليبية جديدة» تستعيد فيها المشاعر التي أحاطت أفكار البابا أوروبان الثاني في حملته الصليبية القديمة، ثم خالطت مزاج بوش الثاني، فهناك شبه بين المصاعب السياسية التي أحاطت بأوروبان الثاني وأحاطت ببوش الثاني، وكان أوروبان الثاني منزعجاً جداً من انتشار الإسلام وتمزق العالم المسيحي، فشن حملته الصليبية في عام ١٠٩٥. ويشير الكاتب إلى مشاعر الكره للسامية التي أحاطت بالصليبيين في الأمس، وتطارد المشاعر نفسها النصارى اليوم، فيعلن بوش عن حملة صليبية ثم يتم التراجع عن اللفظة بسرعة. وتشير المقالة إلى أن الأسقف موزينسكي من بولندا يردد ما كان ردده الامبراطور أوتو الثالث قبل ألف عام إن ما يمكن أن تقدمه بلاده للاتحاد الأوروبي هو روحانية جديدة، لتستكمل بها روابطها الاقتصادية. والكاتبة تذكّر القراء بأن المجازر التي اقترفها الصليبيون في القدس ضد المسلمين واليهود هي ما «أقنع العرب أنه ما من سبيل أمامهم للبقاء سوى الجهاد»، ثم تنتهي كاتبة المقالة إلى أن هذه المقارنات المقلقة ما زالت قائمة حتى الآن[٥].

إنه من الواضح للعالم أن المسلمين لا يريدون العنف، ولا يشرعونه ولا يمتدحونه، ولكن باعتراف الكتّاب الأمريكيين أن هذه المجازر التي ترتكب بحق المسلمين سيكون لها أثرها في النفوس، وتجبر المسلمين على استعادة الجهاد. بعد أحداث نيويورك تحدث أمريكي أسود لإحدى المحطات الإذاعية يخاطب شعبه الأمريكي ومشيراً إلى ما يُرتكب ضد العرب: «إنكم لا تعرفون العرب، إنهم كالجمال، جمالهم التي تتحمل ولكنها لا تنسى» أو نحوه. ومهما

---

(٤) عرف عن هذا الإبن صلافته عندما يتحدث عن الإسلام ورسوله (ﷺ)، وبعد سقوط بغداد رآها فرصة للتحقير وتنصير المسلمين، مما دعا زعيماً كنسياً آخر لأن يقول هناك طرق أخرى لفعل العمل الجيد: ««التنصير» دون إثارة الأخطار،» وكالة آ بي، أسوشيتد برس، ٧ أيار/ مايو ٢٠٠٣ م.

(٥) مجلة **نيوزويك** العربية (١١ آذار/ مارس ٢٠٠٣)، ص ٦٢.



Twitter: @ketab_n

صرخ علماء وقادة وعقلاء يطالبون بنداء العقل، والهدوء وعدم الاعتراض والإغماض على المظالم والقبول بما يقع، فإن ما تشهده العيون من الأهوال، وما يعتصر القلوب من الألم، هو فوق تحمل كثير من الناس.

كثيرون من العرب بكوا بكاء المحزونة الثكلى ليلة سقوط بغداد، وقطع البرنامج على إحدى المحطات العربية بسبب بكاء المتحدثين، ووضع إعلان، ولكن عاد المتحدثون ينهتون: «لو نشتكي للنجوم تغيب، ولو نشتكي للصغار تشيب».!! كان العار فوق الوصف، وفوق الطاقة على التحمل. وآخر ذكرت له وصف الصهيوني فريدمان للعراق بعد احتلاله في مقالة عنونها بـ «مولودنا الجديد»، فصرخ متألماً ونفض يديه وابتعد، ذاك كان ألمه من العنوان قبل أن يعرف المحتوى! وهل كان يعني فريدمان أن العراق أصبح ابناً لقومه الصهاينة؟

ولو كان القتل فقط هو ما يلقاه العرب لكان مصيبة واحدة، ولكن يتلو ذلك الإهانات الشديدة، فقد نقل تلفزيون «*ITN* و*PBS*» عن موظف أمريكي أمام الناس وقد دفع الباب في وجه مقدم طلب عراقي، ويقول: «توجيه هؤلاء العرب مثل رعي قطيع من القطط.. وتوجيههم إلى الكرس[٦]، غير أن القطط لا تشتكي!!»[٧].

هذه الآلام الكبرى عندما تقع على جسم حي وقلب يحس وعقل واع، فإنها ترسم للتاريخ خطاً جديداً؛ وإذا كان الفيلسوف الهادئ هيغل، صاحب الأثر المعروف، رأى نابليون الفرنسي على جواده يدك بلده ألمانيا فلم يملك إلا القول الغريب: «هذه روح العالم على صهوة جواد»!! يتعلق المهزومون والرابحون للحروب بالأبطال، ويبالغون في تقديسهم، وهؤلاء لم يعد يراهم أحد يظهرون في الغرب، آخرهم في الحرب العالمية الثانية، رومل وثعلب الصحراء «مونتغمري» وأيزنهاور. ولكن الذين جاءوا من بعدهم لم تعد لهم تلك القيمة. لم يظهر في المسلمين أحد بحجم هؤلاء منذ زمن، ولكن الروح التي تبحث عن حل وقدوة، هي أقوى مما مر منذ قرون. عندهم شوق وتطلع للقوة والكرامة يفوق خيال خصومهم، عندهم طموح وهمم تغذيها مظالم تفوق الوصف. وما لم يتوافر لهم العدل، فإن نصائح اليهودي برنارد لويس

---

(٦) الكرس هو مهجع البهم، ولعل هذه أقرب عبارة لترجمة «محجز» وتستعمل عبارة «رعي قطيع القطط» في الإنكليزية كمثل للمشقة التي تواجه من يحاول تنظيم مجموعات غير قابلة للتنظيم.

(٧) من رسالة إلكترونية لمجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية كير، يوم ٨ أيار/ مايو ٢٠٠٣م.



Twitter: @ketab_n

«اقسوا على المسلمين أو أُخرجوا من ديارهم»، ثم طلبه بخيار القسوة على المسلمين لن يجدي[٨].

إن ما يحدث في حياة المسلمين من محاولات لإبعاد الإرهاب عنهم يثير ملامح مستقبل قد يكون مستقبلاً عزيزاً لهم، وربما خطراً على أعدائهم، كما أنه قد يكون نذيراً بتراجع وضعف وتمزق في مجتمعاتهم على المدى القريب. فقد أثخن فيهم خصومهم ذبحاً وتشريداً وسجناً في كل يوم، والقصة التي نقلتها المجلة السابقة عن المسلمة تعبّر عن مشاعر يحياها المسلمون يومياً. يكفي أن نعلم أن الرقم المعلن للعرب المسجونين أو المحددة حركتهم وتنقلهم في أمريكا بشبهة مخالفة أنظمة الهجرة يزيدون على ثلاثة عشر ألفاً، وثمانية آلاف في سجون إسرائيل[٩].

إن قصيدة شهيرة كتبها الشاعر الليبي، عمرو النامي، كان يرددها المسلمون في كل مكان لتعبّر عن حزنهم ومآسيهم ولم يفكروا في بعض معانيها الغريبة وغير المعقولة، فجمالها الفني وحزنها وأحزان متلقيها، أعطاها الكثير من النفوذ والتأثير العاطفي.

تقول القصيدة:

أماه لا تجزعي فالحافظ الله ... إنا سلكنا طريقاً قد خبرناه
في موكب من دعاة الحق نتبعهم ... على طريق الهدى إنّا وجدناه
على حفافيه يا أماه مرقدنا ... ومن جماجمنا ترسى زواياه
ومن دماء الشهيد الحر يسفحها ... على ضفافيه نسقي ما غرسناه
أماه لا تجزعي بل وابسمي فرحا ... فحزن قلبك ضعف لست أرضاه
أماه لا تشعريهم أنهم غلبوا ... أماه لا تسمعيهم منك أوّاه
إنا شمخنا على الطاغوت في شمم ... نحن الرجال وهم يا أم أشباه
أماه هذا طريق الحق فابتهجي ... بمسلم باع للرحمان دنياه

---

(٨) تكررت نصيحته هذه في أكثر من مكان، منها مجلة **أتلنتك منثلي** (*Atlantic Monthly*) ومقابلة مع برنامج بوك نوت الأسبوعي على محطة سي سبان، وانظر مقالة: محمد بن حامد الأحمدي، «ظواهر أمريكية جديدة.. في التعامل مع الإسلام،» **المنار الجديد**، العدد ١٩ (صيف ٢٠٠٢).

(٩) هذه الأرقام في الثلث الأول من عام ١٤٢٤هـ الموافق لمنتصف عام ٢٠٠٣م.



Twitter: @ketab_n

لاحظ الصلة بين الشاعر المثقف المسلم منذ نحو ثلاثين عاماً، وفتاة مسلمة في بريطانيا، كلاهما يتحدث ويفكر من واقع ثقافي واحد، ولد النامي على أخبار المجازر الإيطالية للسنوسيين، وترعرعت هذه الفتاة على مشاهد مذابح البوسنة وفلسطين والعراق!!

عمق الحزن والبكاء المكتوم «لا تسمعيهم منك أوّاه» وقوله: «من جماجمنا ترسى زواياه»، وكأننا نحن الضحايا دائماً حتى عندما يريد الشاعر أن ينهض فهو الذي سيقدم الدم والجماجم!! وقد صدق حدسه حتى في مصيره هو، وكانت جمجمة الشاعر نفسه إحدى هذه الجماجم. وخطورة هذا التفكير واللغة أنها قد تزهق الدم المسلم المصون بسهولة ورخص. وهذا التوجه مخيف وقد يجعل المسلمين يخسرون من دون نتيجة.

لكأن الشاعر يشهد بعد عشرات السنين أن الضحايا العراقيين لا يعدّهم أحد، عشرة آلاف عشرون خمسون أكثر أم أقل إنها ليست ذات أهمية. أمر تافه وعسكري بسيط يقول لن نعدهم. فقد لا يساوون عنده برميل نفط. رخص دمائنا علينا جعلها على غيرنا أرخص، فلما ولغ صدام من دماء العراقيين بلا حدود فتح الباب لغيره ليلغ بلا حدود، واليوم قد يسفح الغريب في ثلاثة أسابيع كالذي سفح القريب في ثلاثة عقود. ولا يزل المسلمون في هذه العصور على مرمى النار، وتجربة كل سلاح جديد فيهم(١٠).

أكثر من خمسمئة عام ونحن تحت نيران الغزاة تمزق البلاد، وتحرق السكان في الجبال والقرى، وتقتل العباد بأيديهم الأناجيل يجوسون البلاد المسلمة ـ منذ أيام الأندلس ـ ذبحاً وقتلاً، ينشرون الخوف والجوع ويسفكون الدماء؛ كان عند الإسبان صفات إذا توافرت أُنهي وجود صاحبها بأي طريق؛ يميزون المسلم بطعامه ليقتل، إن كان من أكلة الطعام المغربي، أو ممن يغتسل يوم الجمعة فلا بد من أنه مسلم متستر، يساق لمحاكم التفتيش، وقد يقتل قبل ذلك! واليوم يظهر أن المسلمين يقبلون على رد شديد، يردون بدماء لا تقف عند حد، ينادون الجميع أن يواجهوا خمسة قرون من المحاولات المذلة الطويلة!! هل هذا ما يحدث اليوم وغداً؟ وهل يليق بهم أن يعاملوا الغرب بالمثل؟ إنه سيكون عملاً شنيعاً أن يردوا على الغرب بطريقته نفسها، إنه تدمير مؤلم أن نراه لهم، ولا أن يتكرر التدمير، لأي مجتمع كما رأيناه في بلاد المسلمين.

---

(١٠) هناك بحث طريف عن هذا الموضوع في كتاب **أقنعة الاحتلال** للمؤلف.



Twitter: @ketab_n

الذين أنكروا دور المسلمين في حادثة نيويورك رأوها حادثة غربيّة بامتياز، وأسلوباً غربياً من الصعب على المسلمين قبوله أو فعله، فليسوا هؤلاء، ليس العرب المسلمون أصحاب هذه الأعمال، كما يرون، فالقتل الجماعي حرفة غربية، نفذت في المسلمين في إسبانيا وفي اليهود في زمن هتلر، وفي البلقان وفي البوسنة، في فلسطين بأيدي تلامذة النصارى والنازيين من اليهود الصهاينة، بأيدي الأرثوذكس والشيوعيين، فالعرب لم يصلوا إلى هذه القدرة الغربية على الذبح الجماعي. أم هل تطور المسلمون وتربوا وتعلموا ثقافة الذبح الغربي الجماعي المتقن!! تلك كانت من تساؤلاتهم، فالذين أبوا قبول أن يكون من نفذها مسلمون كانت حجتهم إتقان عملية القتل، إنها مهنة غربية متقنة، لم يصل العرب والمسلمون لإتقان المجازر مثل الغربيين. فهم يرونها عملاً غربياً اعتادوا أن يروه واقعاً عليهم وليس من قبل أحد منهم أو ينسب لهم!!

في أفغانستان بعد تدميرها وتنصيب «كرزاي» ـ الذي أصبح اسمه علامة مسجلة دولية لمن يقوم بمثل عمله ـ ضربت القوات الجوية الأمريكية عددا كبيراً من الأفغان وقتلتهم في حفلة عرس(*)، ولما انتشر خبر المجزرة سارعت القوات الأمريكية لإزالة آثار المقتلة، قبل مجيء محققي الأمم المتحدة، ثم في ما بعد أعطوا ثلاثمئة دولار عن كل قتيل في العرس!! وكان هؤلاء أسعد حظاً من قتلى ملجأ العامرية في بغداد وكلهم من النساء والأطفال والشيوخ، قتل في وقتها منهم ثلاثمئة وأربعة عشر بقنبلتين متتاليتين على الملجأ، فأحرقوا، ثم أغرقوا، في الملجأ، في إحدى ليالي القصف عام ١٩٩١. ثم وقفت مجازر بغداد لتبدأ بعدها مجازر البوسنة، وكان عدد القتلى من المسلمين أكثر من ربع مليون من كل أنواع الضحايا والقتل بشتى الطرق، أشنعها حجز المسلمين جوعى عُراة ثم حصدهم في الميدان العام، بعد أن تخلى عنهم حراس الأمم المتحدة، وهذا سوى الذين هُجِّروا!!

وعاد المشهد والثقافة التي وصلت لها القوى الغربية لتحرق المسلمين وتقتلهم وهم أسرى مقيدون في سيارات النقل في أفغانستان، بعض المسلمين يجادل أنه لن يستطيع مسلمون أن يجرموا كجريمة قلعة جانجي حين قُتل

(*) كتبت هذه الفقرة قبل مجزرة مدينة القائم غرب العراق على الحدود السورية حيث أبيد من كان في ذلك العرس!!



Twitter: @ketab_n

الأسرى المسلمون في القلعة، ثم في ناقلات الموت، حيث جمعوا في الناقلات، ثم أطلق عليهم الرصاص في داخلها، واحتج من أطلقوا الرصاص بأنهم كانوا يريدون فتح مناسم للهواء ليصل للمحجوزين في الحاويات الحديدية المغلقة تماماً، التي لا ينفذ لها الهواء فهي معدة لشحن البضائع، ولكن تبيّن من التصوير والتحقيق أن الرصاص كان يطلق في مستوى الجالسين من ركاب الشاحنة، ولو كان للهواء لأطلق في أعلى الحاويات، ولما حدثت المبالغة حيث قتل أغلب هؤلاء بهذه الطريقة!![١١].

والمسلمون لن يحرقوا النصارى جميعاً في مكان واحد، كما فعل الأمريكان مع جماعة أنصار الإسلام في كردستان، المذبحة التي هلك فيها في بداية الحرب ما يزيد على خمسة وخمسين في لحظة واحدة، وحاولوا استئصالهم كافة، وتركوا عشرات الجرحى، ثم صبوا عليهم النار من السماء بقية الأيام، وبمساعدة من المنافقين. إنهم لم يقاتلوا الأمريكان، ولم يواجهوهم، جريمتهم أنهم فصيل متدين بين الأكراد، والعالم لم يعرف لهم جريمة. إلا خلافهم السياسي مع وكلاء الغزاة في كردستان.

مجزرة سوق الشعلة في بغداد[١٢]، كانت شبيهة بقتلى سوق سراييفو، وقد حاول الكذَبة أن يقولوا لعل الذين قتلهم صدام، وكانت كذبة باردة!! طائرات بي ٥٢ تصب الحمم والقنابل تزن الواحدة نحواً من خمسمئة كيلو غرام، وغيرها من القنابل العنقودية وصواريخ التوماهوك والكروز واليورانيوم المنضّب، وما شابهها. ولما ظهرت الفضيحة أغلقوا الآذان عنها والأبصار، وصرفوا الحديث إلى أشياء أخرى، وصرف الحديث عن مقابر جماعية جديدة إلى الحديث عن مقابر جماعية أقدم، من مقابر التحالف إلى مقابر صدام.

ألا ما أسهل أن تستغفل الناس زمناً، ولكنهم سيذكرون!! كما قال الأمريكي الأسود!! بعد سنوات سوف يحفر العراقيون أنفسهم عن المقابر الجماعية التي أقامها الأمريكان والبريطانيون!! وتدور دورة رعب مقيتة، ليتهم لم يسفكوا هذه الدماء لتكون حاجزاً عن علاقات إنسانية وتعاون بشري وحماية

---

(١١) خرج فيلم عن قلعة جانجي رغم محاولة تخفيف الصحفيين مما حدث، ولكن ما بقي كان مروعاً، كما أنهم لم يتعرضوا لموضوع إقرار رامسفيلد لقتل الأسرى لخطورتهم أو لأنه يشتبه أنهم من القاعدة أو يتبنون مواجهة الغزاة.

(١٢) عن صفحة الـ بي بي سي البريطانية يوم: الجمعة ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٣م وقالت قناة الجزيرة أن عدد القتلى كان خمسة وخمسين.



Twitter: @ketab_n

واحترام ومصالح متبادلة، لقد استطاع الغربيون أن يمنعوا بقوة كل صوت ينادي بالعقل للتعامل معهم، لقد جعلوا من أصوات الاعتدال في عالم العرب والمسلمين أصواتاً تلصق بها التهم، وماذا نطالب به من اعتدال وحججنا محطمة، وسنظهر للضحية متآمرين مع الجناة.

تمنع هذه المسيرة الجائرة نداء الحوار والعقل، وسوف تصنع موجة ـ كما صنعت من قبل ـ من التحدي والصمود والرفض. ولن يكون علماء المسلمين ولا موجهو الثقافة الإسلامية قادرين على إيقاف التيار العنيف المضاد للغرب، لأن الحوادث ضد المسلمين أكثر من قدرتهم على التفلسف والنسيان والإلهاء. يصعب على العقلاء أن ينادوا بنداء العقل بعد سيطرة أعمال الإرهاب والإرهاب المضاد؛ وذلك ما كتبته جريدة **الغارديان** بصراحة، ونصح للقوى الغربية: «إن الباب الوحيد المفتوح اليوم أمام الشباب العربي للرد على إهانة الأمريكيين هو باب أسامة بن لادن. وهو الباب الذي ندفعهم إليه نحن الغرب قسراً بأفعالنا»(١٣).

وستزيد شهية الاستشهاد، لأن هناك حملة ثقافية إرهابية تقال وتكتب وتنشر وتطبق كل يوم ضد المسلمين، هذه الفلسفات الغربية التي تروّج لثقافة قهر المسلمين، ويحرضهم اليهودي برنارد لويس بقوله: «اقس عليهم أو اخرج من أرضهم! *Get Tough or Get Out*»(١٤)، ولما سئل أي الأمرين يختار فاختار القسوة على المسلمين حلاً!! وهذه نصيحة اليهود للنصارى التي لم تتغير وتزيد رعباً وإرهاباً كل يوم. نصيحة قالها لبراين لامب، صاحب برنامج «بوك نوت» الشهير على محطة **السي سبان**. قالها على التلفاز وكتبها في مجلة **أتلانتك منثلي**، ولعله ضمّنها كتابه الأخير. ولو كتبها مسلم لقالوا إرهابياً ومروج للإرهاب ولبقي حياته في السجون، كإرهابي خطير على العالم، ولكنه يكافأ ويذهب لندوة خاصة في بيت نائب الرئيس ديك «رتشرد» تشيني، ليناقش معه الطريقة الأجدى للتعامل مع العرب. ويبقى هذا الإرهاب الفكري أخف إذا ما قورن بأعداد كثيرة كتبت ونشرت وألّبت على الإرهاب ضد المسلمين، لم تدخل

---

(١٣) *Guardian*, 10/4/2003.

وانظر مقال: أيمن الصياد، «مئة بن لادن،» **الكتب: وجهات نظر**، السنة ٥، العدد ٥٣ (حزيران/ يونيو ٢٠٠٣)، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(١٤) نشر هذا المقال في مجلة: **أتلانتك منثلي** (*Atlantic Monthly*) ثم أعاد نشر هذه الأفكار في كتابه الأخير **أزمة الإسلام الحرب المقدسة والإرهاب غير المقدس**.



Twitter: @ketab_n

ولن تدخل سجناً، ولن تعاقب، فالإرهاب النصراني والصهيوني فوق القانون.

إن فلسفة التشدد والإرهاب الغربي والصهيوني للمسلمين صنعت ما يسمونه «إرهاباً»، أو أعادت الطبيعة البشرية العامة لضحايا الاضطهاد. ويحاولون أن يستعيدوا الكرامة الإنسانية، وبأس العربي المقهور وشهامته وخلقه، بعد أن كادت تندثر تحت مخادعة ألاعيب السلم واللطف الشكلي وتوزيع الابتسامات، في الوقت الذي تؤيد عملياً الغدر المسلح والإرهاب اليومي ضد العرب. تذكرون الشابة هبة ضراغمة ذات التسعة عشر عاماً والطالبة الجامعية؛ إن الصهاينة وأتباعهم لا يقولون لماذا فعلت ما فعلت، بل عندهم تفسيرات للإرهاب خاصة بهم، ولن يروا الحقيقة ولا الإرهاب الذي تعرضت ويتعرض له إخوانها وأسرتها وأقاربها، فأخوها سجين، ومنازل أقاربها فجرتها القوات الإسرائيلية، ومزارع العائلة وأشجار الزيتون جرفتها القوات الإسرائيلية، وسيارة في الزقاق المجاور قصفتها الأباتشي!! ولا يرى الإعلام الغربي في هذه الشابة إلا الحجاب!![١٥] علامة للإرهاب.

ويتحدث رئيس أكبر امبراطورية عن سن الرعب والروع، ولما يموت شعب ويقتل ويجاع، يلقى باللوم على كل من يخالف رغبة الصهاينة في أمريكا وخارجها. ويفاخر قوم بأعمال الإرهاب، إن كانت ضد مسلمين، ويؤيد ويشكر من يرهب ويحتل بلادهم ويكافئه، ويرسل المعونات للإرهاب الإسرائيلي، والسلاح الدائم، ويبني المستعمرات الصهيونية، ويعفي الأمريكان من الضرائب إن هم أرسلوا مالهم لجمعيات صهيونية، تتوسع وتبني المستعمرات وتقتل وتنفذ أقذر الاغتيالات والأعمال الوحشية. ويغلق جمعية الأرض المقدسة بتهمة من أعجب ما سمع الناس وهي أنها تساعد المدارس التي يدرس فيها أبناء الاستشهاديين الفلسطينيين وأن هذه المدارس قد يتخرج منها هؤلاء ويكونون إرهابيين!!

غير أن جور الإرهاب الغربي وكذب إعلامه لم يغيب كثيراً من المنصفين عن الحقيقة، فبينما كنا في إحدى المظاهرات التي كانت تؤيد الفلسطينيين في أمريكا اقترب مني شخص قيل لي قبل أن يقترب هذا يهودي، ومد لي بجريدة فلم أقبلها، خوفاً أن تكون تأييداً لمجازر شارون، أو سخرية بنا، ولم أكن في مزاج أن أقبلها، ولكن صديقاً شرح لي عن هذه المجموعة وأنها جماعة من

---

(١٥) الصياد، المصدر نفسه، ص ٧٣.



Twitter: @ketab_n

يهود أمريكا استيقظ عندها الحس الإنساني، فعملت على تنبيه المجتمع الأمريكي على الشرور التي يقوم بها شارون وعصابته في فلسطين وأمريكا، وينبّهون للمغالطات، وقد ذهب منهم جماعة لزيارة عرفات المحاصر، وآخرون يساعدون في إنقاذ الأطفال والبيوت الفلسطينية فيما سمي بـ «حركة التضامن العالمية» والتي مات عدد من أفرادها، ومنهم «راشيل» الشابة الأمريكية التي ماتت وهي تعترض تقدم جرافة تتجه لهدم دار فلسطينية.

نعوم تشومسكي، يهودي أعجبه خطاب الشيوعية، ووعود اليهود المثالية، وذهب لإسرائيل، وعاش في المزارع الجماعية «كيبوتز» وخدم إسرائيل بقلبه وعلمه وعقله، ثم انكشفت له الفاجعة، عن عصابة إرهاب، تستغل الدين والتاريخ والغرب والشرق، وتسرق الأرض وتقتل من فوقها، عاد مفجوعاً بما شاهد، وما ساهم في الترويج له يوماً، ولكنه كان شجاعاً، فحذّر من العصابة، وتنبأ بأن هذه العصابة محكومة بعقلية «الغيتو» أو الحارة المغلقة التي عاشها اليهود في أوروبا التي تكرههم وتحتقرهم، يوم كان الأوروبيون يغلقون على اليهود في المساء، ثم يفتحون لهم في الصباح، كما تفتح الحظائر وتغلق. محكومون بهذا المزاج والخوف والعزلة، ويشعرون أن الكون وسكانه يكرهونهم ويحاربونهم ويطاردونهم، وكتب عن عقلية الحصار والانطواء والخوف، وبناء الحواجز مع الآخرين، كتب عن كل هذا قبل أن ينفذه شارون ببناء الجدار الذي يرتفع أحياناً أكثر من ثمانية أمتار. إنه لما عرّف العالم بحقيقة هذه العصابة ـ كتابة وخطابة وحواراً ـ جابهه هؤلاء الذين اختطفوا أمريكا وإعلامها، وحاصروه كما حاصروا وطاردوا أحرار الفكر غيره وهم كثر. غير أن الحقيقة شمس تشرق مهما حاولوا إرهاب أهلها. والتعاون مع عقلاء البشر من أي دين وجنس ورفع الظلم عن المظلومين رسالة تجمع ولا تفرق.

هذا السلوك الوحشي والغيلة والخداع والإرهاب للأسر وللأطفال والشيوخ والنساء، في فلسطين وغيرها أثار البأس والحمية، عند جموع المضطهدين، وعند ذوي النخوة والرحمة من أمم عديدة، فـ «حركة التضامن العالمية» مع المضطهدين الفلسطينيين أثارت حتى النصارى الأمريكان الغافلين، وجعلت بعضهم يموت دون ممتلكات الفلسطينيين ودمائهم ومزارعهم ودورهم. فكيف لا تثير هذه المواقف والحوادث نزعة النصرة في الأمة، وكيف لا تعيد البأس والنخوة والشهامة للأمة العربية المسلمة التي فقدت الكثير، ولن يعيد لها مكانتها إلا أن يكون للمسلمين قوة تمارس حق



Twitter: @ketab_n

الإنسان في العيش بكرامته في أرضه، يمارس حريته، ودينه ويصون عرضه كبقية الشعوب.

والذي يبدو أن قوى متزمتة من النصارى واليهود تقلق الدنيا وتجمّع الحاقدين وتثيرهم، وتستفز حتى الوثنيين في كل مكان على المسلمين وتثير الرعب منهم، وتستغل النأمة والهمسة وتكبّر وتروّع منها ليمكنهم الحفاظ على المسلمين ـ كما يقول جيمس روبن الذي شغل مناصب مهمة في وزارة الخارجية الأمريكية ـ «أذلاء فقراء» لأنهم كلما اغتنوا أو تحرروا تمردوا![١٦].

ولو تعرض اليهود أو غيرهم من الأمم لما تعرض له الفلسطينيون لكان من الواجب على كل مسلم رفع الظلم عن اليهود ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٨]. فالمسلم عادل يقيمُ العدل على نفسه وعلى غيره، والعدل لن يقوم بلا قوة روحية ومادية.

وفي الوقت نفسه الذي تجتمع فيه جهود المسلمين فمن واجبهم أن يقيموا العلاقة الجيدة مع رواد الفضيلة في العالم، وأنصار الحقوق، وتعريفهم بحقيقة الموقف، فالجاهل يستغله الظالم، والجهل أكبر أسلحة المفسدين في الأرض، فإن لقينا وعياً فذلك ما نريده، وإن لم يتعاطف أحد مع الحقوق فهي ليست متروكة لمؤسسات دولية، يهدمها ويقيمها ذوو النزعات المستبدة، والأحزاب والجمعيات والمنظمات السرية والعلنية والغنية وجماعات الضغط الصهيوني في كل ركن.

لقد كان الداهية تشرشل صريحاً مع نفسه ومع الناس عندما قال عن الأمم المتحدة المنشودة آنذاك: «نريد منظمة قوية ترعى حقوق الأغنياء». فكانت منظمة ترعى حقوق البريطانيين والفرنسيين والأمريكان والروس والصينيين. وسميت الأمم المتحدة نخبة متنفذة من البشرية، والدول الأخرى تنفق وترسل مندوبين وسفارات، وتتبرّك بالمبنى الذي أهدى أرضه المتنفذ اليهودي «روكفلر» وكان غنيمة سياسية لقومه ومالية له أيضاً. ذلك المبنى الذي لا يصدر إلا قرارات استعباد المسلمين واحتلالهم وتبعيتهم، وتأييد من ينكل بهم، ويوم تعطي قرارات هذا المجلس بقية من الحق لهم تعود وتهدمه، كما حدث في قرارات التقسيم في فلسطين، وقرارات ١٩٦٧ للأراضي المحتلة،

---

(١٦) وأوردته بعض الصحف بصيغ أخرى مثل: *Independent*, 14/10/2001.



Twitter: @ketab_n

فأمريكا اليوم ضد هاتين الاتفاقيتين اللتين وقعتهما، لأن حقيقة الغزو الصهيوني قد جاوزت السابق واستطاعوا أن يسرقوا المزيد، فلا عودة عما أسموه «واقعاً» هذا الواقع الذي لا يمكن أن يعترف لمسلم بحق، ويعطي منحة لكل مغتصب نصراني في البلقان أو فلسطين أو الشيشان أو غيرها. ما دامت هذه القرارات تقلص بيضة الإسلام فهي محمودة، ولكن قوة الإسلام الدافعة الجبارة ذهبت وراء كل الحدود وكسرت الحواجز، ولأن العدوان أحيا حيفهُ الغَفَلَة الذين قاربوا الجماد.

فالأمة المسلمة إن تحلّت بالسمات البشرية والإنسانية وتوازنت في فهم دينها، ولم تقتل الحيوية والكرامة في بنيها، هي الأمة العاقلة الخيرة المهتدية الرحيمة التي تكون جديرة بمعرفة الحق وحماية العهود مع شتى الأمم. ذلك أن السلم والأمن لا يصنعهما الضعيف، بل الضعيف هو صانع للفوضى في الكون، وغنيمة مباحة وكنز مكشوف للناهبين، فضعفه يغري الوحوش والخارجين على العدل وعلى قوانين الأرض والسماء. وضعفه هو ناشر لرغبة وشهوة العدوانيين في العداوة وامتهان حقوق الإنسان. وعودة القوى العديدة وتوازنها على هذه الأرض سيكف الإرهاب، ويقيم العدل. فعندما كانت هناك دولة روسية وبأس وقوة في أمة أخرى كان هناك بعض من التوازن وبصيص خافت من العدالة، يشعر به الضعفاء والعالة، فيجدون مكاناً يشتكون له ويسمع صوته للأقوياء ولو نادراً. ولما سادت الوحشية من طرف واحد دبت الفوضى والخوف والرعب والقتل وانهارت موازين العدالة، فلو كان في الغابة أسد آخر لكان للضعفاء في الغابة قيمة، ولما سفحت دماؤها بلا سبب، وبلا حاجة من جوع أو حماية، مسكينة أمة لا دور لها إلا أن منظر أنهار دمائها البريئة الحمراء ممتعة لخصومها. ويقتل الجيل الحاضر منها ترويعاً وترهيباً للجيل القادم، وعبرة لمن يفكر في نيل أي حق مهضوم!!

وإننا بصدد شهود سُنّة إلهية تنتدب العالم كله من مسلمين وغيرهم لإعادة التوازن في هذه الأرض التي صغرت جداً، وضاقت جداً بالظالم والمظلوم، وافتقرت جداً بسبب النهب الشره، وجاعت وماتت جوعاً بسبب الحصارات المستمرة الظالمة على المسلمين في كل زاوية. مات في العراق أكثر من نصف مليون طفل جوعاً وتضوراً، وقالت الصهيونية وزيرة خارجية أمريكا، مادلين أُلبرايت، أمام العالم كله «إنه ثمن يستحق» حتى تهيئ لنهب نفط العراق، أو تقوية إسرائيل وتوفير الجو الإرهابي الصهيوني ليستمر. هذه

Twitter: @ketab_n

المأساة الفاحشة الموحشة ليس لها أن تبقى، بل واجب الإنسان كل إنسان أن يعمل على إقرار العدل والحق في أرضنا هذه المشتركة الصغيرة. بحيث نتجاور فيها بعدل ورحمة وحق. ونقيم ما يبقي لنا جميعاً سمة الإنسان وكرامته. وهي المسألة الأكثر حقاً وعدلاً وإنسانية من أن يقوم بلد باغتيال وقتل وإجاعة أكثر من نصف مليون طفل في مهودهم. وهي قضية تلح على بذل التضحية في سبيلها وإنهاء هذه السنن الجائرة المفروضة بسبب عقدة مرضية وانحراف بشري، وعقدة نقص مهينة اسمها «الصهيونية» ليس للبشرية أن تدمر نفسها بسبب عقيدة خبيثة، لقد كانت الشيوعية الجائرة المدمرة شراً انتهى من الكون تقريباً، وعلى الإنسانية أن تنهي هذه العقيدة الصهيونية العنصرية الخبيثة، وتطهّر منها الأرض، عقيدة فاسدة استغلها أفاقون وقتلة، بعضهم مدانون ومطاردون بقوانين دولية مثل ـ شامير وشارون ـ ولا عيب في استخدام هذه المصطلحات، فهذه العصابات صنفت هكذا وبأشر من هذا في قوانين دولية من الأمم المتحدة التي قالت الحق وأعلنته ثم أجبرت على الصمت مكرهة. وحتى لا يموت الملايين مستقبلاً بسبب هذه الشجرة الخبيثة. إن كرامة الإنسان في قادم أمره مرتبطة بإنهاء الشر وفكر الشر وسلوك الأشرار، والتضحية لإنهائه، وليست الصهيونية أقل شراً من النازية التي حصدت الملايين، وأنتجت شراً أفظع منها وهو قوة وتنفيذ الفكرة الصهيونية، والنتاج العنصري لظروف أوروبية مؤلمة وزعت أفكار الشر هذه.

وكما احتاجت النازية نحواً من ثلاثين مليوناً من البشر يموتون في سبيل إنهائها، فقد يحتاجون لنحو هذا العدد لإنهاء الصهيونية أو أكثر. وكلما اجتثت وهي صغيرة كانت أسهل، وليساهم المسلمون والنصارى واليهود في استئصال السرطان العنصري المدمر. ومن لم يستطع إنهاء الشر فلتكن رسالته التخفيف من أذاه، والأمم المتحدة كانت إلى بضع سنوات تقر بأن الصهيونية حركة عنصرية مضرة للبشر، ونحن بالسعي نحو تحالف أممي ضد العنصرية والداء الصهيوني، لا نقول غريباً من القول بل ننبه ونذكر بقرار الأمم المتحدة الذي أقره المسلمون والنصارى والبوذيون والشيوعيون والسود والبيض والآسيويون والعرب والغرب.

وهذا الشر الذي أقرت الأمم المتحدة ـ في عهد سابق ـ أنه عنصرية وشر يحتاج لتكاتف عالمي لاجتثاثه، وقرنته بعنصرية جنوب افريقيا الدابرة، ولكن قوة أمريكا أخرجت الصهيونية من قائمة العصابات العنصرية المدانة دولياً،



Twitter: @ketab_n

ولكن واقع الصهيونية اليوم أشر على البشرية من أي زمن مر، وإن اعترف العالم يوماً بالقوة بأفكار وممارسات هتلر، وقبل باحتلاله لدول مجاورة، وحاولت بريطانيا وأمريكا إرضاءه والقبول بتوسعه، ولكن شره لم يقف عند حد، حتى احتاج لموقف عالمي، ولعشرات الملايين لإنهائه، وهذه ثمرته الخبيثة تمتد في أرضنا، ومهما يكن الغرب رضي بهذا الشر، لأنه يقتل غيره، أو لأنه يدمر العالم الإسلامي والعربي، فإنه يدرك اليوم أكثر من أي زمن مضى أن الشر الصهيوني قد اختطف البيت الأبيض، والمال والسلاح والإعلام، وأن هذه العصابة يجب إيقافها ليس في فلسطين فقط، بل في واشنطن قبل أن تدمر بقية المجتمع الأمريكي وتستهدف الشعب، وترسل أبناء أمريكا خدماً حقراء، ممتهنين، يموتون في كل مكان ليصل نفط العرب إلى حيفا، أو لتطارد أمريكا الفلسطينيين، أو ليسكت العالم عن الحديث عن جرائم هؤلاء.

يحتاج العالم اليوم للتضحية بكل أنواعها لإنهاء بذرة الشر، وبوادر التضحية من المسلمين وغيرهم لتنفيذ هذا الواجب الإنساني خطوات مهمة لإنقاذ الناس جميعاً منه، وكما أُنقذ العالم ومنه الشعب الألماني من النازية فإنقاذ اليهود والنصارى والمسلمين من شر العنصرية الصهيونية رسالة عالمية تستحق الاحترام والتكاتف والتضحية من أجلها، وتستحق التأييد والتضحية من جميع البشر، بقطع النظر عن أجناسهم وأديانهم، وهناك طائفة كبيرة من اليهود متدينين وعلمانيين لا يقل عددهم في مدينة نيويورك وضواحيها عن مليون يهودي ـ كما قالوا ـ يحاربون الصهيونية، أو يخالفون على الأقل فكرة وجود إسرائيل، ويشاركون المسلمين والنصارى في التحذير من خطرها، ولا يسرون موقفهم من هذه الحركة الشريرة، بل يكتبون ويتظاهرون، ويؤيدون المسلمين في التحذير من هذه الحركة التي كانت نتاجاً لأزمة القومية والعنصرية الألمانية، فأنتجت النازية وبذورها في ظروف أقدم من تحقق الشر الصهيوني الوبيل على الأرض.

إن هناك رصيداً غير أخلاقي، وظلماً واسعاً، سوف تكون نتائجه وقوفاً ضد الظالمين والمؤسسات الظالمة، وهبّة المسلمين بجميع الوسائل وبخاصة الإعلامية والتثقيفية للعالم سوف تحد من الفساد، وتري رواد الخلق والعدالة والفطر السليمة ما يعانيه المظلومون، ومناصرة الضعفاء بكل طريقة، ورعايتهم مالياً وتعليمياً واجتماعياً هي رسالة من ألح ما نواجه.



Twitter: @ketab_n

وهذا الشأن الكبير، والمسألة الفلسطينية الجامعة سوف تجمعنا دائماً مع رواد الحرية والكرامة الإنسانية، وتؤلف بيننا وبينهم، وتجمعنا على شأن عظيم جامع، فهو دين وهو عرض وهو تاريخ ومستقبل، وبقاء هذا التحدي هو عامل من أكبر عوامل التوحيد لهذه الأمة المسلمة، وعامل بحث عن القوة والحماية، فسرطان التدمير ووعوده الشريرة لكل المجتمع العربي والمسلم يحيي الموات ويحرك الهمة: همة المستضعفين، وهمة المتفرجين والعاطلين عن المشاركة في تسيير حركة العالم نحو مجتمع عالمي أكثر عدالة وأمناً. كان الصهاينة يبحثون عن الشيخ صلاح شحادة فقتلوا معه خمسة عشر شخصاً، وهدموا أكثر من بيت، وأغلب القتلى كانوا من النساء والأطفال النائمين الآمنين، وقد صنفت المجزرة على أنها بحث عن متطرف أو متطرفين.

إن فكرة المقاومة ورد العدوان وإنهاء الإرهاب والعنصرية موجة تجتاح عالم المسلمين في كل مكان، مؤذنة بنهاية قرون القهر والاحتلال والغبن والعنصرية. يقولون محزنة بعض أساليب المظلومين في الدفاع عن أنفسهم ومرعبة، فمحزن أن ترى البنات الشيشانيات يقدمن على الاستشهاد ـ ربما بسبب فناء الرجال ـ والفلسطينيات أيضاً، والمتفلسفون في هذا لا يحبون أن يسمعوا أخبار المظالم، ومشاعر المتفلسفين مرهفة، تنادي فقط بأن يسكت المظلوم حتى يأتيه دوره في الذبح، وعليه أن يستسلم لأن المجرم الشهير «رجل سلام»[١٧]. ويجهل العنصريون المجرمون سنة المدافعة وأن ذرية هؤلاء المقتولين قد يقوون ويرتفعون يوماً غير بعيد، ويزيدون، كما قال علي (رضي الله عنه) «بقية السيف أبقى».

(١٧) وصف بوش شارون بهذا الوصف «رجل سلام»، فأثار موجة من السخرية، حتى بين اليهود، وكان أحد التعليقات المعبرة عن هذا أن شارون نفسه لا يصدق هذا الوصف!!



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٦ ـ

# من كوكا كولا إلى مكة كولا

وكيل سابق لوزارة التجارة الأمريكية وعميد كلية الإدارة في جامعة ييل، يقول إنه لو حدّثه أحد عن أن الشركات الأمريكية كان يمكن أن تتضرر بتصرفات الحكومة لشكك في ذلك، ولكن ما رآه أمام عينيه جعله يعيد التفكير في قناعاته وخبرته الواسعة السابقة. ويحذر من أن تزايد العداء لأمريكا قد يهدد النظام العالمي للتجارة. ففي فرنسا كان النقد ضد ما تقوم به أمريكا، ولكن النقد الفرنسي ـ وقت حرب العراق ـ يعترض على هوية أمريكا وما تمثله، وفي أمريكا طالب الناس حتى باستبعاد اسم البطاطا الفرنسية المقلية «فرنش فرايز» وعدلوا اسمه ليكون: «بطاطس الحرية». وطالبت شعارات في مظاهرات أمريكية بالحرب على فرنسا بعد العراق، وفي أمريكا طالب رئيس مجلس النواب الأمريكي بحواجز ضد المستوردات الفرنسية إلى أمريكا مثل الخمور. وليست هذه عواصف قليلة في ما تعبّر عنه على الرغم من قصر زمانها، ومحدودية تأثيرها في موضوع العراق، ولكنه دلالة لما يواجه العالم من مخاطر، ودلالة على التوترات العميقة بين هذه الشعوب، وما يمثله ذلك على الاستثمارات الأمريكية في العالم خارج أرضها والتي استثمرت فيها ما يزيد على تريليونين وثلاثمئة مليار دولار، وعائداتها منها تقدر بنحو ٣٠ في المئة[١]. وظاهرة المقاطعة، ومستقبل هذه الاستثمارات والشركات أضحى مهدداً بسلاح جديد هو «ثقافة المقاطعة»

---

(١) «التريليون ألف مليار دولار،» **نيوزويك** (١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣)، ص ٥٢ ـ ٥٣.



Twitter: @ketab_n

الذي أصبح من أخطر أساليب المقاومة السلمية العامة، وطرق الضغط المدني التي توافرت بأيدي المستهلكين في العالم. وكان المناسب لها ألا تعرض هذه الاستثمارات للخطر، إنهم قد لا يرون الحرب على العالم الإسلامي مضعفة لهذه المكاسب، بل قد تضاعفها! فهل كل الانتصارات الحربية مغانم؟

تحدث إسحق رابين قبل مقتله في خطابه أمام الممثلين للتجارة في ما أسموه «الشرق أوسطية» في عمان، عن «المقاطعة الظالمة» كما وصفها والتي مارسها العرب ضد إسرائيل، وكانت شكواه ظاهرة الألم، لوقع المقاطعة على الاقتصاد الإسرائيلي، وقد سبق ذلك حديث وزير خارجيته آنذاك، شيمون بيريز، في كتابه عن **الشرق الأوسط الجديد**، ثم أعقب ذلك الكثير من الحديث عن موضوع المقاطعة العربية المضرة للصهيونية. وفي وقت الحرب العراقية الأمريكية الأخيرة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ كُتبت مقالة بعنوان: «وداعاً كوكا كولا مرحباً مكة كولا»[٢] أشار فيها لعدد من القضايا المتعلقة بالمقاطعة وأثرها؛ فبمقدار ما تربح أمريكا حروباً سريعة في الميدان العسكري، أو هكذا يبدو فإنها تخسر وبسرعة في مجال التبادل التجاري، فهي تخسر في الأسواق الإسلامية، ولكن أكثر من ذلك فإنها تخسر السوق الأوروبية الغنية، وهناك هجر لشركاتها ولأسمائها التجارية المعروفة.

وهناك أوروبيون كثيرون قاطعوا البضائع الأمريكية بل وقاطعوا فكرة السفر السياحي لأمريكا لأسباب قناعتهم بأهمية مقاطعتها اقتصادياً. وقد تكون هذه المقاطعة يسيرة الأثر الآن، ولكن ما كان محرماً من المقاطعة التي كانت مستبعدة في الماضي أبيح اليوم في عدد كبير من أقطار أوروبا قبل أقطار العالم الإسلامي. الأوروبيون يريدون بهذا أن يفهم الرئيس الأمريكي الموقف، والشركات الكبرى الأمريكية أصبحت أكثر قلقاً؛ فشركة ماكدونالد «للطعام» وشركة إكسون للمحروقات عانت من أثر المقاطعة، وقدمت بعض المحلات ومواقع الإنترنت في أوروبا أسماء شركات للمقاطعة منها أمريكان إكسبرس ووالت ديزني وغيرها، وبلغ الأمر إلى باعة الدرجات، بل في ألمانيا رفض

---

(٢) Will Hutton, «Goodbye Coke. Hello, Mecca Cola, This Boycott of U.S. Products Could Really Do Some Damage,» *Sunday* (20 April 2003).



Twitter: @ketab_n

أحد الأطباء أن يعالج بريطانيا وأمريكيا بسبب موقف بلديهما من الحرب! وشراب «مكا كولا» الذي يقوم على شركته تونسي يروج شعارات الشركة فيوبخ الشرب بغباء ويمجد الشارب الملتزم الذي لا يشتري شراباً أمريكياً، وراج هذا المنتج ليس في أحياء المسلمين فقط في فرنسا بل في بلجيكا وألمانيا.

وشركات الدعاية التي تروج للمنتجات الأمريكية طلبت من الشركات الأمريكية أن تخفف من ذكر أو عرض بلد المصدر، بل وتطلب أحياناً تغطيتها، والعشر شركات الكبرى في العالم منها ثماني شركات أمريكية هي كوكا كولا، ومايكروسوفت وآي بي إم، وجنرال إلكتريك وإنتل ودزني وماكدونالد ومارلبورو: وتقدر قيمتها بـ ٣٣٧ مليار دولار، وفي الدول العربية أصبحت الشركات الأمريكية تخفي اسم البلد الأصلي لمنتجها وتذكر الوكيل المحلي.

وفي مذكرة سرية نشرتها **الديلي تلغراف** صدرت عن شركات أمريكية تطالب أن تبرز الجذر المحلي للمنتجات، ولا تظهر العلم أو العلامة الأمريكية. لأن الحرب على العراق تخاطر بالشهرة الأمريكية وتقضي على أسطورة الحلم الأمريكي. وحذّر بعضهم من أن تكون المقاطعة بداية لموقف وعمل كالذي واجه به العالم النظام العنصري في جنوب افريقيا، حتى خضعت جنوب افريقيا للموقف الدولي العالمي الذي أنهى حكومتها العنصرية. ولكن هذا التوقع مبالغة في هذه الظروف. غير أن موقف أمريكا أثار أزمة حتى مع الأولياء القريبين؛ في شهر ربيع الثاني ١٤٢٤هـ (حزيران/ يونيو ٢٠٠٣) اشترت الخطوط الجوية الإماراتية والقطرية أكثر من خمسين طائرة أيرباص من أوروبا، وهذا يعني تضرر السوق الأمريكية «شركة بوينغ» بهذه الحركة. وقد لا يكون الموقف في هذه الحال بذي صلة مباشرة بالمقاطعة، ولكن قضية البدائل معلومة.

وأثر هذه المقاطعة هو البحث عن البدائل لهذه الشركات التي تدعم في النهاية منتهكي حقوق الناس والدول، فتسبب هذه الشركات ضغطاً على ذوي القرار بعكس ما يفعلون، ولا شك في أن هذه الشركات قد تكون أقدر من الدول على الضغط، لأن بعض الشركات تفوق ميزانيتها المالية



Twitter: @ketab_n

ميزانية دول عربية عدة، وعمال هذه الشركات لهم صوتهم في بلادهم، وعدد كبير من المتحكمين في هذه الشركات لهم مناصبهم أو علاقاتهم الكبيرة في الحكومة الأمريكية وغيرها من الدول المؤثرة. وهي طريقة في التوعية العامة بالدور الفردي، وتخلص الحكومات المحلية من اللوم المباشر، فلا يستطيع حاكم أن يجبر الناس على شراب كمالي لا يريدونه، ولن يمنعهم من بديل يريدونه. وفي حال التدخل في خصوصيات الناس فسيكون تدخلاً ضاراً ومكشوفاً. والناس يملكون التأثير، وذكرت شركة كوكا كولا، ونقلت ذلك عنها **بي بي سي** على صفحتها في الإنترنت أنها تأثرت بالمقاطعة في العالم العربي[٣]. فصادرات الولايات المتحدة لبلد عربي واحد نقصت بمقدار سبعمئة مليون دولار، كما أشارت الصحف قبل بدء الحرب بأكثر من شهرين، وأهمية الأسواق الإسلامية كبيرة وتزيد مكانتها، ويجب أن يكون لأسواقها وسكانها احترامهم السياسي وكرامتهم التي لا يعيبها أن تستفيد من مكان أسواقهم في ترسيخ مواقفهم، وكانت مواقفهم قوية ومرهوبة في زمن المقاطعة السابقة لإسرائيل، وأثارت أزمة كبيرة للمفسدين الصهاينة ومن يناصرهم، وبعد تجريد الحكومات من سلاح المقاطعة ثم قلبه على العرب بلداً تلو الآخر، فإنه سلاح يتحول لأيدي عامة الناس، فيملكون تنفيذه والتأثير به.

إن الأمن والاستقرار في بلدان العالم الإسلامي لا يتم من دون البحث الجاد في ضمان ضروريات الناس، واستقرار قرارهم، وصعود قيمة موقفهم، وقلة الاعتماد على شركات ودول أخرى. والتوجه لتعزيز الشخص المتكامل الذي يرى الأمن في منظوره الواسع، والاستقلال في إطار واقعي، والتعامل مع شعارات «العالمية والاتفاقات الدولية» بموقف أكثر وعياً وإدراكاً. وتنوع البدائل ليستقر الأمن الداخلي للدول. فإذا كان الإقبال على الكماليات يضمن بقاء كثير من الدول في دوائر الفقر والتبعية، فإن حروب القمح تهدد مستقبل العالم الإسلامي، والمحاولات الناجحة في تدمير الحياة الاقتصادية بالمقاطعة المعاكسة، كما حدث ضد ليبيا والعراق وإيران والسودان، أو ما سُمي بالعقوبات على «الدول المارقة» فإنها عقوبات يمكن أن تدخل فيها بقية الدول الإسلامية.

---

(٣) معظم المعلومات المشار لها من الدراسة السابقة من هذا الكتاب.



Twitter: @ketab_n

وإنه من الوعي بالتحولات أن ندرك أن المقاطعة الرسمية ولّى زمنها، وأصبحت الدول أقل قدرة على فرض أي نوع من أنواع الحماية ضد منتج ترعاه دولة قوية، أو شركة قوية، أو عصابة ماهرة، أو شخصية نافذة، وأصبحت المقاطعة الشعبية هي الموقف المؤثر ضد منتج فاسد، أو شركة تضر بالمجتمع، أو دولة مستهترة بكرامة الإنسان، وهذا النوع من المقاطعة مجرد موقف شعبي عام، وسهّلت هذا الموقف طرق عديدة منها وسائل الإعلام الأرخص والأنفذ التي توافرت لكثير من عامة الناس، ومتى قامت هذه المؤسسات الهادفة بالتوعية الصادقة وغير المنحازة والعادلة فسوف تبني رأياً صحيحاً ومؤثراً في التجارة العالمية. ولم أزل أذكر قصة المرأة اليابانية التي اعترضت على الشركات الأجنبية في بلدها وأنهم يستطيعون أن يبذلوا ما شاءوا من دعاية ويستصدروا قرارات بأن يدخلوا بضاعتهم ولكنهم لن يستطيعوا أن يضعوا حبة من أرزهم على مائدة طعامها في بيتها. فهذه الأم الواعية تشارك في القرار المصيري للاقتصاد والسياسة، وتجعل من بيتها مركزاً لموقف سياسي واقتصادي بليغ الأثر عندما تتسع دائرة الوعي به.

إن القرارات الرسمية للحكومات المحلية في الاقتصاد العالمي أصبحت ضعيفة، وقد تصبح في ظرف التوجهات العولمية مستقبلاً ـ إن بقي للعولمة أولوية ـ أكثر ضعفاً، بل وغير قانونية، وهذا القرار الذي أخذ من الحكومات، وانتقص سيادتها توجه للشركات الدولية الكبرى ودولها، وتوجه في الوقت نفسه للمستهلك ولن تستطيع الشركات الكبرى مقاومة القرار الشعبي الواعي، بل سيكون سنداً للحكومات المحلية غير مباشر إن أرادت دعماً ومساندة، وسيكون مؤثراً في الموقف الدولي العملي البعيد المدى كلما كان مستقلاً ناضجاً واعياً. ومن يشكك في قدرة عامة الناس على الوعي بهذه المآزق فهو محق، غير أن هامشاً من المناورة والضغط يؤثر في سلوك وقلوب تجار الشركات الكبرى. ومزيد من الغفلة أو السلبية لا يجوز إقراره ولا إبقاؤه في مجتمعاتنا. وسيكون المجتمع الغافل مصدر ضرر كبير لنفسه، فلا ينفع أو ينتفع إن أراد ولا يضر إن تضرر.

إن للمقاطعة آثاراً مهمة أخرى تتجاوز الجوانب الاقتصادية إلى أبعاد



Twitter: @ketab_n

ثقافية ونفسية واجتماعية في غاية الأهمية، فالمقاطعة تشيع جواً من الموقف والمشاعر العامة والمشاركة في ممارسة حقوق الأمة، ورعاية مصالحها في الدائرة الدولية، والقيام بدور الخدمة للهم العام، ليتجاوز بهذا مجال الفرد والأسرة والبلد، وتوطن الإنسان على استنكار الظلم، والتصدي للبغي بطرق تخفف من غلوائه، وهي أساليب لا يحسن التعامل معها من كان غائباً عن الأحوال العامة للأمم، ومواقفها، ولكن الفرد الواعي سيكون دوره في حال إدراكه أكبر مما يتوقع هو.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٧ ـ

# كسب المعارك وخسارة الحرب والقيم

يصف بعض الكتاب ما يحدث بهذا الوصف أن العرب سوف يخسرون هذه المعركة ولكنهم سوف يكسبون الحرب. ويرى الكاتب نفسه أن الحرب تبدأ يوم نهاية المعركة السريعة أو الطويلة، فهناك دول تغلي وتنافح وتستيقظ. تخسر أمريكا الصديق، وتخسر الموالي وتخسر البعيد، تكبراً وتعجرفاً وغروراً.

الشاعر الإنكليزي العنصري روديارد كيبلنغ الذي ولد وعاش في الهند ثم سكن سنين من آواخر حياته في أمريكا، وكتب قصيدة مؤثرة تداولها دارسو الإمبريالية فيها يستحث الشاب الأمريكي أن يخرج للعالم ويستعمر الدول البعيدة ويغامر في الأرض، ويمتلك بلاداً لقوم الرجل منهم «نصفه شيطان ونصفه طفل» والقصيدة التي تعتبر من تراث العنصريين المستعمرين مليئة بالانتقاص للبشر غير الأنغلوساكسون، وطافحة بالحث على احتلال بلاد الأطفال الشياطين!

ثم استجابت أمريكا لنداء التوسع والسيطرة، وخرجت قوة استعمارية تحارب حقوق الإنسان وحقوق الاستقلال، وحقوق الشعوب في ممارسة دينها وكرامتها بعزة واستقلال. ونشرت قواعدها في كل ركن من الأرض، وامتدت مخالب ديبلوماسيتها للسلطات الوطنية في كل قطر، وقرارات اغتيال من يخالف رغبتها تجتاح السكان في كل مكان يعارض وجودها، وكانت أمريكا الجنوبية ميداناً موحشاً لهذه الممارسات[1]. واصطفت أمريكا في آخر

(١) يعتبر كتاب: **محاكمة كيسنجر** نصاً طريفاً في هذا الموضوع، وكتابات: فيليب آجي، =



Twitter: @ketab_n

رتل طويل من المستعمرين المفسدين للحياة والمذلين للشعوب لتكون مثلهم وتفعل فعلهم! ثم تجاوزت سابقيها في هذا المجال. وكانت تحذر وتنذر وتؤكد أنها ليست روما ولا بريطانيا ولا فرنسا ولا روسيا الاستعمارية، فما الذي حدث؟ لا شيء، تكرر السير نفسه والطريق الممل الطويل كما هو. ودافع رؤساء أمريكان في خطب عامة عن التوجه الاستعماري لبلادهم، وأنه حقيقة لا تعاب كما قال روزفلت: «.. التوسع ليس أمراً يستدعي الاعتذار عنه لكنه يدعو للفخار»[٢]. وكان قد طبقه الرئيس ماكنلي حين استعمر الفيليبين، ودعا الناس لصلوات الشكر على الانتصار، وهبّت موجة من الرغبة في احتلال بلاد أخرى، وتولى الترويج لذلك قوم لم يكونوا من دعاة الإمبريالية، وجرائد كانت تخالف التوسع الاستعماري، مثل **شيكاغو تايمز هيرالد**، وتعالت النداءات نحن بحاجة أيضاً لبرتوريكو وهاواي و... إلخ[٣]. تماماً مثل الشعور الذي رافق سقوط بغداد بعد نحو قرن من سقوط الفيليبين. وهذا ما نادى به وزير خارجية أسبق «سيوارد ١٨٦١ ـ ١٨٦٩» «وأن [التوسع] من مصلحة التصنيع الأكبر حجماً ومبيعاً.. وأن الأمم المزدهرة يجب أن تتوسع.. وأن البشرية سوف تعترف قريباً بأن الولايات المتحدة وريثة الدول الكبرى القليلة التي تبادلت السيطرة الحاكمة على العالم»[٤]. وتوسعت أمريكا في أقل من عقدين من الزمان ١٨٨٩ ـ ١٩٠٨ خمساً وعشرين مرة[٥].

طردت أمريكا بريطانيا من المستعمرات لتحل محلها، وطاردت الفرنسيين في افريقيا كتشاد وغيرها لتسيطر هي على أرضها وخط النفط فيها، واختلفت مع بريطانيا وحاربتها في السويس لتكون هي البديل الاستعماري، وهكذا طاردت الفرنسيين معها. إنها تمارس السلوك الاستعماري نفسه بعنف أكثر وإرهاب أشد وصوت أعلى وتستفز بهذه الأعمال خصومها. فما الذي عرف الإنسان من ثقافة جديدة وما الذي يفرق بين المجتمعين والثقافتين سوى مرور

---

= الذي كان جاسوساً سابقاً في السي آي آيه، ثم كتب أكثر من كتاب يعترض على أخلاقيات المهنة وجرائم السي آي آيه التي عاش الكثير منها.

(٢) فؤاد زكريا، **من الثروة إلى القوة**، ص ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٧.



Twitter: @ketab_n

زمن فقط والموقف والثقافة واحدة، ثم يهدد هذا الوجه الاستعماري القبيح كل من يصفه بحقيقة دوره واستمرار قيمه.

أمريكا تقول إنها الحرية وفكرة الحرية وحقوق الإنسان! حسناً وماذا عن حقوق المسلمين الأمريكان في أمريكا؟ وما الحرية التي أعطوها لشعب من غير جنسهم ودينهم؟ لا شيء إلا المرارة والمحاربة والرهق والقلق المستمر والأساطير. وهذا الاستياء الواسع من الامبراطوريات العنيفة داخل أرضها وخارجه ليس مما يخدم مصالحها البعيدة، فهو يصنع المزيد من الخصوم، أو ما أسماه بوش بالكراهية، كما أن الطمع في التوسع يكون على حساب تركز القوة، ويملأ بطن الامبراطورية بالنغل والاضطراب والخصومة. وانتشار جيوش هذه «الامبراطورية الأمريكية» ـ كما أسماها مفوض العلاقات الخارجية في المفوضية الأوروبية[٦] في كل أنحاء العالم من الفيليبين وكوريا والعراق وأوروبا وجنوب أمريكا مما يجلب التعب والمآسي والتمزق، وما أشبه الليلة بالبارحة يوم قال تشرشل عن روسيا في عهد ستالين: إن الاتحاد السوفياتي كالذئب الجائع المنطلق في القطيع ـ يعني أوروبا الشرقية ـ وسوف يبتلع الكثير ولكنه لن يستطيع هضمه. ذلك تماماً مستقبل توسع بلا حدود، توفير أمن ومسؤولية عامة على العالم قد لا يطيقونها.

وهي تبث في الجماهير شهوات وتقسر الشعوب على الأمركة، فهل تعني الأمركة المجاعة والذلة والاستعمار، وقتل من يخالفهم في الدين خارج أرضها! وتعني رصد الجواسيس على المساجد والمدارس والبيوت والاعتقال بالشبهة، كما يعاني المسلمون اليوم في أمريكا! هل تعني الأمركة محاربة من يكون له رأي مخالف للتوسع والاستعمار كما حصل مع نجوم هوليود ومثقفي اليسار والمستقلين![٧].

---

(٦) من الغريب أن كيسنجر في كتابه **هل تحتاج أمريكا لديبلوماسية**، استخدم هذا العنوان ساخطاً منه، وذلك في المقال الذي ألحقه للكتاب بعد حوادث نيويورك، ولكن يبدو أنه نسي أن الفصول الأولى في كتابه عنون بعضها بالعنوان نفسه تقريباً.

(٧) نشرت مجلة **بروجرسيف** ملفا طويلاً ومتتابعاً عن ملاحقات الحكومة الأمريكية لمن يخالف موقف السلطة بعد أحداث أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م. وقد كان مليئاً بالممارسات الغريبة ضد منتقدي موقف الحكومة، وضد الذين أشاروا إلى وجود عدل في الإسلام ومجد حضاري. وطرد أستاذ في ولاية مين بسبب إشارته إلى بعض الجوانب الإيجابية في الإسلام علماً أنه كان يسارياً ولم يكن مسلماً. كما أشار الملف.



Twitter: @ketab_n

أحد شعراء اللهجات العامية في جبال الحجاز ـ ابن دحمان ـ ثارت قريحته بأبيات من أجمل الحكمة، تتحدث عن مغانم الهجرة وإفلاس أحلاس البيوت، وكان الشاعر الحكيم مسناً هرماً، فانتبه إلى أن أولاده بين السامعين، وخشي أن يتأثروا فيهاجروا ويتركوه، فنقضها في مجلسه، متحدثاً عن محاسن الإقامة، في بيت دافئ يقيه البرد ـ لأن جبالهم باردة ـ وإن جاع عجل له الطعام، ثم أبدع في تحسين فوائد الإقامة وقمع أفكار السفر. فلعلها أفادته مع بنيه آنذاك، ولكنها صنعت موقفاً مضراً ومكرراً، فعلى الرغم من الفقر وسوء الحال، كانت تقف أفكار الإخلاد إلى الأرض، وتقمع طموح الهجرة المفيدة، حتى القريبة. والفارس ـ ابن حثلين ـ بعد أذى الاغتراب يتحدث عن محاسن الإقامة ومجالس بني العم والخال، يحسّن منافع الإقامة، ومثل ذلك تجده في أدب المهجر الشامي الفصيح، وفي العامي منه ما يوقظ الأحزان ويستهل الدموع.

وهي مظاهر لثقافة عمت بلدان المسلمين في القرون المتأخرة، وعاقتهم بسبب الضعف، والجهل وحصار الأقوياء عن الهجرة، وهي مشاعر بشرية عامة، غير أن زمن الانطلاق الأوروبي للمهاجر، كانت له ثقافة مخالفة قريبة من ثقافة المهاجرين الدعاة للدين، أو المغامرين العائدين بالغنائم وأحمال الذهب، أو من سيذهبون إلى جنة الدنيا أو مجموع الجنتين كما حدث في ثقافة الأمريكيتين ومهاجرها، وعلى الرغم من وجود الأحزان إلا أن الانطباع الإيجابي تحقق من خلال ثقافة المغامرة وتبجيل المغامرين. وقام أدب ضخم يحدو الناس للهجرة، زاخر بأساطير وحقائق تلهب مخيلة الناس لحياة جديدة في مكان جديد وعالم غريب، وربما لنضال مرغوب، كما ذكر ريجيس دوبريه، المناضل والمفكر الفرنسي، أن هجرته الشهيرة لأمريكا الجنوبية ومغامراته ونضاله في صفوف الشيوعيين في غابات أمريكا الجنوبية كانت تلك المسيرة المهمة بسبب رواية. وكان لخطب الوعاظ النصارى المتطهرين [بيوريتان] المسيحيين أبعد الأثر في الهجرة النصرانية واستعمار قارات جديدة.

هجرة الغربيين للأمريكتين أكسبت القارات التي لم تهاجر ولم تغامر



Twitter: @ketab_n

مكاسب كبرى، فنبات الذرة بأنواعه المحسنة جاء من أمريكا، والطماطم جاءت من أصقاع المكسيك، والبطاطا والفلفل وغيرها من الثمار، وبعض هذه النباتات والثمار أنقذت الناس من مجاعات قاتلة، فالبطاطا كان أثرها في أوروبا أثراً يؤرخ به في الإنقاذ من المجاعات التي كانت تجتاح البلدان الشمالية بخاصة مثل أيرلندا، حتى هيأ الله لهم البطاطا المغذية التي لا تكلفهم زراعتها كثيراً. فهي قليلة التكلفة ومغذية ووافرة الإنتاج. وكم غنمت البشرية من الخير العميم بسبب الهجرة والتحول، وذلت أمم وانقرضت حضارات لأنها لم تركب أهوال المحيط. ترى لو مد المسلمون تجارتهم شمالاً أو غرباً عن الأندلس كما فعل الحضارمة مع إندونيسيا، هل كانت مسيرة التاريخ نفسها كالتي نراها اليوم؟ إن هذه الفكرة ليست على طريقة كتاب «لو في التاريخ»، ولكنها مشاركة لمؤشرات المستقبل وثقافته، أهمية مغادرة ثقافة الانغلاق وتمجيد الإقامة والقعود. كانت بضع سنوات شهدتها في أوروبا مع بداية «العشرية الهجرية الثانية»، التسعينيات الميلادية، رأيت فيها شباباً من مناطق عديدة يمرون بلندن متجهين نحو شرق أوروبا، أو نحو روسيا، دعاة وتجاراً، رأيت فيهم ملامح حياة جديدة، رأيت شخصية المغامر الواثق، صاحب المبدأ والخلق، صاحب الهدف، يختلف عن الذين يقبعون على أبواب الخمارات، يقتاتون التفاهة ورخص الحياة، وغلاء المعيشة في المصايف، كنت ألمح دوافع جديدة، وهمماً ورجولة، تعيد لك أخبار المغامرين القدماء الناضجين، لست تقرأها في كتاب بل تراها بلا وسيط، غير أن بعضهم وللأسف أساء، فأغلق الطريق على البقية، ولعل للهداة مع الأيام عودة.

ظاهرة الهجرة الواسعة مع المحافظة على الدين والهوية، سوف تكون من أهم محطات مستقبل الأمة المسلمة، إن استطاعت أن تحافظ على دين المهاجر ولغته. ذكر لي أحد العرب الذين يقيمون في جزيرة نائية في مناطق أمريكا. الوسطى، قال إنه كان وكيلاً لشركة، وقد جاءته مكالمة لإصلاح جهاز في قرية نائية في هذه الجزيرة، يقول وعندما بدأت في إصلاح الجهاز قلت «بسم الله» فتعجب صاحب البيت وقال ما شاء الله أنت مسلم وعربي أيضاً قلت نعم فقال وأنا أيضاً، قال من أي مكان قلت من فلسطين قال وأنا أيضاً، قال لم أكد أصدق ما أسمع وأرى في أنأى جزر العالم. قد تكون هذه القصة



Twitter: @ketab_n

فيها من الاتفاق والطرافة ما فيها، وليست دليلاً خاصاً لنا هنا، على هذه الفكرة المرادة، ولكن رغبة المسلمين في الهجرة والمغامرة، قد لا تكون كلها بسبب الظروف في حال كحال الفلسطينيين، غير أن الهجرة لطلب العيش، مع بقاء الدين والخلق واللغة والاتصال سوف تصنع عالماً من التواصل الإسلامي الكبير، فهذه المجموعات يملأ قلوبها الدين والخلق والتماسك، وهي أكثر وعياً وتواصلاً من كل موجة هجرة سابقة. وليس هذا غريباً بين المهاجرين، غير أن بقاءهم على أصلهم ودينهم وعواطفهم، بل هجرتهم أحياناً للمحافظة على هوياتهم يجعلهم أقرب للإصلاح والتأثير ورفد الأمة المسلمة بخبرة وثروة، ووعي وتجارب من حياة الأمم. ولا بد من أن تثور في حياة الأمم الشابة همة الحركة والهجرة والتنقل واختراق الآفاق. وهي بهذا تجعل من نفسها ومن الآخرين قدرة رائدة في التجديد، وغرس المتعة والقوة والفائدة في قلوب الذين يغامرون في الآفاق، ويصنعون الأمجاد لدينهم ولأمتهم. وهم بذلك يغادرون حياة الركود والسكون والهوان، ويبنون مجتمعاً جديداً ذا جاذبية وأثر، فحملات التشويه الموجهة لهم من أعدائهم ليست قدراً مستقبلياً جبرياً لا مفر منه.

فبمقدار ما يزيد في تشويهه الأحقاد والمصالح سوف يلوح الوجه الإيجابي للمغامرين الأفاضل، وللمهاجرين الصالحين المنفتحين الواثقين بما لديهم، فهذا سيكون كفيلاً بإصلاح ما تفسده الأحقاد العمياء. وكلما وجد الجد في إحسان الخلق وتهذيب النفوس في بلاد الإسلام ومنابعه كان رافداً وشاهداً عملياً على ما ستغنمه المجتمعات من أخلاق المسلمين وتعاملهم. لأن المودة والبر ورعاية الحقوق مقصد الشريعة وغاية رفيعة من غايات البشر، وتحقيقاً لمصالح العباد بدءاً بالابتسامة، وهي في الإسلام صدقة على الغني والفقير والجميل والقبيح والصغير والكبير والسيد والمسود والقريب والغريب، ثم صعوداً بعد ذلك إلى المنازل التي لا تنال إلا بمشقة كبيرة، كخلق العدل، فالرقي لمنازل العدل العالية البعيدة التي لا يجرؤ عليها إلا العمالقة، ولا ينالها صغير النفس ولا ساقط الهمة. ستجعل من عدل المسلمين حالة ماثلة، يراها ويعيشها المسلم وغيره، وليست قصة وردت في سيرة عمر أو علي (رضي الله عنهما). وما يحدث اليوم من حرب الغرب لقيم العدل والتبرؤ من حقوق ومن كرامة الإنسان، سوف تجعل الإنسان يبحث عن القيم



Twitter: @ketab_n

الممارسة وليست المكتوبة، في مجتمعات وليدة جادة متعلمة مفكرة ومفاصلة.

فحتى نكون ذوي قناعة بأنفسنا وذوي جاذبية لغيرنا، نحتاج أن نعاني مشقة الارتفاع لقيم الإسلام. وأن نعاني صعوبة تنفيذها، فالوجوه المتجهمة المعتدية على الشرع والمحاربة للخلق، بتجهمها واحتقارها لكل الناس في حياتنا اليومية عقدة تستحق أن نحاربها لأنها أخلاق سيئة وممارسات مضرة كالمخدرات، وقيم الانغلاق والانحياز الضيق قصور في التفكير، وجهل بالإنسان وهدر لقيم الناس وارتكاس لعادات الأمية والوحشية القبلية المغلقة.

إن مجازر مئات الآلاف في حروب راوندا تمثل تنفيذاً واقعياً لقيم القبيلة الوحشية، أما قيم فتح مكة، فهي تمثل الجانب المعاكس عندما تنتصر العقيدة على قيم الخصوصية الضيقة والجهل بالله وبعباده. وتتعاون متساوية على تحقيق الخير ونصرة قيم العدل والبر والإنصاف والرحمة للضعفاء.

كانت قيم الإسلام وقيم القبيلة قوتين تتنازعان في تاريخ الإسلام عبر العصور، فقد جعل الرسول (ﷺ) قوة القبيلة قوة للإسلام مندمجة ومحققة لقيمه، فكان دمج قوة القبيلة وقيمها في الدين وتقييدها بقيمه قوة يفيد الدين منها، وتقوى به القبيلة كوحدة من الوحدات المكونة للأمة. وعندما ترتفع القبيلة فوق الدين، وتعلو قيمها يتواضع مكان الدين، وتضعف اللّحمة الاجتماعية، ويتبع ذلك صراع القبائل، وتدمير كل منها للأخرى، وذلك ما حاق ببني أمية. فقد كان من أثر سقوط هيبة المساواة والعدل الإسلامي تحت سطوة وسياط القبيلة؛ أن قتل في مذبح الصراع القبلي كبار قادة الأمة وانتهى تاريخهم العظيم إلى طريق مأساوية، هؤلاء النجوم من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي، ومصير موسى بن نصير وابنه وطارق بن زياد. هذه كانت نهاية الفاتحين الكبار، ونكل بغيرهم كثير. ثم انتهى الأمر بخسارة القبيلة الأموية ومبالغة بعضهم في تقديم العنصر العربي. وكانت مخالفة لمبادئ الإسلام ذاق المخالفون لها حتى بعد بني أمية جزاءهم، عاجلاً غير آجل.

سلاح العنصرية لن يختفي من على وجه هذه الأرض، حتى ينتهي جنس



Twitter: @ketab_n

الإنسان، ولو أشرقت الشمس على عباد الله خضراً متساوين لما أمسوا إلا ولهم على الرغم من خضرتهم ألوان يتخيلون أنهم يتميزون بها. ولهذا كان هذا السلاح أنفع الأسلحة عندما يتعامل معه بإنصاف ووعي، وهو أضر الأسلحة الاجتماعية أثراً عندما يساء التعامل معه، فهو يقدم جلائل المغانم، ويصنع أكبر الخسائر. ويبقى سلاحاً قائماً حتى ينتهي جنس الإنسان من على وجه الأرض. ولم يشهد تاريخ البشر المعروف سيادة مطلقة لعنصر ولا حتى تلك العناصر التي يتوهم عدم سيادتها تاريخياً[٨].

(٨) حدث في السنوات الأخيرة جدل حاد في أمريكا وانتشر خارجها حول هذه الأمور، وكان أطرف ما نتج عنه كتاب **أثينا السوداء**، الذي ناقش جوانب مهمة في هذا السياق، ولكن هذا الجدل التاريخي ينطلق غالباً من سياق عنصري متوتر.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٨ ـ

# اغتـراب المقاييـس

الشيخ عبد الرحمن الدوسري كان يسخر مرة من أطفال لم يعجبهم تناول وجبة شعبية فقال ساخراً: سوف نعلبها لكم لتأكلوها؛ أي «نضعها في علب مستوردة» لتكون حديثة ومقبولة. وهذا المزاج الطفولي يخامر الشعوب التي تشعر بالتخلف، وتزيد هذه العقدة كلما زاد الفقر والجهل، فتجد المرأة الأقل تعلماً أكثر اهتماماً بالأصباغ الغربية، وهذه ليست ظاهرة عربية أو إيرانية أو هندية؛ فهي ظاهرة عامة وعقدة نقص؛ تحدث عنها كثيرون، وناقشها علي شريعتي مقارناً بين المرأة في طهران والريفية الإيرانية التي انفتحت في عهده على هذه المشكلة. إذ يرى أن المجتمع الجاهل والأكثر تخلفاً ينمي مكاسب شركات الزينة الغربية أكثر من المجتمع الغربي نفسه. ذلك أن الأصباغ وكثافتها وكثرتها وتكاليفها تصبح مع الجهل علامة على الرقي والتقدم والجمال المزيف، حيث يشوّه التصنع والتكلف الحياة الطبيعية وينتج حالة من البشاعة مؤذية، ويصبح التصنع الغالي توجهاً عاماً ومقياساً للجمال. وتجد هذه العقدة في كل الأمم التي تشعر بالنقص تجاه غيرها، من سكان البلد الواحد إلى سكان القارات المتمايزة.

وهكذا نستورد مقاييس صممت لغيرنا من خلال فلسفات عميقة في مجتمع ما، ثم نزيد على هذه المقاييس تكلفاً وتصنعاً، فنتضرر بنتائجها ولا تهدينا سبيلاً ومثال ذلك مقاييس التنمية.

فقد أثار **تقرير التنمية** الذي أصدره عدد من الكتاب والمراقبين العرب الأول ١٤٢٤هـ ضجة أكبر مما يستحق، ونكران الحقيقة المرة لا يغني شيئاً،

Twitter: @ketab_n

بل يسبب المزيد من الضعف والتقصير، ولكن دوائر عديدة أهمّها أن تستغل سلبيات هذا التقرير على أبشع وجه[١].

وليس صحيحاً أن نتبع دائماً تقارير الدول والمنظمات التي تسطر الكثير عن أحوالنا وتنتهج لغة الهجاء والاحتقار، وقد أطربت هذه التقارير الفريق اليهودي الذي يحيط بالخارجية الأمريكية، وجعلت منه طريقاً سالكة لهجاء المجتمع العربي، وليخطب باول، وزير الخارجية الأمريكي في حكومة بوش الابن، بهذه الأرقام في الأمم المتحدة، محتقراً العالم العربي، ومتظاهراً بأنه وغيره سوف يغيرون هذه الأمور! فمثلاً تقرير الأمم المتحدة عن العالم العربي الذي قال فيه إن نسبة الأمية تقارب ٦٥ في المئة، وإن تجارة الدول العربية لا تمثل إلا ١ في المئة من التجارة الدولية، إن لم يدخل النفط فيها.

فبجانب أن التقرير قلل من دور التدخل الاستعماري في العالم العربي[٢]، أغفل مشكلة كبيرة وهي مشكلة صحة الموازين ومدى مناسبة هذه الموازين للمنطقة وللمجتمع والتسليم العام بها. واعتمد التقرير على مقاييس غربية محضة، وبهذا فلا شك ستكون الأوضاع سيئة إلى أقصى حد. لأنه لو توافرت قياسات أخرى فإنها سوف لن تؤدي إلى النتائج نفسها التي أقرها التقرير. ثم إن التقرير كتبه ناشطون وليس أكاديميون[٣]، والناشطون يهمهم تحريك الرأي وليس الدراسة لمجرد المعرفة، فالناشط يوجه التقرير في طريقه هو، ولما يحب أن يحقق، وليس للاعتراف ولا تقدير ما تحقق. ولأضع بعض النماذج التي نختلف فيها مع شعوب أخرى لأسباب منها الدين أو ثقافة المجتمع، فإن الأب في مجتمع غربي سيكون سعيداً أن يهيئ غرفة نوم ابنته لمن يزني بها، ولأن هذه الحالة عنده خير من أن تهرب ولا يراها بقية عمره. وهذه الحرية لن نستطيع تحقيقها للمرأة ولا للشاب في

---

(١) خطب بمحتواه كثيرون وناقشوه بنية الهجاء والتحقير، واستغله صهاينة متعصبون في مناسبات عديدة مثل مارتن أنديك، من يهود أستراليا، هاجر لأمريكا، وهو من قياديي الحركة الصهيونية في العالم، كما وصف نفسه في أحد اللقاءات الحوارية لمعهد بروكينجز، وتولى سفارة أمريكا عند اليهود، ويقود عدداً من خطط التسوية العربية اليهودية، وبعض العلاقات العربية الأمريكية، وأنشأ أكثر من مركز للدراسات الإستراتيجية.

(٢) إدوارد سعيد، «حال العرب،» **الحياة**، ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٣) انظر التعقيب الذي كتبه رياض طبارة «رداً على كلوفيس مقصود، توضيحات في شأن تقرير التنمية الإنسانية العربية،» **الحياة**، ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٣. وكان قد ذكر الكاتب أنه رد على مقصود في: **الحياة**، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٢، ورد مقصود في: **الحياة**، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٢.



Twitter: @ketab_n

ثقافتنا الإسلامية أو أعرافنا العربية. فكيف تتوقع من مجتمع مسلم له هذه القيم أن يقبل بهذا. فالعربي الجاهلي قتل ابنته لأنه سمع صوت ضحكها في طرف الخيمة ومعه أولاده وحدهم. وإن كان هذا متطرفاً آنذاك والآن فإن التطرف الغربي غير مقبول مقياساً. وهكذا العديد من الأعراف والتقاليد، وقد شاهد أحد الأمريكيين منظر زعيمين عربيين يتماسكان بالأيدي فزاغت عيناه واستنكر فقلنا: لماذا؟ قال: إن هذا سلوك خاص بالشاذين جنسياً!! قلنا: هذا مقياسك ولكنه عندنا يعني شيئاً من الود والتقدير والإعزاز للضيف أو الصديق.

إنهم يجادلون المسلمين كثيراً في حقوق المرأة في العالم الإسلامي، وهي مطالبة غير نزيهة في حقيقتها، لأنهم بصراحة يكتبون عن إرضاخ العالم الإسلامي للغرب بوسائل ويعدون منها: المرأة وعلمانية تركيا والديمقراطية. ولكن المرأة عندهم ليست المرأة الصالحة، ولا النافعة لبلادها، فلو طالبت بحق الاستقلال لشعبها قالوا متطرفة وإرهابية، وهي عندهم شر وتخلف، ويحرمون عليها حرية أن تلبس ما تشاء، إن كانت مسلمة، فهم يسمحون للراهبات بلباس ديني في فرنسا، ويطاردون المسلمات، ويحرمون بنات المسلمين حتى من التعليم الضروري إن هن تحجبن، وفرنسا تفرض القانون العلماني، وترسل المبشرين لبلاد المسلمين، وقد اجتاحت النصرانية مناطق واسعة من مناطق البربر. ثم إن حديثهم عن حق المرأة يتجاهل حقوق الرجال.

وهم يرون الإسلام يعامل المرأة كما يعامل الإنجيل المرأة، فيعتبرها ملكاً للرجل بلا أي حق، ولم يكن للمرأة حق الملكية وفتح حساب في البنوك في أمريكا وفرنسا إلا منذ زمن قريب.

ولكن المرأة المسلمة نالت مكانتها مبكراً منذ أيام الإسلام الأولى، وحتى جاهلية العرب لم تكن فيها المرأة مهانة ومطاردة ومشردة كما كتبوا في أناجيلهم، وكثير من هذه النصوص الدينية عندهم بقايا ثقافة القبائل اليهودية المتوحشة في تعاملها مع النساء والقبائل الأخرى.

أما في عالم المسلمين فقد تكون هناك مظالم موروثة من ثقافة المجتمعات، ولكن الإسلام كان ينقذ المرأة، ويتحايل الناس على نصوص الشرع في كل زمن. ولعل من أسباب وصول المرأة إلى مناصب كبيرة في

Twitter: @ketab_n

الانتخابات الرئاسية في العالم الإسلامي قبل أن يجرؤ المجتمع الأمريكي على ذلك يعود للمكانة المحترمة للمرأة عند المسلمين، فقد وصلت نساء للنفوذ والحكم والعلم في تاريخ الإسلام، وقادت عائشة (رضي الله عنها) معركة الجمل، ولو كانت المرأة مهانة ومحتقرة في مجتمعات المسلمين لما حدث القبول أبداً لها بدور ولا لأمثالها عبر تاريخ المسلمين. وليست مكانة المرأة في عقول وقلوب الناس كما هو الأمر في الثقافة النصرانية واليهودية.

وإن كان لا بد من المقارنة وفق ثقافتهم ومقاييسهم فقد نالت النساء الحكم انتخابياً في الباكستان وتركيا وبنغلاديش ـ عدة مرات ـ وإندونيسيا قبل أن تجرؤ المرأة الأمريكية على دخول انتخابات الرئاسة في مجتمع يحقر كثيراً المرأة، ولا يساويها بمرتب الرجل حتى عندما تستوي الشهادة والخبرة، وقد تعمل أكثر.

إننا بحاجة إلى شيء من اعتبار الذات وعدم السقوط في لغة الهجاء، والتحقير لأنفسنا، وبخاصة في أمور ليست ذات أهمية في حياة الشعوب، وجعل المقاييس المفوضة هي مقياس نجاحنا أو تخلفنا فإن بعض هذه المقاييس لن ننجح فيها، لأنها مقاييس غير صحيحة أحياناً، أو لا يمكن نقلها لمجتمع آخر. ومحاولة الصعود في درجات ذلك السلّم توصل للهاوية.

لا تقفوا كثيراً عند الاتهامات التي تهجونا بقلة ترجمتنا، ولا بقلة فكرنا، فبعض هذه الحقائق ليس علاجها المزيد من الهجاء، ولا نكران ما تحقق، وليست عند هؤلاء الهجّائين وصفات جاهزة نهائية وصحيحة، سوف تحملنا إلى عالم الفكر الخير والثقافة الرائعة، فالفكر الذي يريدون نشره قد يكون مجرد تبعية مطلقة لهم.

إنهم كثيراً ما يقارنون بين المجتمع العربي والمجتمع الإسرائيلي، ونحن عندما نعترف بتقصير مجتمعاتنا في جوانب فإن من المهم ملاحظة أن إسرائيل عبارة عن قاعدة عسكرية متقدمة للغرب ولأمريكا في بلادنا. فمعدل النفقات المجانية التي يتلقاها كل شخص إسرائيلي سنوياً تقارب ألف دولار من المساعدات. ولكننا يمكن أن نرى ما يريد بنا المجتمع الغربي في صورة المجتمع العربي الذي وقع تحت النفوذ الغربي الكامل في فلسطين وفي العراق أخيراً. فهل يريدون لنا إلا ما حققوه للفلسطينيين، الفقر والقتل والتشرد. وها هي إسرائيل تضرب بالسياج حول المدن العربية في فلسطين،



Twitter: @ketab_n

وعندما أخضعت أمريكا العراق فقد كان أول وأهم شروط أمليت على سوريا من أول يوم إغلاق الحدود مع العراق، وأغلقت بعد قليل مع إيران وغيرها. وهذه ليبيا محاصرة، والسودان وإيران، ودول شمال افريقيا تضرب حولها دول الاتحاد الأوروبي سياجاً وحصاراً قاتلاً، وتفرض عليهم شراء منتجات فرنسا وأوروبا، تفرض هذه الدول أسواراً عالية، على مزارعها أو ما تراه مستعمراتها العربية، مستشرق فرنسي خبيث الكلمات كان يخاطبنا ويحاول إخفاء ضحكة بادية ويقسم بالله أن ذلك البلد العربي «مستقل عن فرنسا منذ زمن طويل»، ثم يعقب «وهو مستقل الآن!!» فهذه الدول الغربية تحاصر المجتمع الإسلامي وتقهره، وتمنع التنفس والسفر والارتزاق، وتمتص الموارد، وتحافظ عليه أسواقاً ومنافع، وقد نرى فرصاً من الانفتاح لأن المجتمع كامل الإغلاق سوف يكون فقيراً ولا يسمح برواج السلع الأمريكية فيه.

ثم يقول الغربيون أنتم بلا فكر وبلا ثقافة وبلا تعليم. وهم فقط من يحدد لنا مقاييس الفكر وشكل الثقافة التي يريدونها ثقافة داجنة مستسلمة. إن علينا أن ندرك صعوبة وجود أفكار بديلة ومقاييس أخرى، ولكن ما ندركه أيضاً من أن الممانعة الإسلامية ورفض الفكر الغربي عميقان في الوجود الإسلامي، وأن المادة والتجارة والمنافع ليست بالضرورة وليدة انسلاخ من الذات وذوبان في ثقافة أخرى، وليست من بركات الفكر الغربي أن نمت التجارة والصناعة، فنحن نجد مجتمعاً غربياً نازياً مثل مجتمع هتلر أو المجتمع الصهيوني الذي أنتج شارون وفيه صناعة وديمقراطية وهو مجتمع وحشي لا يليق بالإنسان. وتقرير التنمية لو طبق على مجتمع النازية والصهيونية لبلغتا فيه أعلى الدرجات، بينما هي في حقيقة الوضع مجتمعات وحشية وبربرية في ما يتعلق بحقوق الإنسان. أولى بنا أن نعترف بالحاجة لفكر بديل، ونشترك مع غيرنا في العالم في الشعور بأزمة فكرية خانقة. ليس كالذي يشكو منه كيسنجر، من صعوبة البدائل ومن أزمة الفكر الاستراتيجي الخانقة[٤]. بل لما هو أوسع من ذلك وأعم لمجتمعاتنا، ولكننا نبني مفردات موقفنا في العديد من القضايا واثقين من أننا سوف نصل لفكر أكثر إمكاناً للإفادة والتعميم، وأصلح لمجتمع البشرية الذي تخنقه ثقافة السوق والسلعة والدولار والسلاح النووي والأخلاق الصهيونية العنصرية.

---

(٤) كيسنجر في: **الشرق الأوسط**، ١١/٥/٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

ونحن اليوم أقل ثقة وتبعية للمقاييس التي تفرض علينا، وأصبحت الاستجابة لها أكثر صعوبة.

ومن راقب الدولة الغربية الحاضرة رأى فيها أهمية كبرى للأفكار، وهذه هي سُنّة الحياة الإنسانية، غير أن تحسن الوسائل الاتصالية وزيادة المتعلمين في العصور الحديثة أعطت للأفكار دوراً أكبر من أي عصر سابق. وهذه الحقيقة سر من أسرار القوة الأمريكية والأوروبية وهي في الوقت نفسه عامل يمكن أن تضعف بسببه. وهو عامل استغلال داخلي للمجموعات المنظمة. فالمجتمع الأمريكي الذي كان يحقر اليهودي ويراه تائهاً في شعاب الدول والعصور والأفكار، ضالاً في دينه، فجأة أصبح يملك الركن الثاني الذي قام عليه المجتمع الغربي. وعايشنا في فترة قريبة كلمات كان يهمس بها على استحياء فأصبحت فجأة حقائق من مثل «الحضارة النصرانية اليهودية». لأن هذا المصطلح وجد من يروج له هنا وهناك، حتى أصبح النصارى يقولونه تزلفاً لليهود، واليهود يقولونه تماهياً واشتراكاً في غنيمة واستخداماً لهذه العواطف في مواجهات أكبر.

إن انفتاح المساحة الفكرية في العالم كله كما لم يسبق سوف ييسر لنا أن نكتب ونتحدث ونؤثر ونصوغ آراء الآخرين في أصقاع واسعة من العالم. وقد شاهد المراقبون لمسألة الصراع الإسلامي الصهيوني كيف استطاعت إسرائيل ومجموعة يسيرة أن تقيم مكتباً إعلامياً بتكلفة متواضعة وأن تغرق الصحافة وجميع الإعلام الأمريكي بمواد تكتب وترسل يومياً للصحف، ويصنع منها موقف متعاطف ومتفهم وقابل لكل الإرهاب الصهيوني. وجلبت الأنصار، وأصبح ناشرو الدعايات الصهيونية الحكومية موظفين بعد فترة قصيرة ومحللين ومؤثرين ومستشارين لكبريات وسائل الإعلام.

ثم قامت مجموعة أخرى بإنشاء موقع إنترنت يقوم بترجمة مختارة انتقائية للصحافة العربية والفارسية وغيرها ما يحمل أحياناً عبارات حادة أو مواقف متشنجة، وتقديمها على أنها الفكر العربي والموقف العربي والإعلام العربي من أمريكا والغرب عموماً. ويقوم هذا الموقع بترجمة أشد النصوص عدائية للغرب وتقديمها على أن العرب هكذا يفكرون بتدمير الغرب وإنهائه. سيكون العالم منزلاً أكثر ألفة للمسلمين ولأفكارهم وثقافتهم كلما عمت الحيوية الثقافية والفكرية جوانبه، وكلما ذلل عقبات التفكير ووسائله ومنابره، وعلى الرغم من تواضع الإنتاج الفكري عند المسلمين اليوم ولكنه يشهد



Twitter: @ketab_n

بدايات جادة ومؤثرة، إذا ما قورنت بغيرها، وبخاصة إذا ما قورنت بظاهرة الحرفية الشكلية الغربية التي تضعف نوعيتها ويكثر دشها ويقل نفعها؛ بحجة الإمتاع، أو التوجيه غير المباشر.

إن الكتاب الأمريكي قد لا يرغب فيه الناشر ما لم يزد على ثلاثمئة صفحة ويحسن أن يزيد على أربعمئة صفحة، ولكن النوعية حقاً تعاني في كتبهم وفي الثقافة الغربية عموماً اليوم، نعم هناك حرفة مستقرة ونوعية مهمة ولكنها ليست الثقافة فقط التي تؤثر.

ومقياس التطور والتأخر المعاصر الذي يقاس به المجتمع ليس لنا، ولا ينطلق من ثقافتنا، فإن كانت هذه المقدمات في نقد المقياس لا تهم، لكون المقياس يمكن أن يكون محايداً ـ وهو هنا غير ممكن ـ يصلح أن تقاس به الأمم والشعوب والحضارات، فإننا حقاً لا نعرف مدى صحة هذا المقياس، وإذا قاسوا تقدم الفرد والأمة بمقدار ما يستهلك الإنسان من الطاقة فهل هذا صحيح؟ أم أن استهلاكه من الطاقة حالة تالية لمسألة صعوده في الهيمنة، وهل الهيمنة هي المقياس أم الثراء ومستوى الأفراد، فاليابان كانت تهيمن على شرق آسيا على الرغم من فقر مجتمعها، وبريطانيا كانت كسيحة في كثير من شؤون حياتها في العصر الفيكتوري، وفي أمريكا كان المجتمع متخلفاً جداً في مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان، لو قسنا هذه المسألة في زمن صعوده إلى قرابة أربعين سنة، إذا تحدثنا عن موضوع السود والمرأة وحقوق الملونين. ومقاييسنا اليوم عندما نقيس تقدم وتطور الشعب بعدد الكومبيوترات، والدخول على الإنترنت والمباني والاستهلاك أليس هذا جذباً ودفعاً لمجتمعاتنا نحو المزيد من التبعية، فهل مقياسنا للتقدم هو تمجيد للتبعية؟ أم أن هذا تأسيس لموجة عامة تنفك عن أصلها الغربي وتشكل بحياة وحضارة عالمية تتجاوز الدين واللغة والجنس والتأسيس، وأن المسلمين يشاركون في صناعة عالم ينفصل عن الغرب، قد لا يدقق في صحة وحياد مقاييسه الآن، غير أنه يتجه لذلك!

ثم إذا كانت مقاييس الغرب صحيحة، وهي التي تستعمل اليوم لقياس النمو والتطور والعمل والحضارة، فمعنى هذا أننا في سيرنا سنتجه لما وصل له، وأننا نعرف بدقة وسهولة ووضوح ماذا نريد، وأننا سوف نكرر في مستقبلنا ماضي الآخرين، أو نسير مسيرهم، ونتبع ما وصلوا له وسوف نحاسب قيمنا وفق قيمهم. وهذه الفكرة مؤثرة جداً في جميع من يناقش قضايا



Twitter: @ketab_n

المستقبل، وبعضهم ينجح في تكرارها وتكرار مظاهرها ونعجب به أيما إعجاب، مثل مناطق في شرق آسيا؛ ولكن هناك حقيقة أخرى وهي أن المستقبل متفلت عن الماضي، ولا بد للعقلاء أن يسمحوا لمساحة في أذهانهم ومقاييسهم وتجاربهم ليكون هذا القادم المطلوب ربما حافلاً ببعض نقاط الغموض التي نحب أو نكره، ثم نؤيد ما تبين فيه نفع، وقد كان مجهولاً، ونبعد ما اكتشفنا فيه سوءاً ولو كان واقعاً أقرّه من قبلنا أو أصبح من عرفنا أو من عرف من سبقنا. ومثال ذلك وسائل الإعلام، وتنظيمات الدول والمجتمع السياسية، كانت عليها مواجهات طويلة، ويأس وخوف من آثارها، فهل كانت نتائج ذلك كمقدماته، وهل ما نستقبله هو الصورة الذهنية الحاضرة لمصيرنا ولمصير غيرنا.

إن الدفع الجاد بقيم كلية نافعة «الضروريات»، والحث على التزامها، ورؤية للمصلحة في الأمور هو ما نحتاجه، ولأن خطوات المستقبل ليست ظاهرة لكثير ممن يخمنون المستقبل، أو يدرسونه ـ حتى المتمكنين الجادين ـ ولديهم المعلومات والخطط وإمكان التنفيذ. عندما رأينا فرنسا وبريطانيا توقف إنتاج واستخدام طائرات «الكونكورد» وهي الأسرع في قطع المسافات والأحسن خدمة، كانت في زمن صعودها توحي للجميع بأنها خيار المستقبل للنقل، ثم تركوها، بسبب التكلفة، وهكذا دار النقاش في موضوع رحلات الفضاء والتقليل منها بعد عدد من الكوارث.

وعندما أغرق الأمريكان في استخدام المحفزات الإنتاجية كانت هذه التطورات في صالح المجموعات التي لا تقبل دخول الكيميائيات للطعام، وكانت في مصلحة جماعات متعصبة قديمة ترفض إلى اليوم دخول الكهرباء واستخدام أدوات الصناعة الحديثة، في زراعتها وبيوتها، وأصبحت تقرأ في الأسواق الغربية مميزة للطعام المعروض في الأسواق المهمة وبخط عريض يرفع سعره لأنه من منتجات طبيعية من دون تعديل تنتجها بعض الطوائف الدينية المتشددة التي تحرم استخدام ما تدخله الصناعة. أو المجموعات البيئية المتشددة، ودخل الخوف من هذه المنتجات إلى المائدة في كل بيت، وحولها جدل كبير تختلط فيه السياسة بالاقتصاد وبالصحة، وهي موجة تعد بالرخاء، أو الرعب، وكل يبالغ في تقدير النتائج التي طالت الحيوان والطير والنبات، وأظهرت الخوف من جنون البقر وحمى الطير، وما يتوقعه المتخوفون من نتاج التصرف في جينات الحيوان والنبات.



Twitter: @ketab_n

وهكذا نجد أن المبالغة في تحديد نسق ومستقبل قياسات متعارف عليها لا يسير فعلاً كما يقيسه المعاصرون، ولا كما يوحي به المتنبئون، ونجد مبالغات تروق لمن يتحدثون عن مستقبل في بعض الأمور قد لا يتم، أو استمراره كما غرست فلسفته في رؤوس الناس تبين أن هناك مبالغة أكثر من الحقيقة في الحاجة والتطبيق، والمستقبل قياسه تحقيق آمالنا وحاجاتنا، فلنعرفها، ولنعمل لها، ونساهم في صياغتها، ولنخفف من الإلحاح على شكلها، حتى إذا أخلفتنا أشكالها لا نختصم! وهل هذا ممكن! أم أن تخيل شكل المستقبل هو فعلاً أساس المساهمة في صناعته، ولولا تخيله ـ ولو أخطأ التخيل ـ لما أتى؟!

## مسألة الدولة

كثيراً ما يقف موضوع الدول في طريق النقاش والعمل محفزاً أو مثبطاً في العالم الإسلامي بخاصة، فالسلطة عند بعض المسلمين أهم قضية يختلفون عليها، يخالفونها أو يوالونها، وقد زادت أهمية الدولة في الحياة الإنسانية منذ بداية القرن العشرين إلى ربعه الأخير، حيث بلغت أوجها في الصراع بين معسكر الشرق والغرب، وكانت أكثر حسماً وقسوة في البلدان الشيوعية، ثم تراجعت بسبب العولمة، وسقوط الشيوعية، ففقدت الكثير من الأهمية التي كانت عليها قبل عقود قليلة.

إذ جعلت العولمة السلطة المركزية أقل أهمية عما كانت عليه، وقد هدفت العولمة في بعض ممارساتها لإضعافها وإنقاص السيادة للحكومات المحلية من خلال مؤسسات عالمية سياسية تقرر، وبنوك وبرلمانات وشركات ومنظمات فوق الدول مثل منظمة التجارة الدولية. وشاركت حرية الإعلام واستعصائه على التقييد لأسباب عديدة، وظهور الإنترنت، وجماعات حقوق الإنسان، ومؤسسات المجتمع المدني، في تخفيف سطوة السلطة، وإنهاء انفرادها بالخبر وبتفسيره، فأصبحت سيادة المتفردين منقوصة، وأصبح للجماهير صوت لم يكن من قبل موجوداً بهذه القوة. فقلت غلواء المتسلطين قسراً. وذلك حق ناله المسلمون في العالم، واستفادوا من المكتشفات الغربية بطريقة جيدة، فوسائل الحضارة تنتقل من دون إرادة مصدرها، ويستغلها من يعرف فائدتها من غير أهلها، وقد يفيد منها ضحاياها أو من أريد بها ضرره.

والذي يمكن استقراؤه أن هذه القضايا في مصلحة المسلمين في هذا



Twitter: @ketab_n

الظرف. فوجود السيادة المنقوصة للدولة ليس لمصلحة الدولة أياً كانت، ولا يرغبها مسلم لدولته، غير أن هذه الدولة أصبحت تعاني مواقف شديدة التطرف تمارس ضدها من منظمات نافذة أو دول طاغية، وفي هذه الحالة تبقى الفكرة الشعبية العامة فوق تحدي الدولة. ولعله من الخير أن تكون وجدت هذه الدول المعاصرة الكثيرة، فسمحت بالتعدد الفكري، وخففت من الصدور عن سجن مذهبي واحد، أو نظرة للدين أو للدنيا شديدة التماثل، وكأن الله يريد للأمة الخير من خلال بلاء التمزق، فقد وجد المسلمون متحولاً مكانياً وثقافياً، ووجدوا من يعجبه قولهم ولو في مكان آخر، ووجد الرأي مكانه بين الذين قد لا يحبون سماعه. إن الجانب الثقافي للأمة يتوحد بطريقة عجيبة، ويتجه الأمر لخير المسلمين، فمسيرة القومية العربية التي طالما آذت المسلمين ورأوا فيها أو في التطرف الذي صنعته شراً زؤاماً وتعصباً مقيتاً، أدت لكثير من المآسي، ولكنها أبقت على العربية. وأبقت على الشعور بالوحدة. وأصبحت طريقاً للإسلام، وشاركت اللغة والدين في صناعة العديد من وحدة المواقف. وبهذا نجد أن بعض السلبيات التي ضربت مجتمعاتنا أدت أو تؤدي لمراحل خيرة على المدى البعيد، عندما ندرك بوعي جوانب الخير والشر من التحدي والاستجابة الصحيحة.

انكشاف المسلمين أمام الغرب من دون خلافة حامية ولا سلطان جامع كان حدثاً مؤلماً، ولكنه وضع الأمة أو الأفراد أمام مسؤولية مباشرة عن دينهم. ليس لهم خليفة ولا حام ولا عذر، ولا مؤسسة اجتهادية، ولا علمية، ولا جامعات، ولا وسائل للوقاية من الغزو، ولا تكوين يستند إليه، وهذا الانكشاف المفاجئ حرك ذهنية البحث عن بديل، ووضع مؤسسات نشطة منقذة، وبدأت حملات المحاولات المصيبة والخاطئة، ولكن نتيجة ذلك الشعور العام بالمسؤولية والحمية، وأصبح المخلصون من مختلف منازلهم يؤيدون ويفكرون في الدور الممكن القيام به. ولهذا فنحن نرى هذا الخير المنبعث من الهزيمة المرة يشق طريقه بقوة في نشر الحمية والدور الفردي. وكل نسبة من القوة والثروة والحرية والمعرفة تصب ثمارها في نضوج إسلامي مؤثر.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٢٩ ـ

# الهواجس الدينية

نشرت مجلة **نيوزويك** مقالة مطولة بعنوان «بوش والرب» شرحت أن الرئيس الأمريكي متأثر بدوافع دينية كبيرة تجاه المشرق الإسلامي، وأنه يريد إعادة البلاد العربية للمسيحية، وذلك أنه يبدأ نهاره بقراءة من كتاب مختارات دينية كان قد جمعها قسيس اسكتلندي رافق القوات البريطانية في عام ١٩١٧ التي جاءت إلى فلسطين عن طريق مصر، وكان ذلك القسيس ممن يهيّج ويحمّس البريطانيين في حربهم على الفلسطينيين واحتلال البلاد المقدسة. والرئيس يبدأ كل يوم عمله في البيت الأبيض مع مجلس الأمن القومي بقراءة صلاة صباحية يتداولها واحد من الخمسة أعضاء في المجلس، فكل يوم يقوم واحد باختيار الصلاة لذلك اليوم، وهذا ما ذكره بوب وودوورد في كتابه بوش في الحرب. وذكر كاتب خُطبه ديفيد فروم أن أول استنكار عليه في البيت الأبيض في أول يوم هو كيف أنه لم يحضر صلاة الصباح! وكان بوش قد تعلق بالدين مبكراً منذ صباه، وكان ضابط الاتصال بين والده والكنيسة الإنجيلية الجنوبية، وقد طلب أحدهم من بوش أن يظهر في صور تجمعه بالقس بيل غراهام في الانتخابات فرفض الأب. وجورج بوش الابن كان قد اتجه في الأربعين إلى الكنيسة، وبدأ دروساً منتظمة للإنجيل، قرأ فيها الإنجيل ودرسه مع أصدقاء له سطراً سطراً. كما تقول مقالة **النيوزويك**. هذه الهواجس الدينية قائمة على خلق الاحتقار وخلط القيم المسيحية بالقيم اليونانية والرومانية القديمة، وقيم المتوحشين الأوروبيين الذين وجدوا في الحياة الأمريكية تحقيقاً لقيم العنصرية وامتهان الآخرين. فثقافة داروين



Twitter: @ketab_n

العنصرية[١]. واحتقار الملونين بدءاً بالهنود فالسود فالمكسيكيين والإسبان عموماً واليونانيين والإيطاليين والعرب والهنود والآسيويين طبقات دنيا في عقل «الواسب»، وهذه كلمة مكونة من أوائل الكلمات التالية: «البيض الأنغلوساكسون البروتستانت». فهذه الهواجس الدينية ليست تديناً حقاً ولا عودة لصفاء المسيحية المشوب في أناجيلها ولكنها إقرار بفلسفة الدولة المسيحية الأمريكية الحديثة التي يمكن أن تتغير بسرعة كبيرة. كما أنها تفتقد لروح التدين[٢]. وقد لاحظنا أخيراً أن ثلاثة زعماء غربيين جدداً تدفعهم دوافع دينية قوية للموقف ضد المسلمين، فبلير قدمت مجلة **نيوستيت مان** مقالة تحدثت عن موجة التدين التي انتشرت في أوساط حزب العمال، وأفردت له مجلة **إيكونومست** صفحة في أول اقترابه من الحكم تتحدث عن ميوله هذه. وبوش تدينه أكبر اتضاحاً للناس[٣].

وأزنار، رئيس وزراء إسبانيا زعيم الدولة الثالثة في التحالف الديني المسيحي ضد العراق، أصدرت حكومته «تعديلاً لقانون التعليم فرضت بموجبه تعليم الدين المسيحي في المدارس الثانوية الرسمية، إلا أن بيت القصيد ليس في تعليم الدين الذي ارتفع إلى ٢١٠ ساعات أو حصص، في العام الدراسي الواحد في مقابل ٨٥ ساعة فقط للعلوم الطبيعية، و١٢٥ ساعة للتكنولوجيا»[٤]. وهذا الموقف المتطرف في تحويل إسبانيا لتكون بلداً كنسياً يتحرك ويفكر بالدين أولاً قبل غيره، ويتجاهل موقف الفاتيكان من مسألة حرب العراق وغيرها، لأنه لا يريد أفكار الفاتيكان السلمية، بل يريد بالتعليم الديني

---

(١) أقرت المسيحية الغربية في كنائسها عملياً بقيم الداروينية، فطردت السود من الكنائس البيضاء، وكأن لهم رب آخر، لا يغفر لهم إن دخلوا الكنائس المخصصة للبيض، وبقيت هذه العقدة، حتى بعد حركة الحقوق المدنية سنة سارية، قد تقل في مكان ولكنها تظهر في آخر، والكنائس المفصولة لم تزل قائمة في أمريكا بخاصة، وقد لاحظنا أن بعض المسلمين من الملونين لم يتخلص من هذا الميراث الثقيل، فيميل نفسياً إلى هذه الثقافة الأمريكية المتوارثة، فيبحث بعضهم عن التميز العرقي في بعض المساجد.

(٢) انظر كتاب ديك موريس في حديثه عن البروتستانت الجنوبيين. وأنهم عنصريون وشاذون ومتعصبون دينياً.

(٣) قال الرئيس الألماني يوهانز راو: إن بوش «يرتكب سوء فهم عندما يتحدث عن مهمة إلهية تحركه لشن حرب على العراق.» وذكر الرئيس أن الكتاب المقدس لا يدعو إلى حملات صليبية «والموقف الذي اتخذه الرئيس الأمريكي ليس ملزماً لجميع المسيحيين، أما البابا فيتحدث عن كل البشرية تقريباً». انظر: **الحياة**، ٢/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٤) **الوسط** (٣١ آذار/ مارس ٢٠٠٣)، ص ٣.



Twitter: @ketab_n

المسيحي ونشره في مدارس إسبانيا وقوفاً عسكرياً ضد المجتمع المسلم، الذي ينتشر فيه التدين ويزيد عدد سكانه وتهديدهم لمستقبل إسبانيا.

وعلى الرغم من ذلك يتبنى الإسبان والغربيون اتجاهاً يتشدد ويضغط على الشعوب الإسلامية يلزمها بالعلمانية في التعليم، وتخفيف الموجود من المناهج الدينية، ونشر ما سخر منه جون ميجر ووصفه بثقافة التفاهة أو الواهنة «الويشي واشي» مستنكراً الثقافة التعليمية العلمانية في بريطانيا، ومطالباً بمناهج دينية في بلده. فلما جاء زعيم عمالي «بلير» من فريق يفترض فيه البعد عن النهج الديني فإذا هو الأكثر تديناً. وعلى الطرف الآخر في فرنسا العلمانية ينادي جيسكار ديستان، الرئيس الفرنسي الأسبق؛ بوجود أوروبا التي لا تقبل إلا المسيحيين في عضويتها ويطالب البابا بالنص في دستور الاتحاد الأوروبي أن يكون للإله مكان فيه. فإسبانيا وبريطانيا ـ التي تحمل ملكتها لقب حامية الكنيسة ـ وأمريكا التي تستولي على حكومتها المتعصبة دينياً مجموعة ترى عودة الشرق الإسلامي للمسيحية، هذه الدول ترى ضرورة تمزيق وقهر العالم الإسلامي، ونشر الرعب والاضطراب والخوف والفقر والجهل والبعد عن الدين، وامتهان كرامة الشعوب خير وسيلة للوصول إلى التغلب على المسلمين واستباق نهوضهم باجتياح وقتل ودمار شامل. وكلما تطرف هؤلاء ضد المسلمين أثاروا حمية المسلمين أكثر.

ولهذا فإن السعي لتجنيب العالم الإسلامي وغيره شر هذه النزعات القاتلة التي تحركها رغبة مدمرة في نشر الخوف والقلق وتدمير مجتمعاتنا فإن السير نحو تثبيت ثقافة السلم، وترسيخ حب الدفع الواعي عن الدين والأمة بكل طريق يجنبها الدمار، ويصون كرامتها من أن تكون مرتعاً لأصولية نصرانية مندفعة تحرقه بأشد الأسلحة فتكاً. فخيارنا أن نفكر بجرأة وبطرق أحدث لتجاوز ما يضعوننا فيه من أزمات، وبعض هذه الأزمات يسببها رجال من الصف الإسلامي والقومي والغربي، وهذا التفكير الواعي يكون خياراً صحيحاً لتجاوز الشر، وتجنيب مجتمعنا المزيد من الصدمات التي تخرجه من دينه ومن دنياه.

كما أن الإنسان المتوحش لم يزل يسكن هذا العالم ليس في أعماق افريقيا كما يزعمون ولكن في غابات المدن الموحشة، والمؤسسات المرعبة، والأسلحة الرهيبة، فالوحشية ليست من ثقافة المستضعف الافريقي، فهو لا يملك إلا سهمه لصيده، أوعصاه وسيفه.

Twitter: @ketab_n

ولكن الغريب أن المتوحش المتطرف حقاً أقنعنا إعلامه بأن الفقير المسالم الذي بقي في أرضه هو المتوحش والمتمرد والإرهابي، وأن الغازي المعتدي القاتل متحضر!! لأن المعتدي هو من يقدر على إعدام الآلاف وربما الملايين في غمضة عين. ولهذا فمساعدته في التقليل من شره بعدم إثارته، وهدايته وترويضه خير طريق لكبح جماحه، وسل سخيمته، والتخفيف من عدائه لضحاياه، وكذبه عليهم، فهو يغزوهم ويقتلهم، ويمتص ثرواتهم ثم يسميهم متطرفين وإرهابيين ومتمردين، فالوحشي يعتبر مقاومة وحشيته وغزوه إرهاباً!! والاستسلام له وعياً وتقدماً وحضارة، وحرية وديمقراطية، ومع هذا يذل المستسلمين ويسجنهم ويرعبهم، حتى لا يفكرون في كرامتهم ولا حريتهم، ولو أن ضحاياه واجهوه بشيء مما يكافئ فعله لألزموه احترامهم، ولوقف فعلاً معهم موقف الندية.

ومهما بدر من الإنسان من شر ونزعة له ولكنه في النهاية إنسان، تجذبه رغبات الإنسان، ويحمل ميوله للخير والشر والهداية والضلال، ويقبل بما تقبل به وربما أقل، متى وجد أن بإمكانه أن يكون إنساناً لا يحمل رعب المستقبل في قلبه دائماً، ولا يتوقع عدوا بجانب باب الدار.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٣٠ ـ

# استهـداف الأطـراف

يستعيد بعض النصارى اليوم مقالة المنصّر زويمر، ويحاول تنفيذ أفكار قريبة منها، يقول زويمر: «إن تباعد العالم الإسلامي، والحيلولة دون تنسيق سياساته تجاه هدف واحد مشترك، هو كسب للتنصير والمنصّرين، وإن إحدى خطط التنصير وأبرز اتجاهاته تقتضي الحفاظ على هذا التباعد بين الأقطار العربية والإسلامية»[١].

نعلم أن الشعوب الإسلامية التي قاومت الهجمات الصليبية على أطراف العالم الإسلامي قد أبلت بلاء عظيماً في الحفاظ على دينها، ولكنها في الوقت نفسه قدمت خدمات جليلة لقلب العالم الإسلامي، فالمعارك الطويلة وبطولات الشيخ شامل في داغستان والشيشان ورفيق دربه حاج مراد، صانت حدود المسلمين من توغل روسيا في قلب عالم الإسلام. ومثلت كما يرى بعض دارسي آثار عمله سداً منيعاً لعشرات السنين ضد تمدد روسيا في ما أصبح يسمى لاحقاً الجمهوريات الإسلامية، بل وصان شجعان تلك الجبال استقلال تركيا وإيران من أن يكونا نهباً للروس منذ زمن طويل[٢]. بينما لم تجد فرنسا

---

(١) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، **حبال ودمى بداية العلاقات العربية الأمريكية** (الخرطوم: دار الأصالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص ١٧٥.

(٢) كتبت عدة أبحاث في هذا الموضوع، تتحدث عن نظرية السد المانع الذي حال بين روسيا واحتلال مناطق واسعة من عالم الإسلام وان هذه المواجهات عاقت النمو الروسي على حساب العالم الإسلامي. انظر كتاب: **حاجز القوقاز الشمالي، التقدم الروسي نحو العالم الإسلامي**: *The North Caucasus Barrier: The Russian Advance towards the Muslim World*, Edited by Marie Bennigsen Broxup (New York: St. Martin's Press, 1992).



Twitter: @ketab_n

ولا بريطانيا ـ بحسب جغرافيا الاستعمار القديم ـ حواجز منيعة ضد استعمار بلاد المسلمين كما وجدت من سدود الداغستانيين والشيشان والقوقاز، فكان سهلاً عليها التوغل من جهتها دون حواجز. وها هي الشيشان وداغستان بعد نحو قرنين تجالد دون حماها، ودون عالم المسلمين، وهذه الحرب على جبهة الشمال من أطول الحروب النصرانية الإسلامية، إذ تمتد لقرنين من الزمان تقريباً، وتفقد شبابها وشيبها رجالها ونساءها وأرضها وأمنها وهي شامخة لا تلين. فجبهات الإسلام الدامية هي دروع واقية تقي قلب الإسلام، ويوم تضعف يتجه الخطر الشديد للقلب. وخداع الخصوم ومحاولات إقناع المسلمين بالقطيعة مع إخوانهم على الأطراف هي محاولات جادة لقطع أطرافهم، وانتهاك كرامتهم جميعاً، بعد تدمير حصونهم على الأطراف.

هناك رؤيتان غربيتان في ما يتعلق بمستقبل العالم الإسلامي، إحداهما ترى ضرب قلب العالم المسلم، المتمثل في العراق وجزيرة العرب ومصر والشام، والأخرى ترى ضرب الأطراف، وقضمها قطعة قطعة، ومن الأطراف يمكن الوصول للقلب وإنهاء أزمة الإسلام كما يرون. ولكل طرف من الطرفين فلسفته في ذلك وأدلته على نجاح فكرته. فالرئيس الأمريكي ـ بوش الثاني ـ يرى أهمية عودة النصرانية لمواطنها الأولى التي سلبها الإسلام منهم[٣]. وآخرون يرون أن استهداف الأطراف هو الحل. ونحن هنا نوثق ذلك من كتبهم ومجلاتهم، والعمل المنفذ على الأرض يؤيد وجود ذلك أو ينفيه. وقد سقنا بعض الجوانب في ما يتعلق بموضوع قلب العالم الإسلامي[٤]. ونتطرق الآن لموضوع استهداف أطراف العالم الإسلامي.

ففي مقالة مهمة نشرتها جريدة **الواشنطن بوست** تحت عنوان: «اتجه شرقاً عن مكة، مستقبل الإسلام سوف يتحدد على جبهاته»[٥] تحدث فيها الكاتب عن أهمية البحث عن طرق جديدة لمواجهة الإسلام وقمعه، وقال إن

---

(٣) انظر الحديث عن هذه الفكرة في مقال طويل كان هو عنوان الغلاف من مجلة **نيوزويك**، ١١/ ٣/ ٢٠٠٣.

(٤) هناك عدد من الأفكار والخطط والكتب التي ناقشت موضوع تغيير «قلب العالم الإسلامي»، ومن ذلك تنصيره كما في مشروع عام ٢٠٠٠. ونشر العديد من المقالات الطريفة في هذا السياق منذ أكثر من ثلاثين عاماً، منها مشروع كيسنجر.

(٥) Ralph Peters, «Turn East From Mecca Islam's Future Will Be Decided on Its Frontiers,» *Washington Post*, 1/12/2002.



Twitter: @ketab_n

هناك تركيزاً كبيراً على مواطن القلب في الإسلام، وهذه المحاولات أثبتت فشلها منذ زمن طويل ـ وكأنه يشير إلى الحملات الصليبية ـ والتبشيرية والاستعمارية السابقة، فمحاولة تنصير أو تغيير المسلمين في الجزيرة العربية وما جاورها محاولات لم تصل لشيء. وأن الغربيين «النصارى» لو انتبهوا إلى مناطق الأطراف في العالم الإسلامي لكان خيراً لهم في عائدات العمل على التغيير، إذ ثبت أنها منتجة ومؤثرة كذلك. ثم يتحدث الكاتب عن المسلمين في شرق آسيا ويسوق إندونيسيا كحالة للدراسة، ويذكر أن العمل فيها مجد، فهي بعيدة مكاناً، وهي قابلة للأخلاقيات والسلوك الغربي، وأن فيها حياة ونمط معيشة مختلفين عن العالم العربي، وأنها قبلت فعلاً المواقف والديانات الأخرى. وهكذا فهناك مناطق أطراف كثيرة كانت من العالم الإسلامي، وقد أمكن إنهاؤها، وإعطاؤها هويّات أخرى.

ومثال نذكره هنا على قضم النصارى لأطراف العالم الإسلامي مدينة بلغراد في ما أصبح يسمى اليوم صربيا وهي مثال على غيرها من مناطق الحدود الإسلامية، فمدينة بلغراد التي كانت في يوم ما مدينة لما يزيد على مئتين وخمسين مسجداً، أقفرت من الإسلام في العقود الأخيرة. فالبلقان وهي من الأطراف التي كانت حاضرة إسلامية لم تعد كذلك. ولم يبق في البلقان سوى جيوب إسلامية صغيرة وتصغر باستمرار. والجنوب في السودان ونيجيريا وعدد كبير من دول افريقيا يعاني تقلّص الإسلام وانتشار النصرانية التي لم تكن افريقيا السوداء تعرفها إلا من قريب. وهذا لا يلغي معرفة ما يدور من انتشار الإسلام في مناطق عديدة جديدة في افريقيا. ولكن هناك مناطق تشهد هذه المضايقة، مثل: الفيليبين والصين ووسط آسيا وشمالها في المناطق المحاذية لروسيا التي كانت فيها أغلبية مسلمة. ومناطق كبيرة من افريقيا، وكان كارتر يبشر في نيجيريا بين المسلمين فيفرحون به، وربما قال بعض المسلمين إنهم يريدونه «شيخاً!!» لهم كما أشار في محاضرة له في مركزه في مدينة أتلانتا في منتصف التسعينيات[٦].

وهنا يجدر بنا ملاحظة التالي: إن هذه المناطق الأطراف في العالم تتعرض لهجوم تبشيري شديد، وفي هذه المراحل زاد من أهمية التبشير

(٦) أورد هذا في خطبة له بمركزه وتناقلته وسائل الإعلام، وتحدث فيها أيضاً عن بعض أعماله في السودان وعلاقته بحكومته ولم يخف سخريته مما لم يكن يروقه أو يطرف به سامعيه.



Twitter: @ketab_n

الأموال الكبيرة التي تمنح للكنيسة، من الحكومة الأمريكية، وغنى أمريكا وسطوتها، فقد عادت هذه بفوائد على المسيحية من أثر قوة للدولة، وضغط عدد كبير من المحافظين الجدد على تسخير الدولة الأمريكية لحماية النصارى في العالم وإحداث منصب إدارة لرعاية الحقوق الدينية في البيت الأبيض ومنصب ملحق ديني أو من يهتم بالشؤون الدينية في السفارات الأمريكية[٧].

وهذه الأطراف بحاجة شديدة لأن يصلها نبض القلب عبر العروق التي تمدها بالفكرة والمعرفة والأخوة والموقف، والحرارة المتصلة القادمة من المركز لهذه الأطراف، وفي وعي القلب بمآسي الأطراف وحاجاتها يمكن للقلب أن يبقى محروساً منيعاً بحكم مناعة الحدود البعيدة. فإن معاناة البلقان حمت الإسلام في مركزه. ومعاناة الأفغان من الروس كانت مانعة من أن يجد الباكستانيون أنفسهم الضحية. وسقوط الجمهوريات منذ مدة ومعاناة روسيا معه جعلهم يسكتون عن إلحاق غيرها من المناطق. ومعاناة جنوب السودان من الحرب التبشيرية أبعدت الحرب عن جنوب مصر. فحياة هذه الأطراف البعيدة وحيويتها وقدرتها على المواجهة والمقاومة يحمي قلب الأمة، وإن كان هذا القلب حياً فإن عليه أن يقوم بواجب القلب الإيماني، وإيصال الغذاء والمدد والتماسك، كما يقوم القلب برعاية الأعضاء النائية وإلا فسوف يصل الداء والبرد والجمود الذي يضر الأطراف إلى القلب نفسه.

وعليه أن يقبل بعض أشكال الخلاف مع الأطراف البعيدة التي قد لا يرتاح لها أو لا توافق ما سار عليه. وتقبل بعض الأشكال والثقافات التي سادت حياتهم وفهمهم للإسلام وعدم الإصرار على التخطئة والتغيير عندما تكون هذه الخلافات في الأعراف والتقاليد شكلية ولا تصادم مسلّمات الإسلام. لأن الإصرار على التماثل بغير حق يعطل حركة الأمة، ويصنع خلافات كبيرة وأحقاداً لا معنى لها، والمسلمون في غنى عنها.

ومن المهم البدء بخطوات جادة في التخفيف من القطيعة التي بقيت في عقولنا وقلوبنا، ومصدرها مغالاة بعض المتدينين في مفاهيم الولاء والبراء،

---

(٧) من القرارات التي استصدرها الكونغرس في عهد الثورة الدينية في الكونغرس والتي قادها نيوت جنجرش في بداية عام ١٩٩٤م واستمرت التوجهات اليمينية بعد سقوطه السياسي وأتبع ذلك بسقوط أخلاقي مريع يثبت ما يقوله ديك موريس عن المحافظين المتعصبين في أمريكا، وأنهم يتحدثون عن الدين ويخالفونه عملياً.



Twitter: @ketab_n

ومصدرها الواسع انتشار الخوف بين الفئات المختلفة؛ الخوف الذي ينتجه الجهل، وعدم الثقة في التواصل مع الأديان والأشخاص من أديان وثقافات أخرى، فهذا الرعب من المختلفين معنا، والتعامل معهم بأسلوب الخنوع لأمة والتقديس والتعظيم لها، لأنها تملك أن تقتلنا، أو لأنها زينت حياتها أكثر منا، أو لأنها أبدعت في استعبادنا، نحتاج لإعادة ترتيب طريقة العلاقة، وننبذ أوهام الضعف والجهل ونقص الثقة. وعلى الجانب المقابل الاحتقار لأمة بسبب فقرها، أو بسبب صورة ذهنية ليست صحيحة مبنية على النظر لعمالة رخيصة وجاهلة، أو احتقار غير مبرر، سوف نرد معها موارد الحقيقة يوماً ما، ويتبين كم كنا مقصرين في ترتيب علاقاتنا، وفهم الشعوب الأخرى والتقصير في صناعة الفهم والعلاقة لهؤلاء، وتقصيرنا في بناء جسور الإسلام والتعارف معهم. وضعف الفهم للتراكيب السياسية الدولية يسبب إغفال أثر الدين والصلة الشخصية والفكرية في بناء العلاقات الدولية في الماضي والحاضر والمستقبل. هناك مواقف وقضايا سهلة وسريعة مؤثرة في إبعاد أو تقريب أمة أو قيادة، وتهمل هذه المواقف والعلاقات حتى يطول الزمن ويسبب طول التنائي فساد العلاقة. كما أن وجود علاقات شعبية عامة وتسهيل الصلات، وتنازل السفراء ووزراء الخارجية ليكونوا بشراً قريبين من الحياة اليومية يجعلهم مؤثرين، ويجعل لوجودهم أثراً وقيمة، كما أن عدم مراجعة المواقف وتجديد الفهم دورياً يسقط قدرة الإنسان على الفهم ويحجر مواقفه.

وهنا مثال يصلح للنقاش وبحث سبل الخروج من سيئات الوضع الحالي. فالكثير من الجاليات العربية المسلمة التي هاجرت إلى أمريكا الجنوبية ـ منذ زمن الخلافة التركية» والإسبان الأمريكيون يسمون العرب في أمريكا الجنوبية «ترك» ـ هذه الجاليات وغيرها قد تنصرت، ولم تفقد تماماً صلاتها ولا جذورها، بل المسألة العرقية عند الكثيرين من الأجناس العربية في أمريكا الجنوبية هي عناصر قوة، ولديهم اعتداد بتاريخهم وجذورهم وتراثهم، وستساعد هذه المكونات على التعاون وجعل هذه المكونات مصدر علاقة جيدة مع العالم الإسلامي، ومع الشعوب الأمريكية الجنوبية المنحدرة من أصول متعددة، وتؤسس تعارفاً وصلة وتنمية تجارية وثقافية وسياسية، وتعيد توثيق الصلة بالمسلمين. وتكوّن توازناً مستقبلياً جيداً مع مناطق نفوذ أخرى.

وهناك أهمية لنسيان الفوارق الاجتماعية والثقافية والتركيز على الأولويات



Twitter: @ketab_n

الإسلامية والقضايا الجامعة. وترك فرض الأعراف التي ليست شرعية، بل مكانتها عرفية، والعرف متقلب.

إن الأطراف البعيدة إسلامية أو غيرها تحتاج لقلب إسلامي واع نابض بوجود هذه الأطراف البعيدة، يصدر لها الحياة والقوة والنبض والتوعية ويصنع العلاقة الواعية بما يمكن تقديمه، وما يمكن أن نتشارك فيه مع العالم. فالهجرة والسفر والتجارة والثقافة يصبح لها معنى عندما تنتظم في رؤية شاملة هادفة لمصلحة النفس والآخرين، ويكون لدى من يرود هذه الطرق الاستعداد للتعامل الصحيح، يعرف ما يقبل التنازل والمفاوضة، وما يحب الإنسان أن يراه من عمق صلب ومرونة في الأسلوب يتمتع بها الإنسان الذي يصنع موقفاً وينشئ علاقة. إن هذه التخوم الإسلامية البعيدة، أو «العواصم» سوف تشعر بالقوة، والأهمية بسبب وجود معين يعلّمها ويوجهها، وتعلّمه وتوجهه ويتفاعل مع ظروفها. وسوف تسوق له من عناصر القوة ما لم يتوقع. لأن القوة المعنوية تكسب مصدرها وهجاً وأثراً أكبر مما كان يتوقع. وهذه سيرة جميع مراكز التأثير الحضاري عبر التاريخ، تهوي لها قلوب المقلدين والزائرين، ويرسلون مالهم وفلذات قلوبهم لمصادر نبع القوة الروحية والمالية والفكرية والتجارية.

إن افتتاح الجامعات في الدول الإسلامية المركزية ثم إعطاء الفرصة للطلاب القادمين من دول العالم الإسلامي، بل وغير الإسلامي سوف يصنع حماية أمنية، وانتشاراً ثقافياً، وسمعة حسنة، وحركة تجارية، وييسر العلاقات الأوسع مع العالم الإسلامي وغيره. وقد لاحظت في أسفار وبقاع عديدة أن الطلاب الذين تلقوا تعليمهم في بلدان عربية وإسلامية من بلدان أخرى قد نشأت في قلوبهم علاقات ولاء ومحبة للمدن التي درسوا فيها، وللناس الذين خالطوهم، وللثقافة التي عاشوها أيام المرحلة الثانوية والجامعية. ومن الغريب أن الجهل بهذه الحقيقة في البلاد العربية كبير ويزيد كل يوم. على الرغم من أن بعض ذوي القرار درسوا في بلاد أخرى وأدركوا هذه المشاعر التي تتأسس في القلوب والمشاعر وتبني علاقات لا تبنيها أي أعمال للسفارات والديبلوماسيين.

وموسم الحج، هذه الفرصة النادرة في حياة الأمم، ميزة إسلامية لم يستفد منها المسلمون، ولم يحققوا الكثير من مقاصدها الكبرى، وكان أولى



Twitter: @ketab_n

بها أن تتجه نحو أثر أبعد مما هي عليه اليوم، فلهذه الفريضة من الجذب والتأثير ما يفوق أي عمل بشري آخر، إن بالإمكان جعلها مناسبة للتوحد والقوة والتفاهم والتأثير، والموقف الأممي العام الذي يتجاوز أثره ومستقبله أفق أي مؤسسة أخرى منافسة، ويحتاج إلى شجاعة في الفكرة، وإرادة لصنع قوة عامة دولية مؤثرة وعامة لا تتأثر بموازنات الدول وحساسياتها. وهذا أمر مرتبط بوضع المؤسسات غير الحكومية في العالم الإسلامي.

ولعل السبب الشعور بالنقص، وعدم الثقة في ما يمكن أن يقدموه للعالم. ولأنهم في زمن ما لم يروا ما يجول في قلوب وعقول المسلمين من بلدان أخرى. إن الطلاب الأفارقة والأمريكان والمستشرقين حتى الخصوم الذين درسوا وعاشوا في بلاد المسلمين أكثر عاطفة واتزاناً في تعاملهم مع المجتمع المسلم ممن لم يعايش هذه المجتمعات. بل هناك تقدير من غير المسلمين الذين خالطوا المجتمع العربي المسلم أكثر من تقدير واحترام المسلمين وأبنائهم الذين ولدوا وسمعوا هجاء مجتمعات المسلمين فقط. وإنك لتسمع الاحتقار منهم أكثر أحياناً من بعض الخصوم. ومن أسباب ذلك الخلطة والعلاقة، وهذه جوانب يحسن الإسراع بها، فهي ذات نتاج عملي حاضر ومستقبلي مفيد، دينياً وسياسياً، وحماية لأطراف عالم المسلمين ولأعماق مجتمعاتهم.

وبهذا ندرك أهمية الحفاظ على وجود وتقوية منارات الإشعاع الإيماني والتعليمي والثقافي العام، فخمول هذه المرتكزات يهوي بالأمة إلى منازل التبعية للمدن التي تحافظ على قوتها الروحية الحرة، وثقافتها العامة الحية، وجدلها المنفتح. وأصبحت هذه الجوانب مصدراً للقوة والثروة، فبريطانيا في عام ٢٠٠٢ حققت لأول مرة في تاريخها نجاحاً غير مسبوق حين تقدمت صادراتها الثقافية على غيرها وأصبحت المنتج الاقتصادي المفيد الأول مالياً للشعب البريطاني. وهي صناعة الكتب والمجلات والأفلام والموسيقى والحقوق الفكرية ووسائل الإعلام الأخرى. هذا فضلاً عن جانب قد لا يُعدّ مورداً ثقافياً وهو الجامعات البريطانية والتوجه لها بسبب مكتباتها وتاريخها وشهاداتها. إن التعليم قد يتحول إلى مصدر اقتصادي كبير لدى من يهتم به، وما ينتجه التعليم من كفاءات في داخل البلدان وخارجها، إذ يصنع الولاء والثقة والسوق والاقتداء. كما أن تدني التعليم وضعفه يصنع عكس ذلك، ويجرد الشعوب من القوة والنفوذ العقلي والخبرة الراقية. فالسعي لاستكمال



Twitter: @ketab_n

جوانب عديدة وفروع غريبة وكمالية راقية ليس ترفاً في عصرنا.

ثم إن طموح الشعوب للغلبة في لحظات قوتها مغفور لأهله، ومسكوت عنه، ويراه من يصدر عنهم شيئاً طبيعياً لا حرج فيه، فرجال ونساء الكونغرس يصدرون عبارات مرعبة، ويقولون غير المعقول، ولا يلومهم أحد على قولهم، ولا يصنف قولهم في خانة الإرهاب. مهما يكن مرعباً، ولكن لو همس واحد من الخائفين المستضعفين في زاوية من زوايا العالم بعشر معشار ذلك لقالوا إرهابياً، ومحرض على الإرهاب، وبهذا ترى أن من تبجح بالإرهاب وهو يقدر ثم نفذه فهو مصون مقدس، ذلك ما قالته جامعة تبرعات لأحد نواب في الكونغرس عن ولاية أريزونا: «اجتاحوهم واقتلوهم ونصّروا بقيتهم»[٨].

لا يرى الرئيس الأمريكي حرجاً في التحريض ضد من يخالف منهجهم في الحكم. فقد قال «إنهم يكرهوننا بسبب هذا الكونغرس!!»[٩]. ثم يذهب ليلزمهم بالطريقة التي يراها، وينسى أن هذا منه كراهة وحقداً، وأن تغييره لهم مشروع. وتغييرهم له غير مشروع!! لأنه قوي ففعله حق. وهم ضعفاء فحياتهم باطلة، وليس لهم حقوق. ونحن لا نتحدث عن الإرهاب هنا، لأن الذين عوقبوا وقتلوا في العالم الإسلامي ليسوا من يسمونهم بالإرهابيين بل الشعوب المقهورة المضطهدة التي لا ناقة لها ولا جمل في ما دار ويدور. المتحدث باسم البيت الأبيض السابق يقول «حافظوا على المسلمين فقراء

---

(٨) قيلت كلمات شنيعة في حق المسلمين ديناً وخلقاً وشكلاً ولباساً، وليست هناك جدوى من ذكر هذه الأشياء، فهي تزرع الأحقاد، وتلهب المواجع، وبعضها لا يليق النطق به ولا نشره، ولكن يبدو أنه كانت هناك أجهزة في الحكومة الأمريكية تغذي الحقد، على المسلمين لتستغل هذا الحقد لمصلحة العصابات الصهيونية التي خطفت الحكومة والإعلام، وأرادت المزيد من الثروة. من خلال نشر الرعب والإنذار به والتهويل منه، وأخيراً عرف الجميع قصة الكذب المنظم لتتم مسألة احتلال العراق. وقد كان النائب آلن كيز يخطب ويرعب، وهو مرشح أسود للرئاسة على قرابة نصف ساعة ليلياً على التلفاز، وأغلب الخطب ضد العرب والمسلمين، وقد اختاروه أسوداً، لأن السود وبعض الملونين بدأوا يخالفون رؤية الحكومة للأحداث، وبخاصة في التجنيد العام للحرب الإعلامية على المسلمين.

(٩) كان هذا السؤال، والجواب عليه من أكثر النصوص التواءً التي نطق بها زعيم، لأن الإجابة عليه كانت ملتوية، «وهو لا يرقى إلى قريب من كاتب خطبه» وقد أثار السؤال عدداً كبيراً من المراقبين، وكتب عن هذا كتاب كان من أكثر الكتب المقروءة بهذا الخصوص، إن كاتب خطب بوش لم يتجه للجواب المعروف لهذه المسألة فكان السؤال مخادعاً والجواب أكثر بعداً عن الحقيقة!!



Twitter: @ketab_n

أذلاء، لأنهم إن اغتنوا أو تحرروا تمردوا ـ أو قريب من هذا النص». فهو لا يتعامل مع بشر بحسب السياق بل يتعامل مع قطيع يجب التحكم به!! كلام الموظف الآخر نفسه في بغداد بعد نحو عامين. وهو يصف العرب بقطيع القطط المزعجة والفرق أن القطط لا تشتكي.

عقول الناس وهي منتصرة قوية لا تفكر في موقف الضعفاء، وترى ضعفهم شراً. وواجب أن يتغيروا. وتقترب ملامحهم وأشكالهم من هذا السيد.

ابن حزم الأندلسي في زمنه كان حراً يفكر بفكر القوة والنفوذ والتوسع، غير هياب ما يقال، يقول:

| | |
|---|---|
| من المحتمي بالله رب العوالم | ودين رسول الله من آل هاشم |
| سنفتح قسطنطينية وذواتها | ونجعلكم قوت النسور القشاعم |
| ونملك أقصى أرضكم وبلادكم | ونلزمكم ذل الجزى والمغارم |
| ونفتح أرض الصين والهند عنوة | بجيش بأرض الترك والخزر حاطم |
| مواعيد للرحمن فينا صحيحة | وليست كأمثال العقول السقائم |
| إلى أن يرى الإسلام قد عم حكمه | جميع الأراضي بالجيوش الصوارم |

غريب سياق ابن حزم، ولكنه قول مقبول تماماً، لأنه في دولة قوية، وأما من عاش الذل والخوف فلن يفكر بتفكيره. إن التفكير في مصالح المسلمين والعالم واجبنا، وواجبنا الشعور أولاً بالخروج من قوالب القهر والخوف والعجز وعدم الثقة. ومراعاة حقوق الناس التي رسمها الإسلام لمن خالفنا. كما أن ثقته بنصر الإسلام كانت واضحة، وحديثه عن دخول القسطنطينية، الذي حدث في ما بعد بقرون مديدة، لم يكن موطن شك. ونحن نعلم من نصوص عديدة أن مبلغ الإسلام سيكون أبعد مما بلغ اليوم.

تقوم فلسفة إسرائيل على فكرة الأطراف المشدودة، وهي فكرة البحث عن غلاقات جيدة في المنطقة المحيطة بالعالم العربي، التي تكون ضد العرب، لكون العرب ضدها، فهي تبحث في الحزام المحيط بهم ليكون دائرة من الأعداء للعرب، من مثل إيران ـ في عهد الشاه ـ وتركيا، وجنوب السودان وافريقيا السوداء والهند وغيرها. واليوم تكاد تنكسر أحزمتها المشدودة في أماكن عديدة، فهي كلما كسبت مكاناً فقدت آخر، فمكسب

Twitter: @ketab_n

العراق قد يفقدها تركيا، ويفقدها فرنسا. ونحن بحاجة لفتح هذه الأطراف وليس شد الخناق على المجتمع المسلم ودعوى الانفتاح والعلاقة الجيدة مع دول العالم مطلباً لنا كبيراً، وذلك لكثرة المسلمين وانتشارهم، وتعدد مناطقهم واختلاف الضغوط عليهم، وقاعدة الإسلام من قديم أن يخلي بين الشعوب وحريتها لتختار دينها وطريقة حياتها، فليس لهم أن يغلقوا العالم في وجه المسلمين سفراً وهجرة ويفتحوا بلاد المسلمين لمنصّريهم وإعلامهم وشركاتهم، وجيوشهم، فتكون أرضهم وفكرهم مصونين وأرضنا وفكرنا مستباحين!!

## الكراهية

ليست هناك ثقافة على وجه الأرض إلا وتدعو لشيء من الكراهية، وتدعو للمحبة. عندما استمعت كغيري من الملايين لخطبة بوش «لماذا يكرهوننا» استعدت الكلام الكثير الذي كان يقوله الليبراليون والشيوعيون والوطنيون في بلدان محتلة كثيرة عن «المبشرين الكذبة» الذين يلوون الحقيقة.

وتدفقت كتب ومقالات وخطب، عن ثقافة الكراهية، ودين الكراهية، فـ: «لماذا يكرهون أمريكا»، و«لماذا يكره الناس أمريكا». شهدت بنفسي موسم صناعة الكراهية للمسلمين في أمريكا، وفي الغرب عموماً، ولكنه غابت عنا حقيقة عميقة ومرحلة مهمة يحمد فيها الأمريكان الكراهية والحقد. ويعدونها شرط المواطنة الصالحة، وعقيدة الولاء والبراء العميقة في نفوسهم، وليست هذه عقدة الأمس القريب روسيا «الامبراطورية الشيطانية» بل هناك في مرحلة بناء الدولة الأمريكية، كما يقولون هم!

مفكرو أمريكا يقولون إن أمريكا قامت على الكراهية، ويقولون: «لو لم يكره الأمريكيون بريطانيا لما قامت لأمريكا دولة»، ولما كان لها وجود على عرش العالم!! لم يكن الأمريكي وطنياً ولا قومياً ولا يحترم نفسه إن لم يكنّ الكراهية والبغضاء للملك البريطاني ولكل الثقافة البريطانية وما تمثله من هيمنة واستعمار. كانت المحبة لبريطانيا تصنف في أمريكا على أنها خيانة للوطن. وانقسمت البيوت الأمريكية بين موال للملك وللمستعمرين البريطانيين، والمخلص لبريطانيا يصنف خائناً لوطنه، ويقابل ذلك الوطني



Twitter: @ketab_n

الشريف الذي يموت في سبيل حريته فلا بد من أن يكره بريطانيا، ثم صعدت الحرية الأمريكية لتكون ديناً. وكان الاستعمار والهيمنة البريطانية كفراً بالحرية، وشراً وشيطاناً أكبر، ومحوراً للشر، ومحور الشر آنذاك في الثقافة الأمريكية والسياسة هم المستعمرون، فكانت كراهية بريطانيا ـ ثم إسبانيا التي تحتل أمريكا الجنوبية وبعض الشمالية ـ علامة للشهامة وللاستقامة والرجولة والكرامة الشخصية للرجل، وللمرأة وللكنيسة وللمدرسة وللشارع.

كان يصعب على البريطانيين تصور كراهية الأمريكيين لهم، أيام الاحتلال البريطاني لأمريكا وبعده، ويتساءلون لماذا، ما هذا الحقد والطرد للبريطانيين من أمريكا وهم جنس واحد، ودين واحد ولغة واحدة، ما الذي حدث في عقول هؤلاء الأمريكيين المتدينين الأجلاف!! يهبطون من الغابات ويقتلون جنود الملك، ورجال الامبراطورية، فيلسوف حريتهم صعلوك بريطاني يسمونه «توماس بين» يكتب لهؤلاء الأمريكيين المهووسين بالحرية مقالات تثير جنونهم، وينشر بينهم كفراً يسميه الحرية و«منطق العقل» ومقتضى الوعي، وهل هؤلاء الصعاليك هم من سمم العقول الأمريكية ونشر الحقد!! بعد أكثر من مئتي عام عاد هؤلاء ليستعمروا سيدتهم الأولى، وهم يحبونها، ويتعجبون لمَ يكره البريطانيون الأمريكان، إن البريطانيين لا يكرهون الأمريكيين ولكنهم يكرهون الاحتلال، ويكرهون القلق، ويكرهون قسوة الامبراطور والملك الجديد القابع في واشنطن. إنهم يبحثون عمن يكتب لهم نصوص الحرية، مرة أخرى، يبحثون عن توماس بين آخر. وتمتلئ رفوف المكتبات البريطانية بكتب عديدة أشبه بالمحاولات الأمريكية في زمن التحرير ولكنها لا تحرر، فالإنسان هنا هو إنسان قديم جداً، شبع مدنية، وشبع من الضعف، وشبع من الملل، ومن العجز، إنه قابل للاغتصاب الأمريكي. لن يقيم حفلة الشاي، ولن يخرج للغابات، ولن يقتل، ولن يكتب عن الحرية، ولن يكتب الدستور، لكن مستعمرين غيره ربما يفكرون فعلاً في ذلك!!

وقديماً كان الأحرار الأمريكيون لا يقبلون ثقافة استعباد الناس، تلك كانت ثقافة أمريكا في عصر استقلالها، وكلمات الحرية والرجال الأحرار والضباط الأحرار من صناعتهم أو نالت الشهرة من ترويجهم. قبل أن تتذوق أمريكا لذاذة أن تستعمر الآخرين وتقهرهم. ثم تجاوزت الحرية الأمريكية حدودها لتكون استعباداً لغيرها، ولترى في أفكار الحرية جريمة، فانتشرت



Twitter: @ketab_n

الكراهية لها، زمن الحرب الأمريكية على العراق أصبحت اللهجة الأمريكية ممقوتة حتى في بريطانيا، والأمريكي يستفز الناس بصوته الذي أصبح يبغضه البريطانيون، بل أصبح الفرنسي مقدماً عليه، ومحبوباً أكثر. بعكس الحال في أمريكا، فاللهجة البريطانية مقبولة ومحبوبة، وهناك فرحة بالبريطاني الذي ساند المستعمر الأمريكي، فطوني بلير عون لبوش ومحبوب في أمريكا، بوش مكروه في بريطانيا، حتى إنه لا يستطيع أن يسير في موكب عام لتستقبله الملكة في العربة الرسمية في الشارع الذي يستقبل فيه مثله. ونصح بأن يكون الموكب مختصراً، وملاحظاً فيه الجانب الأمني. لماذا كره المسلمون تصرفات أمريكا؟ إنه للسبب نفسه الذي كره من أجله الأمريكان حكومة بريطانيا زمن الثورة الأمريكية، إن القادة الأمريكيين يعلمون هذه الحقيقة، ونحن نعلمها.

أستاذ في جامعة ييل عام ١٨٩٦ تجشم المصاعب ليشرح للبريطانيين لماذا يكرههم الأمريكيون أكثر من كراهيتهم لأي أمة أخرى على وجه الأرض!! ويشرح للبريطانيين سبب كراهية الأمريكان لهم لأن بريطانيا آنذاك كانت تجتهد لأن تستلحق كل جزء من أرض العالم تستطيع أن تقتطعه بأي ذريعة أو حجة جاهزة، إنها تأخذ كل الأرض، ولا تحتاج لمبرر لأخذه[١٠].

واليوم تحول الدور لأن تقوم أمريكا بالعمل نفسه، ثم يخطب بوش لماذا يكرهوننا!! إنه السبب نفسه الذي كره أجدادك من أجله بريطانيا. يريدون أن تكون لهم أرضهم وسماؤهم، وحريتهم وكرامتهم، يريدون أن لا تكون الأعذار جاهزة دائماً لاستلحاق أرضهم وثرواتهم، فهل شيء من الكراهية ضروري لوجودهم، كما كان ضرورياً لكم في زمن ما، وليكونوا بشراً، تاريخ أمريكا وكتابها وقادتها يقولون كراهية الاستعمار شرط للوجود!! فهل الموقف الجلي اليوم في العالم الإسلامي من المفاصلة والكراهية التي يغذيها الجانبان «شرط وجود لوجود»، وهل تصنع أمريكا بتصرفاتها وكلام قساوستها وتصرفات قادتها وكراهيتها هل تصنع هوية الاستقلال! هكذا يلوح الأمر، ويتشكل المستقبل، منفلتاً من أيدي كثيرين من عقلاء الطرفين ومن غير العقلاء.

أما نحن فلا نحب الكراهية أن تكون مناط العلاقة، ولكن الأمريكان ـ

---

(١٠) Eric Schlosser, «Not All of Us Americans are Evil,» *Guardian*, 29/10/2003.



Twitter: @ketab_n

كما فعل أجدادهم البريطانيون بهم ـ لا يتركون لغيرها مجالاً، وددنا أن نزرع المحبة في كل ركن، فابتعدوا عنها لتنموا، دعوها ترى الشمس والهواء، لقد بشمتم وما شبعتم، ولا تفنى الأرض، ولا تنقطع الثروات، ولا تختفي المبررات، ولا تنتهي الرغبات، إن طمعكم وشراهتكم مرض يقتلكم، قبل أن يضر خصومكم، بطونكم تتسع لتقتلكم، تتوقعون أن العالم لا يملأها، ولكن غيركم لهم أيضاً حاجات، وهم بشر، وللأسف فمنهم من يحبون أن يطعموكم من ثمار عملكم، التي يذوقونها كل يوم. فشاركوهم إن أردتم استيعابهم. خففوا من نزعة الالتهام للعالم، قبل أن تزيد احتقاناته، ويلتهمكم وقبل أن يكره بعضكم بعضاً، أو يلتهم بعضكم بعضاً. حتى أنتم لقد جهدتم للبحث عن سبب لاستلحاق جميع الأرض فلم تجدوا. فكيف تطلبون الحب من الضحايا، أو الثقة ممن كذبتم عليهم، ثم توثقون كذبكم، ويخطب خطيبكم: «لا تعتذروا أبدا عن قيمكم» قيم السباع، لا حرج عليكم فالقوي لا يحتاج حجة، قالها مؤرخكم وأكدها شاعرنا:

ودعوى القوي كدعوى السباع من الظفر والناب برهانها وكلما اعتدى السبع نشر كراهيته، وألزم الضعفاء بمطاردته، وبالتحصن، فيبذل الضعفاء كل الجهد لحماية البقية وحراستها، وقد تنبهت الضحايا أكثر من السابق، وإن عدوانه وتماديه فيه ينهي بنفسه عدوانه. أقيموا شيئاً من العدالة، وابسطوا القسط، وليكن للمستضعفين لسان، ووحدة ترفع عنهم الجور، وتخفف عنهم غيلة السباع العاديات. وتخفف من سم الكراهية العمياء، لأن تصاعدها وانفلاتها يفتك بالطرفين.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# ـ ٣١ ـ
# المؤسسات الدولية

انهارت بنية النظام القديم «الأمم المتحدة» الذي تأسس على سياسة التوازن الدولي وبدأت مرحلة النظام الواحد «الامبراطورية الواحدة». ومارست الأمم المتحدة من العقوبات في عشر سنوات ١٩٩١ ـ ٢٠٠١ تنفيذ عقوبات على دول لم يسبق أن مارستها منذ تأسست الأمم المتحدة. وعلى الرغم من هذه السيطرة والهيمنة على الأمم المتحدة من قبل أمريكا وقلة تابعة لها، فإن أمريكا تبدو على الرغم من ذلك ساخطة جداً على الأمم المتحدة، لأن بقي فيها قوانين ونظم وانطباعات تعتبر الولايات المتحدة دولة وليست حكومة مستبدة بمصير العالم، وهذه المشاعر والقوانين تستفز الإدارة الأمريكية والمخططين الأمريكان، وهذا من أسباب السخط الأمريكي على الأمم المتحدة، وكانت مشكلة الأسلحة العراقية أنموذجاً حديثاً لهذه العقدة، فقد احتاجت بريطانيا وأمريكا إلى وضع أدلة ومبررات أمام العالم تبرر العدوان على العراق، ولم يكن لدى الدولتين أدلة، والأدلة الملفقة لم تقتنع بها الكثير من أجنحة السلطة في الدولتين فضلاً عن غيرهما.

على الرغم من العقوبات التي تستطيع أمريكا استصدارها بسهولة ضد من لا يسير على ما تريد وهذه العقوبات تشمل: تنفيذ المادة رقم ٤١ من ميثاق الأمم المتحدة، التي تحدد أن مجلس الأمن يمكنه «وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية وقفاً جزئياً أو كلياً»[١]. وهذه

---

(١) بطرس بطرس غالي، **الديمقراطية هي الحل لمخاطر العولمة**، ترجمة أمينة الأعصر (القاهرة: مركز الأهرام، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٥٠ ـ ٥١، والبحث هو مقابلة طويلة أجراها إيف بيرتيلو، كجزء من تاريخ أفكار الأمم المتحدة.



Twitter: @ketab_n

العقوبات كان من أهم ضحاياها كثيراً من الشعوب العربية والإسلامية. وهي تضر بالشعوب المضطهدة ولا تضر بالحكام. وهي طرق للنقمة والتدمير على المدى الطويل للشعوب.

ثم تتظاهر هذه الدول الغربية المسيطرة بأنها تساعد وتنقذ الدول الفقيرة والعالم النامي، والحقيقة أن هذه القروض ما هي إلا عمليات استثمارية من أكثر الأعمال ربحاً ونهباً للفقراء في دول العالم الثالث، فمن الغريب أن يسكت العالم الثالث المنهوب أمام القروض الربوية الخيالية التي تمتص دماءه للبنوك الدولية والدول الغنية ويكفي أن نعلم أن المبالغ التي تحصل عليها الدول الغنية من الدول الفقيرة وتحول لدول الشمال من دول الجنوب تحويلات خيالية من المال الخالص إذا تركنا المواد الخام: «دور الأمم المتحدة غامض بدرجة أكبر مما كان وقت تأسيس المنظمة»[٢].

وإذا أخذنا ببعض الأرقام التي أعلنها اقتصاديون مرموقون فإن المعونة المقدمة للعالم الثالث منذ خمسين سنة ستظل فضيحة من أكبر فضائح المؤسسات الدولية في القرن العشرين. فقد أصبحت هذه المساعدات اليوم وللمفارقة تحويلات صافية تبلغ من ٣٥ إلى ٤٥ مليار دولار في العام الواحد، من دول الجنوب إلى دول الشمال، وذلك علاوة على التحويلات غير المشروعة»[٣]. علماً أن هذه المساعدات والقروض يعود أكثرها مباشرة قبل وصولها لدول الجنوب، على شكل مساعدات عينية، وفي إحدى الدول كان أحد الزعماء يثبت لشعبه أن ٨٠ في المئة من القروض للدول الفقيرة ترجع فوائدها المادية مباشرة لدولته المانحة. ولم يشر إلى الضغوط المعنوية ونزع السيادة والقرار من الدول الضعيفة المقترضة. هذا إلى جانب المشكلة المعروفة في هذه الدول من عودة هذه القروض مباشرة ليفتح بها حسابات شخصية لزعماء دول العالم الثالث وأقربائهم في بنوك سويسرا وغيرها. وتكون القروض كارثة مرة أخرى حيث تلزم الشعوب برد ديون ربوية عالية لم تصل

---

(٢) هذا قول أمين عام الأمم المتحدة والذي سبق له أن اهتم بالموضوع وشارك وكتب في موضوع الأمم المتحدة لمدة تزيد عن خمسين عاماً، إذ بدأ البحث والكتابة عن موضوع الأمم المتحدة منذ أواخر أربعينيات القرن العشرين، ثم كان مندوباً ومشاركاً في نشاطاتها حتى وصل لأمانتها العامة. ولعله لا يريد أن يقول أنها مؤسسة اخضاع وابتزاز للشعوب الفقيرة والضعيفة، ولم يجرؤ على ذكر هذه الحقيقة التي ذكرها تشرشل وقت تأسيسها.

(٣) بطرس غالي، المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢.



Twitter: @ketab_n

أصولها أصلاً للدول التي تحملت الديون، وجزء كبير يذهب في عمولات خيالية بحجة التطوير والتحديث، وما هي إلا نقمة وتدمير على اقتصاديات هذه الشعوب.

ونحن نرى أنصار الحريات والديمقراطية ودعاة رفع الظلم عن العالم الثالث يتظاهرون، ويقومون بنشر التوعية ضد منظمات من مثل منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي، ولا نجد لهذا صدى في العالم الذي تستهدفه هذه المؤسسات بالضرر، ومن أسباب ذلك عدم المعرفة لدى شعوب العالم الثالث بالإفقار المنظم الذي مارسته هذه المؤسسات ضد الشعوب الفقيرة، والمتخلفة صناعياً.

وهناك استبداد وإزعاج شديد لمن لا يلتزم بحرفية الموقف الأمريكي من أي قضية، مثال ذلك ما حدث لمندوب موريشيوس في الأمم المتحدة. فبطريقة هادئة اضطرت أمريكا لإخراج سفير موريشيوس المعارض لسياستها في العراق من الأمم المتحدة، وتحتج على اتفاقها مع بلاده وسماحها لدخول المنسوجات الموريشية لأمريكا[٤]. وأزاحت من قبل بطرس بطرس غالي، على الرغم من رغبة الأغلبية الساحقة من دول العالم في بقائه بما في ذلك جميع الدول الدائمة العضوية عدا أمريكا. وهكذا في القرارات، يوم اجتاحت إسرائيل لبنان لم تتحرك أمريكا، وبقيت مؤيدة من أمريكا مدعومة بالمال والسلاح حتى أخرجت قسراً. وفي الكويت اتخذت قرار التدخل في فترة قياسية وبدأت العمل قبل أن تحصل على قرار الأمم المتحدة. وتقف ضد قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بإسرائيل، وتؤيد عدم التنفيذ. وتلزم دول العالم الإسلامي بتنفيذ أكثر من حرفي لجميع قرارات الأمم المتحدة، التي هي قرارات الولايات المتحدة عملياً.

تتجه الولايات المتحدة لتغيير أو هدم مؤسسة الأمم المتحدة بسبب التكوين الذي يعطي دولاً في العالم مكاناً أو قراراً، ولأنها تؤخر بعض رغباتها أحياناً، وبسبب بيروقراطيتها، وما تستهلكه من أمريكا، وتخوف الشعب الأمريكي منها، والرغبة في وضع نظام يضر بمن لا يتفق معها في تكوين المؤسسة بحجة الديمقراطية أو غيرها من الاتفاقات الأخرى، ونزع

---

(٤) جريدة **الشرق** القطرية، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٢، ص ١٦.



Twitter: @ketab_n

بعض صلاحياتها لمؤسسات أخرى، مثل الدول المصنعة، أو المعتدلة، أو الديمقراطية، أو الملتزمة مواصفات تحدد سابقاً.

وهدم هذه المؤسسة قد يصنع عالماً جديداً من الظلم والجور تصبح مواجهته رغبة إنسانية عامة، وسيكون المسلمون أول من يوجه ضدهم التكوين الجديد للأمم المتحدة، فتصنع لهم هذه التغيرات عالماً أكثر تماسكاً، وسوف يجمع الرعب عالم الضعفاء ويمزق عالم الأقوياء المتصارعين.

وسيكون لتأثير المحافظين الجدد ـ «وهم غالباً يهود» وقلة من النصارى الذين أعطوا ولاءهم للصهاينة ـ دورٌ كبيرٌ في إلحاق الضرر بعلاقات أمريكا في العالم، ومن الغريب أن أحدهم يقدم نفسه بأن يكتب تحت صورته على التلفاز الأمريكي: «نصراني صهيوني»!! فهم يثيرون المشكلة الدينية، بين اليهود والنصارى وبين البروتستانت والكاثوليك والمسلمين ومع أوروبا، ففرنسا كاثوليكية، وألمانيا لها موقفها العتيد من اليهود، وهذه الزمرة تحقد على جنس الألمان وتراهم المسؤولين كأمة عما حدث في المحرقة، وعودة الدين في المجتمع الغربي ستحمل له شروراً كبيرة؛ فالنصرانية المحرفة كانت سبباً للتمزق والحروب، وعودتها بمشكلاتها سوف تشب على اليهود ناراً أشعلوها في غفلة وغياب للعقل.

لهذه المؤسسات حاجة كبيرة في العالم، ولا يليق أن نهون من مقدارها، فهي خير وسيلة عرفها الناس لتحقيق مصالحهم في العصور الحديثة، وبما أن المسلمين في قلب هذه المؤسسات الغربية، وهم وقودها، وهم المتضررون منها، والمستفيدون ـ لو أرادوا ـ منها، وتدور أعمالها في كثير من الأحيان حولهم، وهي مصدر عمل كبير، ومصدر تأثير إعلامي وثقافي وسلوكي واسع. ومنها جمعيات سياسية وجمعيات اقتصادية وصحية وإغاثية، والمتنفذون فيها من كل لون ودين، تسوقهم طموحات عديدة، شخصية ومذهبية ووطنية ودينية، غير أنها في النهاية تحقق بعضاً مما تريد.

وفي سبيل التجاوب مع هذه الأوضاع الجديدة يحسن أن ندخل هذه المؤسسات، معرفة بها، وتعاوناً مع وجوه الحق والخير فيها، وتوجيهاً وتعريفاً بما نؤمن أنه قضايا عادلة. ثم إنه من أجل أن نبني بدائل لما نراه يستحق التبديل فلا بد لنا من أن ندخل جسم هذه الحضارة وميادينها من أجل تقليل خسائرنا، أو تحقيق مكاسب للأمة، وتصور العداء المتمكن لنا في كل



Twitter: @ketab_n

زاوية بعضه وهم، وجهل وخوف لا مبرر له. وليس في شريعتنا ما يمنع معرفتنا بكل نظم الكون المحيط.

إن ثقافة حلف الفضول التي دُعي إليها الرسول (ﷺ)، وقال إنه لو دعي إلى مثلها في الإسلام لأجاب تستحق منا أن نفكر في أن نكوّن مجموعات البر والإصلاح والرحمة على مستوى عالمي، ورفع المظالم عن الناس عموماً، لأنهم بشر مكرمون بإنسانيتهم، وإن لم يؤمنوا. وستكون هذه المؤسسات باب خير لنا وللعالم، وتصحح الانطباعات الوحشية التي حرص خصومنا على إلصاقها بنا كذباً وزوراً وصرفاً للحقيقة ليبرروا استمرار مظالمهم واستغلالهم للمسلمين.

لقد ساهمت المؤسسات والأحزاب التي نكثر من لومها والتحذير منها في بناء مواقف وثقافة إنسانية عامة دولية من العديد من القضايا، وتورطنا بطريقة غير واعية في الشك والتحذير الدائم من تلك المنظمات، ولم نفكر في حاجة العالم لبدائل من هذا القبيل، مؤسسات وجمعيات معلنة الأهداف، واعية لما تريد، تتعمق في كل المجتمعات وتحمل لهم الخير والثقافة والود والعدل. كما تقوم بالضغط لصالح وجوه المنفعة، وتخفف من حدة الشر وجهامة الوحشة، وقلة النصير التي يعانيها المسلم والتي تجعله على هامش العالم.

وهناك حاجة للتخفيف من المزاج الأسطوري والصور الخيالية المرعبة عن هذه الجمعيات، فقد قامت لتحقيق مصالح أهلها، وساعدتهم كثيراً، مثل «الصليب الأحمر الدولي» و«أوكس فام»، ومنظمات لا تحصى، حققت لشعوبها الكثير، من المنافع، ويمكن لمن يفكر بوعي أن يقيم مثيلاً لهذه المؤسسات، أو يشارك في الموجود، مثل: «هيومان رايتس ووتش» وهي منظمة للدفاع عن حقوق الإنسان، يغلب عليها اليسار، وليست حكومية، وتختلف عن الأخرى التي تستخدمها دول كبيرة، وهناك الجمعيات الثقافية التي تملأ العالم وهي أكثر تأثيراً مما يراه من لم يعش في مجتمعات منفتحة، ففي أمريكا يندمج ٧٥ في المئة من الشعب في جمعيات عامة غير ربحية، من تلك الجمعيات التي ترعى حقوق الطير ورعاية أنواع الزهور، إلى الجمعيات التي تكافح أسلحة الدمار الشامل، إلى الجمعيات التي تفرض سيادة الصهيونية على العالم، وجمعيات تأييد حمل الناس للسلاح، وهي من الأعلى



Twitter: @ketab_n

صوتاً[٥]، إلى الجمعيات الدينية والسياسية والأخلاقية، أو كالتي تقوم بمهمات صغيرة في مراقبة الأحياء، أو مساعدة المنقطعين، والتدريب على سرعة القراءة وغيرها.

## النفاق في التعامل مع المؤسسات

يفتخر المجتمع الغربي بميزة حقيقية يعرفها الجميع، وهي وجود مؤسسات النفع العام، يعمل فيها في أمريكا أكثر من ٧ في المئة من الشعب، أي أكثر من عدد موظفي الحكومة الأمريكية، وأن شبكة علاقات وتطوير المجتمع الغربي تقوم أساساً على التعاونيات، بدءاً بالجامعات، إذ إن أنجح وأشهر الجامعات الأمريكية هي الجامعات غير حكومية، وتجمع التبرعات من التجار والشركات، ومراكز البحث، ومراكز الاختراع، والدراسات الاجتماعية والاستراتيجية والسياسية والصحية. حتى إن المجموعات التي توجه سياسة الحكومة الأمريكية هي «مجموعات الضغط» التي تأتي من مراكز بحثية تطوعية ليست حكومية، تتبع لكنائس وشركات ومجموعات يهودية، وعنصرية متعصبة، ومن أحزاب، وجماعات الأعراق والجنس المختلفة، وتتخفى وراء دساتير وحقوق تجعلها تمارس الأثر، وتحصل على المال، وتعفى من الضرائب وتوجه مصير المجتمع وسياسة الحكومة، وهكذا في البلدان الأخرى.

وفي بلاد المسلمين تساهم مؤسسات أمريكية منها «مؤسسة دعم الديمقراطية» في تقوية الأعمال المفسدة للمجتمع الإسلامي، والتي تعمل على إبعاده عن الحياة الإسلامية، واستغلال من يسمونهم ليبراليين لتدمير التكوين الإسلامي، ومحاربة الثقافة الإسلامية، وإنشاء معاهد ومؤسسات تقوم بدور الطابور الخامس في العالم العربي، وتتحايل بحيل عديدة على تنفيذ عملها، حتى إنهم ليدعمون مؤسسات ودور نشر ونوادي يستغرب الإنسان دورها، لولا

---

(٥) من أسباب وجود وقوة هذه الجمعيات، أن فكرة حق الناس في حمل السلاح الفردي جاءت من خطر استبداد الحكومة ضد المواطنين، وهو تقليد تاريخي لحماية حرية الناس وكرامتهم وممتلكاتهم من تهديد الحكومة البريطانية المستعمرة، أو أي حكومة لاحقة. فكرامة الفرد الأمريكي مرتبطة بحقه في احترام حريته، وتأكيدها بحقه في الدفاع عن نفسه وممتلكاته بالقوة، كما فعل في زمن الثورة الأمريكية على البريطانيين ولم يزل الفرد الأمريكي يتمتع بهذا الحق إلى اليوم.



Twitter: @ketab_n

أنا وجدناها على قوائم المعونات من قبل أحداث أيلول/ سبتمبر بأعوام، وتلك طريقة درجت عليها مؤسسات كبيرة مثل المخابرات الأمريكية فإنشاء المجلات ودور السينما الملتزمة بأهداف المستعمرين، والتبشير بأفكار محددة كانت ولم تزل ميدان مواجهة مباشرة، كانت في ما مضى للمواجهة مع الشيوعيين واليوم للمواجهة مع المسلمين، والجديد في الأمر أن تمويل هذه المؤسسات أصبح يدفع أحياناً من دول ومؤسسات عربية وإسلامية.

وبعد أحداث نيويورك تعرضت الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في أمريكا بخاصة وأستراليا لحملة شديدة الأثر تهدف إلى تدمير هذه المؤسسات، وإنهاء وجودها، والزعم بوجود علاقات بأي طريقة بينها وبين الإرهاب، والتي لم يجدوا لها ذنباً فإن حجة الاحتمال والاشتباه كافية لتدميرها، وتخلية المجتمعات النصرانية من المؤسسات النشطة إسلامياً، ومحاكمتها فكرياً، وسياسياً ومالياً، والسعي بكل وسيلة إلى إغلاقها بطريقة قانونية، وبعضها يغلق مباشرة من دون أي سند قانوني، وقبل بدء أي مرافعة. وهؤلاء المتطرفون المحاربون للعمل السلمي الصغير في بلادهم، يرسلون الجيوش الكنسية، والدعم العسكري والسياسي والتدريبي لجمعياتهم التبشيرية ولأوليائهم في السودان وغيره من بلاد المسلمين. «ثم يرفعون راية علمانية دولهم!!».

وتجري عملية تدمير للمؤسسات الخيرية والتطوعية والعامة في العالم الإسلامي[٦]، وهناك محاولات غربية جادة وحاسمة في إنهاء دور المؤسسات الخيرية في المجتمع، وبخاصة ما له سمة إسلامية، وفتح الباب أمام الجمعيات التي تروج لقيم ومبادئ غربية. وتحاول الحكومات الغربية أن تقيم العوائق الشديدة التي تعود للنمط الشيوعي الروسي في قهر وإنهاء كل

---

(٦) أعد الدكتور محمد السلومي كتاباً عن موضوع «القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب» يتحدث عن استهداف المؤسسات الخيرية الإسلامية، يستحق المطالعة، ولم تزل المضايقات والأساليب تتبع لتدمير البنية المؤسسية وجمعيات النفع العام في العالم الإسلامي، وذلك لخطورتها في مواجهة مشروع تدمير البنى الأساسية في العالم الإسلامي، ولأنها تساهم في الدعوة للإسلام، ولتبقى مسؤولية إطعام الناس وعلاجهم حكراً على الإرساليات التبشيرية، التي تتقاضى مساهماتها مباشرة من الحكومة الأمريكية ومن المؤسسات الغنية، ومما يستحق التسجيل هنا أن الاستجابة للدعوة الإسلامية أكبر من غيرها في هذا الزمن برغم فارق التكاليف المادية، والدعم السياسي والعسكري والمعنوي الأمريكي.



Twitter: @ketab_n

المؤسسات الإسلامية، ووصم الجميع بالإرهاب. بحيث يسحب بساط الشرعية عنها، ويسمح فقط للجمعيات التي تعمل على قضايا مثل تحديد النسل بين المسلمين، وصناعة ضجة وأزمة مفتعلة حول ختان الإناث، والترويج للشاذين جنسياً، وفتح المجال لهم لتأسيس مؤسسات وجماعات ضغط، وتستغل هذه الظروف الجمعيات الكنسية الغنية، فبعد تحريم العمل والدعوة الإسلامية، تنشط الجمعيات الكنسية، فعند بداية حكم بوش كافأ الكنائس بهبات جاوزت ثلاثة مليارات دولار، وكان هناك ضجة حول الموضوع. بتهمة أنه يهبهم المال لأن الكنائس جاءت به للحكم، وهو مرشحها، وبسبب أن الحكومة علمانية ولا حق لها في هذه الطريقة، ولكن لهم مخارج كثيرة، وفسرت بأنها معونة للدور الاجتماعي والعالمي لهذه الكنائس، وكانت هذه الأموال تذهب غالباً للتبشير بشكل مباشر أو سواه.

ففي زمن التجويع القسري للمسلمين يجد الناس الطريق الوحيدة أمامهم تبرعات الكنائس المشروطة بحضور دروس الإنجيل. وفي مشروع عام ألفين الذي أعلنت عنه عدد من الكنائس، وهو يستهدف بلاد العالم الإسلامي، يقام في طاجكستان وحدها ما يزيد على ٢٥ جمعية تنصيرية، وبلغ عدد الكنائس التي بنيت في العشر السنوات الأخيرة عشر كنائس، وتنصّر ثلاثة آلاف من المسلمين الطاجيك. وفي افريقيا يشهد التنصير طفرة كبيرة، ففي السودان فقط هناك ٣٩ منظمة تمارس التنصير في الشمال وفي الجنوب. وتجاوز عدد الكنائس في السودان ١٤٣٨ حتى عام ١٩٩٧، وفي ولاية الخرطوم وحدها ٤٠٠ كنيسة، ويعمل في هذه الكنائس ٥٠٠ قسيس أجنبي فضلاً عن المنصّرين والقساوسة المحليين. ويوجد في العاصمة الخرطوم ثلاثة معاهد للاهوت، تخرّج القساوسة[٧]. وهذه الكنائس وبخاصة في السودان تقوم بحروب ومواجهات وتمزيق للمجتمع، ولو كانت حركة تحرير جنوب السودان النصرانية حركة إسلامية لكانت مصنفة على أنها حركة إرهابية، ولطاردتها أمريكا وأتباعها.

والمجموعة النافذة من النصارى واليهود حريصة على وصف وتصنيف المؤسسات الإسلامية بأنها إرهابية، لتتمكن الجمعيات التنصيرية من التفرد بالساحة العالمية. ونفذت كثير من الدول الغربية عمليات إنهاء للنشاط

---

(٧) جريدة **الشرق**، ٢٤/٦/٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

الإسلامي وللدعوة وبخاصة في الغرب بتهم عديدة وتلفيق الحجج ضد من يشتبه في أنه يدعو للإسلام. وكان مما سبب الهوس لتلك الحكومات ما حدث من اهتمام غير المسلمين بالإسلام وإقبالهم عليه، فرتبت محطات التلفاز وكثير من وسائل الإعلام، هجوماً علنياً صريحاً على كل شيء يمثله الإسلام. ونشرت موجة من الكراهية والحقد غريبة، لم يسبق لها مثيل.

وقد جعلت هذه المواقف كثيراً من المسلمين في الغرب بخاصة يهتمون بالدعوة للإسلام، وأخذ مستقبل دين أولادهم مأخذ الجد، خوفاً من ضياع صغارهم بعد محاربة المؤسسات الثقافية الإسلامية التي كانت مورداً دائماً للمعرفة والثقافة. وقد يسر الله بدائل كالإنترنت لتكون مصدراً لمن لا يملك غيرها للتربية والتعليم والإصلاح. وسوف لن ينطلي هذا النفاق، لأنه تحيز وحقد ديني واضح يخلع كل ادعاءاتهم.

تسيطر على عقول المسلمين في فترات الحماسة أخلاق الشمولية والبحث عن سمات الكمال، وتجريد من يخالفهم جزئياً منها. وكلما خالفهم الشخص بلفظه أو لباسه أو اسمه صعب عليهم قبول الحق منه. وهذا الخلق سببه التوحش الذي بنيت عليه معرفتهم وأخلاقهم. فيضيق مدى معرفة أحدهم بما يتجاوز بني عمه وجيرانه. ويحاكم من يخالفه من المسلمين فضلاً عن غيرهم إلى جزئيات اتسم بها هو، أو تحلى بها، أو ميزته عن غيره وهي غالباً أمور شكلية صرفة. فقد يصعب عليه أن يعرف الحقيقة في المخالفة مع غيره، ويبحث عن الشكل القريب منه.

وعندما يتعامل مع المسائل الشرعية فإنه غالباً لا يطيق بحث غاية الأمر ولا مقاصد الشريعة، بل يقدم الفقه الجزئي لمسألة صغيرة يوالي ويعادي عليها ويصد عما هو أكبر منها، عن المقاصد الشرعية. ويرى الموالاة والمعاداة على ما هو صغير جداً، في موقعه من الدين أو من الحياة عموماً. إن سمتاً أو زياً قد يفصل بينك وبين بعض المسلمين بلا سبب، وتفقد بهذا مغانم كبيرة للأمة من العمل والولاء، وقد يعبث بهم ممثل أو منافق يتقرب بشكله وسمته وهو يسّر لهم ما يضرهم، فيخدعهم زيه عن خبث مقصده. وقد يقبلون الانحراف والخطأ لأن حامله يشابههم في طقوسهم ورسوم حياتهم، أو يشاركهم الدار والنسب، فيدخل عليهم الخلل لطول السواد وقرب الوساد.

ولو تأملنا زمن الحيوية الإسلامية الأولى لوجدناها قليلة الأثقال في



Twitter: @ketab_n

جانب التقاليد واللباس والأشكال، ووجدناها تتميز بمرونة كبيرة جداً في هذه الجوانب، وفي أزياء الرجال والنساء، ورسوم الحياة اليومية. وكلما تعقد المجتمع وابتعد عن الحيوية فإنه يكثر على نفسه من الطقوس والتكاليف، في جانبيها الملتزم والمتخلع. وفي العصر العباسي تكاثرت الطقوس في المجتمع حتى كان يتميز طلاب كل علم عن سواهم بلباسهم، فلأهل الحديث لباس يخالف لباس طلاب الفقه، ولأهل التصوف لباس يخالف لباس العلماء، ثم تأتي الجغرافيا فتضرب بأسوار أخرى. وفي العصر الحديث صنعت العمامة الشيخ، وصنع الطربوش «الأفندي» ثم بدأ يبحث بعضهم عن فكر يناسب اللباس، ولغة تشاكله. ولو تأملنا الكثير من جذور هذه المشكلات لوجدناه صنيعة الضعف والتبعية، فقد كان البريطانيون يحرمون من العمل في الحكومة والمؤسسات من لا يلبس لباسهم ويتزيّا بزيهم ويحلق لحيته. ولهذا أصبح حظ اللباس العربي والإسلامي والشعبي الفقر والجمود والبعد عن العمل وفرص الحياة التي لم تعط إلا لمن لبس لباس المتغربين. فاندثر أو ضعف الشعار الإسلامي تحت ضربات هؤلاء.



Twitter: @ketab_n

## ـ ٣٢ ـ

# التراجـع المبـدع

لست متشائماً من التراجعات التي حدثت أو تحدث على الساحة العربية والإسلامية، على المدى البعيد، بل هي جزء صحيح ومكون مستقبلي مهم، فالتراجع الذي حدث في أفغانستان وهزيمة طالبان، أو التراجع والهزيمة اللتان حدثتا في العراق، ليستا شراً خالصاً، بل هي تراجعات طبيعية في مسيرة صاعدة للأمة الإسلامية. فقد كان المسلمون وغير المسلمين معجبين بالأمن والهدوء الذي عم أفغانستان على أيدي طالبان، وإنهاء تجارة المخدرات. والذي حدث بعد ذلك أن انهار الأمن وأعادت أمريكا استعمار أفغانستان ودخلت غابة موحشة مقفرة قاتلة يأتيها الموت من حيث لا تعرف، ويبدو أنها تحاول ألا تكرر قصة روسيا وانسحبت جزئياً وسوف تفعل مستقبلاً، وتتوصل لحلول وسط، فقد أصبح مندوبها «كرزاي» يجتمع وعلى غير المتوقع بالذين كانوا يصنفون على أنهم مجرمون وإرهابيون عالميون وبقية القصة المعروفة. ومع معرفة العالم كله أن طالبان ليسوا إرهابيين ولا علاقة لهم بأي حدث إرهابي، إلا أن هناك شبهة أن التخطيط بدأ في بلادهم، وربما قيادات العمل خططت أو وجهت من بلادهم. ولم يقل أحد بأنهم شاركوا أو صنعوا أو أيدوا الحدث قبل وقوعه ولا بعده.

وهذا التراجع على مستوى طالبان كانت هناك أدلة وحاجة أن تعيد طالبان النظر في نمط تدينها، وطريقة تعاملها مع العالم. وليس إعادة نظر في الدين بل في طريقة التدين. وطريقة التعامل مع العالم. وتفسير المحيط المجاور والعلاقات الدولية، وهذه النظرة كانوا محتاجين لها وفي غاية الأهمية أن



Twitter: @ketab_n

يراجعوا ذلك. وإلا فإن بلادهم لن تكون مستعمرة لزمن طويل، ولن تقبل هذه البلاد العريقة في دينها أن تتركه لمجموعة من الوكلاء مستشاري خصومها. وضد شعب عريق في دينه وحميته، وله تعاطف كبير بين المسلمين، حيث دمر الغزاة بلاده مرات عدة، وعلم الناس أنهم ظلموا وأفقروا، وأضرت بهم قوى عديدة. وسوف ترى دول كبيرة وصغيرة قريبة وبعيدة أن من حقهم أن ينالوا حياة كريمة مستقلة عندما يثبتون بالقوة أنهم يأبون الاحتلال. وفي التحولات القادمة تنازل قد لا يكون بعيداً عن بعض التصرفات المتشددة في التدين، والمستفزة. وسيعود تدين وتعقل وحمية وعلاقة واسعة لهذا البلد بغيره. وسيثير من الإيجابيات الكثير.

ومثال آخر على التراجع المبدع في مسيرة الإسلام في العالم العربي: ففي مصر كانت الحرب على الإسلام في العهد الناصري قد تجاوزت كل الحدود، ثم الانفراج الساداتي الذي حدث والذي سبب خيراً كثيراً وضرراً وتطرفاً، والمقاومة لجماعات تطرفت في موقفها، كل هذا فتح الباب واسعاً أمام التيار المعتدل، وحصل تغير كبير على مستوى أسلمة المجتمع وإقباله على الدين. وتغيرت المسيرة الاجتماعية والثقافية وسقطت الحلول العلمانية والنظرات القومية، وماتت الشيوعية، وكان من الطريف أن ماركسياً مصرياً من جماعة تروتسكي الذين كانوا يهزون العالم في الخمسينيات تحدث مع صديق مسلم، وعرف نفسه بأنه «تروتسكي» فرد عليه قائلاً وهل في مصر من تروتسكي غيرك؟ ورد بنعم إن هناك شخصاً آخر يشاطره هذه العقيدة!! هذا مصير الحركات الشيوعية والعلمانية والغربية في بلاد المسلمين حركات دخيلة منبوذة نفذت في زمن الغفلة وزمن الجهل، والغفلة والجهل مبرران كبيران لسيادة شتى الخرافات.

وفي هذه الظروف يحدث تغير كبير على مسيرة المجتمع المسلم، فإن كل هذه الانكسارات تكاد تجد لكل منها مبررها السريع المشهود، ولكن المسيرة العامة للمجتمع الإسلامي نحو صناعة روح وقوة وفاعلية كل هذا حقيقة واضحة. وفي مسيرة الإسلام الأولى حدثت هذه التراجعات المبدعة.

فتراجع كثيرين وردتهم بعد الإسراء والمعراج، كانت فرصة جديدة



Twitter: @ketab_n

لوجود تماسك قوي صادق لا شك ولا ريبة في قلبه، وكلمة أبي بكر: «إن كان قال فقد صدق» مهدت الطريق للنجاح القادم والتماسك الذي لا يتردد ولا يشك: «إن كان قال فقد صدق» إني أصدقه في خبر السماء؟ والوحي أهم من الإسراء وأخطر ولا مقارنة. ولو ناقش أحد في فهم أو تفصيلات هذه الأمور، فله الحق، أما الحقيقة الكبرى فكانت بحاجة للتماسك عليها. وقد كانت هذه الحادثة سبب كبوة أو تراجع، ثم تلاها تقدم مبدع. مثل حصار الشعب ثلاث سنين، وهزيمة أحد، أو تراجع خالد في مؤتة، وحادثة الردة، والفتنة بين علي ومعاوية. ففي الرسم البياني لا يقاس كل صعود وهبوط، ولكن العبرة بالمعدل العام. وإن مسيرة صعود الأمم أبعد من حادثة أو معركة، أو موقف، وأعمار الأفراد لحظة في سياق الصعود أو الهبوط للحضارات والشعوب.

تراجع المبدع تراجع يفهم النص والنفس والآخرين، هذا ما نحن بحاجة له، ولمقدار كبير من التفاؤل الإيجابي، وكان رسول الله (ﷺ) يحب الفأل ويكره الطيرة. وسيؤدي التراجع ـ الذي نضطر لقبوله ـ ثماره ويعود بمزيد من الوعي والإدراك على كل الجوانب. ومثل تراجع خالد التراجع في صلح الحديبية من قبل وبيعة الرضوان، تراجع مبدع سماه الله في سورة الفتح «الفتح المبين» ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾.

أما في موقف الغرب من الأديان والمذاهب التي روج لها أو ساندها يوماً ما ضد أسس الأمة ومؤسساتها فإنه خسارة له، وليس تراجعاً للأمة أن سقطت النزعات العنصرية، والإرهاب الحكومي القومي والوثني الذي صنع ورتب فكره وثقافته في زمن هتلر وموسيليني وستالين، تلك الديكتاتوريات التي دمرت الأرواح بحجة القومية والوطنية، بل هو ظلام داخلي انجلى بعون الله، وزالت قواه، وقد كان يجثم على روح الأمة، ويصرفها عن ذاتها وقيمها وهويتها ومصيرها المشترك، ولن يستطيع الغرب زرع أسوأ منه أو مثله، لأن «البعث» كان عقيدة، والقادمون في بعض البؤر المحتلة إنما هم وكلاء، وهم مجردون عن العقائد والأصالة والأفكار المؤثرة، حالتهم حالة مجتثة مالها من قرار، أو نرجو ألا يكون لها قرار.

غزو بغداد صورة مؤلمة لتراجع بلد مهم، ولكنه موقف موقت، وعلى الرغم من كونه مكلفاً للأمة ولكنه مشغل ومؤلم للغزاة، و﴿**إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ**



Twitter: @ketab_n

﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾، وسيكون تراجعاً عارضاً، وتلك مؤشراته، وفي محصلته النهائية مبدعاً على مسيرة الأمة العامة، وليس بلد واحد يصلح أن يكون مقياساً عاماً لحال أمة الإسلام «ربع البشرية» التي ينمو فيها الخير والقوة والمنعة من كل جانب.

وإصرار أمريكا على التزام طريقة التعامل الوحشي، واتباع أسلوب المغول في بغداد[1]، وإعادة قصة التتار في تدمير المكتبات، ومعالم الثقافة، وقتل العلماء أو خطفهم، والقتل الجماعي، والوحشية والخوف من الناس والرعب غير المبرر، ونشره واعتقاده وممارسته، وإرهاب الناس واستباحة دمائهم في كل زاوية، كما لا يخفي ذلك فريق من العرب الذين تخلوا عن أمتهم، وجافوا مصلحة بلادهم، حتى لا يرون إلا ما يراه خصومها، مثل كنعان مكية[2]، فإن هذه المواقف تحيي الجماد وتثير حمية الغافل الركود.

فقد أصبحت البلدان الأكثر تعلمناً وتغرباً هي الأكثر عودة وجدية للإسلام. وتركيا الأكثر تعلمناً تلوح فيها بوارق الإسلام، كما تلوح أيضاً بوادر غربية لمحاربة الإسلام الذي انتصر فيها، وما موقف الصهاينة من أمثال وولفوويتز ـ أيام ٨ و٩ من شهر أيار/ مايو ٢٠٠٣ وتصريحه لقناة **سي إن إن** التركية بالخلاف مع تركيا والتحذير لها ـ إلا لأن الشعب أقبل على دينه وكرامته، وقاطع سنوات طويلة من الضياع. وهذا الشعب لا بد من أن يعاقب بسبب عودته للحمية والدين، وبسبب شعور البرلمان أنه بلد له كرامة وفكرة وعاطفة تجاه العراق. ومواقف وولفوويتز وعصابته سوف تكون أكثر تأثيراً إيجابياً مما يخطر ببال المتشائمين، فإنها تفتح أمام الصهاينة باب الجحيم، في أوروبا وفي أمريكا، وفي دول كثيرة، لم ترسلهم للبلاد العربية إلا كراهية لهم واستقذاراً لوجودهم في أرضها، لم يكن الذين أرسلوهم

---

(١) نشرت مجلة **فورن بوليسي** «السياسة الخارجية» الأمريكية (*Foreign Policy*) في عددها لشهري (أيار/ مايو ـ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣) مقالاً ربط بشكل مباشر بين غزو المغول للعراق وغزو الأمريكان له؛ وتنبأ الكاتب بأن قد يكون نتائج ذلك ربما لمصلحة المسلمين، وإثارة حميتهم بسبب ما قد يرتكبه الأمريكان من أخطاء أو طول مدة، فالمغول كما قال غزو ثم هزموا في عين جالوت، ثم أسلموا، وانتشر الإسلام في الهند بسببهم، وقامت دولتهم المسلمة في شمال الهند، وقويت شوكة الأتراك، وانتشر التعليم الإسلامي، وتحسنت سبل المقاومة.

(٢) سبقت الإشارة لمقالته.



Twitter: @ketab_n

لسلب بلاد العرب أبعد كثيراً عن موقف هتلر، والثقافة الغربية التي أنتجت هتلر ومواقف الغرب عموماً من اليهود والصهاينة لم تذهب بعيداً كما يخيّل للبعض. والنصارى الذين يحبونهم إنما يحبونهم كوسيلة لإزعاج الآخرين، وكما يرون: «إن الكلب ينبح لك ولكنه لا ينام في فراشك»، اصرخوا على العرب واقتلوهم ولكننا لن نعطيكم مساحة في فرشنا، وفي سياستنا وفي قلوبنا، فاللحظة الصهيونية قد تكون سريعة وقصيرة وطارئة في الفراش الغربي. زادها الكراهية للمسلمين، والخوف منهم والجهل الأمريكي بالدنيا البعيدة، وخيالات دينية توراتية قد تفقد مبررها السياسي بعد أن يصبح ثمنها كبيراً.

لقد كان التراجع في عهد أربكان، وخسارة فكرته ومجموعته على المدى القصير بداية لمرحلة أكثر وعياً، وتلاها إقدام مبدع، وجولة أذكى وبرجال أشب عقلاً وبدناً وأوسع أفقاً، حقق أربكان من الخير الكثير، ولم يكن قادراً على السير لما بعد مرحلته، ثم جاءت العودة مبدعة متمهلة ناجحة بإذن الله من دون عوائق أكثر مما سبق. فقيادتها الشعبية العامة هي الإسلام، ولو كانت الطريق بعيدة وملتوية!! ولكن ليس لهم في المنظور القريب سواه!

مع أن نشر القلق وعدم الاستقرار وإشغال المجتمعات النامية رغبة استعمارية دائمة، في تكوين وعمل المستعمرين من قديم، ونشر عدم الثقة والتخاذل سلاح لم يخب دوره في أيديهم منذ زمن طويل، وهم صرحاء قديماً وحديثاً في استغلاله، فعندهم سياسة «التدمير الخلاق» كما نقلها بيوكانن من أحد المخططين لمستقبل العالم الإسلامي. «إن الاستقرار هو مهمة أمريكية ليست ذات قيمة وهو فكرة تائهة، فنحن لا نريد استقراراً في إيران والعراق وسوريا ولبنان وحتى العربية السعودية، نريد تغيير الأشياء. فالموضوع الأساسي ليس في ما إذا أردنا ولكن كيف نعمل على عدم الاستقرار» [يظهر ذلك رفض الاستقرار واعتباره مهمة أمريكية لا تستحق العناء، ويستمر ليدن في تعريف المهمة التاريخية الحقيقية لأمريكا] ثم ينقل: «إن اسمنا الثاني هو التدمير الخلّاق في مجتمعنا وفي الخارج. فنحن نمزق النظام القديم يومياً، من الأعمال إلى العلوم إلى الأدب والفن والهندسة والسينما والسياسة والقانون. إذ يكره أعداؤنا هذا التغيير في السلطة والإبداع الذي يقلب تقاليدهم (مهما كانت) ويجعلهم يشعرون بالخجل لعدم قدرتهم على المجاراة، يجب



Twitter: @ketab_n

أن ندمرهم لتكمل مهمتنا التاريخية»[٣]. ومن شهد دمار العراق المتعمد عرف بيان هذه الحقيقة التي كتبها بيوكانن قبل أيام من تنفيذها. وهي عقيدة دائمة لازمت الحكام الغربيين وهدف يسيطر على أعمالهم في العالم، فقد كان تعقيب مراسل إحدى القنوات الأمريكية بعد دمار العراق في الحرب التي أخرج فيها صدام من الكويت عام ١٩٩١ أن صرح مبتهجاً بالنصر، وتحقيق التدمير المطلوب كان التلفاز يعرض صوراً للنساء العراقيات يغرفن الماء من النهر ويحملنه على رؤوسهن، بعد تدمير شبكة المياه العراقية، قال الصحفي: «لقد أعدنا العراق إلى عصر ما قبل الصناعة».

---

(٣) Patrick Buchanan, *The Death of the West: How Dying Populations and Immigrant Invasions Imperil Our Country and Civilization* (New York: Thomas Dunne Books, 2001).



Twitter: @ketab_n

# خـــاتـــمة

التشوّه والتشويه الغربي للحياة البشرية لن يكون ظاهر الفساد، ولا مقدوراً على مواجهته، ما لم تقم صور أخرى عادلة في عالم الأفكار والأفهام أولاً، ثم في عالم السلوك والعمل ثانياً، حتى إذا رأى العالم خيراً من الموجود، فسيقتنع الجميع فعلاً ببؤسه وبسوء حاله، فلو لم تقم قوة ضاربة في وجه هتلر وعصابته النازية لكان هو الأنموذج الحضاري المختار للبشرية، ولبقيت النازية ولو ردحاً من الزمن هي الأنموذج للتطور والحرية ومهوى قلوب كثيرين من الناس. إن عدم وجود قوة تنهي السلوك النازي الصهيوني جعله يبقى مثالاً محموداً عند الذين يستفيدون منه في قمع الشعوب. وستبقى النازية الصهيونية كياناً يطلب من الضعفاء تقليده واحترامه والتبعية له حتى يجد من يقدر أن يبين للناس همجيته ونازيته ووحشيته، وستروج هذه العصابات لهذه النازية وأنها خير دولة لأنها قادرة على الاغتيالات، وعلى بذر الخوف والتخلف والهمجية، وسيعملون على أن تكون «قوة» النازيين الصهاينة «حقاً» حتى يجد الحق قوة أو يوجدها، فكل عدل وحق وكرامة سوف تنم عن الضعف والتخلف ما لم يقم من يقدر أن يصنع للحق قوة، وأن يريهم أن هناك بشراً غيرهم. فالأنموذج سلاح قاصم للمخالف. والمبادئ يدوسها النازيون والصهاينة دوماً ويكذبون، على سنة زعماء النازيين الذين سنوا: «اكذب واكذب واكذب حتى يصدقك الناس»، لكن حبل فسادهم قصير، وقد انكشف وسينكشف أكثر، وسيقتنع الناس بأنهم كانوا مخدوعين.

إن المستسلمين يرون في القوة الحاكمة الطاغية أنها «الحق» حتى يقوم للحق مكانة وراية وتكون له قوته، وذوو الفطر والنماذج المسالمة يبقى جهدهم وحرصهم قائماً، وموجوداً لا ينتهي وجوده، وتلك سنة الله في كونه، ألا يغيب الحق تماماً، ولكن العمل على تحقيقه جهد من يصطفون للقيام به.



Twitter: @ketab_n

نحن لا نرضى الظلم على غيرنا ومن باب أولى ألا نرضاه لأنفسنا. وواجبنا العمل لحشد كل قوى العالم لمكافحة النازية الصهيونية، وكل أشكال استعباد الناس، ومكافحة الدمار وقواه، والظلم والجور والفساد في كل مكان. إن الحق والعدل والكرامة والاستقلال ليست كلاماً منشوراً في الكتب بل هي عمل يقوم به الناس، يحققونه في قلوبهم، ويعملون له جادين ولهذا فسيرونه ربما عاجلاً غير آجل يتحقق في الأرض، فيتقبل الله سعيهم، ويشكرهم الناس عليه، ويومئذ يفرحون بنصر الله.

## «لا أمل ولا عمل»

هكذا عنون كاتبان مقالتهما في جريدة **نيويورك تايمز**[1]، إذ تمر أمريكا بأطول زمن تراجع اقتصادي، منذ الحرب العالمية الثانية إلى وقت كتابة هذه الأسطر. وفي المقالة المشار إليها التي استطلع التقرير فيها الأوضاع الاقتصادية لمدة ثلاث سنوات، وعرض صوراً مزعجة للوضع الاقتصادي في أكثر من مدينة. وقد أصبحت فترة البحث عن العمل تمتد ما بين ستة أشهر إلى عام، وشهادة الماجستير لا توفر عملاً للمهندس الذي يحملها. وينصحونه بالدكتوراه، ولكن هل يمكن أن توفر الشهادة عملاً؟ وأحدهم يقول لقد أصبحنا نشك في كل شيء!!

وكان قد شهد الدولار هبوطاً في قيمته منذ عام ١٩٧١ عندما قررت حكومة نيكسون إلغاء غطاء الذهب للدولار، وكان الين قبيل هذه الفترة يصل إلى ٢٨٠ مقابل الدولار الواحد، ولم يزل الين في صعود منذ ذاك وهكذا الكثير من عملات العالم. ولم تعد هناك تلك الأهمية الكبرى للسلاح ليحمي الاقتصاد مستقبلاً كما هي القاعدة المعروفة.

فالأزمات عصفت بالسوق الأمريكية، ولم تكن كلها بسبب التنافس ولا الخسارة؛ ولكن كثيراً منها بسبب فساد المديرين وسوء تصرفهم، أحد مديري هذه الشركات أنفق مليون دولار على عيد ميلاد زوجته، وكثير من هذه الأموال من أموال المستثمرين، وربما كثير منهم من خارج أمريكا. وقد تأثر

---

(١) Monica Davey and David Leonhardt, «Jobless and Hopeless. Many Quit the Labor Force,» *New York Times*, 27/4/2003.



Twitter: @ketab_n

الدولار والأسواق بمشكلة الإدارة، وتصرفات هؤلاء، وهزوا سمعة الشركات، ومستقبلها ومستقبل السوق الأمريكية كما حدث لشركة وورلد كوم وإم سي آي، وشركة إنرون التي كان مجمل خسارتها نحواً من مئة مليار دولار، وهذا الرقم يساوي ما نسبته ١ في المئة من مجمل اقتصاد البلاد.. وقصة تزوير شركات الحسابات للأرقام، وشاركت في المشكلة مؤسسات أخرى تحلل أخبار الأسهم، وتوهم زبائن الشركات كذباً بوضع شركة ما أنها رابحة بينما الحقيقة خلاف ذلك. وقد تضرر الاقتصاد بهذه المشكلات والنفقات على حرب العراق حيث تبلغ التكاليف الأسبوعية للجيش والإدارة نحواً من مليار دولار[٢]. وكان مقدار العجز في الميزانية الذي أعلن في جمادى الثانية ١٤٢٤هـ الموافق تموز/ يوليو ٢٠٠٣ يقارب ٤٥٠ مليار دولار، وقد تبنت الحكومة سياسة خفض معدل الربا على القروض إلى ١ في المئة، وهو الرقم الأقل منذ عام ١٩٥٨[٣].

كما أن توجه أمريكا للتسلح، وصرف الأموال في هذا الجانب يضعف جوانب اقتصادية أخرى، وتتآكل القدرة التصديرية، ومشكلة صعود اليورو ومنطقته الاستثمارية سوف تصنع الكثير من القلق وتغير أسواق العالم والعملات والودائع والاستثمارات وتتجه لمواقع أخرى وتستمر الحروب الاقتصادية وحروب العملات التي قد لا تقف عند ما نراه أو نسمعه اليوم. وستكون مغادرة أمريكا لكثير من قوانين العولمة وإغلاقها الأبواب خوفاً من العالم، ومحاربة للمنتجات الأوروبية ذات أثر كبير في أزمتها مع العالم وسوف تستخدم قوة التهديد لبيع سلاحها ومنتجاتها، ولكن ما سوف يسبب لها أزمة أكبر هو جيشها في الخارج الذي ستكون تكلفته باهظة على الدخل، ويسير في طريق جيوش الامبراطوريات السابقة، حيث يدمر الجيش ومصاريفه بلاده، وبخاصة إذا عرفنا أن الجندي الأمريكي خارج أمريكا يكلف تقريباً ربع مليون دولار في العام.

وستدخل الدول الغربية وغيرها في مشكلة أقسى وأطول مع الشركات الكبرى التي قد تخالف مصالحها مصالح دولها وغيرها، وهي قادرة على شراء

---

(٢) مقال: «مليار دولار أسبوعياً،» **نيوزويك العربية** (٢٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٣)، ص ١٦.

(٣) **الحياة**، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٣.



Twitter: @ketab_n

الدول بيسر وسهولة، وصناعة الحكام، وتوريط الدول، إن عالم الشركات عابرة القارات أقوى من أي زمن مضى، وقد يكون صراع الشركات مستقبلاً أقسى مما سبق، فشركة الهند الشرقية أسست بعد فترة جيشها الخاص، واستولت على أراض أوسع، وشركة جنوب افريقيا أو شركة سيسل رودس التي غزت واستقدمت القوات البريطانية إلى مناطق منها الآن مالاوي وبتسوانا وزيمبابوي وزامبيا، فسحقت جيوش الشركة والجيش البريطاني المعارضة. وشركة الفاكهة المتحدة الأمريكية التي سيطرت على عدد من جزر الموز واشتهرت الشركة بتجارته وهيمنت على مناطق واسعة، وقامت هذه الشركة بثورة على الحاكم في غواتيمالا. حتى إن بعض شركات الهاتف منها ما أسقط أو أقام انتخابات في أمريكا الجنوبية. وشركة يونيون مينيير ساهمت في قتل باتريس لومومبا في الكونغو عام ١٩٦١[٤].

هناك تحد أكثر خطورة للاقتصاد الأمريكي تحديداً، وهو كثرة الدولارات في العالم، وكثرة العملة هذه كقروض تقترضها أمريكا من دول العالم، فينال الدولار قوته من هذا الشراء له والاقتراض، وحركته بديلاً من ثروة العالم وعملاته في السوق الأمريكية، والحرص على رخص العملات المحلية في الصين واليابان حتى تستطيع هذه الدول أن تصدر كميات أكثر من مصنوعاتها، فعندما يرتفع الدولار ضدهم يربحون بهذه الطريقة، ولكن هنا جاءت عوامل عديدة، فهناك ضغوط على الحكومة الصينية أن تقوي عملتها «الرنمنبي» وتعطيها مكاناً في سوق العملات، لكبح الفائض التجاري في السوق، ومعاناتها من وفرة الدولار في بنوكها، وهذه الدولارات أصبحت سلاحاً قاتلاً بيد الصينيين، وقيل إنهم قد يهددون به أو يستخدمونه سياسياً ضد تصرف أمريكا غير المرغوب فيه في كوريا الشمالية، وهناك سابقة يخيف تكرارها، فقد ضغط شارل ديغول زعيم فرنسا على أمريكا ببيع الاحتياط الفرنسي من الدولارات واستبدل الذهب بالدولار في الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨. كضغط ضد سياسة أمريكا بسبب حربها في فييتنام. وتخشى أمريكا من توجه كثير من الدول لبيع احتياطاتها من الدولار وشراء اليورو كاحتياط، ما يراه بعض خبراء الاقتصاد الأمريكي سحقاً قادماً لاقتصادهم[٥].

---

(٤) انظر مراجعة تاكيس جيروس لكتاب: «إمبراطوريات الربح،» **الحياة**، ٦/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٥) **نيوزويك** (١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣)، ص ٥٤.



Twitter: @ketab_n

## الموقف من الغرب العزلة أم التواصل

هذه الخصومة مع الغرب قد تبذر للتواصل بذوراً قوية، وكثيرة الإثمار الإيجابي في تدافع الطرفين، ثم إنجاب كل منهما بفوائد من خصمه، وقد يفيد منها المسلمون كما أفاد النصارى الغربيون من خسارتهم في الحروب الصليبية. وهنا نشير إلى بعض ما يذكره المؤرخون للحروب الصليبية من فوائد جنوها من الحرب الصليبية، منها الفوائد في مجال العلوم، والتجارة، وحرية العقل، والإصلاح الديني، والتواصل بين الأوروبيين، وتعزيز مكانة الدولة، وتجديد روح الحرب والفداء، والأخوّة الدينية، وانتشار أخلاق المحاربين، وزيادة السكان، وتحسن أدوات الحروب، وهيجان المغامرات البحرية والهجرة للآفاق البعيدة، والبحث في جهات أخرى غير المشرق الإسلامي، حين فشلوا في البقاء والامتداد.

ولا أريد أن يفهم من هذا السياق القياس الحرفي، فالقياس كثيراً ما تخالف نتائجه هوى من يعتمده، ولأن اعتماد منهج القياس يتراجع منذ زمن والمناسب اعتماد الاستقراء في هذه الحال، الذي كان أنجع منه في تحقيق كثير من مصالح العباد في العصور الحديثة. ولكن السياق هنا إشارة لسنن التحرك الأممي المشاهد من دون التزام منهجية شيء من هذه المدارس. وتنبيه إلى فوائد الصلة بالناس؛ فقلما يستطيع إنسان أن يصنع الأفكار بنفسه، ولكن العاقل النبه يحسن استخدامها، فالأفكار هي ثروة الأذكياء العاجزين، وتطبيقها ثروة مجتمع العقلاء المنفذين من التجار والزعماء والقادة. وقد كانت حملات الاستكشاف يمولها الحكام والأغنياء، وينفذها المغامرون.

ليس من مصلحة العالم الإسلامي أن يقاطع العالم من حوله، من النصارى الغربيين الاستعماريين ولا المضطهدين في أمريكا الجنوبية، ولا الأفارقة، ولا غيرهم من الأمم الشرقية، كالهند والصين وأوروبا الشرقية وفتات روسيا القديمة. وتتنازع من يدرس هذه المسألة عدد من العوامل، وبعد فهمها يكون التوصيف الفقهي للموقف، أولاً: إن حصار أو عزل دولة أو شخص أو جماعة في زماننا يعد من أكبر العقوبات التي تدمر وتهد كيانه. وتسقط تجارته، وتهوي بعملته، وتفقر شعبه، وتذل حكومته، فإن كان الحصار في الماضي مؤلماً فهو في هذا العصر أسوأ تأثيراً من أي زمن سبق. وإن أوقعه أعداء المسلمين عليهم فإنهم لا يسعون له، ومن المفترض أن



Twitter: @ketab_n

يتخلصوا من كل ما يدعو إليه ويسببه. وقد كان رسول الله (ﷺ) خير مثال لمقاومة العزلة التي فرضها ملأ مكة عليه وعلى أصحابه في شعب أبي طالب. ففي أصعب أوقات الحصار كان يخرج للحجيج، وفي ساعات التشويه والمطاردة كان يقابل الناس ويكشف عن نفسه وأتباعه التهم التي يلصقها به أهل السوء.

وبعد هزيمة المسلمين في معركة أُحد انتقل المشركون إلى حملة أخرى ووجد المسلمون أنفسهم محاصرين وراء خندق ضيق، ولكن الحصار المكاني لم يحاصر الفكرة، ولم يقض الحصار والضيق على تطلع الأمة لتقلب الحصار وليصبح المعتدون ضحية حصارهم القاسي ضد المضطهدين في المدينة.

إن عصر الدعوة والتعريف بالإسلام يختلف عن عصر القوة والسيادة، فالمسلمون في حالهم اليوم هم أشبه بحال الدعوة والتعريف والتجلية لما شوّه من الدين أشخاصاً وأفكاراً. ومن معرفة قريبة فإن المسلم الذي يعرض الإسلام على الناس مخالفين أو موافقين، يجد في نفسه حباً وشغفاً وتنفيذاً والتزاماً بالرسالة التي يعرضها، فيصبح هو من مغانم الأمة في التعليم.

ومن لا يواجه ولا يتعرض للمواجهة مع المخالفين فإنه غالباً لا يعرف مقدار ما عنده من قوة، ولا قيمة ما يحمل من مبادئ؛ وهو كشف تجده من الحوار في أي موضوع أن يتبين لك الحق عندك وتقويه وتنصره، أو ترى الخلل والضعف، وصحيح أن جزءاً من هذا يخضع للمهارات الفردية، وهو جزء مهم، ولكن الخسارة بالعزلة أكبر. وثقة المنعزل تضعف بمجرد المنازلة، لأنها قوة معزولة عن التمرين والحيوية والمجادلة، والقوة الضعيفة تنال قدراً من القوة وإعادة التقوية والتهيئة بمجرد التمرين، فما تراه الفطر والأفهام غير إنساني ولا معقول ولا مقبول تاريخياً ولا واقعياً ينال بالتمرين والتحسين القوة والقابلية.

ثم إن الكثير مما أقره الفقهاء في عصور متأخرة عن عصر الدعوة، كان في ذروة قوة الخلافة الإسلامية حيث كانت مهوى القلوب. وكان من يفارق مجتمعه أو يذهب عنه ربما ناله الأذى أو الردة، وبسبب القطيعة الثقافية، والتباعد وصعوبة الاتصال، والزيارة والبعد عن المعرفة وعن علوم الإسلام، في تلك القرون. أما اليوم فإن بإمكان المقيم في أقصى الغرب البعيد أو الشرق الأبعد أن يعايش ويفهم ويسمع الإعلام الإسلامي. ويملك أن يؤثر



Twitter: @ketab_n

ويفيد، ويربي أبناءه على أحدث المعلومات الإسلامية ومناهج التربية التي يختارها إلى حد كبير.

## الهيمنة أو التبعية

يميل الإنسان إلى تمييز نفسه وتعظيمها. وإذا شعر بالقوة ولو في دائرة صغيرة بدأ يبحث عن طريقة يفلسف بها قوته، وهو يحاول أن يجعل مصدر قوته شيئاً لا يشاركه فيه الآخرون. وتبدأ الأساطير تحاك بسبب الجنس والنوع والمكان، وهذه الأفكار تبدأ مع الطفولة، ثم تمر بمرحلة الشك، ثم تعود عند الهرم. ومن أهم أسبابها نقص المعرفة، وقلة الاتصال وصعوبة التفسير، فيذهب الإنسان لأبسط الحلول الساذجة هذه، والقوانين المبتسرة السهلة، مثل القول إن جو أوروبا يصنع الحضارة، فينكسر القانون بسرعة هائلة عند المقارنة بأماكن حضارية أخرى، أو يزعمون أن الجنس هو صانع الحضارة، فيجدون أجناساً أخرى صنعت حضارات.

والحكماء يعجزون عن متابعة محاولة الإنسان سعياً وراء تفسير قوته ومكانته بسر خالد فيه، وبعرق ينزعه ويميزه، أو لون أو مكان أو ثقافة، وإلا فما هو التقدم المشترك والحضارة العالية التي تجمع البدائيين العراة فقراً وجهلاً في أعماق افريقيا وفي غابات الأمزون «تخلفاً» مع العراة «تطوراً» على شواطئ فلوريدا. ومن البدو نقالة العمود في الجزيرة العربية أو منغوليا أو صحارى افريقيا، ممن يأنفون أن يزوجوا ابنتهم من حضري يربي الجحاش. ما الذي يجمع هذا التنقل البدوي بالأمريكي المتنقل فخمس سكان أمريكا ينتقلون سنوياً، وبعد خمس سنوات يكون الشعب قد انتقل، وربما لمسافات قارية تتجاوز حدود خبرة البدوي، فهل التنقل عبقرية، أم العري، أم المكان؟ إنهم يحاولون صناعة فكرة ثابتة لاصقة بهم تكفل لهم جبرياً البقاء في قمة الأمم، أسباب خارج تقدير البشر الآخرين وإمكاناتهم، وهذه حيل نفسية أكثر من كونها حقائق قطعية واقعية أو علوماً محترمة. ومحاولة لتسجيل عقائد جبرية تجعل قوماً في القاع إلى نهاية الزمان وآخرين في القمة للأبد، إنها بساطة في خلط الذات بالموضوع، والشخص بالدرجة المدنية العارضة التي يعيشها، وقد نسي أنه كان في القاع، وخصمه كان في القمة في زمن ليس بالبعيد. هناك جد في ترسيخ رغباتهم بحيل مضحكة، كحجم الجمجمة، ولون



Twitter: @ketab_n

البشرة، ولون الشعر، ودرجة تموجه، بحيث تهدف أحياناً إلى إفقاد ضحاياهم لوعيهم، وتقليدهم بلا فهم. وجعل هذه الأحابيل والحيل علوماً.

هناك أصول قديمة لدوافع الهيمنة الغربية على المسلمين، منها النزعة الداروينية الاجتماعية، وهي مسألة تناولها كثيرون بالبحث، وما يهمنا هنا أن الغربي يرى نفسه قد ارتقى في معارج الإنسانية لأسباب طبيعية «جبرية» وانتخاب طبيعي، فوق قدرة الناس على تعديله وتحويله، والباقون من البشر هم في مدارك تحت الإنسان الأوروبي الغربي وهذه المدارك تنزل بعد الشماليين إلى أن تصل للإيطاليين ثم العرب ثم الأفارقة. نزولاً حتى الوصول للقردة ـ أو لوسي ـ الوسيطة بين الجنسين. والإنسان كلما نزل للمراحل الوسيطة بين الأوروبيين والقرود فإنه يحتاج لما يسمونه بالانتداب. وهو أن ينتدب الجنس الأعلى نفسه ليقوم بمهمة كبيرة وهي رفع هذا المخلوق النازل ليرتفع إلى معارج الإنسان الغربي المتطور. وهذه العقدة هي ما اصطلح عليه بعبء الرجل الأبيض (The White Man's Burden). فيقوم الغربي بدور أنسنة الغول أو الشيطان أو الطفل كما شرحت القصيدة الشهيرة قصيدة روديارد كيبلنغ وهو يحث الأمريكان المنعزلين أن يخرجوا من عزلتهم، ويلحقوا بالبريطانيين الأبطال الذين استعمروا العالم، ويحملوا معهم «عبء الرجل الأبيض» أو حمله ومسؤوليته[٦].

وأول من أشاع هذه العبارة كما أذكر هو الشاعر العنصري البريطاني الذي دعا الشعب الأمريكي للحركة والنهوض لاحتلال الشعوب الوضيعة التي يتكون الإنسان فيها «من نصف طفل ونصف شيطان».

وهذه الطبيعة طبيعة تقديس الإنسان لجنسه وقيمه وشكله وإسناد ما وصل له إلى قصة خارقة، فوق قدرة البشر الآخرين على تقليدها، والاقتراب منها، هي عقدة من وصل للقوة في أي زمان أو مكان. وأنا ممن نشأ في بيئة منغلقة ترى أن الإنسان مرادف لكلمة عربي. وما عداه فليس بشيء، ومصطلح العرب والعجم ينم عن شيء من هذا، وهو مصطلح سبق الإسلام، وثقافة المسلمين لا تخلو من مواقف غير إسلامية في هذه الجوانب، وكثرة استخدام مصطلح ما ينسي جذوره، وثقافة المسلمين أيضاً قد تخالف الإسلام.

---

(٦) نشر بول كيندي مقالة عن تجديد السلوك الإمبريالي الاستعماري على يد الأمريكيين وأعاد نشر مقاطع من القصيدة العنصرية القديمة المتجددة.



Twitter: @ketab_n

وهكذا السود يوم فوجئوا بالبيض، فلم يروا فيهم غير حيوانات لحمها قد يكون طيباً للأكل، تماماً مثل الطرائد الأخرى. فكان أكلهم للبيض في أول المواجهات ينطلق من عنصرية تحتقر غيرها، وتراه من جنس الحيوان، والمنغلق يقدس نفسه وجنسه ويرى في شخصه مختاراً، وفي فكره نهاية التاريخ. وفيلسوف كابن خلدون مع عمق معرفته كان يرى في البشر الذين يسكنون الشمال قوماً ذوي عقول خاملة جاسية جمدت من البرد، والأمل فيها ضعيف، وما أشار له من بداية علمية عند أولئك، وقد رصد بداية التحضر الأوروبي فقد كان يشير لأوروبا الوسطى والجنوبية. وكان كغيره من العرب والفرس عنصرياً ضد الأجناس الأخرى.

غير أن الأوروبيين كانوا أكثر وحشية وانحرافاً من أي جنس عرفه الناس، ويكفي أن ندرك أن الفيلسوف البريطاني الشهير هربرت سبنسر وهو من أهم فلاسفة بريطانيا، كان داروينياً متطرفاً يرى حق الشعوب الغربية العليا في الفتك بالشعوب الضعيفة الدنيا، وأن قتل هذه الشعوب حقيقة وحشية طبيعية لا يعترض عليها كحق السباع في الشياة، أو حق الإنسان في أكل الحيوان وحق الحيوان في أكل النبات. وتحتفل جامعة أوكسفورد بهربرت سبنسر سنوياً، ويقدم كبار مثقفي العالم وفلاسفته محاضرات احتفالية سنوية بذكراه.

لما قامت أوروبا كانت تبحث عن تأسيس علمي للسيطرة والهيمنة واستعباد الشعوب الأخرى، وكان البحث عن إنكار الإله وتبوء مكانه حاجة يلح بها المجتمع الغربي الجديد، وحاجة خاصة لليهود المنبوذين من مجتمع نصراني يصنفهم في درك الشعوب. فكانت الداروينية مهرباً إلحادياً، ودينياً وعنصرياً ومبرراً لاستعباد غيرهم من ذوي الألوان الأخرى. هذه الحاجة العلمية كانت قريبة من معاناة الجاحظ وهو ينقب في الصخر عن فلسفة تزعم سيادة أو أفضلية السودان على البيضان، لأنه كان أسود. ومرت في تاريخ العرب والمسلمين نكتة ولم يفكر المسلمون في وضع أسس علمية لها أو ضدها. لأن واقع المجتمع فكراً وممارسة لا يميز بتلك الطريقة.

ولهذا فالهيمنة على الشخص وعلى المجتمع أغلبها مبررات وهمية للهيمنة، ولكن هذه الأوهام تؤثر في الأشخاص أحياناً أكثر من الحقائق التي لا تحظى بتغطية تهويلية «علمية» كافية، ويصلح هنا أن نسميها سلطة

Twitter: @ketab_n

الأساطير، وهي تحاصر العقل وتشل قدرته على التفكير، فلم يكن أحد يقدر على مواجهة أساطير الهولنديين الذين يرون أن الطاعون لا يبدأ إلا في بطن يهودي، فإذا شاع سارعوا للبحث عن اليهودي مصدر الداء، ويربطون ذلك بسخط الله على هذا الجنس المهين في أعينهم!! وبهذه العقيدة المغلقة لا يمكن البحث في سبب آخر.

وهذه القناعات التي تنشرها الأمم القوية والأحزاب المنظمة، تحمل سلاحاً فتاكاً، ولم تكن الأفكار دائماً بريئة، بل تحمل أسلحتها التي تغتال العقل مرة، وتعينه أخرى، وتمزق الأديان مرة وترعاها أخرى. هذه الأفكار العنصرية تزرع الإحباط للمخالف، وتقنعه بنقصه، وضعف عنصره وتقنعه بتبعيته. وهذا التحطيم أقوى سلاح ينشر في المجتمعات المضطهدة لإشعارها بالمهانة والضعف والتبعية.

## أوهام القوة والضعف

من أوهام القوة والبقاء ما قص الله تعالى من قوله في قصة سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. فالقوي ينتصر بقوته، وبسمعته، والمنهزم ينهزم بضعفه وبخوفه وهو عقدة نقصه، فالحذر على القوة الناشئة حذّر عليها من أمرين هما ضعف استكمالها لعناصر القوة، وتخليصها من أوهام الضعف والقلة. بل عليها تقدير قوتها تقديراً صحيحاً، لا يغرقها في وهم القوة فتدمر ما حصلته، ولا يغرقها في وهم الضعف، ولا تسقط تحت هيلمة وهيلمان دعاية خصومها، ولا نزعة الاستخفاف بالنفس وقدرة أمة أو شعب على صيانة حريته وكرامته وقناعته؛ شهد تاريخنا المعاصر حقيقة بقيت ماثلة لكل ذي عقل وبصيرة، وهي حكومة كوبا وزعيمها كاسترو، هذه الجزيرة وهذا الزعيم العصامي المشاكس، بقي شوكة في حلق أقوى امبراطورية في التاريخ! في خاصرتها وليس بعيداً عن حدودها، ومثلت أرضها أكبر تهديد في تاريخ أمريكا الحديث، وكانت المحاولات الكثيرة ضده فاشلة، وبطريقة مضحكة بدءاً بمحاولة اغتياله على يدي امرأة عرفها قبل الثورة، إلى عملية خليج الخنازير، ثم محاولات عديدة أوصلتهم إلى القبول بالمشكلة والتعامل معها بطرق أخرى، وخلاصتها عقدة ومرض مزمن للامبراطورية. وهو مشارك وصانع للكثير من ثقافة التمرد في أمريكا الجنوبية. وليس في عمله ولا رؤيتنا للأمر ما يجعله قدوة، ولكنه مثال



Twitter: @ketab_n

يقول للجبريين هذه الحقيقة أمام أعينكم، ويقول لمن ينكر طبيعة البشر الحقيقية، ودور الفرد أو المجموعة هذا أنموذج للتفكير فيه لا للاقتداء به. ويقف على مسافة بعيدة مكاناً مثال آخر هو مهاتير محمد في ماليزيا، يحمل فهماً للحياة مختلفاً، وأخرج بلاده من طور ركود وضعف كبير إلى دور مليء بالمعرفة والعزة والتميز، وتجرّع بعض الخدع، وأخطأ بعض الأخطاء، ولكنه استطاع أن يتمثل إيجابيات كثيرة في عصره ولم يفقد بلده تماماً ذاته ولم يفارق قضايا أمته.

والروح القوية والقدرة الجادة تصنع مهابتها، في أي مجال، وليس بالضرورة في ميدان محدد، وحديث الرسول (ﷺ) عن «نصرت بالرعب»[٧] من المهم أن يفهم في سياقه المراد به أصلاً، وفي أكثر من مستوى، لأن القوة المؤثرة في حياة العالم ليست ذات صورة جامدة، فمن ذلك المهابة التي يوقعها تصميم المسلم وقوته وشجاعته، وهي سمة يمتاز بها عن غيره، وجعل هذه المهابة والرعب في طريق ينشر الأمن والقوة، كما يضعف المضرين بحرية الإنسان وكرامته. وفيها تنبيه لمعرفة هذا الجانب وحسن التعامل معه. بحيث لا يتحول الخوف إلى مجرد أثر رعب سلبي لا يقدم شيئاً. ومن ذلك القوة العلمية والمالية والتنظيمية والإدارية.

وقد جبل الناس على تقدير القوة وصناعة أوهامها، ثم إحاطتها بهالة تعطيها القدرة على تنفيذ أهدافها. فإحدى الشركات الجديدة اشترت طائرة مروحية صغيرة «هيلوكبتر» لتنقل الزبائن الجدد الوافدين لإجراء عقود معها تطير بهم من المطار القريب إلى مقر الشركة!! لتظهر القوة وحسن الخدمة، فتضمن إتمام العقد! وربما خسرت شركات كبيرة قادرة لم تنتبه لهذا الإيهام!! فتذهب القوة لمن يدرك بعض جوانب ضعف الإنسان وتركيبه.

إن العقل متشائم، والإرادة متفائلة، فالعقل كثيراً ما يقف عند حدود المعلومات المخيفة والمتعبة، ولكن الإرادة يجب أن تكون متفائلة، ومتجاوزة لمخاوف العقل الذي يضع في الطريق الكثير من الحقائق ويلبسها أوهام القوة، وعقائد الجبرية.

صاحب العقل قد يعقله عقله عن روح المبادرة المفيدة، فالعقل أحياناً

---

(٧) جزء من حديث متفق عليه.



Twitter: @ketab_n

مصدر للسلبية ومصدر الكآبة واليأس، أو يحتج به اليائسون، والأذكياء أكثر عرضة للبؤس وربما لليأس والوقوع تحت وطأة الأخبار والأرقام التي يرونها غالباً تصب في غير مصلحتهم، أما المتفائل فإنه يسخّر المعلومات وتفسيراتها لتصب في مصلحته، ويشق له نهجاً جديداً، للتعامل معها، ومن غرائب تكويننا ومصائرنا أننا أعقد مما نعلم عن أنفسنا، وليس بيننا نحن البشر من استطاع أو يمكنه أن يقدم تفسيراً نهائياً لحركة التاريخ. وأين يتجه، إننا نرصد ونوجه أنفسنا والناس، فإن أصبنا فذلك هدفنا، وإن نخطئ اليوم فإننا واثقون أن حقاً له طالب لا يضيع، «إنا لا نضيع عمل عامل».

## أوهام الضعف

عرفت رجلاً يطارده وهم النحس، وأنه إن أراد فعل شيء طارده حظه السيئ، وكان مرة يبني بيتاً ثم ارتفعت أسعار الإسمنت في تلك الأيام، فسارع بتفسير الموقف بنحس حظه، وارتقب بضعة أيام أن ترخص الأسعار فلم يحدث ذلك، فسمعته يقول لابنه يا ولدي دعنا نشتري الآن ليخفف الله على الناس الأسعار، فأصبح يرى أنه بتحمله للنحس وحده وللعبء والحظ السيئ يسعد الناس، وأن نحسه جبري لا محالة وبلغ الأمر أنه سبب النحس للناس!! ولعل حوادث قليلة وقعت له فسببت له هذا المزاج القاتل للأمل، وانتقل من كونه حالاً عارضاً ليكون عقدة العمر. فالناس يميلون إلى تجريد أنفسهم من بشريتهم عند طرفي الحال التي يمرون بها، ففي حال الانتصار قد يجعلون انتصارهم لأنهم ليسوا بشراً من الناس، وأن لأشخاصهم مميزات خارقة، ويلقون بالقداسة والمبالغة على عملهم، من أي دين أو ملة كانوا، وعندما ينهزمون فإن عقدة النقص تكون أكبر من قدرتهم على مواجهتها. ويصطنعون القوانين والأسس لضعفهم وهزيمتهم ويقننون ذلك بأسباب كونية جبرية، تكون أساساً لاعتذارهم عما وصلوا إليه. وظاهرها الإقناع، بوجود الأدلة العقلية على صحة تصرفهم، وعلى أنهم غير مستحقين للانتصار وللخير، وأنهم غير مؤهلين لحال أحسن.

ولهذا يوجه القرآن للأمل الكبير بعد العمل الجاد: ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا**﴾ [يوسف: ١١٠]. والرسل قد فرغنا في معرفتهم من أمرين: صحة القضية العملية لهم، وإخلاصهم الجاد في العمل لها. غير أن العقبات كانت كبيرة حتى رأوا أنهم قد غلبوا مقارنة

Twitter: @ketab_n

بالقوة التي يتمتع بها الباطل المقابل. ولكن حتى الكلمات الصادقة الهامسة هنا وهناك لم تضع. لم تضع في السماء، ولن تضيع في الأرض، وقوتها لا تقاس بمقاييس الناس، وليس هناك من كاتب ولا أستاذ قادر على تقدير أثره ونتائج عمله، فكيف بمن يملك الحق وقوته، والصدق والإخلاص له، إنه أولى بالفوز. ثم إن حياتنا وتجاربنا القصيرة تدل على أثر للفكرة والموقف والنص تفوق تقديراتنا. إن الضعف الذي يلم بنا أحياناً جزء كبير منه وهم، ولم يخطئ من قال «نصف الحرب هيلمة» أي ضجة ودمدمة، وفي زماننا كذب وصور ورعب وأفلام تقعد بالمستسلم، وكان الأولى له المشاركة في الحياة ولا يكون ضحية للهيلمة.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فالفكرة متيقنة، والإرادة يتضح الطلب لها من مقتضى الإيمان الذي يعني عملاً، وبغيره لا يكون الإيمان في أرجح التعريفات إيماناً، أو لا يكون إيماناً كاملاً كما يرى المخالفون. وتتضمن الآية إشارة واضحة إلى أن الإيمان حافز للعلو. وهذا تحقيق لأثر المشاعر في العمل ومصير الإنسان، فالحزن والهوان واليأس من أعمال القلوب، وقد حُذِّر منه «الأعلون» فكيف لا يحذر منه ورثتهم وأتباعهم.

ونحن نجد أنفسنا في حاجة لوضوح الأفكار التي تعيننا على التخلص من مشاعر الحزن، وأفكار الخمول واليأس والتبعية، ونحتاج لبعث الإرادة الصادقة لصناعة عالم أحسن، وأكثر عدلاً وحرية وكرامة للإنسان، بحسن استخدام الموارد الروحية والعقلية والوسائل المادية الكثيرة التي جدت في حياتنا وأصبحت أكثر توفراً ويسراً، والتي تزيد عما سبق في أي زمن يعرفه الناس.

ويواجه الهيمنة شعور التبعية، والأولى تصنع الثانية، وفي العالم الإسلامي نقاش عميق ومتجدد حول هاتين النزعتين، الهيمنة وثقافتها ثقافة التبعية، ومشاعر وثقافة الاستقلال والصعود الإسلامي، وهناك خطر الارتماء في أحضان جهات يتوقعون أنها ستكون حلاً بديلاً، وهي لم تكن في الماضي حلاً، ولن تكون، ويعرض محمد جابر الأنصاري من الحلول البديلة فتح العلاقات مع الشرق والتعرف إلى اللغات والثقافة الشرقية الصينية والهندية واليابانية. فهل نقلع عن ثقافة الغرب لنتعلم ثقافة الشرق، ونبدأ نكتب ونفكر ونقرأ ونغني بالصيني والياباني؟ إن صدق التوجه لا يمكن أن يكون في ترسيخ المزيد من التبعية أياً كان نوعها، ولا في الانتقال من تبعية إلى أخرى. بل بناء

Twitter: @ketab_n

الوحدات الثقافية والصناعية والاجتماعية الجيدة، وسيادة العدل والإخاء والمساواة في مجتمعاتنا، وإنهاء رسوخ ثقافة الأتباع، لأن التابع لا يتصور الخلل في سيده، وعندما يموت لا يشعر بموته، حتى يخر، ويبقى وهم القوة في نفسه والرعب أكبر من القوة الحقيقية، مثال ذلك التبعية في اللغة، فمن يصر على التبعية اللغوية للغرب أو للغة الصينية واليابانية هو مهزوم بالهالة للغات أجنبية، وغير واثق ولا قادر أن يسمح للعلوم والمعارف أن تتوطن في بلاد العرب والمسلمين، هذه الثقافة التغريبية سوف نجد أنفسنا بعد قرن من الزمان ونحن لا نفهم ما تم، ولا ما كتبنا لأنه مكتوب بلغات غريبة، حلت بعدها لغات أخرى ربما الصينية أو الهندية أو الروسية، وقد مر أكثر من بلد بهذه التجربة المرة وهو يتسكع على ضفاف أكثر من لغة توقعها تنقذه وتطوره فلم يعرف شيئاً ولم تستقر مكانة اللغة، كما حدث مع الفرنسية وغيرها، إذ أعقبتها لغات أوسع انتشاراً وأبقى أثراً، ولكن هذه اللغات في طريقها ربما للخروج فماذا نقيم عليه مستقبلنا؟ وبقيت المعارف المكتوبة بلغات أجنبية علماً وملكاً واقعياً وتاريخياً لغيرنا، وبقي العلم غريباً عنا لم نسمح له بالاستيطان، وبقي أجنبياً ربما تحت شهية البعض بالتميز عن مجتمعهم، أو عجزهم المركب عن تفكيك هذه الوحدات المعرفية الصغيرة ثم إعادة بنائها.

ونخلص هنا للقول إن هذه الظروف الدولية المحيطة بنا ثقافة وسياسة واجتماعاً وطبيعة وتاريخاً، قد يقرأها أحدنا بأن الأمور تسير بطريقة جبرية لصالحنا في كل الجوانب، وهذا الفهم هو شر ما يبتلى به فرد أو أمة. لأن معناه أن ننتظر موجة التاريخ أن تأتي فتحملنا للقمة، من دون جهد منا، ذلك لا يحدث، وليس من سنة الله إلا أن نعمل بجد لما نريد وسنجد أننا نقدر على تحقيق الخير لنا وللبشرية.

أحد الأذكياء ودهاة السياسة[٨]، راقب طريقة التفكير الشيوعي بعد

---

(٨) هذا اللماح أو كما وصف: «المفكر الذي امتهن الديبلوماسية» هو: جورج كينان، وقد صرف وقتاً طويلاً من الممارسة والدراسة، ثم كتب مقالاً باسم رمزي «إكس» عام ١٩٤٧، في مجلة **الشؤون الخارجية** (*Foreign Affairs*)، حدد فيه طريقة التفكير السياسي المستقبلي الروسي، وبالتالي الأسلوب الأنفع للتعامل معها، واعتمدت الحكومة الأمريكية رؤيته، ونفذتها. ولعله من ذلك الوقت بدأت المجلة بالاحتفال بمقالاتها الخطيرة، والذي لم يشبهه ضجة إلا مقال «صراع الحضارات» وقد أخرجت المجلة كتاباً احتفالياً بمقالاتها التي تعتبر أنها أثرت على العلاقات الدولية أو على حياة الناس.



Twitter: @ketab_n

الحرب العالمية الثانية، وكان يحاول أن يجد طريقاً لحصار الشيوعيين وهدم دولتهم وتدمير مستقبلهم، فوجد أحسن الأسلحة يكمن في طريقة تفكير الشيوعيين، وطريقة فهمهم للعالم، إذ يرون أن العالم يسعى بطريقة جبرية وكما أسموها «حتمية» أن يصبح العالم كله شيوعياً، وأن هذه مسلمة تاريخية لا نقاش فيها، فمهما تحرفت وتطرفت وتحسنت وفشلت أو نجحت الرأسمالية فإن كل تفسير لما يحدث في الرأسمالية سيكون تفسيره حسب الحتمية الفلسفية الشيوعية: «سيقود إلى أن تحكم الشيوعية العالم». ولك أن تتخيل ضعف قدرة من اقتنع بهذه المسلمة على التفكير، أو على حساب المفاجآت، أو قدرته على التجاوب مع شعب مستسلم لهذا المنطق، وكان كل من يفكر بغير هذه القناعة يتهم من قبل الحزب الشيوعي بالتحريفية والشك والهزيمة وضعف الإيمان بالشيوعية.

ومثل الحتمية الشيوعية أيضاً الحتمية العلمانية، تلك التي لا ترى إلا ما تحب، والتي تكره الإسلام، وترى مستقبل العالم الإسلامي «مستقبلاً علمانياً حتمياً»، وذلك جعلها لا ترى حقيقتين مهمتين، لا ترى الفساد والتبعية العلمانية والشر الذي جلبته على الأمة. ولا تستطيع أن ترى ولا تلاحظ الصعود الإسلامي، ولم تحسن التعامل معه، حتى أصبح حقيقة واقعة. وكما مثلت الحتمية العلمانية والشيوعية سبباً في اندحارها فإن مخاطر الفكر الحتمي الإسلامي واردة أيضاً، فالمستقبل عمل لحظة حاضرة جادة وواعية، وليس قدراً جبرياً يتجاهل جهد الإنسان.

وقد غاب عن الذين نالوا ثمار جهد من سبقهم ـ من الشيوعيين العاملين ـ أن الحتمية في الحقيقة كانت عملاً هائلاً، وتضحيات حقيقية خيالية للمقتنعين الأوائل بالنهج الشيوعي مهما يكن خاطئاً. وما كان عملاً جاداً قابلاً للنقد والتصرف والتعديل في مرحلة يصبح في مرحلة لاحقة قناعات جامدة وحتميات غير مرنة ولا قابلة للنمو ولا للحياة.

ومن قبل ذلك حصل سوء الفهم هذا حتى عند علماء مسلمين أفاضل، فقد كان مراقبون حريصون يراقبون نمو المعارف والعلوم والأسلحة في أوروبا، وينبهون الدولة العثمانية ولكن بعض العلماء كان يقول إن الله لا يخذل دينه، ولا أمته، وأن النصارى مهما كانوا لن يغلبوا المسلمين عسكرياً. لقد كان يفكر في داخل ثمرة جهد المجاهدين الأتراك، ولم يكن يرى العالم بحق ولا يستوعب السنن، ولهذا فإن سقوط الغرب أو الشرق أو سياق تفسير



Twitter: @ketab_n

مريح لحوادث التاريخ لا يلغي دور العمل الكبير، وهو أمر صعب جداً على أمة تعودت الاسترخاء منذ عقود، بل قرون، وكان الهدوء والركود والتخلي والسلبية شعاراً لمرحلة طويلة من تاريخها. وقد يضر التفسير الصحيح أو الوصف الصادق من لا يحسن التعامل معه، ونحن بحاجة للفهم دائماً وإعادة تفسير ما يحدث، كما أننا بحاجة أكبر إلى تجنب مخاطر الثقة العمياء في الصداقة والعداء.

وبعض المسلمين يهتم بتحديد فترة زمنية سابقة لتتفق مع مرحلته التاريخية الحاضرة، وهذه الطريقة في البحث طريقة غير ذات جدوى، فالزمن لا يعود، ولا تتكرر أحداثه، والإصرار على الأنموذج التاريخي كفيل بأن يغيب الحاضر في ماض ليس له. ومن يحلو له التحقيب لزمانه أو وضع نفسه في فترة تاريخية، ليريح ذهنه من متاعب الفهم، فلن يصل لشيء، فليس زماننا بالعهد المكي ولا المدني، ولا عهد صلاح الدين، ولا غيره من تفاصيل تاريخ بعيد أو قريب، إننا نحتاج أن نبحث عن فقه المرحلة، والعمل والاجتهاد لها، والتفكير فيها، وليس فقط البحث في تاريخها، ولنجعل النصوص هادية، ولنتطور داخل ومع التجربة التي نحياها ويحياها العالم المحيط بنا.

فمن يمعن بالإمساك بتفاصيل تاريخ بعيد، ويرى إعادة الصورة ـ وليس المقصد ـ فإنه يغيب عن عصره. ومن فهم عصره كان أجدر بالتأثير فيه، والتأثر به، ومن اجتاحته أهواء زمانه وأحداثه من دون نص ثابت هاد ضل ولم يبق بيده شيء. إن كثيرين كتبوا وتحدثوا عن عوامل سلبية في واقع حياة المسلمين، كمستويات التعليم، وأوضاعهم السياسية والاقتصادية، أعرضت عنها قصداً، لكثرة مادتها، والرؤية من خلال السلبيات فقط تضر وتصنع اليأس والقنوط، وذو النزعة الإيمانية الصالحة يكثر الشكوى ويألم، بسبب طبيعة تفكيره المثالي الطموح في ارتقاء الناس لما يؤمن به أو يسلكه أو يقرأه، ويرى ما هو أقل من ذلك انحداراً وشراً، وله الحق في اللوم والمطالبة، ولكن ليس له الحق في إشاعة اليأس، وإنكار انبلاج الفجر عندما يلوح، فمن الأمور ما هو خبر يلزم وصوله كما هو، ومنها ما هو تفسير يبقى محل الفحص، والعمل للخير يلزم على كل الأحوال، ولكن المنسجم عمله مع الفهم الأقرب للحقيقة يكون أبلغ في التأثير.

إن صياغة مستقبلنا يحتاج لمزيد من الدعوة والاجتهاد، أو الجمع



Twitter: @ketab_n

للموجود، والإقناع للأمم والأفراد، وبذل الجهد في الترقي بهم، إننا نملك ونحمل الخير للبشرية في كل مكان، من أسلم منها ومن يبحث عن الحق ـ وهذا شأن الأمم اليوم وكل يوم ـ من ذوي الهمم الحية، من كل مذهب ودين، وهو هم شاغل لذوي الطموح والإصلاح، أما تضاؤل فهم الدعوة والاجتهاد إلى حيز صغير، وممارسات جزئية، وفهم ضعيف، فإن هذا لا يلغي جلال الفكرة ودورها في تغيير وجه العالم، إنها تعني عمق الإدراك السياسي، وبعد الهمة العملي، وحسن إدراك مسيرة الأمم، والبحث عن أسباب القوة، بكل أنواعها الروحية والجسدية والتعليمية والإعلامية والاقتصادية والمالية، وصناعة العلاقات الجيدة عبر العالم، والتحالفات على الحق ونصرة المضطهدين، حتى مع المخالفين، والقدوة البراقة الخاطفة لقلوب وعقول الحائرين.

**﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾** [سبأ: ٤٨ ـ ٤٩].



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# المراجـــع

لمزيد من القراءة:


- **الإمبراطورية**، مايكل هاردت، وأنطوني نجري. معرب.
- **ما بعد الإمبراطورية**، دراسة في تفكك النظام الأمريكي. ترجمة محمد زكريا إسماعيل. الساقي. ـ ترجمة ميشال كرم، الفارابي.
- **خيبات العولمة**، جوزيف ستيغلتز.
- «الإمبراطورية، بعد احتلال العراق،» مقالة، ترجمة تركي الزميلي، القارئ ـ الإسلام اليوم.
- **رجال بيض أغبياء**، مايكل مور، مترجم.
- «الإعلام ضد الدولة،» أرمان ماتيلار، **لوموند ديبلوماتك**، آذار/ مارس ٢٠٠١م.


وعن الفساد والتحكم في الدول، وفي الديمقراطية والسياسة المحلية والعالمية:


- Palast, Greg. *The Best Democracy Money Can Buy*, Robinson, London, 2003.


وعن المقاطعة وأثرها:


- Will Hutton, «Goodbye, Coke. Hello, Mecca Cola, This Boycott of U.S. Products Could Really Do Some Damage,» *Washington Post*, 20/4/2003.




Twitter: @ketab_n

وعن التحولات المهمة في مصير الفكر الغربي:

- Barzun, Jackques. *From Dawn to Decadence, 1500 to the Present, 500 Years of Western Cultural Life*. Harper Collins, New York, 2000.

- **من الفجر إلى الانهيار** (من عام ١٥٠٠ ميلادي إلى الآن خمسمئة سنة من الحياة الثقافية الغربية) تأليف جاك بارزوني. يستعرض التاريخ الثقافي، ويهتم بسنوات التمزق الغربي وآثارها، ويرى عصرنا هذا فترة انهيار طبيعية لنهاية حقبة، قد يعقبها تجديد.

- لمزيد من المقارنات السكانية يمكن الرجوع لكتاب مجلة **الإيكونومست** السنوي **العالم في أرقام** «*World in Figures*» والسكانية والاقتصادية، وبشأن التحولات الطويلة يمكن الاطلاع على المقارنات المهمة التي جمعها صامويل هانتنغتون في كتابه **صراع الحضارات**.

وعن العلاقات الإسلامية الغربية بعد أحداث أيلول/ سبتمبر هناك عدد كبير من الكتب والأبحاث منها:

- Akbar M. J. *The Shade of Swords, Jihad and the Conflict Between Islam and Christianity*. Routledge, London, 2003. 338 p.

- **في ظلال السيوف**. وهو من الكتب المهمة التي ناقشت الجانب الديني في الصراع النصراني الإسلامي في ميادين عديدة منها الهند، وآخرها حرب العراق، وختم بمقارنة لطيفة بين العباسيين والبعثيين من جهة، وبين الأمريكان والمغول من جهة أخرى، وتناول خيانة ابن العلقمي.

- ولميريل ديفيز وضياء الدين سردار كتاب: **لماذا يكره الناس أمريكا**.

وعن دور أمريكا في استثارة المسلمين، ودفعهم للجهاد والدفاع عن أنفسهم انظر:

- Pintak, Lawrence, *Seeds of Hate, How America's Flowed Middle East Policy Ignited the Jihad*, Pluto Press, London, 2003.

ولمزيد من القراءة في موضوع العلاقات الأوروبية الأمريكية يحسن قراءة كتاب جوزيف ناي **مفارقة القوة الأمريكية** (مطبوعات العبيكان)، ومقالات وكتب شارك في تحريرها وأشار لها المؤلف في الكتاب المذكور، وأيضاً



Twitter: @ketab_n

المقالات التالية حول الموضوعات السابقة وبعض ماله علاقة بها:


- Charles Kupchan, «The End of the West: The Next Clash of Civilizations will not be between the West and the Rest but between the United States and Europe-and Americans Remain Largely Oblivious,» *Atlantic Monthly* (November 2002).
- Anatol Lieven, «The End of the West?,» *Prospect Magazine* (September 2002), pp. 20-23.
- آيفو هـ. دالر، «هل تتجه الولايات المتحدة وأوربا إلى الطلاق،» ترجمة محمد توفيق البجيرمي، مجلة **الثقافة العالمية**، العدد ١١٤ (٢٠٠١)، ص ٧٠ ـ ٩١. وهو منشور في العدد ٧٧ (آذار/ مارس ٢٠٠١)، في مجلة **إنترناشيونال أفيرز** *(International Affairs)* بعنوان:

«Are the United States and Europe Heading for Divorce?».

- Robert Kagan, «Power and Weakness,» *Policy Review* (June-July 2003).
- Robert Kagan, *Paradise & Power, America and Europe in the New World Order*, Atlantic Books, London, 2003.
- James Rubin, «Muslim Resentment of the West will Evaporate when they are Free and Fed,» *Independent*, 14/10/2001.
- Stanley Kurtz, «Democratic Imperialism: A Blueprint,» *Policy Review* (April-May 2003).
- Tariq Ali, *Bush in Babylon: The Recolonisation of Iraq*, Verso, London, 2003.
- Tariq Ali, *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity*, 2002.
- R. Benjamin, *Barber, Fear's Empire, War, Terrorism, and Democracy*, Norton Company, New York, 2003.
- Robert Cooper, *The Breaking of Nations, Order and Chaos in the Twenty - First - Century*, Atlantic Books, London, 2003.
- Saul Landau, *The Pre- Emptive Empire, Guide to Bush's Kingdom*, Pluto Press, London, 2003.
- John Pilger, *The New Rulers of the World*; Verso, London, 2003.




Twitter: @ketab_n

- Roger Scruton, *The West and The Rest*, 2003.
- David Frum, *The Right Man*, 2003.
- Niall Ferguson, *Colossus, The Rise and Fall of The American Empire. The Price of America's Empire*. Penguin Books, London, 2004.
- William Blum, *Killing Hope*. Zed Books, London, 2003.


ولبلوم كتاب آخر معرب بعنوان **الدولة المارقة** يستحق الاطلاع.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## هذا الكتاب

«مفهوم المستقبل مرتبط بالتخطيط والبناء والنهضة والإصلاح والتجديد والتحرر والأمل؛ المستقبل يوسع فسحة الأمل، ويحرّض على العمل،... هو الانعتاق من ضيق اللحظة،... وهو الخلاص والتمرد على القيود الزمانية والمكانية وعدم الإذعان للواقع المر...».

هكذا بدأ محمد بن حامد الأحمري كتابه **ملامح المستقبل** الذي يُعتبر رحلة تغوص في المستقبل، وترصد المؤشرات والإنجازات التي تحققت لاستشراف المستقبل، مشيراً إلى أن مسافات الاستشراف تختلف بين الناس، لأن من يخطط لخمسة قرون قادمة يختلف عن الذي يخطط لقرن آتٍ.

إن الكتاب عرض لقضايا وأفكار متفرقة، جاءت أشبه بالمقالات، وكل مقالة تدور حول محور معين مثل: الإعلام، وانتشار الوعي العام، واللغة، والانفتاح على الغرب، والعولمة والحركة القوميّة، والثقافة المقاومة... وغيرها من المحاور.

ويختتم المؤلف باعتباره أن الزمن لا يعود، وأن صياغة المستقبل تحتاج إلى مزيد من الدعوة والاجتهاد، فعلى المرء بذل جهد أكبر للإمساك بتفاصيل عصره وفهمه، وأن يتطور ويحيا داخل تجاربه ليكون أجدر بالتأثير فيه والتأثّر به.

**الشبكة العربية للأبحاث والنشر**
بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

ISBN 978-9953-533-39-1
9 789953 533391